آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة الثامنة : العددان التاسع والعشرون والثلاثون - ربيع الأول ١٤٢١ هـ - تموز (يوليو) ٢٠٠٠ م

■ مصحف شريف كُتِب في منتصف القرن الثالث عشر الهجري



A copy of the Holy Quran written in the middle of the 13th century A.H.



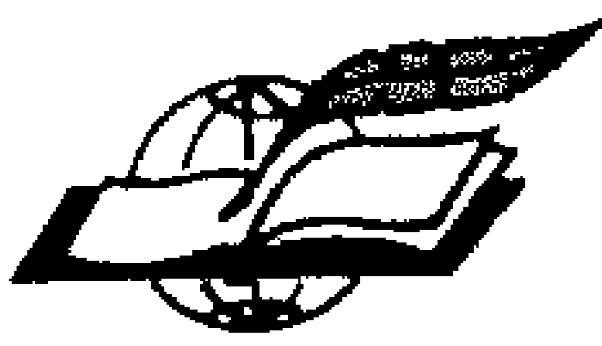
نموذج لغلاف مملوكي من القرن الثامن الهجري

Sample of the Mamluki Manuscript Cover used to be made in Damascus in the 8th century A. H.

مطبعة دبي

آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية



تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات

بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

دبي - ص.ب. ٥٥١٥٦

هاتف ٢٦٢٤٩٩٩ ٤ ٩٧١+

فاكس ٢٦٩٦٩٥٠ ٤ ٩٧١+

دولة الإمارات العربية المتحدة

السنة الثامنة: العددان: التاسع والعشرون والثلاثون - ربيع الأول ١٤٢١ هـ - تموز (يوليو) ٢٠٠٠م

الغلاف



■ مصحف شريف كُتِب في منتصف القرن الثالث عشر الهجري

هيئة التحرير

رئيس التحرير

د. نجيب عبد الوهاب

مدير التحرير

د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء

سكرتير التحرير

د. عز الدين بن زغيبة

هيئة التحرير

د. طه ياسين الخطيب

د. محمد أحمد القرشي

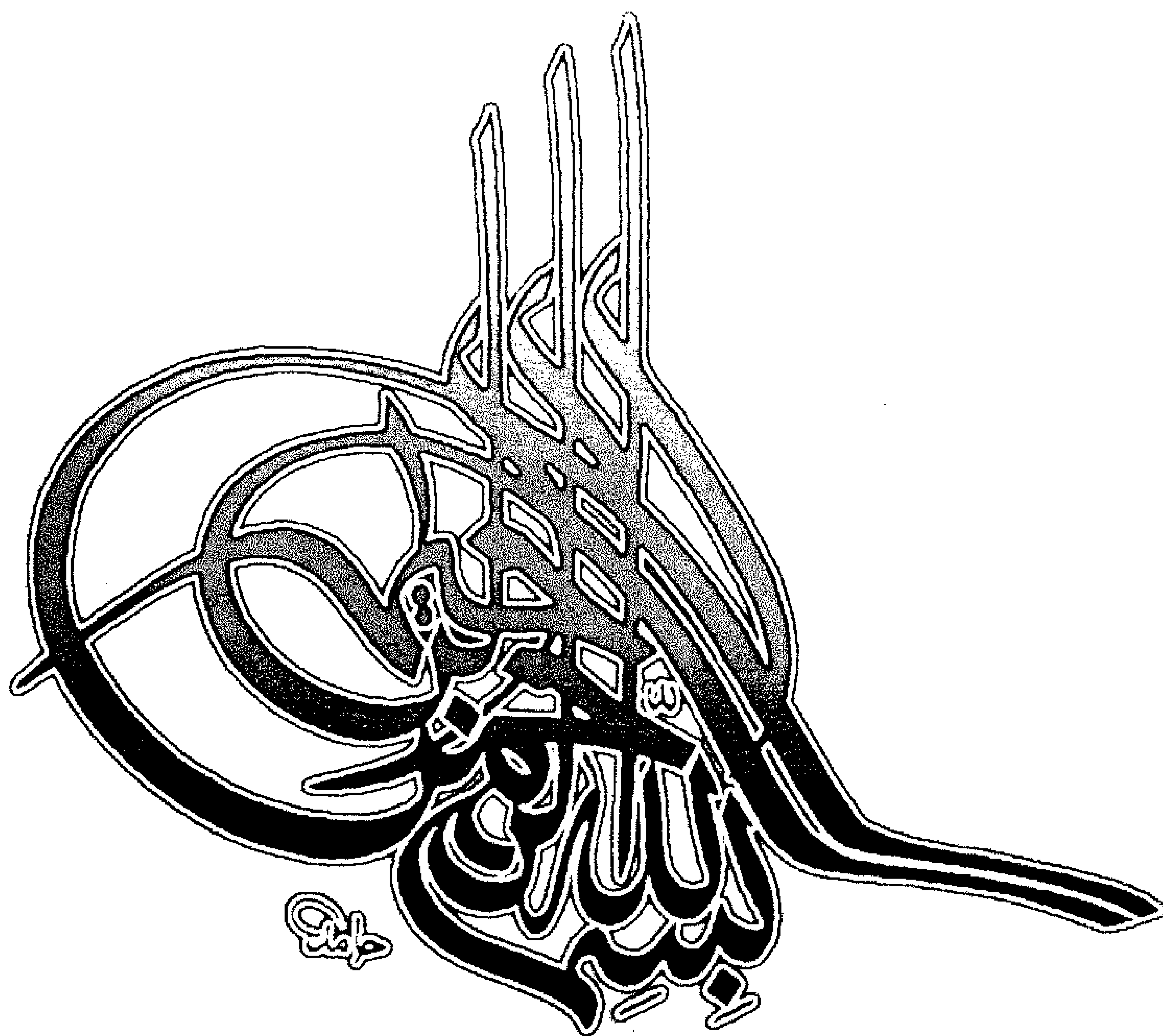
أ. عبد القادر أحمد عبد القادر

الاشتراك السنوي	داخل الإمارات	خارج الإمارات
المؤسسات	١٠٠ درهم	١٣٠ درهماً
الأفراد	٦٠ درهماً	٧٥ درهماً
الطلاب	٤٠ درهماً	٧٥ درهماً

المقالات المنشورة على صفحات المجلة تعبر عن آراء كاتبيها ولاتمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو المركز الذي تصدر عنه

يخضع ترتيب المقالات لأمور فنية

الفهـــرس



الإعراب سرُّ جمالِ العربيةِ

الإعراب في اللغة : هو الإبانةُ والإفصاح، وهو مأخوذٌ من : أَعْرَبَ عن الشَّيء إذا أَوْضَحَهُ وأبانَ عَنْهُ، وفُلانٌ مُعْرِبٌ عمّا في نفسِهِ؛ أيْ : مُبينٌ له، موضّحٌ عنه.

وذهب ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) إلى أنّ أصل هذه الكلمة قولُهم : العَرَب، وذلك لما يُعزى إليهم من الإعراب والبيان والفصاحة.

ولمّا كانتِ العربيةُ لغةً تتوخّى الإيضاحَ والإبانةَ ، كان الإعراب إحدى وسائلها لتحقيق هذه الغاية، فلا يُستطاعُ التمييز بين النفي والتعجّب والاستفهام إلاّ بالإعرابِ ، لأنّ الصيغةَ فيها جميعًا واحدة.

ولعلّ فيما رواه القفطي في كتابه إنباه الرواة، في ترجمة أبي الأسود الدُّؤلي، من أنّ : «ابنة لأبي الأسود قالت له: يا أبتِ ما أشدُّ الحرا في يومٍ شديد الحرّ - فقال لها: إذا كانت الصَّقْعاء من فوقك، والرمْضاء من تحتِك. فقالت: إنما أردت أن الحرَّ شديد. فقال لها: فقولي إذًا ما أشدّ الحرَّا (والصقعاء: الشمس).

وقيل : إنه دخل إلى منزله، فقالت له بعض بناته: ما أحسنُ السماءا قال: أيْ بنية، نُجومها، فقالت: إني لم أرد أيّ شيء منها أحسن؟ وإنما تعجبت من حسنها؛ فقال: إذًا فقولي: ما أحسنَ السماءَا»، أفضل دليلٍ على أهمية الإعراب، وسرّ جماله.

أمّا في الاصطلاح فهو عند سيبويه (ت ١٨٠ هـ) : الرَّفعُ، والجَرُّ، والنَّصبُ، والجَزْمُ. وذهب أبو عليّ الفارسيّ (ت ٣٧٧ هـ) إلى أنّ الإعراب: أنْ يختلفَ أواخر الكَلِم لاختلاف العامل.

ومِن النحاةِ مَنْ حَدَّ الإعرابَ بالأثرِ الظاهرِ أو المُقدَّرِ الذي يجلبُهُ العاملُ في آخر الكلمةِ المفردةِ، قال ابنُ هشام النحوي (ت ٧٦١ هـ): الإعرابُ : أثرٌ ظاهرٌ أو مُقَدَّرٌ يجلبُهُ العاملُ في آخرِ الكلمة.

ونخلص من هذه الأقوال إلى أنّ الإعراب:

١ - هو الرفعُ، والنصبُ، والجرُّ، والجَزْمُ.

٢ - هو تغيّرُ حركات أواخر الكلمة المعربة أو اختلافها.

٣ - هو الأثرُ الظاهرُ أو المُقَدَّرُ في آخرِ الكلمةِ المعربة.

ولمّا أصابتِ العربيةُ حظًّا من التطوّر أضحى الإعرابُ أقوى عناصرها وأبرز خصائصها، بل سِرُّ جمالها، وأمست قوانينُهُ وضوابِطُهُ هي العاصمة من الخطأ.

وما أحسن ما قال ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في العربية:

«ولها الإعراب الذي جعلَهُ اللّهُ وَشْيًا لكلامِها، وحِليةً لنظامِها، وفارِقًا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين، والمعنيين المختلفين، كالفاعل والمفعول، لا يفرّق بينهما، إذا تساوت حالاهما في أماكن الفعل أنْ يكون لكلّ واحدٍ منهما إلاّ الإعراب. ولو أنّ قائلاً قالَ: هذا قاتلٌ أخي، بالتنوين، وقال آخر: هذا قاتلُ أخي، بالإضافةِ، لدلَّ التنوينُ على أنّه لم يقتله، ودلَّ حذفُ التنوينِ على أنّه قد قتله».

فالإعرابُ إذاً مطلبُ العقلِ في اللغةِ، وهو أرقى ما وصلتْ إليه اللغاتُ في الإبانةِ والوضوح.

وهو قديمٌ في لغةِ العربِ، وكان عملُ العلماءِ يتلخّصُ في أنّهم استنبطوا قواعدَهُ من القرآنِ الكريمِ والحديثِ الشريفِ والشعرِ.

وتواترُ رواياتِ ظهورِ اللّحنِ في الإعرابِ في عهدِ النبيّ ، صلى الله عليه وسلّم، وعهدِ الخلافةِ الإسلاميةِ، دليلٌ على أنّ العربية الفصيحة التي نزلَ بها القرآنُ الكريمُ كانتْ مُعْرَبةً.

هيئة التحرير

تقييد على سورة الفاتحة

لابن زكري : محمد بن عبد الرحمن المغربي الفاسي المتوفى عام ١١٤٤ هـ

تقديم وتحقيق
الدكتور/ عبد الله محمد النقراط
جامعة الفاتح
طرابلس - ليبيا

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد، فمن خلال اطّلاعي على مخطوطات مؤسسة علال الفاسي بالرباط وجدت ضمن مخطوطاتها تقييداتٍ مهمّة للعلاّمة محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي، ومن بينها هذا التقييد الذي بين أيدينا، وهو تقييدٌ على سورة الفاتحة، يجمع بين التفسير واللغة وعلم الكلام والتصوّف على عادة مؤلفه في تقييداته الأخرى التي اطلعت عليها وحقّقت بعضها(١). ويعتمد في دراسته على الاستقصاء والتحليل، متوسعًا فيما يعرضه من قضايا، مستدلاً بالآيات القرآنية واللغة والأحاديث النبويّة على صحة ما يسوقه من قضايا في تفسير هذه السورة الكريمة.

غير أنّه، كغيره من المفسّرين، ينقل الأحاديث دون بيان درجتها من حيث الصحة والضعف، فيستشهد بالصحيح وغيره.

وقد ضمن هذا التقييد القيّم تفسيرًا لسورة الفاتحة، قلّما تجده مجتمعًا في كتب التفسير الأخرى.

وقد توسّع في تفسيرها توسعًا كبيرًا، مبيّنًا معانيها وآراء بعض العلماء في تفسيرها، معتمدًا على اللغويين والصوفيين كثيرًا، ذلك أنّ تعمّقه في اللغة جعله كثير الرجوع إليها، والإفادة منها، كما أنّ مذهبه الصوفيّ جعله أيضًا متأثّرًا بالسادة الصوفية في تفسير هذه السورة وغيرها.

وقد تعرّض من خلال تفسيره لهذه السورة لمسائل نحويّة وبلاغيّة وكلاميّة مهمّة يحتاج إليها المتخصّصون وغيرهم، مشيرًا إلى ما فيها من دقائق تتعلّق بمفرداتها ومعانيها. والجدير بالذكر في هذا المقام أنّ ابن زكري لا يسلّم بآراء من ينقل عنهم، بل يتدخّل أحيانًا بردّها ومناقشتها، وبيان وجهة نظره فيها، كما في قوله: «قلت وفيه عندي نظر، أما أولاً فلأنه لا بدّ للظرف من كون عام يتعلّق به...»(٢).

«وأما جعل الذات العليّة نفس المعنى ففي غاية البعد...»(٣).

«وأما قول الكشاف: فإنه ساغ جمعه لمعنى الوصفيّة، وهي الدلالة على معنى العلم، فمنقوضٌ في جلّ أنواعه...»(٤).

«وأنّا لا نسلّم دلالة لفظ عالمٍ بالفتح على معنى العلم...»(٥).

«مبني على ضعيف، وقد تكلّم الناس فيها بكلامٍ ظهر لي الآن أنه غير محرّر، وخفت تفلت تحرير القول فيها فأردت إيداعه هنا»(٦).

ذلك مما يدل على كثرة اطّلاعه وفهمه العميق لمسائل التفسير، واللغة، وغيرهما.

لهذه الأسباب وغيرها، أدركت أهمية هذا التقييد، فعزمت على تحقيقه وإظهاره لعالم النور، حتى تتمّ الإفادة منه؛ لاشتماله على تخريجاتٍ دقيقة، وفوائدَ عظيمة، قلّما تجدها مجتمعة عند المفسرين واللغويين، وبخاصّة أنّ هذا التقييد، فيما وصل إليه علمي، لم يسبق لأحدٍ تحقيقه ونشره.

وقد قصدت من ذلك أيضًا إدخاله للمكتبة العربية التي هي في حاجةٍ إلى مثل هذا التقييد وغيره من كتب التراث الإسلامي الجامعة لكثيرٍ من العلوم.

ومن ثمّ نستطيع القول: إنّ هذا التقييد وغيره مما اطّلعت عليه من مؤلفات هذا العالم المتضلّع في كثيرٍ من العلوم تحتاج إلى التحقيق والنشر للإفادة منها.

لذا رأيتُ أن أحقّقَ هذا التقييد القيّم دون الترجمة لصاحبه، مكتفيًا في ذلك بترجمتي له، عند تحقيقي لسورة الإخلاص، التي نشرت بمجلة كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، وآياتٍ من سورة الكهف، التي نشرت بمجلة المناهل، بالمغرب. بيدَ أنّني أذكر اسمه بإيجاز، وبعض المخطوطات التي عثرت عليها بعد نشري للتقييدين السابقين.

المؤلف

هو الإمام العالم العلاّمة الهمام، المشارك المحقّق، الصوفي، الحجّة الضابط، الولي الصالح، محمد بن عبد الرحمن بن زكري، أبو عبدالله، المغربي، الفاسي المولد والنشأة والوفاة، محدّث مسند، فقيه مالكي، من علماء القرن الثاني عشر(٧)، لم تذكر المصادر التي بين أيدينا تاريخ ميلاده.

وأمّا وفاته، فقد أجمعت المصادر التي ترجمت له على أنه توفي عام ١١٤٤هـ، وذكر الكتّاني أنه توفي – رحمه الله – ليلة الأربعاء... ثامن عشر من شهر صفر الخير سنة أربع وأربعين ومائة وألف.

ونقل عن النشر أنه دفن في دار برحا بأقصى درب الطويل تجاور روضة سيدي عزيز، بينه وبين سيدي محمد ميّارة، واتخذها الناس مقبرةً لدفن الأموات(٨).

آثاره العلمية التي لم تتمّ الإشارة إليها في السابق

بيّنت آثاره العلمية فيما سبق لي من دراسة عن ابن زكري وتقييديه اللذين حققتهما، غير أنه فاتتني الإشارة إلى بعض المخطوطات المحفوظة بالخزانة الحسنية، التي رتبت في فهرس بطاقات هذه الخزانة قسم (التصوّف)، وهذا الفهرس لم يطبع بعد.

وإن كنت قد أشرت إلى هذه الآثار ومكان وجودها في الخزائن الأخرى في دراستي السابقة، وفيما يلي بعض هذه الآثار التي لم نشر إليها:

١ – استشكالات على سورة الفاتحة لعمر بن عبد السلام لوكس، والإجابة لابن زكري، مخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم ٨٥٨ ضمن مجموع، ص ١١١ وما بعدها(٩).

٢ – تقييد على حكم ابن عطاء الله، محفوظ بالخزانة الحسنية تحت رقم ٢١٨٧.

٣ - شرح الحكم العطائية، محفوظ بالخزانة الحسنية تحت رقم ١١٩٧٥، ونسخة ثانية تحت رقم ١١٠٢، ونسخة ثالثة تحت رقم ١٩٣٩.

٤ - شرح النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية لزروق، محفوظ بالخزانة الحسنية تحت الأرقام الآتية: ١١٥٥٥، ٦٣٥٧، ٦٧٧١، ٧٣٣٥، ٧٣٤٤، ٢٢٠٠، ٢٦٠٩، ١/٥٠٤١، ١١/٥٠٤٢، ٥٠٤٤.

٥ - له تفسير على قوله تعالى: ﴿**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب**﴾ لم نهتد إليه، وهو ما أشار إليه في هذا التقييد بقوله: «وأشرنا فيما لنا من التفسير عند قوله تعالى: ﴿**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب**﴾ إنها خبرية إنشائية دفعة واحدة»(١٠).

وصف النسخ المعتمدة في التحقيق

اعتمدت في تحقيق هذا التقييد على أربع نسخٍ مخطوطة، الأولى محفوظة بمؤسسة علال الفاسي بالرباط، تحت رقم ع ١٩٤ ضمن مجموع من ص ٥٩ - ١٠١ عدد صفحاتها ٤٢، مقياسها ١٧×٢٢سم مسطرتها ١٧ سطرًا، ومتوسط عدد الكلمات في السطر الواحد ١٧ كلمة، خطها مغربي جميل(١١) وقد جعلتها أصلاً.

وأمّا النسخة الثانية فهي محفوظة بالخزانة نفسها تحت رقم ١٩٠، ضمن مجموع من ص ٣٤٠ إلى ص ٣٥٨ عدد صفحاتها ١٨ مقياسها ٢٢×١٢،٥سم، مسطرتها ٢٤ سطرًا، عدد الكلمات في السطر الواحد من ١٢ - ١٤ كلمة، خطها مغربي لا بأس به(١٢) وقد قابلتها مع الأصل، ورمزت لها بالحرف (ب).

وأما النسخة الثالثة فهي محفوظة في الخزانة الحسنية تحت رقم ٨٥٨ ضمن مجموع، من ورقة ١٠٢ ب إلى ١١١ بخطّ مغربيّ دقيق مليح، بمدادٍ أسود وأحمر وأخضر، تسفير مغربي بالجلد، وقع الفراغ من كتابتها في ١٢ جمادى الأولى عام ١٢٦٠هـ، مقياسها ٢٢×١٧سم مسطرتها ١٧ سطرًا، عدد الكلمات في كلّ سطر تتراوح ما بين ٩ - ١٢ كلمة(١٣) وقابلتها مع الأصل ورمزت لها بالحرف (ح١).

وأما النسخة الرابعة فهي محفوظة أيضًا في الخزانة الحسنية تحت رقم ١٣٢٥ ١/ز. تتضمن هذه النسخة تفسير الفاتحة وسورة الإخلاص، وتفسير آيات من سورة الكهف، وهي بخطٍّ مغربيّ وسط، بمدادٍ أسود وأحمر وأزرق، ضمن مجموع، من الورقة ١ ب إلى ٢٩أ، ٢٩ق، مقياسها ٢٢،٦ × ١٨ سم، مسطرتها ٢١ سطرًا(١٤) وقابلتها مع الأصل ورمزت لها بالحرف (ح٢).

والجدير بالإشارة إليه في هذا المقام أنني أحيانًا أصحّح المتن من النسخ الأخرى المعتمدة في التحقيق، وأكمل في المتن أيضًا ما انفردت به بعض النسخ، ولم يرد في النسخة الأم.

وقد حاولت قدر المستطاع إخراج النص سليمًا صحيحًا كما أراده مؤلفه، فلم أبخل بجهدٍ في هذا السبيل، واضعًا نصب عيني ما تطلبه إعادة النص إلى وضعه الأول من دقّةٍ وأمانة وحيطة وحذر. وفيما يأتي النصّ المحقّق:

تقييد على سورة الفاتحة لسيدي محمد بن عبد الرحمن بن زكري المتوفى عام ١١٤٤هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم و(١٥) صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، هذا تقييدٌ على سورة الفاتحة - جعله الله بمنّه للتعلّق(١٦) بكتابه فاتحة - قوله تعالى: **بسم الله الرحمن الرحيم**:

أكثر الناس الكلام فيها وأفردوها بالتأليف، غير أنّ في تحقيق إنشائيتها وخبريتها(١٧) خفاءً ولبسًا وإشكالا(١٨)، أودعناه شرح النصيحة(١٩)، فانظره إن شئت.

﴿الحمد لله﴾[٢٠]: يقول أرباب الشروح[٢١]: ابتدأ المشروح بها، اقتداءً بكتاب الله، ولم يبيّنوا لماذا[٢٢] ابتدأ[٢٣] بها كتاب الله - تعالى - ويظهر في توجيه ذلك أن الحامد بها مصرّح بأنّ الله - تعالى - هو المحمود بكل حمد، وفي ضمن ذلك الاعتراف بأنّ كلّ إحسانٍ وكمالٍ له، ولا نهاية لإحسانه ولا لكماله[٢٤]، فكأنّه قد وصفه بكلّ صفةٍ يعلمها، وبكل ما يليق به مما لا يعلمه، ولا تساويها في هذا جملة أخرى، ومن هنا - والله أعلم - يظهر قول[٢٥] سيدنا علي كرّم الله وجهه: «لو شئت أن أضع على الفاتحة وقر سبعين بعيرًا لفعلت».

ووجهٌ آخر[٢٦] يأتي بيانه، وبهذا يظهر ما بين هذه الجملة وغيرها من صيغ الحمد من التفاوت، ومنها نحمدك اللهمّ؛ أي نصفك بجميل صفاتك، وكلّ منها جميل، فإنّ المتكلم بها حمد الله بجميع صفاته ونسب له هذا الحمد فقط، والمتكلم بهذه الجملة حمد الله بأنّ كلّ حمدٍ له، ونسب له هذا الحمد بطريق القصر، ونسب له كلّ حمدٍ حيث حمده بأنّ كلّ حمد له، وبه يعلم ما في قول المحلي[٢٧]: عدل السبكي[٢٨] عن الحمد لله إلى نحمدك اللهم؛ لأنه ثناءٌ بجميع الصفات برعاية الأبلغية، وقد أجاد الكمال بن أبي الشريف[٢٩] في اعتراضه عليه، فإن معنى الجملة الإسمية كل حمد؛ أي كل ثناء بجمالٍ مستحقّ لله أو مختصّ به. أما إنْ جُعلت اللام للاستغراق فواضح، وأما إن جُعلت للجنس فلثبوته في ضمن كلّ فرد، فلو ثبت فرد لغيره لثبت له الجنس، وثبوت كل ثناء بجميلٍ له يستلزم ثبوت الجميل؛ إذ الثناء بثبوته حقيقة فرع ثبوته كذلك، وثبوته تخييلاً فرع ثبوته كذلك، على أن توجيهه يقتضي أنّ الافتتاح بغير ما افتتح به كتاب الله أبلغ، وهو منافٍ للأدب مع الكتاب العزيز أ هـ.

وانتصر العبادي[٣٠] للمحلي بأنّ المراد بالجميل ما يستحسن، ولو في زعم الحامد أو المحمود[٣١]؛ فيندرج فيه كونه مستحقًّا للحمد، وكونه موصوفًا بالجميل ونفس الصفة الحقيقية، كالعلم والمجموع المركب من الثلاثة، أو اثنين منها، فهذه سبعة أقسام. ونحمدك؛ أي نصفُك بالجميل شامل لها برعاية الأبلغية، بخلاف الحمد لله، فإنّ منطوقه ليس إلاّ الوصف بكونه مستحقًّا للحمد، ويدل بالالتزام على الاتصاف [بالجميل][٣٢]. وأما بقية الأقسام فلا يدلّ عليها ولو التزامًا؛ لإمكان تحقّق وصفه بكونه مستحقًّا للجميل مع انتفاء نفس وصفه؛ إذ لا يلزم عن استحقاق الشيء حصولُه، وإذا انتفت استفادة نفس الوصف به لم تستفد[٣٣] المجموع المركب منه ومن غيره، فتفوت أربعة أقسام.

وأجاب عمّا بحث[٣٤] به في مقتضى التوجيه: بأنه أتى[٣٥] محذور[٣٦] في الحكم، بأبلغيّة غير ما افتتح به الكتاب العزيز، بمعنى أنه أزيد معنى مما ابتدىء به[٣٧]؛ إذ كان مقام افتتاحه لا يقتضي ذلك الأزيد[٣٨]، أو في الحكم بكون غير ما افتتح به أتم بلاغة في مقامه مما افتتح به بالنسبة لذلك المقام. وكم في غير الكتاب من أشياء هي أزيد معنى في مقامها من نظيرها الواقع في الكتاب، وإن كان هو باعتبار مقامه أتمّ بلاغةً من غيره باعتبار مقامه، ألا ترى أنه قد يؤتى في الكتاب في مقام إنكارٍ يقتضي تأكيدين بجملةٍ مشتملة عليها مع أنّ ذاتٍ[٣٩] العشر أبلغ باعتبار مقامها، هذا خلاصة كلامه، وشنع على الكمال في بحثه السابق على عادته.

قُلتُ: وفيه عندي نظر، أما أولاً: فلأنه لا بدّ للظرف من كونٍ عام يتعلّق به، وهو مفيدٌ لحصول الحمد الذي هو نفس الوصف بالجميل، واللام دلّت على أنّ ذلك الحصول بالاستحقاق، ولو كان المتعلق يقدر من معنى الجار، كما توهّم، لَقُدِّر[٤٠] في: زيد في الدار مضروب، وفي بسم الله ابتداء؛ أي مصاحب أو مستعانٌ عليه، ومع كلّ حرفٍ باعتبار معناه، ولا يخفى بطلانه. وقول الكمال في معنى الحمد لله: الحمد مختصٌّ أو مستحقٌّ إنما هو بيانُ

تقييد على سورة الفاتحة

لمعنى الحرف وإيضاح له، ولو كان الحرف قرينة الخصوص لم يقع في كلامهم تعلّق بعامّ أصلاً للزوم القرينة، وإذا بطل تقدير المتعلق من خصوص مادة الاستحقاق فلا معنى لقوله: لا يلزم من استحقاق الشيء حصوله؛ إذ المتعلق مقدّر من مادة الحصول، والاستحقاقُ أمرٌ زائدٌ عليه مأخوذٌ من اللام(٤١). على أنّ ما قاله لا يأتي أصلاً عند جعل اللام للاختصاص.

وأما(٤٢) **ثانيًا**: فلأنّ منطوق الحمد لله، إذا كان هو الوصف باستحقاق الحمد؛ أي الوصف بالجميل، والجميل مرادٌ به(٤٣) ما ذكره، شمل الجميل الأقسام السبعة قطعًا.

والحامد هو، وإن لم يأتِ إلاّ بصفةٍ واحدة، وهي استحقاق تلك الأقسام، فقد علمت أن الثناء باستحقاقها فرع ثبوتها.

وقوله: لا يلزم من استحقاق الشيء حصوله ممنوعٌ في هذا المقام الذي نسب فيه استحقاق الثناء بالجميل لله – تعالى – فمن التعبير بالمكتوبة الدالّة على الذات(٤٤) الواجب الوجود، الخالق للعوالم، يفهم الحصول.

وأمّا **ثالثًا** : فلأنّ مقام الابتداء في الكتاب العزيز مقام تعظيم؛ إذ الحمد كما صرّح به غيرُ واحد(٤٥) وصف بالجميل على جهة التعظيم(٤٦) فيه أبلغ، فالمقام هُنا وفي ابتداء التأليف متّحد باعتبار هذا المقتضى، فجعلُ الجملة المبتدأ بها غير الكتاب العزيز من التأليف أبلغ منها في الكتاب باعتبار هذا المقتضى غفلة عما يلزم من سوء الأدب فتدبر.

فإن قلت: غاية ما يتحصّل(٤٧) من هذا أن الجملتين متساويتان، قلتُ: المتكلّم بـ نحمدك اللهم وصفه بجميع كمالاته، لا بأنّ كل كمالٍ في الحقيقة له، والمتكلّم بهذه وصفَه بأن كلّ حمدٍ له، وذلك متضمن أن كلّ كمالٍ له، فافترقا وظهر التفاوت.

فإن قلت ندّعي أنّ معنى نحمدك: [نصفك](٤٨) بكلِّ جميل، وعليها حامَ العبادي، فلا تفاوت. قلت: لا يتبادر إلى الذهن من(٤٩) نصفك بالجميل إلا إرادة الجميل المعروف المعين الذي(٥٠) نصبت عليه الأدلة، وقامت عليه البراهين، ولهذا أتى المحلي(٥١) بالإضافة التي للعهد.

فإن قلت لم قدّمت البسملة عليها، قلت: لما لم تكن بين الحادث والقديم مناسبةٌ أصلاً، وأريد تعليمه التعلق به يناسب(٥٢) أن يدل أولاً على التعلّق باسمه الدال عليه، ولهذا أقحم لفظ الاسم.

وأما قول اللقاني(٥٣) في توجيه الإقحام؛ لأن التعلّق إنما هو باسمه بطريق الحصر، فقد بيّنا ما عليه في شرح النصيحة(٥٤). ووجه ثان وهو الإشارة إلى أنّ التعلّق باسمه كافٍ في نيل المطالب وحصول المآرب، وإن ذلك لا يتوقف على ما فوقه. ولما كانت الجملة المذكورة متضمنةً لما ذكر كان معناها أوفر وأكثر من معنى كلمة التوحيد؛ فلهذا – والله أعلم – قال سيدنا رسول الله ﷺ فيما أخرجه النسائي(٥٥): (من قال: لا إله إلاّ الله كُتبت له عشرون حسنة). ومن هنا ذهب المحققون إلى أن (الحمد لله رب العالمين) أفضل من (لا إله إلاّ الله)، وها هنا سؤالان، **أحدهما**: أن مقتضى ما تقدّم أن يكون لمن قال: الحمد لله أضعاف ما لقائل لا إله إلاّ الله؛ لأنّ التوحيد بعض البعض من معنى الحمد لله، **وثانيهما**: أن مقتضى ما سبق ترتيب كثرة الثواب(٥٦) على مجرّد قول: الحمد لله لا عليه، بشرط زيادة ربّ العالمين، كما هو ظاهرُ الحديث.

والجواب: عن الأول أنّ الإجمال لا يقاوم التفصيل، وإنْ كان أشمل وأكثر، ولهذا قالوا فيمن قال اللهم – صلّ على سيّدنا محمد ألف مرة مثلا له ثواب أكثر ممن لم يأت بهذا العدد، ولا يكون له ثواب من أتى بجميع ذلك العدد تفصيلا.

ووجهٌ آخر وهو أن كلمة التوحيد تتضمن بوجهٍ ما جميع العقائد، كما بيّنه الشيخ(٥٧) السنوسي(٥٨)

- رحمه الله - لكن[٥٩] جملة الحمد أصرح في الشمول، فكان لها ذلك لذلك. وعن الثاني أنه لما فاتت جملة التوحيد جملة الحمد بالتصريح بصفة الوحدانيّة، وفاتت الثانية الأولى بالشمول، اعتبر في انفرادها عنها بزيادة الثواب مساواتها لها فيما صرحت به وانفرادها بشيءٍ آخر. وقد علمت مما مرَّ أن الاستغراق لأفراد الحمد في الجملة المذكورة حاصل مطابقة أو لزومًا، ومعنى ذلك أنّ كلّ حمدٍ سواء كان قديمًا أو حادثًا لله؛ أي هو المحمود به، ووجهه أن الحمد إمّا أن يكون في مقابلة نعمة، أو في مقابلة كمال غيرها. فالأول راجعٌ إليه؛ لأنّ النعمة إمّا منه بلا واسطة أو منه بها؛ إذ لا منعم على الحقيقة سواه، والعبد المحمود على جلب أو دفع ملجأ لذلك ومستعمل فيه أحبّ أم كره، ولو كشف عن حقيقة الحال لاستبان عجزه، وظهر ضعفه وفقره، وأنه ليس هو الجالب ولا الدافع، فتعلّق الحمد به[٦٠] باعتبار الصورة والمباشرة فقط. قال في الحِكَم[٦١]: «من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره **﴿قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله﴾**»[٦٢].

والثاني راجعٌ إليه أيضًا؛ لأنّ الكمال الباعث عليه، إن كان للحادث، فهو عارية عنده، ومسريه وواهبه هو الله - تعالى - فهو المحمود بكل حمد على الحقيقة؛ أي من المحامد المعتبرة[٦٣] شرعًا، ولا عبرة بحمد بعض الجهلة بعضًا بالمحرّمات.

ومن حقّق مبحث وحدانية الفعل اتضح له هذا المعنى، وأنه لا ينافي أن العبدَ فاعلٌ ومحمودٌ لغةً وشرعًا، هذا هو اللائق بالعبد أن يعتقده ويستحضره ولا يغفل عنه في مقام حمد الوسائط؛ إذ ليس ثَمّ إلا مننه ومواهبه ووجوده وفضله **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدًا، ولكن الله يزكّي من يشاء﴾**[٦٤]، ويرحم الله رابعة العدوية[٦٥] حيث تقول[٦٦]:

أحبّك حُبَّيْن حبّ الهوى
وحبًّا لأنك أهلٌ لذاك
فأمّا الذي هو حبّ الهوى
فشغلي بذكرك عمّا سِوَاك
وأمّا الذي أنت أهلٌ له
فكشفك للحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا، ولا ذاك لي[٦٧]
ولكن لك الحمدُ في ذا وذاك[٦٨]

وأمّا ما ذكروه[٦٩] في التوجيه من أنّ الحمد إمّا قديمٌ أو حادث، فالقديم وصفه والحادث فعله، ففيه أنه ليس قصد المتكلّم بجملة الحمد الثناء على الله بأنه المحمود ببعض المحامد، والخالق لبعضها، وأنّ النسبة مختلفة، والاستغراق مختلف[٧٠] بالاعتبار، فإنّ تعسّفه غير خفيّ، والحاصل أن الخلق مظاهر كمالاته.

وفي كل شيءٍ له آية
تدلُّ على أنّه الواحد[٧١]

فلا محمود على الحقيقة سواه، نظيره ليقرب ما يقال لا مزورَ على الحقيقة سوى سيّدنا محمد[٧٢] ﷺ عند زيارة الأولياء[٧٣] والعلماء؛ لأنهم مظاهر تعيناته وجداول بحره، فينبغي لحامد الوسائط رعاية ذلك المعنى، كما ينبغي للزائر رعاية هذا - والله أعلم -.

فإن قلتَ ما بيّنوه من الاستغراق لا يصحُّ إلاّ مع التعبير بالكلام في تفسير الحمد، كما بيّنه الشيخ السنوسي - نفعنا الله به - ولا يصح مع التعبير باللسان، كما فعل كثير لعدم شمول التفسير [للقديم][٧٤]، فلا استغراق حينئذٍ، قلت: الاستغراق ليس[٧٥] في أفراد ماهيّة الحمد اللغوي، حتى يرد ما ذكر، كما أنه ليس في أفراد ماهيّة العرفي حتى يرد

تقييد على سورة الفاتحة

عدم شمول ما هو في مقابلة الكمال، بل في أفراد مطلق الحمد الأعمّ من كلٍّ منهما، ثم يتخرّج من جعل (ال) للاستغراق إشكالٌ، وهو أنه شمل الاستغراق هذا الحمد نفسه؛ فإنه لم يكن له حصول، ولا يكون له بدون هذا اللفظ، فيلزم جعل نفس الشيء من متعلق ذلك الشيء، ويتوقف حصوله على نفسه، ويبطل أصل الاستغراق؛ لأن من جملة الأفراد هذا الحمد، وهو الاعتراف بأنّ كلّ حمدٍ له، فلا معنى للاستغراق بعد هذا(٧٦).

والحاصل أنّ ما دخل في المتعلّق الذي هو الفرد منه كلّه داخلٌ في هذا الفرد، وليس من قبيل قولنا كل خبرٍ يحتمل الصدق والكذب، مع أنّ هذا خبر، وقولنا الصدق محمود، مع أنّ هذا صدق؛ لأن الفرد المنشأ هنا حاصلٌ بالمتعلّق، فلا يندرج في ذلك المتعلّق(٧٧)؛ وإن لم يشمله انتقض به، قلت: نسبته له - تعالى - وكونه ثناءً عليه هو المقصود من إنشائه، وهو معنى قولنا في الناطق بهذه الجملة: إنه أثنى على الله بأن المحامد كلها له، نعم هو غير داخلٍ في عموم متعلّق الحمد، وعدم دخوله فيه لا يضرّ؛ لأن المقصود منه وهو أنه لله - تعالى - حاصلٌ بدون(٧٨) ذلك، ثم الحمد - كما ذكر بعض المحقّقين - على ثلاثة أقسام: حمد العامّة، وحمد الخاصّة، وحمد خاصّة الخاصّة، فالأول بساطه شهود النعم(٧٩) الدينية والدنيوية؛ لأنّ ذلك مبلغ علمهم، وأمثلته كثيرة، والثاني بساطه شهود وصف العظمة والجلال، نحو: ﴿**الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور**﴾(٨٠)، والثالث بساطه شهود وصف التنزيه والكمال، لما فيه من خالص التوحيد وكمال التنزيه نحو: ﴿**الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا**﴾(٨١)، فأهل المقام الأول وردوا حضرة الأفعال، فحجبهم شهود الفعل عن شهود الوصف، وأهل المقام الثاني وردوا حضرة الصفات، فحجبهم شهود الوصف عن الموصوف، وأهل المقام الثالث وردوا حضرة الأسماء، فلم تحجبهم عن المسمّى، فالأولون بين قبضٍ وبسط، والآخرون بين هيبةٍ وأنس، والمتوسطون بين جمالٍ وجلال، ثم قال: فإن قلت يرد على هذا قول الخليل - عليه الصلاة والسلام -: ﴿**الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق**﴾(٨٢)، وقول نوحٍ - عليه السلام -: ﴿**الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين**﴾(٨٣) ونحوهما، قلت ذلك منهم للتشريع ا هـ.

قلت : هذا عندي غير محتاج إليه؛ لأن الحمد على النعمة كالشكر عليها لا يلزم أن يكون فرح الحامد(٨٤) أو الشاكر(٨٥) بها، بل قد يكون فرحه بالمنعم، والمحذور عند أهل المعرفة الأول.

وأمّا الثاني : فهو الغاية في الشرف كما قال سيدي أبو عبدالله ابن عباد(٨٦) - نفعنا الله به - عند قول الحِكَم: «وفرح بالله(٨٧) ما شغله من النعم ظاهر متعتها، ولا باطن منّتِها»، وقال سيدنا الشيخ زروق(٨٨) - نفعنا الله به - عند شرح هذا النصّ: «فرحه بالله من حيث كمال ذاته وجلال صفاته وتقدّس أسمائه وجلال أفعاله، إن رأى نعمةً ذكر منّته، وإن رأى بليّة(٨٩) ذكر رحمته، وإن جرى عليه شيءٌ نظر إليه بلا علّة، فهو مشغولٌ به لا بغيره» ا هـ.

وقد حققنا في شرح النصيحة(٩٠): أن جملة الحمد لله إنشائية لا غير، وأشرنا فيما لنا من التفسير عند قوله تعالى: ﴿**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب**﴾(٩١) أنها خبرية إنشائية دفعةً واحدة، ولا تنافي بينهما؛ لأن ما في القرآن تصحُّ فيه إرادة المعنيين كبعض المقامات، وما في ابتداء التأليف عند تجرّد نعمة أو ذهاب نقمة لا يقصد به(٩٢) إلاّ إنشاء الثناء، فإن قلت: الإنشاء ما قارن معناه لفظه، والخبر ما لم يقارن، فهما متنافيان، فكيف يجتمعان؟ قلت: وقد بيّنّا في شرح النصيحة(٩٣): أن دلالة الجملة على إنشاء الحمد بالنقل عن معناها الأصلي، وهو الإخبار، فهذا من استعمال اللفظ في المنقول منه وإليه، كاستعمال المشترك في معنييه المتقابلين،

التحقيقات

كالقرء والطهر للحيض، فلم يجتمع المتقابلان في محلّ واحد وإنما[٩٤] اجتمعا في الدلالة عليهما بشيءٍ [واحد][٩٥] ولا محذور[٩٦] فيه. فإن قلت: من الحامد هنا؟ إن قلت هو الله - تعالى - فحمده قديم، والإنشاء والإخبار عارضا النسبة الحادثة، فهما حادثان، وإن قلت غيره، والمعنى قولوا الحمد لله، لم تصرح الإنشائية؛ لأن نسبة[٩٧] الإنشائية مقصودة؛ ليحصل بها المنشأ، ونسبة المحكية غير مقصودة حتى قالوا: إنها مفرد[٩٨] في التحقيق؛ ولأن ضابط الحكاية تقدّم المحكي خارجًا أو ذهنًا على الحكاية، كقال زيد: قام عمرو واضرب عمرا[٩٩]. وعلى كلّ حال[١٠٠] فما بعد أداة الحكاية خبر، وإن كان بصورة الطلب، قلت: أختار الأول، ولكن لا أقول: إنه حامد بهذه الجملة؛ إذ ليس معنى قولنا أخبر الله بكذا، وقال كذا، أنه تلفّظ بذلك، وإنما المعنى: أنّ ذلك من متعلقات كلامه القديم، فكلّ ما في الكتب المنزّلة متعلق كلامه، لا عينه، فالنسبة وعارضاها صفة متعلق كلامه لا صفة كلامه، فلا إشكال، أو الثاني، وأحل[١٠١] الإشكال بأنّ الإنشاء معنوي لازم؛ إذ كل متكلم بكلام وهو راضٍ بمضمونه مدعى له مسلم إياه، محكومٌ له بأن منشِئه معنى، ولذا يحكم لقارئ قصيدة البوصيري مثلاً بأنه منشئ مديحه ﷺ ، فإن قلت كيف يتعلق كونه تعالى حامدًا، مع أنّ من أركان الحمد الصيغة، وهي حادثة؟ قلت: الذي أختاره في مثل هذا ترك الخوض فيه، عاش من عرف قدره، ولم يتعدَّ طوره، فإن ألكنه محجوبٌ عنّا غاية ما يقال: ما يتحقّق به الحمد هو ما يدل عليه، ولا شكّ أن كلامه دالٌّ على معلوماته أزلاً وأبدًا، ولا سبيل إلى التعبير بالأركان؛ إذ لا ترتيب ولا أجزاء.

والتنوّع الذي ذكروه إلى الأمر والنهي والإخبار وغيرها إنما هو بحسب التعلقات الحادثة، وللشيخ عيسى الصفوي[١٠٢] في هذا المعنى كلام في رسالته، فانظره إن شئت.

ومن هنا يعرف الجواب عمّا ذكره[١٠٣] الشيخ يس[١٠٤] في حواشي الصغرى من أن قولهم: المحامد أربعة، حمدان قديمان وهما حمده - تعالى - لنفسه، وحمده لبعض عبيده مشكل في الثاني؛ لأن المحمود حادث والمركب من القديم والحادث حادث، لما علمت من أنّ التركيب مطلقٌ غير معقول؛ إذ الأجزاء لا بدّ من سبقيتها للمركب، فالصواب الإمساك عن الخوض في المسألة، والاعتراف بالعجز عن الإدراك، ثم هذا الأسلوب مفيدٌ للحصر[١٠٥]؛ لأنّ الحكم على جميع أفراد الحمد بأنها له مقتضى أن لا فرد منها لغيره، فإن قيل: لو كان هذا مكتفى به في ذلك لما احتاج سيّدنا أبو بكر[١٠٦] إلى يوم القيامة في تقديم المسند في ربنا ولك الحمد، قلت:

لما أدرك الركعة مع رسول الله ﷺ بعد الإشراف على الفوات شهد فضل الله ورحمته، فقال من بساط شهود وصف الجمال: الحمد لله[١٠٧]، فلما أخبره الله على لسان رسوله بأنه سامعٌ لقوله وحاضرٌ معه، ونتيجة[١٠٨] ذلك أنه معتنٍ به، ومعتبر لذكره له، لم تبقَ إلاّ الغيبة فيه والانتقال إلى التلذّذ بخطابه، فالحمد الأول منشؤه شهود الوصف، والثاني شهود الموصوف، فجيء في كلّ مقامٍ بما يناسبه، وقدّم في كلٍّ منهما ما انصرفت الأهميّة له، فليس التقديم في: «ربنا ولك الحمد» لإفادة الحصر، فافهم.

فائدة : المناسب للانتقال للتلذّذ بخطاب ربنا - جلّ جلاله - أن تكون الواو في «ولك الحمد» عاطفة على جملة حمد مقدرة اعتبارًا بأصل قضية مشروعية القول، وجملة النداء معترضة. وصح عطف جملة الحمد على مثلها؛ لأن المقصود من هذا العطف التكثير المتلذّذ، فهو كالتلبية[١٠٩] في: «لبيك وسعديك»، فكأنه لمّا انتقل لذلك المقام، وأخذ بمجامع قلبه، جعل يقول: ولك الحمد، ولك الحمد، ولك الحمد، وهكذا، واكتفى عن ذلك بما هو كالعلم عليه فاستحضر هذا المعنى في صلاتك، نظير حسن.

تقييد على سورة الفاتحة

كثر الاضطراب في معنى الله أكبر، والذي ظهر لي أنه التفضيل(١١٠)، والعبارة على تقدير مضاف، وذلك أن المصلّي إذا أتقن شروط الصلاة، ثم استقبل وتوجّه، ووقف كالميّت بين يدي غاسله، رافضًا لأشغاله، آتيًا بما في طوقه من الخضوع بالركوع والسجود وغيرهما، ربما يتوهّم أو يتوهّم فيه أنه موفٍ حقّ الربوبيّة، فأُمر أن يكرّر قول الله أكبر، بمعنى حقّ الله أعظم من كلّ ما أتى به وأفعاله(١١١) من أنواع الخضوع، فذكّر نفسك هذا المعنى في صلاتك.

ثم يخرج مما ذكر من إفادة الحصر إشكال، وهو أن الحصر من عوارض الحكم الذي هو مظنة للخطأ فيه، فيؤتى به للردّ على معتقد الشركة أو العكس مثلاً، والإنشاء لا حكم فيه، فلا معنى لارتكاب الحصر في المعاني الإنشائية، ويوضحه أنه لا ينازع المنشيء أحدٌ في أنه أنشأ، وجوابه: أن الحصر في المحمود به لا في نفس الحمد، والمحمود به متضمّنٌ لنسبة خبرية، وهي أنه ثابتٌ للمحمود، فيصحّ فيها القصر، ثم ذكر هذه الجملة مع استحضار معناها منتج لمحبة - ربّنا جلّ جلاله -؛ لأن أسباب المحبة، وإن تكاثرت، راجعة إلى شيئين ليس إلاّ، وهما: الحسن والإحسان، وهذه الجملة مستغرقة لأفراد مسبّبها وحاصرة لها في مولانا - جلّ وعلا - فتكون مستغرقة لأفرادها وحاصرة لها فيه، باعتبار الوصف والفعل؛ لأنه إذا(١١٢) لم يكن محمود سواه لم يكن شيء من أسباب الحمد إلاّ له، فكأنّ الناطق بها يقول: الله عالم، الله قادر، الله سميع، الله بصير، إلى غير ذلك من الجمال المعنوي، فإن المحبة كما تترتّب على الحسن(١١٣) تترتب عليه، كمحبة: أبي بكر وعمر، لكمالاتهما المعنويّة، مع عدم مشاهدة هيئتهما الصوريّة، وكأنه أيضًا يقول: الله خالق حسن، الورد والنسرين(١١٤)، والجوهر والياقوت إلى غيرها(١١٥) من المستحسنات الصوريّة، وكأنه أيضًا يقول: اللهم منعم بالعقل، وحفظه في كل لحظة، وبالصبر وحفظه(١١٦)، بل بكل حركة كل ذرة(١١٧) من الجسم يحتاج إليها، وسكون كذلك(١١٨) في وقتهما، وبتهيُّىء المأكل(١١٩) والمشرب بعد خدمة من لا يُحصى من الخلائق فيهما إلى غير ذلك مما لا حصر له. فإذا اشتغل الناطق بها باستحضار هذه المعاني وتتبّعها أفاض ذلك على قلبه من محبة ربنا - فتبارك(١٢٠) وتعالى - ما لا يكيف، وإذا كانت منتجة لمحبته - تعالى - أفضت إلى التوكّل عليه، والتفويض له، والإقبال عليه، والتعلّق به، والانقطاع إليه، وتتبّع ما يرضيه، واجتناب غيره، إلى غير ذلك من مقامات اليقين وثمراتها(١٢١).

وبهذا أيضًا تظهر مزية هذه الجملة واختيار افتتاح الكتاب العزيز بها، ومنه أيضًا يعلم أنها أفضل من جملة الشكر؛ لأن الشكر لا بدّ أن يكون في مقابلة نعمة، فأسبابه أخصّ، فجملة الحمد أشمل وأفيد، وأيضًا فإن المحبة التي أنتجتها جملة الشكر هي الناشئة عن الإحسان، وجملة الحمد تشاركها في ذلك، وتنتج المحبة الناشئة عن شهود الكمال زيادة عليها، وهذه لو انفردت لكان منتجها أفضل، فكيف مع المشاركة؟ ومن هنا يتخرّج الجواب عن سؤال، وهو أن يقال لم اقتصر الأئمة جلّهم في تآليفهم على جملة الحمد، ومن ذكر معها جملة الشكر أخّرها.

قوله: ﴿ربّ العالمين﴾ هو وما بعده(١٢٢) أدلة لما اقتضته جملة الحمد من انفراده - تعالى - باستحقاق الحمد حاصله الاستدلال على ذلك بأن منه المبدأ وبه البقاء، وإليه المرجع، أشير بربّ العالمين إلى نعمة الإيجاد [وبالرحمن إلى نعمة الإمداد، وبملك يوم الدين إلى أنه - تعالى - المتولي لما فيه ذلك الإيجاد](١٢٣) والإمداد من فضل وعدل.

ثم هذا الاستدلال ليس أجنبيًّا من الجملة ولا خارجًا عنها، بل هو بعض ما استلزمه مضمونها، فمضمونها مصحوبٌ ببرهانه، ومقترنٌ ببيانه، فهو تفصيلٌ لبعض ما اقتضته الجملة، وإيقاظ لشيء مما تضمنته، وفتح لباب التدبّر في معناها ليهتدي به(١٢٤)

إلى غيره، ولو تتبّع ذلك لما انتهت السورة، واختير في البيان ذكر هذه الصفات الثلاث؛ لاقتضائها وجوب الانقطاع بالكليّة إليه، والتعويل في كلّ شيء عليه، حيث أفادت أن منه المبدأ إلخ.

ومن هنا يتضح وجه الالتفات في ﴿**إياك نعبد**﴾(١٢٥)؛ فإنّ كونه منه المبدأ إلخ، يوجب كمال الإقبال عليه، والتلذّذ بخطابه بما فيه غاية الخضوع له، وإليه يشير قول صاحب «الكشاف»(١٢٦) إنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات(١٢٧) تعلّق العلم بمعلومٍ عظيم الشأن حقيق بالثناء والعبادة، فالتفت وخوطب(١٢٨) ذلك المعلوم المتميّز فقيل: إيّاك، يا من هذه صفته، نعبد؛ ليكون الخطاب أدلّ على أن العبادة له؛ لأجل ذلك التمييز(١٢٩) الذي لا تحقّ(١٣٠) العبادة إلاّ به؛ لأن المخاطب أدخل في التمييز وأعرق(١٣١) فيه، فكان تعليق العبادة به تعليقًا(١٣٢) بلفظ التمييز؛ ليشعر بالعلية. أ هـ(١٣٣).

فإن قيل: كلامه يوهم توقّف حصول التمييز الذي جعله علّة الخطاب على إجراء تلك الصفات، فتكون نعوت بيان، مع أنّ اسم الجلالة أعرف المعارف، وإنما يتبع بالنعت المادح، قلت: مراده أنّ التمييز الحاصل من العلم وإجراء الصفات مفيدٌ للعظمة، وهو معنى قوله: تعلّق العلم بمعلومٍ عظيم الشأن. فإن قلت لا يتركه قوله: على أنّ العبادة له، لأجل ذلك التمييز؛ إذ مراده التمييز من حيث العظمة، ولذلك أتى باسم الإشارة لا جنس التمييز؛ إذ لا يصح(١٣٤) علّة لذاته، قلت: والتمييز من حيث العظمة مستفادٌ من العلم، ولكن لإجراء الصفات عليه دخل فيه، من حيث التفصيل.

فإن قلت أتقول في (ربّ) أنه صفة مشبهة كنمٍّ، كما جوزه في «الكشاف»(١٣٥)، فتقع(١٣٦) في وصف أعرف المعارف بالنكرة؛ لأن إضافة الصفة المشبهة لفظيّة، أم تقول مصدر وصف به للمبالغة، كما جوزه فيه أيضًا، فتكون قد قست بغير قياس، فإن جعل الرجل نفس العدل في رجل عدلٍ معنى مقبول، وجعل الموصوف هنا نفس التربيةً(١٣٧) مستبعد مغسول، وانظر هل يسعك أن تقول في مقام المبالغة في(١٣٨) وصفه – تعالى بالعلم والقدرة – الله أعلم – أو قدوة، كيف تجره مستبشعًا على أنه لا معنى لقولنا هنا في مقام المبالغة؛ لأن علمه كسائر صفاته على غاية الكمال، لا يمكن فيها سوى ذلك، ولا تتفاوت بتفاوت المقامات. ولحصول(١٣٩) غاية الكمال فيها صحّ استعمال صيغ المبالغة فيها كقدير وغفور، ولكن ذلك هو نفس المعنى من غير زيادةٍ عليه، صحّ استعمال فاعل فيها كقادر وغفور(١٤٠)، نعم يخصّ بعض المقامات بالأول وبعضها بالثاني، لمقتض نحو: ﴿**إنه على رجعه لقادر**﴾(١٤١) بعد احتقار شأن الإنسان، وبيان ما هو أصله: ﴿**أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادرٍ على أن يخلق مثلهم**﴾(١٤٢)؛ إذ لا نسبة لخلق مثلِهم بخلق السموات والأرض، ونحو: ﴿**الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا**﴾ إلى ﴿**قدير**﴾(١٤٣) لعظم هذه الأمور، وقِس عليه نظائره. فإن أريد بالمبالغة عظم(١٤٤) المتعلق كما هنا، فلا حجر(١٤٥) في التعبير، لكن يؤتى معه بما يرفع إيهام إرادة غير المراد، ومن هذا التقدير يظهر صحة ما ذكروه(١٤٦) من أنّ الرحمن أبلغ من الرحيم.

أما جعل الذات العليّة نفس المعنى، ففي غاية البعد، ومما يفصح ببعده هنا صراحةً الصفات بعده(١٤٧)، أعني: ﴿**الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين**﴾(١٤٨)؛ إذ لا فرق بين وصفه بالربوبية والرحمة والملك، قلت: أختار الأول وأحلّ الإشكال بأنّ ﴿**ربّ العالمين**﴾ نكرة لفظًا، معرفة معنى؛ إذ لا يصلح بغير(١٤٩) مولانا – تعالى – كما قالوه في (عام أول)، وبه نقض ابن مالك(١٥٠) تعريفي النكرة والمعرفة. فإن قيل: هذا ذو اعتبارين، فلم غلبت فيه جانب المعنى؟ قلت: يدل عليه المقابل، وهو المعرفة لفظًا، النكرة(١٥١) معنى كالمعرّف(١٥٢) بأل الجنسية، فإنهم نعتوه بالجملة،

وإنما جوزوا مع ذلك كونها حالية لما بينه وبين النكرة من التفاوت، ولا ينتقض هذا بنحو شمس، فإنه ليس معرفة معنى لملاحظة الأجرام[153] التقديرية في وصفه، ولذلك كان كليًّا، وعام أول جزئي.

وأما علم الجنس فإجراء المعرفة عليه هو معنى كونه معرفة لفظًا، وجمع عالَم هنا للتعظيم الملائم للمقام نحو: لقد ضجّت الأرضون... البيت. والذي أختاره أنه جمعٌ شاذّ، قياسًا لا استعمالاً، وأما قول «الكشاف»[154]: فإنه ساغ جمعه لمعنى الوصفية، وهي الدلالة على معنى العلم، فمنقوضٌ في جلّ أنواعه، كعالم النبات، ولعله يستظهر على هذا بجمل[155] التسبيح في: ﴿**وإنْ من شيءٍ إلاّ يسبّح بحمده**﴾[156] على التسبيح بلسان المقال، ويقول بإدراكها للربوبية والوحدانية. لكن يتوجّه عليه ما توجّه على صاحب النكت[157] وأنا لا نسلم[158] دلالة لفظ عالَم - بالفتح - على معنى العلم، وقول[159] صاحب النكت[160] في بيان معنى الوصف أنه علامة على وجود صانعه، بينت ما عليه في حاشية التوضيح[161]، وهو[162] أنه لو كان هذا القدر كافيًا في صحة الجمع بقياس[163] لصحّ جمع الرجل في أنت الرجل[164] علمًا؛ لما فيه من معنى الكامل، والقمر والغصن والأسد[165] في نحو[166]: زيد أسد، وقمر، وغصن، لما فيها من معنى شجاع ومضيء ومعتدل[167] وغير ذلك مما لا يحصى كثرة، وهو في غاية البعد.

وأما المصغر والمنسوب فإنما صحّ ذلك فيهما؛ لأن معنى الوصف ملازمٌ لهما في جميع استعمالاتهما، نعم يصح أن يكون ما في عالم من معنى الصفة مسهلاً لشروده. وفي هذا الوصف إشارةٌ إلى طريقتي المعرفة، أعني طريقة أهل الحجاب، وطريقة الشهود والاقتراب، إذا كان ﴿**رب العالمين**﴾ فهم آثار قدرته، وبالأثر يُستدل على المؤثر،

وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ إلخ[168].

وإذا كان رب العالمين فهو المظهر لهم بما أشرف عليهم من نور الوجود، بعد ظلمة العدم، فظهوره هو غاية الظهور، لا يحتاج إلى نصب دليل، وإلى الطريقة الأولى أشار صاحب الحِكَم[169] - نفعنا الله به - بقوله: «كيف يُتصوّر أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر بكل[170] شيء؟»، وإلى الثاني بقوله[171]: «كيف يتصور أن يحجبه شيء[172]، وهو الذي[173] أظهر كلّ شيء؟».

وفي هذا الوصف أيضًا إشارةٌ إلى الاستغناء به عن الخلق؛ لأن جميعهم مربوبٌ له، وهو ربّ الجميع، فهم مشتركون في هذا المعنى، لا تفاوت بينهم فيه، وهو[174] المسخّر ما شاء لنفع من شاء، بسلسلةٍ وضعها في عنقه لا يستطيع لها نزعًا، فكن له عبدًا تكن[175] لك الأكوان عبيدًا. قال صاحب الحكم[176]: «أنت مع الأكوان ما لم تكن مع المكوّن، فإذا كنت مع المكوّن كانت الأكوان معك».

وفيه أيضًا دلالةٌ على حدوث العالم، وقدم صانعه - جلّ وعلا - وإنهما متباينان من كلّ وجه، وأنه - تعالى - هو الموجود الحقيقي، ووجود العالم عارية زائلة بمقتضى الأصل. سمع الجنيد[177] - رضي الله عنه - قائلاً يقول: «الحمد لله، فقال: كمّله يا أخي، فقال: وما قدر العالمين حتى يذكروا معه، فقال كمّله؛ فإنه إذا ذكر الحادث مع القديم تلاشى الحادث، وبقي القديم» أ هـ.

أي إذا ذكر الذاكر العوالم معه، واستحضر ما بينها من التفاوت، اضمحلت العوالم في نظره، وبقي القديم، ففي ذكرهم معه تنبيهٌ للتعلّق به، ورفضُ ما سواه.

وفي[178] الإضافة مع ما ذكر أيضًا تعظيمٌ لشأن المضاف، كما لا يخفى، وألزم معنى القهر والغلبة للمضاف إليه، وتشريفٌ لمن[179] يليق به ذلك من أفراده، فإنّ الإضافةَ أفادت أنهم عبيده، والعبودية ضربان: عبودية ملك وقهر، وهي عامّة: ﴿**إنْ كلُّ من**

في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبدا﴾(١٨٠)، وعبودية اختصاصٍ وقرب، وهي خاصّة: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾(١٨١)؛ أي(١٨٢) إن تقل لهم امتثلوا ولم يتخلّفوا، وهذا خاصٌّ بالمخلصين(١٨٣). ففي هذا فتح لباب الاستغناء، والاقتدار(١٨٤)، والغنى، والقوّة بالله - تعالى - يقول قائلهم: وعزتك لرفعت قدمي حتى يكون كذا فيكون: (**رُبَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبَرَّه**)(١٨٥).

فينبغي للتالي(١٨٦) أن يستحضر هنا أنه عبدٌ له، سيّدٌ من شأنه كيت وكيت، ويفرح بذلك كلّ الفرح. رئي بعضهم وهو يقرأ ويرقص، فقيل له في ذلك، فقال: قلت في نفسي عبد من أنا، وكلام من أقرأ. وينبغي لمن زار وليًّا من الأولياء [أن يستحضر](١٨٧) عند زيارته هذا المعنى، وأنه عبد ملك الملوك، وبقدر(١٨٨) استحضاره تعظم تربيته في قلبه، وبحسب ذلك ينتفع به.

فإن قلت: إذا كانت الإضافة معطية هذه المعاني، فكيف جعلتها كما مرّ لفظية؟ قلت: معنى قولهم لفظية أنها لا تفيد تخصيصًا ولا تعريفًا، ولا يلزم من ذلك أن لا تفيد معنى غيرهما؛ إذ لا يلزم من انتفاء الأخصّ انتفاء الأعمّ، والمعنوية في مقابلتها؛ أي هي التي أفادت معنى مخصوصًا هو التعريف أو التخصيص لا مطلق المعنى، وهو(١٨٩) اصطلاحٌ خاصّ بأهله، وإلاّ فالإضافة مطلقًا تُرتكب لأغراض وفوائد كتعظيم شأن المضاف أو المضاف إليه، أو غيرهما من [غير](١٩٠) تفرقة بين لفظية وغيرها، تقول: خادم الخليفة حاضر وخديمي(١٩١) جاء، وبه يعلم ما في قول القزويني(١٩٢): «وبالإضافة لأنها أخصر طريق، أو تضمنها تعظيمًا..إلخ»، فإنه صريحٌ في أنّ تلك الفوائد إضافة(١٩٣) المعرفة، والجواب أنه إنما تنسب تلك المعاني للإضافة، إذا كانت محضة، وأما غيرها فالعمل السابق عليها يفيدها، وهذا هو الحقّ في الجواب عن أصل السؤال.

تنبيه : ما سبق من التمثيل بآية: ﴿**قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة**﴾(١٩٤) مبني على ضعيف، وقد تكلّم الناس فيها بكلامٍ ظهر لي الآن أنه غير محرّر، وخفت تفلت تحرير القول فيها، فأردت إيداعه هنا. قالوا(١٩٥): المضارع مجزومٌ في جواب الأمر، وقرّروا فيه المذاهب الثلاثة. المشهور أنه مجزومٌ بشرطٍ مقدّر من معنى الأمر، وقيل بنفس الطلب، ضمن معنى حرف الشرط، وقيل بنفس الطلب ناب عن الشرط، فالمعنى على الشرط على كلّ؛ أي إن لم تقل لهم يقيموا، واعترض بأنه لا لزوم بين الشرط والجزاء؛ لتحقّق(١٩٦) تخلّف كثير من المؤمنين عن(١٩٧) الامتثال، وأجاب بدر الدين ابن مالك بأنه على تقدير مضاف: أي يضم(١٩٨) أكثرهم. وأجاب غيره(١٩٩) بأنّ المراد بالعباد خصوص المخلصين، قال: ويؤخذ ذلك من الإضافة فإنها للتشريف، والمخلصون لا يتخلّف أحدٌ منهم. ومنهم من أجاب بأن الشرط لا يقتضي السببية التامّة؛ لجواز التوقّف على شيءٍ آخر، كإن توضأت صحّت صلاتك، قلت: يرد على الثاني أن الرسول مأمورٌ بتبليغ الأحكام لجميع المؤمنين، وهو المستفاد من عموم الموصول وصلته، ولو أُريدَ بالعباد من ذكر، كانت الإضافة مفيدة لذلك لكان الموصول مستدركًا؛ إذ هو من ذكر الأعمّ بعد الأخصّ، ويرد على الجميع أن «يقيموا» هو مقول القول، فهو مفعول الشرط المأخوذ من الأمر على المذاهب الثلاثة، وما كان مفعولاً وتتمة للشرط لا يصحّ كونه جزاءً له، نعم يصحُّ ذلك في نحو: ﴿**قل تعالوا أتل**﴾(٢٠٠)؛ لأن الأمر وجزاءه مجموعهما هو المقول، وليس الجزاء تتمة للشرط المأخوذ من الطلب الثاني. فإن قيل(٢٠١): في جعل(٢٠٢) المقول محذوفًا(٢٠٣) والمذكور جزاء الأمر، قلت: من الواضح أنّ المرادَ أمر الرسولَ بأن يقول كيت وكيت، فالمقام لتعليمه ما يقول، وقد ذكر. وليس المقام لوعده بأنه إن قال: يقم أكثرهم أو مخلصوهم، نعم هذا مقصودٌ عرضي من جهة توقّف إقامتهم على قوله فقط،

فالمُتعيَّن أن الجزم في الآية بلام الأمر مقدّرة، وقد حكوه مذهبًا رابعًا مقابلاً للثلاثة وضعّفوه، بل قال أبو حيّان(٢٠٤): ليس بشيءٍ وضعه ظاهر من جهة عدم الاطّراد، وأما في الآية فالمصير له متعيّن – والله أعلم –. ويمثّل لعبودية الخصوصية حينئذٍ بنحو: ﴿**تبارك الذي نزّل الفُرقانَ على عبده ليكون**﴾(٢٠٥) الآية(٢٠٦) ويصحّ(٢٠٧) أن يمثّل لها بالآية، لكن لخصوصيةٍ فيها ضعفت بالنسبة لما هنا(٢٠٨).

ثم أقول: إنما جمع عالم جمع سلامة؛ لأنّ إضافة اسمه – جلّ وعلا – إليه اكسبته(٢٠٩) شرفًا، فغلب عاقله وعومل الجميع معاملته، بل شرف الانتساب له – تعالى –(٢١٠) بأي وجه كان يعامل [وعومل](٢١١) لأجله المؤنث معاملة المذكر، وغير العاقل الصرف معاملة العاقل: كـ ﴿**أتينا**(٢١٢) **طائعين**﴾(٢١٣). فإن قيلَ: عوالم نصّ في الكثرة، وعالمون في القلّة، وهي غير ملائمة، قلت: محل كون جمع السلامة للقلّة إذا لم يضف لما يدل على الكثرة، ولم تدخل عليه ال الاستغراقية، فإن وجد أحدهما تعيّن حمله على الكثرة، فإن قلت نصّ أهل الأصول وغيرهم على أن ال إذا دخلت على الجمع أبطلت جمعيته، وصار المراد منه الجنس.

فكيف تفهم الكثرة منه(٢١٤) معها؟ قلت: معنى القاعدة المذكورة أن الجمعية ملغاة في جانب النسبة؛ إذ المعنى هنا ربّ كل عالم، لا رب الجماعة من حيث إنها جماعة، فليست الجمعية قيدًا في النسبة، وليس معناها أن المراد الجنس الصادق بالواحد وغيره، وقد بسطناه في بعض التقاييد(٢١٥). ولو سلم فالقاعدة مخصوصة بغير مقام الاستعظام، أما هو فالحمل على الكثرة فيه متعين [كقول حسان(٢١٦) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن في الضحى(٢١٧)
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وقد تخرج من هذا الجواب عن سؤال، وهو أن قولهم ال تبطل الجمعية مناقض](٢١٨) لقول النحاة: جمع السلامة للقلّة ما لم يضف(٢١٩) إلى ما يدل على الكثرة ويقترن بال الاستغراقية فينصرف للكثرة. ثم أقول في هذا الجمع إرشادٌ وتنبيه على باهر قدرته حيث أوجد هذه العوالم المكاثرة الخارجة عن الحصر، التي إن تأمّل المتأمّل في أجناسها فضلاً عن أنواعها، فضلاً عن أصنافها، فضلاً عن آحادها، لم يسعه لذلك عمره.

أخرج(٢٢٠) ابن جرير(٢٢١)، وابن(٢٢٢) أبي حاتم(٢٢٣) عن أبي العالية في قوله: ﴿**ربّ العالمين**﴾ قال: الإنس عالم، والجنّ عالم، وما سوى(٢٢٤) ذلك ثمانية عشر ألف عالم من الملائكة، وللأرض(٢٢٥) أربع زوايا في كلّ زاويةٍ ثلاثة آلاف عالم(٢٢٤) وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته. وأخرج(٢٢٦) أبو الشيخ(٢٢٧). وأبو نعيم(٢٢٨) في الحلية(٢٢٩) عن وهبٍ قال: (إن لله – عزّ وجلّ – ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا منها عالم واحد)، وفيه أيضًا تنبيهٌ على عظيم حكمته، وإتقان صنعه، مما لو استقصي لم تسعه الدفاتر، ولم يحط به علم الأوائل والأواخر، الظفر مثلاً هو أخصّ(٢٣٠) الأعضاء، ولو عدمه الإنسان وكانت له حكّة لكان أعجز الخلق، وأضعفهم، ولم يقم أحدٌ منهم مقامه في حكّ بدنه، ولتأذّت(٢٣١) رؤوس أصابعه بملاقاة الأشياء الصلبة، ومباشرة الأشغال الشاقة، ويلتقط بها الدّقيقة من بدنه وثيابه، كالشوكة، ويقتل بها دوابّ بدنه، وينقي بها أسنانه، إلى غير ذلك مما يطول تتبّعه.

ومما قيل في قوله: ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾(٢٣٢) هو أن تتفكّر فتعلم أنه(٢٣٣) زيّن العضو الذي لا يزال ظاهرًا على مجرى العادة من أعضائك، وهو وجهك، وستر الوحش(٢٣٤) منك، وفيه تقوية(٢٣٥) الآمال والرجاء بأن يديم معك هذه السنّة، فإنّ من ستر منك المسامي(٢٣٦) لحقيق(٢٣٧) بأن لا يفضحك على رؤوس الأشهاد يوم التناد.

وأفادت أيضًا هذه النسبة الإضافية أنه يتأكد على المؤمن أن لا يحتقر شيئًا من المخلوقات من حيث الخلق والصورة، قال بعضهم: كنت مع الشبلي(٢٣٨) ففتح له بمنديل(٢٣٩) حسن، فمرّ بكلبٍ ملقًى على الطريق، فقال لي: احمل ذلك الكلب الميّت فكفّنه في هذا المنديل(٢٤٠) وادفنه ومرة(٢٤١) قال: فجعلت الكلب في المنديل، وطرحته في موضع وغسلت المنديل(٢٤٢) وعدت إليه، فقال لي: فعلت ما أمرتك به، فقلت لا، فلم يقل شيئًا، فقلت أيها الشيخ أيش(٢٤٣) كان السبب فيما أمرتني به، قال: لما مررت بتلك الجيفة استقذرتها واستقبحتها، فنوديت(٢٤٤) في سري أليس قد خلقناه؟ فقلت: ما قلت.

وفي خبر مسند أن رسول الله ﷺ قال: **(رحم الله أخي نوحًا كان اسمه يشكر، ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله: يا نوح كم تنوح، فسمّي نوحًا)**(٢٤٥)، فقيل يا رسول الله، أيش(٢٤٦) كانت خطيئته، فقال ﷺ: (إنه مرّ بكلبٍ فقال في نفسه ما أقبحه! فأوحى الله إليه اخلق أنت أحسن من هذا)».

قوله: [**الرحمن الرحيم**](٢٤٧) الأصل في الصفات للشيء(٢٤٨) الواحد أن لا يعطف بعضها على بعض، كما هنا، وكما في قوله: ﴿**الملك القدوس**﴾(٢٤٩) إلخ لاتحاد محلها. وإنما خولف ذلك في: ﴿**هو الأول والآخر، والظاهر والباطن**﴾(٢٥٠)؛ لأن كل اثنين منهما متقابلان بحسب أصل الوضع، فرفع توهم امتناع اجتماعها بالعطف، ولذلك عطفت الثامنة في: ﴿**ثيّبات وأبكارا**﴾(٢٥١)، وفي: ﴿**الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر**﴾(٢٥٢)؛ لأن مطلوب الأمر إيجاد، والنهي عدم، وخولف في: ﴿**غافر الذنب وقابل التوب**﴾(٢٥٣) إشارة إلى أنّ محل الأول غير محل الثاني؛ إذ المعنى أنه يغفر الذنوب لمن مات مصرًّا غير تائب - إن شاء الله - وأما من قبل توبته فمغفورٌ له بلا إشكال، خلافًا في الأول للفئة الباغية. ولا حاجة مع هذا لما طول به بعضهم، مما لا يقنع(٢٥٤).

فإن قلت: عُطف كلّ من الآخر والباطن على ما قبله لما ذكر بيّن، فلم عطف مجموع الأخريين على مجموع الأوليين؟ قلت: توهم الاستبعاد يقوى بتعدّد اجتماع التقابلات، فأكّد رفعه بالعطف الثاني، فالواو الأولى للتنصيص على اجتماع(٢٥٥) الأوليّة والآخريّة، [والثانية](٢٥٦) للتنصيص على اجتماع الظهور والبطون، [والثالثة](٢٥٧) للتصريح باجتماع اجتماعين بين متقابلين، ووجه الترتيب بين هاتين الصفتين وما قبلهما ما مرّت الإشارة له(٢٥٨) من أنّ نعمة الإيجاد سابقة على نعمة الإمداد.

فإن قلت: لم يعكس في الأدعية؟ فيقال: يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين قلت: لأن مطمح نظر الداعي حصول الرحمة له، أو لمن يدعو له، ثم بعد ذلك يستعطف بالتصريح بأنه ليس له سيّدٌ سواه - تعالى - لأنه من جملة العالمين الذين لا ربَّ لهم سوى الله - تعالى -.

ووجه الترتيب بينهما [أن الرحمن](٢٥٩) اسمٌ يقتضي وجود كلّ موجود؛ إذ الرحمة تستدعي الإيجاد لا إبقاء العدم، ولهذا اختير في قوله: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾(٢٦٠) بخلاف الرحيم، فإن الرحيمية خاصّة بالمؤمنين، كما أفصح به الشيخ زروق رضي الله عنه في بعض شرح الحِكَم، وحكاه ابن جزي(٢٦١)، وهو معنى قولهم: رحيم الآخرة، فعقب المسبب الذي هو إيجاد العوالم بسببه الذي هو الرحمانية، وألصق به لدفع توهّم الغرض؛ أي لا سبب(٢٦٢) لصنعه ولا لإيجاده(٢٦٣) إلاّ الرحمانيّة، لا جلب أنس، ولا دفع نقص، ولا خواطر وأغراض، فاقتضاء الرحمانية الإيجاد كاقتضاء الإرادة التخصيص، وهذا وجهٌ لطيفٌ بديع.

إن قلت: إذا كانت الرحيميّة خاصّة بالمؤمنين والرحمانيّة شاملة لهم ولغيرهم، كان ذكر الرحيم بعد الرحمن كذكر البعض بعد الكلّ، قلت: ذكره بعده اعتناءٌ بشأن المؤمنين، وتأكيد وتحقيق لرحمتهم.

وأما قول الكشّاف(٢٦٤). إن(٢٦٥) قلت لم قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما دونه، والقياس هو الترقّي من الأدنى للأعلى؟(٢٦٦)، قلت: لما(٢٦٧) قال: الرحمن فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها أردفه: الرحيم كالتتمة والرديف ليتناول ما دقّ منها وما لطف(٢٦٨) أ هـ. فمبني على أنّ أبلغيّة الرحمن باعتبار الكيفية، وفيه شيءٌ لما مرّ عن الشيخ زروق، وهو الذي يشهد له ما روي عن رسول الله ﷺ: (أنّ الرحمن في الدنيا والآخرة، والرحيم في الآخرة)(٢٦٩).

فإن قلت الظاهر لبادىء الرأي أن يقال: رحمانهم رحيمهم؛ أي العالمين؛ إذ كلّ من الصفات الثلاث مقتضٍ الانتساب إليهم؛ إذ الأولى لبيان نعمة إيجادهم، وما بعدها لبيان نعمة إمدادهم، فلم ارتكب ذلك في الأول وترك فيما بعدها؟ قلت: الأصل في صفات الفعل أن تُذكر مصحوبة بمتعلّقها كخالق السموات ورازق المخلوقات، ومعزّ من شاء، لتحقّق معنى انتسابها، وأنه ليس طريقة القيام إلاّ بعد تكرار(٢٧٠) ذكرها ومعرفة حقيقتها، نحو: ﴿**هو الله الخالق البارىء المصوّر**﴾(٢٧١) بخلاف صفة الذات(٢٧٢)، فإنها قائمة بها، فتذكر وحدها، ومع متعلقها إن كان لها، والأولى هنا صفة فعل لا يتصور فيها سوى ذلك، والرحمة يصحّ فيها ذلك، فتكون مجازًا عن التفضّل والإنعام، وأن تكون صفة ذات راجعة للإرادة. وعلى كلٍّ فهي من الصفة المتعلقة، والمعنى على الثاني مزيد الخير لهم، وهو أولى لعدم التجوز، فأشير بعدم ذكر المتعلق إليه، واقتصار الكشاف(٢٧٣) على ردّها لصفة الفعل حمله عليه اعتزاله؛ إذ المعتزلة ينفون الصفات الذاتية، وقد بيّن هذا ابن خليل السكوني(٢٧٤) في كتاب (التمييز لما(٢٧٥) أودعه الزمخشري من الاعتزال في تفسير الكتاب العزيز)، وفيه أيضًا فوات التنبيه على النكتة المذكورة، وأنتج هذا الوصف المشار به لنعمة(٢٧٦) الإمداد لزوم افتقارهم ودوام اضطرارهم إليه(٢٧٦) في جميع الحالات، وعموم اللحظات(٢٧٧)، كما قال القائل:

إني إليك مع الأنفاس(٢٧٨) محتاج
لو أنّ في مفرقي الإكليلُ والتاجُ

وأفاد أيضًا نفيَ الاستحقاق، وأنْ ليس هناك إلا محض الفضل والرحمة، وأفاد أيضًا انفراداته(٢٧٩) - تعالى - بالوجود الحقيقي؛ لأنّ وجود العالم عارية معطاة، وأمر مجعول لما أفاده: ﴿**ربّ العالمين**﴾ وغير(٢٨٠) مستقل، بل مدعّم بالمادة كما أفاده: ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ فلا وجود لها من ذاتها، وهذا معنى حكم العارفين لها بالعدم في الحال، وهو معنى حديث: (كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان)(٢٨١)، كما حقّقه أهل هذا الشأن. وقد أشار لهذه الأمور الثلاثة ولي الله - تعالى - سيدي أبو مدين(٢٨٢) (٢٨٣) في قوله: «الحقّ - تعالى - مستبد، والوجود مستمر، والمادة من عين الوجود؛ إذ لولا المادة لانهدّ الوجود».

[قوله: ﴿**ملك(٢٨٤) يوم الدين**﴾](٢٨٥):

الملك عند أهل التحقيق هو القدرة على الإبداع والإنشاء، فتكون الأشياء كلها له، وعلى هذا فلا مالك على الحقيقة إلاّ الله، وإن كان العبد يوصف بأنه مالك حقيقة بشرعية، فذلك مجازٌ لغوي. وقول من قال: إنه القدرة على الإطلاق يلزم عليه أن يكون الغاصب مالكًا(٢٨٦) للمغصوب؛ لكونه قادرًا عليه. وقول من قال هو جواز التصرّف في الشيء على الإطلاق احترازًا من الولي والوصي والوكيل منقوض بأن المحجور مالك على الحقيقة مع عدم صحة تصرفه، هكذا ذكره القشيري(٢٨٧) رضي الله عنه.

ووجه الردّ الأخير أن ذلك القائل إذا أثبت الملك الرشيد حقيقة لزمه ﷺ مثله في المحجور، وإلاّ كان كنية غير مملوك لأحد، وأما المُلك - بضم الميم - فهو كون الشخص ملكًا أي سيّدًا، ردّ أيضًا، وليس ذلك

أيضًا على الحقيقة إلاّ لله؛ لأنّ ما لغيره بتمليكه من فعله: ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء**﴾(٢٨٨).

ويصحّ في الوصف هنا أن يكون من الأول والثاني، وقد قرئ بالوجهين مالك وملك، الأول من الأول، والثاني من الثاني، ورجّحت الثانية، وهي قراءة الجماعة بأن الملك أعظم من المالك؛ إذ قد يوصف كلّ أحدٍ بالملك(٢٨٩) لماله، وأما الملك فهو سيّد الناس، وبموافقة قوله: ﴿**وله الملك يوم ينفخ في الصور**﴾(٢٩٠)، وبأنها لا تقتضي حذفًا، والأخرى تقتضيه؛ لأن تقديرها مالك الأمر(٢٩١)، ومالك مجيء يوم الدين، ذكر هذه الثلاثة ابن جزّي(٢٩٢) رحمه الله تعالى.

وها هنا سؤال، وهو أنه إذا كان لا مالك ولا ملك على الحقيقة سواه - تعالى - فكيف قيد كونه مالك أو ملكًا بيوم الدين؟

وقد أوضح سيدي الشيخ أبو عبدالله ابن عباد(٢٩٣) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ونفعنا به في بعض رسائله الكبرى، حيث قال في أثناء كلامه: «لا عبرة بظواهر الأشياء، وإنما العبرة بأسر المكنون، وليس ذلك إلاّ بظهور الحقّ وارتفاع غطائه وزوال استتاره وخفائه، فإذا تحقّق ذلك التجلي والظهور استولى على الأشياء الفناء والدثور، وانقشعت الظلمات بإشراق النور، فهناك [بين وأعين](٢٩٤) اليقين، ويحقّ الحقّ المبين، وعند ذلك تبطل دعوى المدّعين، كما يفهم العامّة بطلان ذلك في يوم الدين، حتى يكون الملك لله ربّ العالمين، وليقشعر من أيّ وقتٍ كان الملك سواه حتى يقع التقييد في قوله: ﴿**الملك يومئذٍ لله**﴾(٢٩٥) وقوله: ﴿**والأمر يومئذٍ لله**﴾(٢٩٦) لولا الدعاوي العريضة من القلوب المريضة». أهـ. المراد منه.

ومن هنا قالوا ينبغي لمن عرف أنه الملك أن يتنكب عن وصف الدعوى، ويتبرأ من الحول والقوة، ويسلّم الأمر لمالكه، ولا يقول لي ولا مني، وفي الحديث: (لا يقول أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي)(٢٩٧).

قال في الكشاف(٢٩٨): فإن قلت: فإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية، فلا تكون معطية معنى التعريف، فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة؟ قلت: إنّما تكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال، فأمّا إذا قصد معنى الماضي، أو زمان مستمر كانت الإضافة حقيقية، وهذا هو المعنى في: ﴿**ملك يوم الدين**﴾ أهـ.

وتوبع عليه، وفيه عندي نظر، لما علمت من أنّ التقييد مرادٌ في الآية للنكتة المتقدمة، وإنما يكون الوصف للاستمرار عند الإطلاق من التقييد بالوقت، كمالك الخلق، فهو من اشتباه المقيّد بالمطلق، نعم مطلق ملك للأمور مستمر، لا الملك الذي لا دعوى معه، وبرعاية التقييد للنكتة المتقدمة [ندحض](٢٩٩) ما يقال: ملك للأمور في ذلك اليوم، يدل بالأخروية على ملكه لها في غيره، والصواب في الجواب عن الإشكال الذي ذكره ما مرّ في ﴿**رب العالمين**﴾.

قوله: ﴿**إيّاك نعبد وإيّاك نستعين**﴾(٣٠٠): إن قيل مقتضى الترتيب تقديم الاستعانة على الشيء على أن التلبّس به والشروع فيه، قلت يلزم عليه هنا تقديم الطلب على الأدب، وهو سوء أدب، فإنّ من تلبّس بخدمة الملك وشرع فيها بحسب وسعه، ثم طلب منه الإعانة عليها [أوقع في نفسه ممن يقول له](٣٠١) قبل ذلك التلبّس أعطني ما يُعينني على خدمتك، وأيضًا فإنّ من استحضر عند إجراء(٣٠٢) تلك الأوصاف العظام على الحقيق بالحمد غاية العظمة والجلال، لا يمكنه إلاّ أن يسارع بما يليق من غاية الخضوع والتذلّل، ثم يرى بعد ذلك أنه لا يستطيع التوفية بذلك الحقّ، بل لا يقدر على القيام بأصله(٣٠٣) إلاّ بإعانته - تعالى -؛ إذ الكلّ منه وبه وإليه، فإن قيل(٣٠٤): لم كرّر ذكر الضمير، وهلاّ اكتفى في إفادة تعليق الفعل الثاني به ورجوعه إليه بما يفيد تشريك العطف؟

قلت: لوجهين: أحدهما: أن قوله: ﴿إياك نعبد﴾ نتيجة[٣٠٥] إجراء[٣٠٦] تلك الأوصاف العظام على الحقيق[٣٠٧] بالحمد، كما سبق.

وقوله ﴿وإياك نستعين﴾ نتيجة: ﴿إياك نعبد﴾[٣٠٥] كما سبق محضُ[٣٠٨] كلٍّ من الفعلين بمفعوله ليكون كلّ من الجملتين كلامًا تامًّا مشارًا به إلى معنى تامّ، ولو لم يكرّر لكان المتبادر أنهما نتيجة لشيءٍ واحد. وثانيهما[٣٠٩]: أن ذلك أبلغ في إظهار الاعتماد على الله، وأقطع في إحضار التعلّق به والإقبال عليه، وأمدح. وإن[٣١٠] شئت بيانه فانظر قول من يخاطب[٣١١] الملك[٣١٢] بقوله: بك انتصر، وبك أحتمي، وبك أتعنى، وبك أنال مطالبي، [وقول من يخاطبه بقوله: بك أنتصر وأحتمي وأتعنى وأنال مطالبي][٣١٣] يظهر لك ما بينهما من التفاوت، والمتعاطفان خبران، قصد بهما إظهار الخضوع والفاقة، كما قصد بالخبر في: ﴿إنّي وضعتها أنثى﴾[٣١٤] إظهار التحسّر لا الإعلام.

وبهذا يجاب عن سؤالٍ آخر، وهو أن طلب العون على العبادة الذي أفاده: (نستعين) هو عين طلب الهداية للصراط المستقيم، فلم لم يغنِ عنه؟ وحاصل الجواب أن قوله: (نستعين) خبر قصد به إظهار الفاقة توطئة للتصريح بالطلب، فورد الطلب بعده في محلّه.

قوله: ﴿غير المغضوب عليهم﴾[٣١٥]:

غير هنا وإن وقعت بين متضادين فكلّ منهما جنسٌ مبهم، وتضاد المفهومين لا يوجب تعين المصدوق، فإن اعتبر تعين الجنس في المضاف إليه، فليعتبر فيما قبل، وإن اعتبر إبهام المصدوق فكذلك تصبح فيها الوصفية بكلّ حالٍ خلافًا لمن خالف. نعم تتعيّن البدلية في ﴿ربنا أخرجنا نعملْ صالحًا غير الذي كنا نعمل﴾[٣١٦]؛ لأن الفساد الذي كانوا يعملونه كان معهودًا عندهم[٣١٧]، فهو معين، فإن قيل: ما فائدة نفي الضدّ بعد إثبات ضده؟ قلت: التنبيه على أنّ المراد الذين لا يلحقهم غضب، فالوصف للاستمرار.

قال مقيده – عفا الله عنه – ثم ظهر لي بعد مدّة أنّ في السورة إشارة إلى حالة سيّدنا محمد ﷺ وبيانًا[٣١٨] لعظيم أحمديته لله – تعالى – فإنّ من أسمائه أحمد، وهو في الأصل أفعل، وصف به تفضيلاً له في الحمد على الإطلاق؛ إذ هو أحمد الحامدين، بل الحامدون كلهم نوابه وخلفاؤه ومظاهر تعيناته؛ إذ هو الذي عرفهم الحمد، وأرشدهم إليه، وأوصل لهم العلم، بمنشأه من الكمالات، وأوصل لهم نفس منشأه من الآلاء والنعم لعموم وساطته، فهو إذًا المثني على الإطلاق، والحامد في جميع الأوقات والآفاق، فخصّ بإنزال سورة الحمد المفتتحة به عليه، لذلك ففي قوله: (**الحمد لله**) إجلاءٌ لأحمديته وإبداءٌ لعظيم معرفته، وإنه الحامد بأكمل المحامد المتلبس بالحمد العام لجميع[٣١٩] المحامد الذي لا يخرج عنه فردٌ من أفرادها ولا ينفلت[٣٢٠] منه جزء من جزئياتها بطريق الإجمال، وأما بطريق التفصيل فأشار لتعدّده بقوله: (**لا أحصي ثناءً عليك**)[٣٢١].

وأشير برب[٣٢٢]. العالمين إلى حاله في الإقبال على الله والتعلّق به والانقطاع إليه، وقصر وجهته عليه، وعدم التفاته إلى السوي بالتصريح بأنه الربّ وغيره مربوب، حسبما اقتضاه قصر المحامد عليه، وتخصيصها به، فلا يحمد أحدٌ من العالمين إلاّ من حيث أمر سيّده بذلك، فيكون حامدًا له[٣٢٣].

وفي: ﴿الرحمن الرحيم﴾ إجلاءٌ للرحمة له والرحمة به[٣٢٤]؛ إذ ذاك على حسب الأحمدية لله وكمال خدمته، فيرحمه حتى يصير هو الرحمة يرحم به، ولكلٍّ كاملٍ في الحمد بحسب رتبته حظ[٣٢٥] من هذا المعنى، وهو معنى قوله في الحديث: (**في الأبدال بهم تمطرون، وبهم ترزقون**)[٣٢٦].

فوسط أسماء الرحمة بين العالمين، وملك يوم

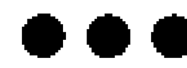
الدين، كما أنه ﷺ رحمة للعالمين، وكمال رحمته يظهر(٣٢٧) في يوم الدين عند مالكه – تعالى –.

وهذه الأوصاف الجليلة تتميمٌ لإجلاء أحمديته ﷺ؛ إذ هي أفرادٌ كبيرة(٣٢٨) وجزئياتٌ عظيمة من الحمد، وجيء(٣٢٩) بها بطريق التفصيل إظهارًا لشيءٍ من عظمة حمده الذي حمد به، وإبداء لبعض البعض مما تضمنه، واستلذاذًا بتعديد الثناء، وتنزّهًا في أمواج بحره.

و﴿إيّاك نعبد﴾ حمد آخر وثناء بأنه المعبود على جهة الخطاب بعد المعرفة والتوغّل في التعلّق والإقبال، تنبيهًا على أنّ المناجاة والمساررة والمواجهة والمخاطبة إنما تليق من عارف متوجه مقبل منقطع، وخصّت بالالتفات إلى الخطاب أيضًا؛ لأنها أبلغ في الحمد من جميع ما مرّ؛ إذ الحمد لله، وإن كان له من العموم ما تقدّم بيانه؛ لأنه(٣٣٠) حمدٌ لفظيّ وإقرارٌ لسانيّ مع حضور قلبي.

و﴿إيّاك نعبد﴾ معناه لك(٣٣١) نخضع غاية الخضوع بألسنتنا لما سبق وغيره من التفاصيل التي لا حصر لها(٣٣٢)، وبقلوبنا وبجباهنا وآنافنا(٣٣٣) ورؤوسنا ووجوهنا، وأيدينا وأرجلنا، وبكلّ ذرة من ذراتنا(٣٣٤)، فهذا الحمد هو الذي يليق أن يخاطب به الملك القدوس – جلّ جلاله – فافهم.

ولمّا كان هذا لا طاقة للعبد بمعرفته واستحضاره فضلاً عن التلبّس والإتيان له وتحصيله، أتبعه بحمدٍ آخر وهو الثناء عليه – تعالى – بأنه المستعان به على ذلك، وهذا الحمد العظيم الذي تضمنه ﴿إيّاك نعبد﴾ هو الشكر التام، أعني صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من سمعٍ وغيره إلى ما خلق وأعطاه لأجله، فهو الصراط المستقيم، فلا نقول ال في الصراط جنسية، بل عهدية مشارًا بها لذلك الحمد(٣٣٥) المتقدم، أي حققنا به وثبتنا عليه، وكل سائل يسأل بحسب حاله، فسيدنا وحبيبنا ومولانا محمدٍ(٣٣٦) ﷺ يقول: (اجعلني الجامع لأخلاق النبيين والمرسلين)(٣٣٧) استعانةً به – تعالى – على المقصود من قوله: ﴿فبهداهم اقتده﴾(٣٣٨). انتهى من خطّ مقيده – نفعنا الله به – بواسطة. ●



الحواشي

١ – حققت تقييدين منها، الأول: تقييدٌ على سورة الإخلاص، وقد نشر في مجلة كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، العدد الثالث عشر، ١٩٩٦م، والثاني تقييدٌ على آياتٍ من سورة الكهف، وقد نشر أيضًا في مجلة المناهل، التي تصدرها وزارة الشؤون الثقافية بالمغرب، العدد ٥٣، السنة الواحدة والعشرون، شعبان ١٤١٧هـ = ديسمبر ١٩٩٦م.

٢ – المخطوط ع ١٩٤ ص ٤.

٣ – المصدر نفسه: ٢٣.

٤ – المصدر نفسه: ٢٤.

٥ – المصدر نفسه: ٢٤.

٦ – المصدر نفسه: ٢٨.

٧ – شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: ٣٣٥، وسلوة الأنفاس: ١/١٥٨، ونشر المثاني: ٣/٣٣٨، والأعلام للزركلي: ٧/٦٩، ومعجم المؤلفين: ١٠/١٤٠، وفهرس الخزانة الخديوية: ٢/١٢١، وفهرس الخزانة التيمورية: ٢/١٤٧، وفهرس دار الكتب المصرية: ٧/١٧٥، وإيضاح المكنون: ١/١٢٢، وفيه إشارة إلى أنّ وفاته كانت بمصر.

٨ – تنظر المصادر السابقة، وفي حاشية سلوة الأنفاس: ١/١٦١ أنه توفي في الثامن والعشرين من شهر صفر فليحرر.

٩ – ينظر فهرس الخزانة الحسنية: ٦/ ٢٥٨ – ٢٥٩.

١٠ – المخطوط: ع ١٩٤، ص ١٣.

١١ – ينظر الفهرس الموجز لمخطوطات مؤسسة علال الفاسي: ٢/١٥٥.

١٢ – ينظر الفهرس الموجز: ٢/٥٥.

١٣ – ينظر فهرس الخزانة الحسنية: ٦/ ٢٥٨ – ٢٥٩.

١٤ – المصدر السابق نفسه: ٢٤٢.

١٥ – أضيف حرف الواو من ح٢، وفيها: وصلى الله على سيدنا محمد وآله، وفي ب و ح١ – صلى الله على سيدنا محمد وآله.

١٦ – في ح١، وح٢: للتعليق.

١٧ – سقط من ح١: وخبريتها.

١٨ – في ح١: إشكالات.

١٩ – شرح النصيحة الكافية، مخطوط بالخزانة الكتّانية، المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم ٢٦٠٨ك ص ٤ – ٥ ورقم ٢٥٩٥ ك ص ١٢.
٢٠ – سقط من ح٢: الحمد.
٢١ – ينظر فتح المجيد بكفاية المريد، مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ١٨١٧ د ص ٢ وإتحاف المريد بجوهرة التوحيد، مخطوط تحت رقم ٢٢١٨/٤ د ضمن مجموع من ص ١٣٠ – ٢٩٥، وكتاب هدية المريد بجوهرة التوحيد، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٦٠١د ص ٣ – ٤.
٢٢ – في ح١: لم.
٢٣ – في ح١: ابتدى.
٢٤ – في ب و ح٢: ولكمالاته.
٢٥ – في ح١: قال علي كرّم الله وجهه.
٢٦ – سقط من ح١: آخر.
٢٧ – ينظر تفسير الجلالين: ٢، وفيه: «(الحمد لله) جملة خبرية قصد بها الثناء على الله بمضمونها على أنه – تعالى – مالك لجميع الحمد من الخلق، أو مستحقّ لأن يحمدوه والله علم على المعبود بحق». والمحلي هو: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم، جلال الدين المحلي، الشافعي، أصولي مفسر، اشتغل وبرع في الفنون فقهًا، وكلامًا، وأصولاً، ونحوًا، ومنطقًا وغيرها، من كتبه «تفسير الجلالين» أتمّه الجلال السيوطي، و«البدر الطالع في حلّ جمع الجوامع»، وتوفي سنة ٨٦٤هـ. شذرات الذهب: ٣٠٣/٧ وما بعدها، والضوء اللامع: ٣٩/٧ وما بعدها، والأعلام: ٢٣٠/٦.
٢٨ – والسبكي هو: عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، تاج الدين السبكي، أبو نصر، من تصانيفه «طبقات الشافعية الكبرى» و«جمع الجوامع»، توفي سنة ٧٧١هـ. شذرات الذهب: ٢٢١/٦، والأعلام: ١١٦/٥، ومعجم المطبوعات العربية: ١٠٠٢/١ وما بعدها.
٢٩ – والكمال بن أبي الشريف هو: كمال الدين أبو المعالي محمد ابن الأمير ناصر الدين محمد بن أبي بكر بن أبي علي بن أبي شريف المقدسي، ولد بالقدس، ونشأ بها، وحفظ القرآن وعدة فنون، له مصنفات منها: «الإسعاد بشرح الإرشاد»، و«الدرر اللوامع بتحرير جمع الجوامع»، وهي حاشية على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع للسبكي، وتوفي سنة ٩٠٥هـ. معجم المطبوعات العربية: ١٠٦٨/٢.
٣٠ – والعبادي هو: شهاب الدين أحمد بن قاسم العبادي، المصري الشافعي، له حاشية على شرح جمع الجوامع في أصول الفقه، سمّاها «الآيات البيّنات»، وحاشية على مختصر السعد في المعاني والبيان. توفي سنة ٩٩٢هـ، وقيل ٩٩٤هـ. شذرات الذهب: ٤٣٤/٨، والأعلام: ١٨٩/١، وكشف الظنون: ٤٢٣/١.
٣١ – سقط من ب: أو المحمود.
٣٢ – ما بين المعقوفتين من ح١، وهي ساقطة من بقية النسخ.
٣٣ – في ح١: يستفد.
٣٤ – في ح١: عن ما بحث.
٣٥ – في ح٢: أي.
٣٦ – في ح١: محدود.
٣٧ – سقط من ب وح٢: به.
٣٨ – في ح١: الأريد وهو تحريف.
٣٩ – في ح١: دات.
٤٠ – في ح٢: يقدر.
٤١ – في ح٢: المقام.
٤٢ – سقط من ب: وأما.
٤٣ – في ح٢: ما زاد به، وهو تصحيف.
٤٤ – في ح١: الدات، وهو تصحيف.
٤٥ – جاء في كتاب هدية المريد بجوهرة التوحيد المحفوظة بالخزانة العامة تحت رقم ٦٠١د ص ٤: «والحمد لغةً: هو الثناء باللسان على الفعل الجميل الاختياري على جهة التعظيم، كان في مقابلة نعمة أم لا، واصطلاحًا: فعل ينبيء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا، سواءً كان ذلك الفعل اعتقادًا بالجنان، أو قولاً باللسان، أو عملاً بالأركان والأعضاء».

وكذا في مخطوط: «إتحاف المريد بجوهرة التوحيد» رقم ٢٢١٨/٤ ص ١٣٠.

وفي مخطوط: فتح المجيد بكفاية المريد رقم ١٨١٧ د ص ٢: «والحمد لغةً: الثناء بالجميل على الفعل الجميل الاختياري على جهة التعظيم والتبجيل، سواءً تعلّق بالفضائل؛ أي بالدرجات الرفيعة في الفضل أو بالفواضل، أي الأيادي الجسيمة أو الجميلة، والحمد عرفًا: فعلٌ ينبيء عن تعظيم المنعم من حيث إنه منعمٌ على الحامد أو غيره». وانظر تفسير البحر المحيط: ١٣٠/١.
٤٦ – في ح١: الجميع.
٤٧ – في ح١: تحصل.
٤٨ – ما بين المعقوفتين زيادة من ح١ يقتضيها السياق.
٤٩ – في ح١: للدهن: وهو تصحيف، والصحيح بالذال المعجمة.
٥٠ – في ح١: التي.
٥١ – نقل النووي عن الواحدي قوله: «الألف واللام في الحمد يحتمل كونها للجنس؛ أي جميع المحامد لله – تعالى – لأنه الموصوف بصفات الكمال في نعوته وأفعاله الحميدة، ويحتمل كونها للعهد: أي الحمد لله الذي حمد به نفسه، وحمدته أولياؤه، واللام في لله لام الإضافة، ولها معنيان الملك والاختصاص. تهذيب الأسماء واللغات: ٧٠.
٥٢ – في ح١: ناسب.
٥٣ – واللقاني هو: إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني، أبو الإمداد، برهان الدين، فاضل متصوف، له كتبٌ منها:

«جوهرة التوحيد»، و«بهجة المحافل»، توفي سنة ١٠٤١هـ. الأعلام للزركلي: ٢١/١، وهدية العارفين: ٣٠/١، واللقاني أيضًا ابنه عبد السلام بن إبراهيم اللقاني، المتوفى عام ١٠٧٨هـ. الأعلام للزركلي: ١٢٧/٤.

٥٤ – مخطوط محفوظ في الخزانة الكتانية المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٢٥٩٥ ك ص ١٠ – ١١.

٥٥ – قال ابن جزّي في: التسهيل لعلوم التنزيل ص ٣٣: قولنا (الحمد لله رب العالمين) أفضل عند المحققين من لا إله إلاّ الله لوجهين، أحدهما: ما خرّجه النسائي عن رسول الله ﷺ: (من قال لا إله إلاّ الله كتبت له عشرون حسنة، ومن قال: الحمد لله ربّ العالمين كتبت له ثلاثون حسنة)، وينظر تفسير القرطبي: ١٣٢/١. وأخرجه السيوطي في الجامع الصغير: ١/ ٢٥٦ – ٢٥٧ حديث رقم ١٦٨٤ وعزاه لأحمد في مسنده، وللحاكم في مستدركه، والضياء عن أبي سعيد وأبي هريرة معًا، حديث صحيح.

٥٦ – في ح٢: التوّاب، وهو تصحيف.

٥٧ – سقط من ح١: الشيخ.

٥٨ – هو: محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني من جهة الأم، أبو عبدالله، عالم تلمسان في عصره وصالحها، له تصانيف كثيرة، منها: شرح صحيح البخاري لم يكمله، وعقيدة أهل التوحيد وتسمى العقيدة الكبرى، توفي سنة ٨٩٥هـ. الأعلام للزركلي: ١٥٤/٧، ومعجم المطبوعات العربية: ١٠٥٨/١ وما بعدها.

٥٩ – في ح١: لأن.

٦٠ – سقط من ح١: به.

٦١ – جاء في شرح الحكم العطائية، المسمى بـ: تلخيص الحكم: ٢٦٦ ما نصّه: «من أكرمك إنّما أكرم فيك جميل ستره، فالحمد لمن سترك، ليس الحمد لمن أكرمك»، وصاحب الحكم هو: أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل تاج الدين، ابن عطاء الله الإسكندري، متصوّف شاذلي، من العلماء، له تصانيف منها: الحكم العطائية، وتاج العروس في الوصايا والعظات، توفي سنة ٧٠٩هـ. الأعلام: ٢١٣/١.

٦٢ – الأعراف: ١٨٨.

٦٣ – في ب: المعبرة.

٦٤ – النور: ٢١.

٦٥ – وردت هذه الأبيات في كتاب: رابعة العدوية عذراء البصرة البتول: ١٩٣.

ورابعة العدوية هي: رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية، صالحة مشهورة، من أهل البصرة، توفيت سنة ١٣٥هـ. الأعلام: ٣١/٣.

٦٦ – في ب: يقول.

٦٧ – في ح٢: بي، بدلاً من لي، وهو مخالفٌ لما جاء في كتاب رابعة العدوية عذراء البصرة البتول: ١٩٣.

٦٨ – في ح١: وداك – بالدال المهملة – وهو تحريف.

٦٩ – ينظر شرح الصغرى للسنوسي، مخطوطٌ بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٦٠٣ د ص١.

٧٠ – في ب: مختلفة.

٧١ – قال ابن كثير في تفسيره ٧٨/١: وقال ابن المعتز:

فيا عجبًا كيف يعصي الإلـه ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كلّ شيءٍ له آيـة ... تدلّ على أنه الواحد

وقال صاحب: تأملات في سورة البقرة ١٨٥/١: «نسب البيتان في تفسير ابن كثير لابن المعتز، ونسبا في البداية والنهاية لأبي العتاهية، والبيتان بأبي العتاهية ألصق، ولسلوكه في أواخر حياته أقرب».

٧٢ – في ح١: محمد رسول – ﷺ –.

٧٣ – في ح٢: قبور الأولياء.

٧٤ – ما بين المعقوفتين من ح١، يقتضيها السياق.

٧٥ – سقط من ب وح٢: ليس.

٧٦ – في ب، وح١: هذا بعد.

٧٧ – في ح٢: إلى المتعلق.

٧٨ – في ب: بذلا، وفي ح٢: حاصلٌ بذلك.

٧٩ – في ب وح٢: النعمة.

٨٠ – الأنعام: ١.

٨١ – الإسراء: ١١١.

٨٢ – إبراهيم: ٣٩.

٨٣ – المؤمنون: ٢٨.

٨٤ – في ب: لا يلزم أن يكون فرح المحامد بهل، بل.

٨٥ – في ح١: والشكر بها، وفي ح٢: والشكر بهذا.

٨٦ – وأبو عبدالله ابن عباد هو: محمد بن إبراهيم بن عبدالله بن مالك بن عباد النفزي، أبو عبدالله، المعروف بابن عباد، متصوّف باحث من أهل رندة بالأندلس، له كتبٌ منها الرسائل الكبرى، ومتشابه الآيات، توفي سنة ٧٩٢هـ. الأعلام: ١٩٠/٦.

٨٧ – في ب وح٢: به بدلاً من بالله.

٨٨ – والشيخ زروق هو: أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، أبو العباس، زروق، فقيه محدّث صوفي، من أهل فاس بالمغرب، له تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، وانفرد بجودة التصنيف في التصوّف من كتبه: شرح مختصر خليل، والنصيحة الكافية فيمن خصّه الله بالعافية، توفي سنة ٨٩٩هـ. انظر شذرات الذهب: ٣٦٣/٧، والأعلام: ١/ ٨٧ – ٨٨.

٨٩ – في ح٢: بليته.

٩٠ – مخطوط بالخزانة الكتانية المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط

تحت رقم ٢٦٠٨ ك ص٤، والمخطوط رقم ٢٠٩٥ ك ص ١١ - ١٢.

٩١ - الكهف: ١، وينظر شرح النصيحة الكافية لابن زكري، مخطوط تحت رقم ٢٠٩٥ ك ص ١٢.

٩٢ - في ح٢: بها.

٩٣ - مخطوط رقم ٢٦٠٨ك ص ٤.

٩٤ - في ح١: إنما بدون واو قبلها.

٩٥ - ما بين المعقوفتين من ح١.

٩٦ - في ح١: محدور بالدال المهملة.

٩٧ - سقط من ب: لأن نسبة الإنشائية، وأما ح٢: فقط سقط منها: لأن نسبة.

٩٨ - في ب وح٢: فرد.

٩٩ - في ح٢: ضرب عمرًا.

١٠٠ - سقط من ح١: حال.

١٠١ - في ح١: أجل.

١٠٢ - هو قطب الدين أبو الخير عيسى بن محمد بن عبيدالله بن محمد، العلاّمة المحقّق المدقّق، الشافعي، الصوفي، المعروف بالصفوي، نسبةً إلى جده لأمه السيد صفي الدين، وله مؤلفاتٌ منها: شرح مختصر على الكافية، وشرح الفوائد الضيائية في النحو، ورسالة في الحمدلة، توفي عام ٩٥٣هـ. ينظر شذرات الذهب: ٨/٢٩٧، والأعلام: ٥/١٠٨.

١٠٣ - في ح١: عن ما ذكره.

١٠٤ - هو ياسين بن زين الدين بن أبي بكر، الشهير بالعليمي، شيخ عصره في علوم العربية، له حواش كثيرة، منها: حاشية على ألفية ابن مالك، وحاشية على شرح السنوسي على صغراه، وحاشية على التصريح شرح التوضيح، توفي سنة ١٠٦١هـ. الأعلام: ٨/١٣٠.

١٠٥ - في ح١: ثم هذا الأسلوب مفيدٌ لغيره، فإن قيل لو كان هذا مكتفى...

١٠٦ - في ح١: أبو بكر وأتباعه إلى يوم القيامة لتقديم المسند.

١٠٧ - سقط من ح١: لله.

١٠٨ - في ح١: ونتيجته ذلك، استعين به.

١٠٩ - في ح١: كالتثنية.

١١٠ - في ح٢: أن.

١١١ - في ح١: أفعله.

١١٢ - في ب: إذ لم.

١١٣ - في ح١: كما تترتب على الحسنى يترتب عليها.

١١٤ - في ح١: النسر.

١١٥ - سقط من ح١: إلى غيرها.

١١٦ - في ح١ وبالصبر وحفظه، وبالسمع وحفظه، بل وبكل... أي إن هذه النسخة انفردت بزيادة: وبالسمع وحفظه.

١١٧ - في ح١ : درة بالدال المهملة، وهو تصحيف.

١١٨ - في ح١ : ذلك.

١١٩ - في ب : الماكول.

١٢٠ - في ح١ : تبارك.

١٢١ - في ح١ : وتمراتها، بالتاء المثناة.

١٢٢ - في ح١ : بعد.

١٢٣ - ما بين المعقوفتين من ح١، وقال ابن عباد: «نعمتان ما خرج موجود عنهما، ولا بدّ لكلّ مكوّن منهما: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد». غيث المواهب العليّة مخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم ٨٠٩٣ الورقة ٣٧.

١٢٤ - في ح٢ : بها.

١٢٥ - في ح١ : تعبد.

١٢٦ - قال الزمخشري في الكشاف: ١/٦٤ وما بعدها: «إنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلّق العلم بمعلومٍ عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع، والاستعانة في المهمات. فخوطب ذلك المعلوم المتميّز بتلك الصفات، فقيل: إيّاك يا من هذه صفاته تخصّ بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك، ولا نستعينه؛ ليكون الخطاب أدلّ على أن العبادة له لذلك التميّز الذي لا تحقّ العبادة إلاّ به، فإن قلت: لم قرنت الاستعانة بالعبادة؟ قلت: ليجمع بين ما يتقرّب به العباد إلى ربهم، وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته».

١٢٧ - في ح٢ : الصفة، وفي الكشاف: الصفات العظام.

١٢٨ - في ح٢ : خطب، وهو تحريف.

١٢٩ - في ح١ والكشاف : التميز.

١٣٠ - في ح١ : تحقّق، وهو مخالف لما في الكشاف.

١٣١ - في ح١ : أغرق.

١٣٢ - في ح١ : تعليق.

١٣٣ - في ح١ : بالعلة.

١٣٤ - في ح١ : يصلح.

١٣٥ - الكشاف : ١/٥٣.

١٣٦ - في ب وح٢ : فتقول.

١٣٧ - في ح٢: الترتيبية.

١٣٨ - من قوله: مستبعد إلى قوله المبالغة في ساقط من ب وح٢.

١٣٩ - في ح٢ : بحصول.

١٤٠ - سقط من ح١. وغفرو، ولعل الصحيح غافر؛ لأنه قال: صح استعمال فاعل فيها كقادر.

١٤١ - الطارق : ٨.

١٤٢ - يس : ٨١.

١٤٣ - فاطر : ١.

١٤٤ - في ح١ : عظيم.

١٤٥ - في ح٢ : فاحجر.

١٤٦ - المحرر الوجيز: ١/ ٦٣ - ٦٤، والكشاف: ١/٤١.

١٤٧ - في ح١ : بعد.

١٤٨ - الفاتحة : ٣ - ٤.

١٤٩ – في ح١ : لغير، ولعلها أصح.
١٥٠ – شرح التسهيل: ١/١١٥ وما بعدها، وابن مالك هو: محمد بن عبدالله بن عبدالله بن مالك العلاّمة جمال الدين، أبو عبدالله، الطائي، إمام النحاة وحافظ اللغة، من تصانيفه: تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، والألفية، توفي عام ٦٧٢هـ. بغية الوعاة: ١/١٣٠ وما بعدها، وكشف الظنون: ١/٤٠١.
١٥١ – في ح١ : والنكرة.
١٥٢ – في ح١ : كما تعرف بدلاً من: معنى كالمعرف.
١٥٣ – في ح١ : الأفراد.
١٥٤ – الكشاف : ١/٥٦.
١٥٥ – في ب وح٢ : مجمل.
١٥٦ – الإسراء : ٤٤. وفي ح١: بحمدٍ بدلاً من بحمده، وهو تحريف.
١٥٧ – لم نهتدِ إلى هذا الكتاب، وصاحبه.
١٥٨ – في ح١ : لا أسلم.
١٥٩ – في ح١ : النكث بالثاء.
١٦٠ – في ح٢ : بينة.
١٦١ – وهي حاشية على توضيح ابن هشام، لم تكتمل، بلغ فيها إلى المفعول المطلق. ينظر سلوة الأنفاس: ١/١٦٠، وشجرة النور الزكية: ٣٣٥، ونشر المثاني: ٣/٣٣٨.
١٦٢ – في ح١ : وإنه بدلاً من: وهو أنه.
١٦٣ – في ح٢ : مقياس.
١٦٤ – سقط من ب وح٢: في أنت الرجل.
١٦٥ – في ب وح٢ : الأسود.
١٦٦ – في ح١ : في نحو: زيد قمر وغصن وأسد لما فيها من معنى مضيء.
١٦٧ – في ح١ : وشجاع بعد ومعتدل.
١٦٨ – في ح١ :

وفي كــــلِّ شــــيءٍ لـــــه آيـــــة

تـــدل عـــلـــى أنّـــه الـــواحـــد

١٦٩ – شرح الحكم العطائية للبريفكاني: ١٤٨.
١٧٠ – في ب وح٢ : أظهر كل شيء.
١٧١ – سقط من ب وح٢: وإلى الثانية بقوله.
١٧٢ – سقط من ح١ : كيف يتصور أن يحجبه شيء.
١٧٣ – سقط من ب : الذي أظهر كلّ شيء.
١٧٤ – في ب وح٢ : وهذا بدلاً من وهو.
١٧٥ – في ح١ : يكن.
١٧٦ – جاء في شرح الحكم: ٣٤٦: «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك».
١٧٧ – ذكره القرطبي في تفسيره: ١/١٣٩. والجنيد هو: الجنيد ابن محمد بن الجنيد البغدادي، أبو القاسم، صوفي من العلماء بالدين، وهو أول من تكلّم في علم التوحيد وعدّه العلماء شيخ مذهب التصوّف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنّة، توفي سنة ٢٩٧هـ. شذرات الذهب: ١٠/٢٥٥ وما بعدها، والأعلام: ٢/١٣٧ وما بعدها.
١٧٨ – سقط من ح١ : وفي.
١٧٩ – في ب : لا يليق.
١٨٠ – مريم : ٩٣.
١٨١ – إبراهيم : ٣١.
١٨٢ – في ب وح٢ : إلى أن تقل لهم.
١٨٣ – في ح١ : بالمخالفة.
١٨٤ – في ح١ : واقتدار.
١٨٥ – أخرج مسلم في صحيحه: ٤/٢٠٢٤ عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: (رُبَّ أشعَثَ مدفوعٌ بالأبواب، لو أَقْسَمَ على اللهِ لأَبَرَّهُ).
١٨٦ – في ح١ : التالي.
١٨٧ – ما بين المعقوفتين من ح١ يقتضيها السياق.
١٨٨ – في ح٢ : ويقدّر.
١٨٩ – في ح١ : وهذا.
١٩٠ – ما بين المعقوفتين من ح١.
١٩١ – في ب وح٢: خادمي، وفي ح١: وخدمي.
١٩٢ – الإيضاح في علوم البلاغة: ١/ ١٢٥ – ١٢٦، والقزويني هو: محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد أبو المعالي، قاضي القضاة، جلال الدين القزويني، وله من التصانيف: تلخيص المفتاح في المعاني والبيان، وله إيضاح التلخيص، مات سنة ٧٣٩هـ. بغية الوعاة: ١/ ١٥٦ – ١٥٧.
١٩٣ – في ح١ : للإضافة.
١٩٤ – إبراهيم : ٣١.
١٩٥ – انظر المحرر الوجيز: ٣/٣٣٨ وما بعدها، والبحر المحيط: ٥/٤١٤ وما بعدها، وإرشاد العقل السليم: ٥/٤٦.
١٩٦ – في ح١ : على.
١٩٧ – بدر الدين ابن مالك هو: محمد بن محمد بن عبدالله بن مالك الطائي، أبو عبدالله، بدر الدين، نحوي، هو ابن ناظم «الألفية» له: شرح الألفية، والمصباح، في المعاني والبيان، توفي سنة ٦٨٦هـ. شذرات الذهب: ٥/٣٩٨، والأعلام: ٧/٢٦٠.
١٩٨ – في ح١ : يقم.
١٩٩ – انظر: إرشاد العقل السليم: ٥/٤٦.
٢٠٠ – الأنعام : ١٥١.
٢٠١ – في ح٢ : قلت.
٢٠٢ – في ب وح٢ : جعل.
٢٠٣ – في ح١ : محدوفاً بالدال المهملة.
٢٠٤ – البحر المحيط: ٥/٤١٤ وما بعدها، وأبو حيّان هو: محمد ابن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيّان الأندلسي، أثير الدين، أبو حيّان، من كبار العلماء بالعربية والتفسير

والحديث والتراجم واللغات، من كتبه: البحر المحيط، والنهر، توفي سنة ٧٤٥هـ. شذرات الذهب: ٦/١٤٥، والأعلام: ٨/٢٦.
٢٠٥ - الفرقان :١.
٢٠٦ - سقط من ح١ : ليكون الآية.
٢٠٧ - ٢٠٨ : ما بين الرقمين ساقطٌ من ح٢.
٢٠٩ - في ح١ : اكتسبه.
٢١٠ - في ح٢ : وغير العاقل معاملة العاقل في القِلّة، وهي غير ملائمة، فإن قيل: عولم نصّ في الكثرة وعالمون في القِلّة، وهي غير ملائمة، قلت: محل كون جمع السامة إلخ...
٢١١ - ما بين المعقوفتين من ح١.
٢١٢ - في ب : معاملة العاقل في القِلّة، وهي غير ملائمة، فإن قيل: عوالم نص في الكثرة وعالمون.
٢١٣ - فصّلت : ١١.
٢١٤ - سقط من ح١ : منه.
٢١٥ - تقاييد ابن زكري كثيرة يصعب تتبّعها لمعرفة قوله هذا.
٢١٦ - الديوان: ١٩٨.
٢١٧ - في ديوان حسان: بالضحى.
٢١٨ - ما بين المعقوفتين من ح١.
٢١٩ - في ح١ : تصف.
٢٢٠ - سقط من ب : أخرج.
٢٢١ - في تفسيره: ١/١٤٦، وأورده السيوطي في الدرّ المنثور: ١/١٣ عن ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية. وابن جرير هو: محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، المؤرخ المفسِّر الإمام، له: أخبار الرسل والملوك، وجامع البيان في تفسير القرآن، توفي سنة ٣١٠هـ. الأعلام: ٦/٢٩٤.
٢٢٢ - سقط من ح١ : وابن.
٢٢٣ - ابن أبي حاتم هو: عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم بن إدريس بن المنذر التميمي، أبو محمد، حافظ للحديث من كبارهم، له تصانيف منها: الجرح والتعديل، والتفسير، وعلل الحديث. توفي سنة ٣٢٧هـ. تذكرة الحفاظ: ٣/٨٢٩، والأعلام: ٤/٩٩.
٢٢٤ - ما بين الرقمين ساقط من ب وح٢.
٢٢٥ - في ح١: والأرض.
٢٢٦ - سقط من ب: وأخرج.
٢٢٧ - أبو الشيخ هو: عبدالله بن محمد بن جعفر بن حبّان، الحافظ، أبو محمد الأصبهاني، المعروف بأبي الشيخ ابن حبّان، من تصانيفه: كتاب السنّة، وكتاب العظمة، توفي سنة ٣٦٩هـ. النجوم الزاهرة: ٤/١٣٦، وهدية العارفين: ١/٤٤٧.
٢٢٨ - في ح١: أبو الشيخ أبو نعيم، وما جاء في الأصل وبقية النسخ موافقٌ لما في الدرّ المنثور للسيوطي: ١/١٣، إذ قال: «وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية عن وهب، قال: «إن لله - عزّ وجلّ - ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا منها عالم واحد»، وأبو نعيم هو: الحافظ أبو نعيم ابن عبدالله الأصبهاني، المتوفى سنة ٤٣٠هـ، صاحب «حلية الأولياء» في الحديث. كشف الظنون: ١/٦٨٩، والأعلام: ١/١٥٠.
٢٢٩ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ٤/٧٠.
٢٣٠ - في ح١: أخس، ولعله الصواب، إذ جاء في المصباح المنير: ٩٠ خس: «خس: الشيء يخس من بابي ضرب وتعب خساسة: حقر».
٢٣١ - في ح٢ : تأدب، وهو تحريف.
٢٣٢ - الذاريات: ٢١، وسقط من ح١: (أفلا تبصرون).
٢٣٣ - في ح٢: أن.
٢٣٤ - في ح١: الفحش وفي ح٢: الوخش، والوخش: الدنيء. انظر المصباح المنير: ٢٣٦ مادة وخش.
٢٣٥ - في ب: وفيه تقوية على الآمال.
٢٣٦ - في ح١: المساوي.
٢٣٧ - في ح٢: تحقيق، وهو تحريف.
٢٣٨ - الشبلي هو: أبو بكر الشبلي دلف بن جحدر، وقيل: جعفر ابن يونس، وقيل: غير ذلك، اشتهر بالصلاح، له شعرٌ جيّد، سلك به مسالك المتصوفة، وصحب الجنيد ومن في عصره، ومات سنة ٣٣٤هـ. النجوم الزاهرة: ٣/٢٨٩، وتاريخ بغداد: ١٤/٣٨٩ وما بعدها، والأعلام: ٣/ ٢٠ - ٢١.
٢٣٩ - في ح٢: بمندل.
٢٤٠ - في ح٢: المندل.
٢٤١ - أضفت التاء لأنّ السياق يقتضيها.
٢٤٢ - في ح٢: وعنلب المندل.
٢٤٣ - في ح١: أيّ شيء.
٢٤٤ - في ح٢: فبرديت.
٢٤٥ - قال السهيلي في التعريف والإعلام: ١٣٣: اسمه عبد الغفار، وسمي نوحًا - فيما ذكروا - لكثرة نوحه على نفسه، وتقصيره في طاعة ربه.
٢٤٦ - في ح١: أي شيء.
٢٤٧ - ما بين المعقوفتين من ح١، وأما الأصل ففيه فراغ يقدر بثلاث كلمات.
٢٤٨ - في ح١: الشيء.
٢٤٩ - الحشر : ٢٣.
٢٥٠ - الحديد : ٣.
٢٥١ - التحريم : ٥.
٢٥٢ - التوبة : ١١٢.
٢٥٣ - غافر : ٣.
٢٥٤ - في ح١: لا ينفع.
٢٥٥ - في ب: على اجتماع الظهور والبطون، والثانية للتصريح باجتماع...إلخ. وفي ح٢: والأولى للتنصيص على اجتماع

الظهور والبطون، والثانية للتصريح باجتماع اجتماعين بين متقابلين.

٢٥٦ – ٢٥٧ : ذكرتهما على الترتيب بخلاف ما جاء في الأصل: إذ قدّم الثالثة على الثانية.

٢٥٨ – في ح٢ : إليه.

٢٥٩ – ما بين المعقوفتين من ح١.

٢٦٠ – طه : ٥.

٢٦١ – التسهيل لعلوم التنزيل: ٣١، وابن جزي هو: محمد بن أحمد ابن محمد بن عبدالله، ابن جزّي الكلبي، أبو القاسم، فقيهٌ من العلماء بالأصول واللغة، من كتبه: القوانين الفقهية، والتسهيل لعلوم التنزيل، توفي سنة ٧٤١هـ. الأعلام: ٢٢١/٦.

٢٦٢ – في ح٢: لسبب صنعه.

٢٦٣ – في ح١: وإيجاده.

٢٦٤ – الكشاف : ٤٥/١.

٢٦٥ – في ح١: فإن قلت فلم.

٢٦٦ – في الكشاف: إلى الأعلى.

٢٦٧ – في ب : لم وهو مخالفٌ لما في الكشاف.

٢٦٨ – في الكشاف : ولطف بدون ما، وقال أبو حيّان في البحر المحيط: ١٢٨/١: ليتناول ما دقّ منها ولطف، واختاره الزمخشري.

٢٦٩ – هذا الحديث أورده أغلب المفسرين بتقديم وتأخير في ألفاظه، منهم الطبري في جامع البيان: ١/ ١٢٧ – ١٢٨، وابن عطية في المحرر الوجيز: ٦٤/١، والزمخشري في الكشّاف: ٤١/١، وأبي السعود في إرشاد العقل السليم: ١١/١. وتعقبه ابن كثير قائلاً: «وهذا غريبٌ جداً، وقد يكون صحيحًا إلى ما دون رسول الله ﷺ ، وقد يكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات، وذكر أحمد محمد شاكر أن إسناده ضعيف. ينظر جامع البيان: ١٢٧/١ هامش ٢ وص ١٢١هـ ٢ في تعليقه على الحديث: ١٤٠.

٢٧٠ – في ح١: تكررها ومعرفة.

٢٧١ – الحشر : ٢٤.

٢٧٢ – في ح١ : الداث بالدال المهملة، وهو تحريف.

٢٧٣ – ينظر الكشاف: ٤١/١ وما بعدها.

٢٧٤ – في ب وح٢: السكوتي وهو تحريف، وهو أبو علي عمر بن محمد خليل السكوني المغربي، المتوفى سنة ٧١٧هـ، صنّف كتاب التمييز على الكشّاف. كشف الظنون: ١٤٨٢/٢. توجد نسختان منه بالخزانة الحسنية. الأولى تحت رقم ٢٥٩٥ مصابة بتآكل من أطرافها، ولم نتمكن من الاطلاع عليها، والثانية تحت رقم ٨٧٨٠ وهي لا تحتوي إلاّ على مقدمة الكتاب، وموضوعها أصول الدين. فهرس الخزانة الحسنية: ٢٢٧/٦.

٢٧٥ – في ح٢: بما.

٢٧٦ – ما بين الرقمين ساقط من ب وح٢.

٢٧٧ – في ح١: اللحظات وهو تحريف.

٢٧٨ – في ب: الأنفس.

٢٧٩ – في ح١: انفراده.

٢٨٠ – في ح١: وغير مستغل، وسقط من ب وح٢. وغير مستقل، بل مدعم بالمادة كما أفاده: (الرحمن الرحيم).

٢٨١ – لم نهتدِ إلى هذا الحديث.

٢٨٢ – قال ابن عباد في: غيث المواهب العليّة، مخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم ٨٠٩٣ الورقة ٣٧: «قال سيدي أبو مدين: الحق – تعالى – مستبد الوجود مستمر، والمادة من عين الوجود، فلو انقطعت المادة انهدّ الوجود». وسيدي أبو مدين هو: شعيب بن الحسن، وقيل: الحسين الأندلسي الزاهد، العارف، شيخ أهل المغرب، وكان من أهل العمل والاجتهاد، منقطع القرين في العبادة والنسك، بعيد الصيت، ونشر الله ذكره، وتخرّج به جماعةٌ من الفضلاء، وانتهى إليه كثيرٌ من العلماء المحققين وفضلاء الصالحين، توفي سنة ٥٩٤هـ. شذرات الذهب: ٣٠٣/٤، والأعلام: ٢٤٤/٣.

٢٨٣ – في ح١ : رضي الله عنه ونفعنا به.

٢٨٤ – أضفت قوله تعالى: (ملك) لأن المقام يقتضيها، وهو مراد المؤلف من كلامه، وهو الوارد أيضًا في قوله فيما بعد: «وهذا هو المعنى في قوله: (ملك يوم الدين).

٢٨٥ – ما بين المعقوفتين باستثناء (ملك) من ح١.

٢٨٦ – في ح١: مالك.

٢٨٧ – ينظر لطائف الإشارات: ١/ ٤٧ – ٤٨، والقشيري هو: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، أبو القاسم، كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب، والشعر، وعلم التصوّف. من تصانيفه: التفسير الكبير، سمّاه التيسير في علم التفسير، والرسالة القشيرية، والفصول في الأصول، توفي سنة ٤٦٥هـ. معجم المطبوعات العربية: ٢/ ١٥١٣ – ١٥١٤، ومعجم المؤلفين: ٦/٦.

٢٨٨ – آل عمران : ٢٦.

٢٨٩ – في التسهيل: بالمالك لما له.

٢٩٠ – الأنعام : ٧٣.

٢٩١ – في التسهيل: أو مالك مجيء يوم الدين.

٢٩٢ – في التسهيل لعلوم التنزيل: ٣٣، وانظر تفسير القرطبي: ١٤٠/١.

٢٩٣ – لم نهتد إلى هذا القول في المراجع التي بين أيدينا.

٢٩٤ – ما بين المعقوفتين كلامٌ غير مستقيم المعنى، ولعل صوابه: بين عين.

٢٩٥ – الحج : ٥٦.

٢٩٦ – الانفطار : ١٩.

٢٩٧ – أخرج مسلم في صحيحه: ١٧٦٤/٤ عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي. كلكم عبيد الله، وكلُّ نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي).

٢٩٨ – الكشاف: ٥٨/١ وما بعدها بتصرّف.

تقييد على سورة الفاتحة

٢٩٩ – أضفت كلمة: ندحض، بدلاً من الكلمة الواردة في المخطوط، مضحل لعل المعنى يستقيم معها.
٣٠٠ – الفاتحة : ٥.
٣٠١ – ما بين المعقوفتين من ح١، وهو ساقط من بقية النسخ.
٣٠٢ – في ح١: إجزاء.
٣٠٣ – في ح١: بأهله.
٣٠٤ – في ح٢: فإن قيل: العطف، قلت الوجهين، أخوهما أن قوله (إيّاك نعبد) كما سبق محض كلّ من الفعلين بمفعوله.
٣٠٥ – ما بين الرقمين ساقط من ب.
٣٠٦ – في ح١: إجزاء وهو تحريف.
٣٠٧ – في ح١: التحقيق.
٣٠٨ – في ح١: مجو.
٣٠٩ – في ح١: وثانيها.
٣١٠ – في ح١: إن شئت بدون واو.
٣١١ – في ح١: يخاطبه.
٣١٢ – سقط من ح١: الملك.
٣١٣ – ما بين المعقوفتين من ح١.
٣١٤ – آل عمران : ٣٦.
٣١٥ – يوجد فراغ في الأصل بعد في محله قوله، وهذه الآية من ح٢.
٣١٦ – فاطر : ٣٧.
٣١٧ – سقط من ح١: عندهم.
٣١٨ – في ح١: وبيان.
٣١٩ – في ح١: بجميع.
٣٢٠ – في ح٢: يلتفت.
٣٢١ – في ب: عليه، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٣٥٢، وابن ماجه في سننه: ١/٣٧٣.
٣٢٢ – في ح١: في ربّ.
٣٢٣ – سقط من ح١، وح٢: له.
٣٢٤ – سقط من ب وح٢: به.
٣٢٥ – في ح١: خط، وهو تحريف.
٣٢٦ – لم نعثر على هذا الحديث.
٣٢٧ – في ح١: يطهر، وهو تحريف.
٣٢٨ – في ح١: كثيرة.
٣٢٩ – في ح١: جيء بدون واو قبلها.
٣٣٠ – في ح١: لكنه.
٣٣١ – في ب: لا تخضع.
٣٣٢ – في ح١: لا حصر بقلوبنا.
٣٣٣ – في ح٢: أكنافنا.
٣٣٤ – في ب وح١، وح٢: درّة من درّاتنا: بالذال المهملة.
٣٣٥ – سقط من ح٢: الحمد.
٣٣٦ – سقط من ب: محمد.
٣٣٧ – لم نهتد إليه.
٣٣٨ – الأنعام : ٩٠.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم، برواية قالون.

الأصبهاني : أبو نعيم.

– حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

الأنصاري : حسان بن ثابت.

– ديوان حسان بن ثابت، شرح عمر فاروق الطبّاع، دار القلم، بيروت، د.ت.

باجودة : حسن محمد.

– تأملات في سورة البقرة، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٤١٠هـ.

البريفكاني : نور الدين.

– شرح الحكم العطائية، تح. أحمد مصطفى الكزني، الناشر العربي، القاهرة، د.ت.

البغدادي : أحمد بن علي.

– تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت.

البغدادي : إسماعيل باشا.

– إيضاح المكنون، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

– هدية العارفين، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

ابن تغري بردي : يوسف.

– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت.

ابن جزي : محمد بن أحمد.

– التسهيل لعلوم التنزيل، الدار العربية للكتاب، د.ت.

ابن الحجاج : مسلم.

– الجامع الصحيح، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.

أبو حيّان.

– البحر المحيط، تح. عادل أحمد عبد الموجود ورفاقه، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

خليفة : حاجي.

– كشف الظنون، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

الذهبي.

– تذكرة الحفاظ، ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

الزركلي : خير الدين.

– الأعلام، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت.

ابن زكري :

– تقييد على سورة الإخلاص، تح. عبدالله محمد النقراط، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ع١٣، طرابلس – ليبيا، ١٩٩٦م.

– تقييد على قوله تعالى: إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها، تح. عبدالله محمد النقراط، مجلة المناهج س٢١/ شعبان ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

- شرح النصيحة الكافية، مخطوط، الخزانة العامة بالرباط، رقم ٢٥٩٥ك/ ٢٦٠٨ك.

الزمخشري.

- الكشاف عن حقائق التنزيل، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

السخاوي : شمس الدين.

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

سركيس : يوسف إليان.

- معجم المطبوعات العربية والمعربة، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، د.ت.

أبو السعود.

- إرشاد العقل السليم، ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

السنوسي :

- شرح العقيدة الصغرى، مخطوط، الخزانة العامة بالرباط، رقم ٦٠٣د.

السهيلي : عبد الرحمن.

- التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من أسماء الأعلام، تح. عبدالله محمد النقراط، ط١، منشورات كلية الدعوة، طرابلس - ليبيا، ١٤٠١هـ = ١٩٩٢م.

السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر.

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
- تفسير الجلالين، تح. مصطفى الحديدي الطير، مكتبة مصر، القاهرة.
- الجامع الصغير، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار المعارف، بيروت، د.ت.

الطبري : محمد بن جرير.

- جامع البيان عن تأويل القرآن، تح. محمود شاكر، وأحمد شاكر، دار المعارف بمصر، د.ت.

ابن عطية : عبد الحق بن عطية.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح. عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

ابن العماد.

- شذرات الذهب، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، د.ت.

القادري : محمد بن الطيب.

- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تح. محمد حجي، وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م.

القرطبي :

- الجامع لأحكام القرآن، ط٢، دار الشام للتراث، بيروت.

القزويني.

- الإيضاح في علوم البلاغة، شرح محمد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٨٩م.

القشيري.

- لطائف الإشارات، تح. إبراهيم بسيوني، ط٢، مركز تحقيق التراث، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١م.

قنديل : عبد المنعم.

- رابعة العدوية عذراء البصرة البتول، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، د.ت.

الكتاني : محمد بن جعفر.

- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس.

ابن كثير.

- تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

كحالة : عمر رضا.

- معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

اللقاني : عبد السلام بن إبراهيم.

- إتحاف المريد بجوهرة التوحيد، مخطوط، الخزانة العامة بالرباط، رقم ٢٢١٨د/٤.
- فتح المجيد بكفاية المريد، مخطوط، الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٨١٧د.
- هدية المريد بجوهرة التوحيد، مخطوط، الخزانة العامة بالرباط، رقم ٦٠١د.

ابن ماجة.

- سنن ابن ماجة، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

ابن مالك : محمد بن عبد الله.

- شرح التسهيل، تح. عبد الرحمن السيد، ومحمد بدوي المختون، ط١، دار هجر، القاهرة، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

مخلوف : محمد.

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت.

النفربي : محمد بن عبّاد.

- غث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية، مخطوط، الخزانة الحسنية، رقم ٨٠٩٣.

النووي : يحيى بن شرف.

- تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

ما ظهر لفظه وخفي معناه من كتاب الله

الحلقـة الثانيـة

الدكتور/ طه ياسين ناصر الخطيب
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
دبي - الإمارات العربية المتحدة

سورة النساء

٢ - ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ : ظاهر الآية الأمر بدفع المال لليتيم، ولا يجوز في حكم الشرع أن يُدفع المال له ما دام متصفًا بهذه الصفة ؛ إذ اليتم خاص بمن لم يبلغ ، وهو حينئذٍ غير صالح للتصرّف في ماله ، فتعيَّن تأويل لفظ الإيتاء أو بتأويل اليتيم.

فنقول : المراد بآتوا : احفظوا أموالهم حتى تعطى إليهم سالمة إذا بلغوا ، أو يؤول لفظ اليتامى بالذين جاوزوا حدّ اليتم ، ويبقى الإيتاء بمعنى الدفع ، ويكون التعبير عنهم باليتامى للإشارة إلى وجوب دفع أموالهم إليهم فور خروجهم من حدّ اليتم(١).

٥ - **﴿ولا تؤتوا السفهاءَ أموالَكُم التي جعلَ اللهُ لكمْ قِيامًا﴾** معنى **﴿قياما﴾**: تقوم بها معايشكم(٢).

٩ - **﴿وَلْيَخْشَ الذينَ لو تركوا مِنْ خلفهمْ ذريةً ضِعافًا خافوا عليهم فليتقوا اللهَ وليقولوا قولاً سديدًا﴾**: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: هذا في الرجل يحضره الموت، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصواب، فينظر لورثته، كما كان يحب أن يُصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة، وهكذا قال مجاهد وغير واحد.

وقيل: فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى **﴿ولا تأكلوها إسرافًا وبِدارًا أنْ يكبَروا﴾**... وهو قولٌ حسن يتأيّد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلمًا؛ أي: كما تحب أن تعامَل ذريتك من بعدك، فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم(٣).

ومعنى **﴿لو تركوا﴾**: شارفوا أن يتركوا(٤).

١١ - **﴿فإن كان له إخوةٌ فلأُمِّه السُّدس﴾**: المراد بـ **﴿إخْوة﴾** اثنان فصاعدًا(٥).

- **﴿مِنْ بعدِ وَصيةٍ يوصِي بها أَوْ دَيْن﴾**: «أجمع العلماء من السلف والخلف على أنّ الدَّين مُقَدَّمٌ على الوصية»(٦).

١٢ - **﴿وإِنْ كانَ رجلٌ يُوْرَثُ كلالةً أو امرأةٌ وله أخٌ أَوْ أخت﴾**: المراد بقوله تعالى: **﴿أخٌ أو أُخت﴾** لأم فقط دون الشقيق، ودون الأخ والأخت لأب(٧).

١٤ - **﴿ومَنْ يَعصِ اللهَ ورسولَه ويتعَدَّ حدودَهُ يُدْخِلْهُ نارًا خالدًا فيها وله عذابٌ مُهين﴾**: ظاهر هذه الآية الكريمة أنّ كلّ من عصى الله تعالى ورسوله

ﷺ فسيخلد في النار، وإذا فهمناها في ضوء سياق ما قبلها فيكون المعنى: كل من عصى... في قسمة المواريث، وقد بَيَّن الطبري رحمه الله تعالى أنّ هذا المعنى صحيح، ولكن إذا جمع العاصي إلى معصيتهما - أي معصية الله تعالى ورسوله ﷺ شكًّا في أنّ الله فرض عليه ما فرض على عباده في الآيتين السابقتين، أو علم ذلك فحادَّ الله ورسوله ﷺ في أمرهما[8].

١٧ - ﴿**إنَّما التوبةُ على اللهِ للذينَ يعملونَ السُّوءَ بجهالةٍ ثُمَّ يتوبونَ مِنْ قَريب...**﴾: كل من عصى الله تعالى خطأ كان أو عمدًا فهو جاهل...[9].

وقد أخرج الإمام الطبري رحمه الله تعالى بسنده عن قتادة أنه قال: «اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أنّ كلَّ شيءٍ عُصِي به فهو (جهالة) عمدًا كان أو غيره»[10].

ومعنى ﴿**مِنْ قَريب**﴾: من قبل نزول الموت بهم، وقبل الغرغرة[11].

١٩ - ﴿**يا أيُّها الذينَ آمنوا لا يَحِلُّ لكم أنْ تَرِثوا النساءَ كَرْهًا...**﴾: المراد بـ ﴿**ترثوا النساء**﴾: ذاتهن، والمعنى: «لا يحلّ لكم أن تأخذوهن على سبيل الإرث كاتخاذ المواريث وهنَّ كارهاتٍ لذلك أو مكرهات»[12].

٢٥ - ﴿**ومَنْ لَمْ يستطعْ منكم طَولاً أن ينكحَ المحصناتِ المؤمنات فمن ما ملكتْ أيمانكم مِنْ فَتياتِكم المؤمنات...**﴾: معنى ﴿**فتياتكم**﴾: إمَاؤكم[13]. والمراد هنا الأمة المملوكة للغير، أمّا أمة الإنسان نفسه فقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز له أن يتزوجها، وهي تحت ملكه؛ لتعارض الحقوق واختلافها[14].

- ﴿**فانكحوهُنَّ بإذْنِ أهْلِهن**﴾: أي: سادتهن[15].

٢٩ - ﴿**يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تأكلوا أمْوالَكُم بينكم بالباطل**﴾: أي: لا يأكل بعضكم أموال بعض بما حرّم الله عليه...[16].

- ﴿**ولا تقتلوا أنفسَكم**﴾: أي: «ولا يقتل بعضكم بعضًا، وأنتم أهل ملّة واحدة، ودعوة واحدة، ودينٍ واحد، فجعل جلّ ثناؤه أهل الإسلام كلهم بعضهم من بعض، وجعل القاتل منهم قتيلاً في قتله إيّاه منهم بمنزلة قتله نفسه: إذ كان القاتل والمقتول أهل يدٍ واحدة على من خالف ملتهما»[17].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: «﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾ أي: بارتكاب محارم الله، وتعاطي معاصيه، وأكل أموالكم بالباطل»[18].

وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: «نهى عن أن يقتل الرجل غيره... إذ قد علم أنّ أحدًا لا يقتل نفسه فيُنهى عن ذلك، وقتل الرجل نفسه داخلٌ في النهي؛ لأن الله لم يبح للإنسان إتلاف نفسه كما أباح له صرف ماله، أمّا أن يكون المراد هنا خصوص النهي عن قتل المرء نفسه، فلا»[19].

٣٣ - ﴿**ولكلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ مِمَّا تركَ الوالدانِ والأقربون**﴾: ﴿**موالي**﴾ أي: «ورثة من بني عمه وإخوته وسائر عصبته»[20].

٤٦ - ﴿**... ويقولون سَمِعنا وعصينا واسمعْ غَيرَ مُسْمَع**﴾: أي: واسمع منا ما نقول لا أسمعك الله[21].

٤٧ - ﴿**... أوْ نلعنَهم كما لَعنَّا أصحاب السبت**﴾: المراد بـ ﴿**نلعنهم**﴾؛ أي: نمسخهم قردة[22].

٤٨ - ﴿**إنَّ اللهَ لا يغفِرُ أنْ يُشركَ به**﴾: يعني: أنّ الله تعالى لا يغفر لعبدٍ مات وهو مشركٌ به[23].

٥١ - ﴿**ألَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتوا نصيبًا من الكتابِ يؤمنونَ بالجبتِ والطاغوتِ ويقولونَ للذينَ كفروا هؤلاءِ أهدى منَ الذينَ آمنوا سبيلا**﴾.

- ﴿**ويقولونَ للذين كفروا**﴾: أي: لأجلهم وفي حقهم، فاللام ليست صلة القول، وإلاّ لقيل: أنتم بدل قوله سبحانه ﴿**هؤلاء**﴾؛ أي: الكفّار من أهل مكّة[24].

٥٤ - ﴿أَمْ يحسدونَ الناسَ على ما آتاهُم اللهُ مِنْ فَضْلِه﴾: في المراد بـ ﴿الناس﴾ هنا قولان:

الأول: محمد ﷺ.

الآخر: العرب.

ولا مانع من إرادة القولين ويكون المعنى: أم يحسدون محمدًا ﷺ وأصحابه على أن فضّل محمدًا ﷺ بالنبوة، وشرّف بها العرب، إذ آتاها رجلاً منهم دون غيرهم(٢٥).

٥٩ - ﴿فإنْ تنازعتُمْ في شيءٍ فردّوهُ إلى اللهِ والرسولِ إنْ كنتمْ تُؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلا﴾: ﴿تأويلا﴾ يعني: عاقبة ومآلاً(٢٦).

٦٣ - ﴿أُولئكَ الذينَ يعلمُ اللهُ ما في قلوبهم فأعرضْ عنهمْ وعِظْهُم...﴾: حقيقة الإعراض: عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه(٢٧)، والمراد به هنا: دعهم ولا تعاقبهم(٢٨).

٧٢ - ﴿وإنّ منكمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فإنْ أصابتكُم مصيبةٌ قالَ قَدْ أنعمَ اللهُ عليَّ إذْ لمْ أَكُنْ معهمْ شهيدًا﴾: ﴿منكم﴾ ليست على ظاهرها، أي: من المؤمنين، إنما المراد «من عدادكم وقومكم، ومن يتشبه بكم، ويظهر أنه من أهل دعوتكم وملتكم وهو منافق...

قال مجاهد وغيره: نزلت في المنافقين(٢٩).

ومعنى ﴿شهيدًا﴾: حاضرًا(٣٠).

٧٧ - ﴿ألمْ تَرَ إلى الذينَ قيلَ لهمْ كُفُّوا أَيْديَكُمْ وأَقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ﴾: «المراد بـ ﴿آتوا الزكاة﴾ مواساة الفقراء لا الزكاة المفروضة ذات النصب والشروط؛ فإنّها لم تفرض إلاّ بالمدينة»(٣١).

٧٨ - ﴿وإنْ تُصِبْهُمْ حسنةٌ يقولوا هذهِ مِنْ عندِ اللهِ وإنْ تُصِبْهُم سيئةٌ يقولوا هذهِ مِنْ عندك﴾: ﴿الحسنة﴾: الرخاء والظفر والفتح والغنيمة. و﴿السيئة﴾: الشدّة في العيش والهزيمة(٣٢).

١٠٢ - ﴿فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم﴾: ﴿سجدوا﴾ يعني: أكملوا صلاتهم، وعبّر عن الصلاة بالسجود؛ ليدلّ على فضل السجود، وأنه ركنٌ من أركانها، بل هو أعظمُ أركانها(٣٣).

١٠٥ - ﴿ولا تكن للخائنين خصيمًا﴾: أي: لا تكن لأجل الخائنين مخاصمًا(٣٤).

١٠٨ - ﴿يَسْتخْفُونَ مِنَ الناسِ ولا يستخفُونَ مِنَ الله﴾: الاستخفاء من الله تعالى محال؛ لأنّ الله تعالى يعلم الجهر وما يخفى، والمراد: الحياء(٣٥)؛ أي: ولا يستحيون من الله تعالى.

١١٧ - ﴿إنْ يدعونَ مِنْ دونه إلاّ إناثًا﴾: «عنى بالإناث: الآلهة التي كان مشركو العرب يعبدونها من دون الله، ويسمونها الإناثَ من الأسماء، كاللات والعُزَّى ونائلة ومناة، وما أشبه ذلك»(٣٦).

١٣٧ - ﴿إنَّ الذينَ آمنوا ثمَّ كفروا ثمَّ ازدادوا كفرًا لم يكن اللهُ ليغفرَ لهمْ ولا لِيَهْدِيَهُمْ سبيلا﴾: المراد بهذا الذي استمرّ على كفره حتى مات(٣٧).

١٤٠ - ﴿وقد نَزَّلَ عليكمْ في الكتابِ أنْ إذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بها ويُسْتَهْزأُ بها فلا تَقعدوا معهم حتى يَخوضوا في حديثٍ غيرِهِ إنّكم إذًا مِثلهم﴾: «هذه المماثلة لهم خارجة مخرج التغليظ والتهديد والتخويف، ولا يصير المؤمن منافقًا بجلوسه إلى المنافقين، وأُريد المماثلة في المعصية لا في مقدارها؛ أي: إنكم تصيرون مثلهم في التلبّس بالمعاصي»(٣٨).

١٥٣ - ﴿يَسْأَلُكَ أهلُ الكتابِ أنْ تُنَزِّلَ عليهمْ كتابًا مِنَ السماء﴾: الرسول ﷺ قد نُزِّلَ عليه كتابٌ من السماء، ولكنه نَزَلَ مُفرّقًا، وهم أرادوا - تعنّتًا وعنادًا - أن ينزل عليه ﷺ جملةً واحدة(٣٩).

١٥٧ - ﴿وقولهم إنَّا قَتلْنا المسيحَ ابنَ مريمَ رسولَ الله﴾: قال الزمخشري رحمه الله تعالى: «كانوا كافرين بعيسى عليه السلام، أعداء له، عامدين

لقتله، يسمونه الساحر ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة، فكيف قالوا: ﴿**إنَّا قتلنا المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ رسولَ الله**﴾؟ قلت: ما قالوه على وجه الاستهزاء... ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح»[٤٠].

١٧٦ – ﴿**إنِ امْرُؤٌ هلكَ ليسَ لهُ ولدٌ ولهُ أختٌ**﴾: أخت شقيقة وأخت لأبٍ فقط[٤١].

– ﴿**يُبَيِّنُ اللهُ لكمْ أنْ تَضِلُّوا**﴾: أي: لئلاَّ تَضِلُّوا[٤٢].

سورة المائدة

٣ – ﴿**حُرِّمَتْ عليكمُ الميتةُ والدَّمُ... وما أكلَ السَّبُعُ**﴾: «المرادُ: وما أكل منه السبع؛ إذ ما أكله السبع عدم وتعذّر أكله، فلا يحسن تحريمه»[٤٣].

– ﴿**اليومَ أكملتُ لكمْ دينَكم وأتممْتُ عليكمْ نعمتي ورَضيتُ لكمُ الإسلامَ دينًا**﴾: قوله تعالى: ﴿**ورضيتُ لكمُ الإسلامَ دينًا**﴾ جملة مستأنفة لا معطوفة على ﴿**أكملت**﴾، وإلاّ كان مفهوم ذلك أنه لم يرضَ لهم الإسلام دينًا قبل ذلك اليوم، وليس كذلك[٤٤].

أو يكون المعنى: أخبرتكم برضاي به لكم، فإنه سبحانه لم يزل راضيًا لأمة نبيّه ﷺ بالإسلام، فلا يكون لاختصاص الرضا بهذا اليوم كثير فائدة إن حملناه على ظاهره.

ويحتمل أن يريد رضيت لكم الإسلام الذي أنتم عليه اليوم دينًا باقيًا إلى انقضاء أيام الدنيا[٤٥].

٤ – ﴿**قُلْ أُحِلَّ لكمُ الطيِّباتُ وما علَّمتم من الجَوارِحِ**﴾: أي: وأحلّ لكم صيد ما علّمتم من الجوارح[٤٦].

– ﴿**فكلوا مِمَّا أمسكنَ عليكم واذكروا اسمَ اللهِ عليه**﴾: أي: اذكروا اسم الله عليه عند إرسالها[٤٧].

أو سمّوا عليه إذا أردتم ذكاة الصيد[٤٨].

١٨ – ﴿**وقالتِ اليهودُ والنصارى نحنُ أبناءُ اللهِ وأحِباؤُه**﴾: أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه...[٤٩].

٢٠ – ﴿**وآتاكم ما لم يُؤْتِ أحدًا مِنَ العالمينَ**﴾: «يعني: عالِمِي زمانهم، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقِبْط وسائر أصناف بني آدم»[٥٠].

٣١ – ﴿**فبعثَ اللهُ غُرابًا يَبْحَثُ في الأرض ليُريَهُ كيف يُواري سوءة أخيه**﴾: معنى ﴿**يبحث**﴾: يحفر[٥١].

و﴿**سَوْءَةَ أخيه**﴾: أي: بدنه؛ لأنه ميّت[٥٢].

٤١ – ﴿**... يُحَرِّفونَ الكَلِمَ من بعد مَواضِعِهِ يقولونَ إنْ أُوتيتُمْ هذا فخُذوهُ وإنْ لمْ تُؤْتَوْهُ فاحْذَرُوا**﴾: لفظ ﴿**هذا**﴾ ظاهر، غير أنّ معناه لا يُدركُ إلاّ بمعرفة سبب نزول هذه الآية الكريمة، وسبب نزولها هو ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه بِسَنده عن البراء بن عازب قال: «مُرّ على النبي ﷺ بيهوديّ محمَّمًا[٥٣] مجلودًا، فدعاهم ﷺ فقال: (هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم)، قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم. فقال: (أَنشدك باللهِ الذي أنزلَ التوراةَ على موسى، أهكذا تجدونَ حدَّ الزاني في كتابكم؟) قال: لا. ولولا أنّكَ نَشَدْتني بهذا لم أُخبركَ، نجدهُ الرجمَ. ولكنه كثُرَ في أشرافِنا فكنَّا، إذا أخذنا الشريفَ تركناه، وإذا أخذنا الضعيفَ أقمنا عليه الحدَّ. قلنا: تعالوا، فَلْنَجْتَمع على شيءٍ نقيمُه على الشريفِ والوضيعِ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ: (اللهمَّ إني أوَّلُ مَنْ أَحيا أَمْرَكَ إذْ أماتوهُ)، فأَمَرَ به فَرُجم. فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**يا أيُّها الرسولُ لا يَحْزُنْكَ الذينَ يُسارعونَ في الكفرِ**﴾[إلى قوله] ﴿**إنْ أُوتيتمْ هذا فخذوه**﴾ يقول: ائتوا محمدًا ﷺ فإنْ أمركم بالتحميم والجلد فخذوه. وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا...»[٥٤].

٤٧ – ﴿**ولْيَحكُمْ أهلُ الإنجيلِ بما أنزلَ اللهُ**

ما ظهر لفظه وخفي معناه من كتاب الله

فيه﴾: يستشهد بعض النصارى بهذه الآية على أنّ الله تعالى أمرهم بأن يحكموا بما أنزل الله تعالى في الإنجيل، ولكن الحقيقة أنّ هذه الآية حجّةٌ عليهم لا لَهم؛ لأنّ (ما) في قوله تعالى ﴿بما أنزل الله فيه﴾ من ألفاظ العموم، وإذًا فالمرادُ: وليحكم أهلُ الإنجيل بكلِّ ما أنزلَ الله فيه، ومِمّا في الإنجيل البشارة ببعثة محمد ﷺ، والأمر باتباعه وتصديقه(٥٥).

وقد بَيَّنَ الشوكاني رحمه الله تعالى أنّ هذا قبل البعثة المحمدية، وأمّا بعدها فقد أُمروا في غير موضع أنْ يعملوا بما أنزل الله على محمد ﷺ في القرآن الناسخ لكلِّ الكتب المنزلة(٥٦).

٥٥ - ﴿إنّما وَليُّكُمُ اللهُ ورسولُهُ والذينَ آمنوا الذينَ يُقيمونَ الصلاةَ ويُؤتُونَ الزكاةَ وهمْ راكعون﴾: قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وأمّا قوله ﴿وهم راكعون﴾ فقد توهّم بعض الناس أنّ هذه الجملة في موضع الحال من قوله ﴿ويؤتون الزكاة﴾؛ أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوحٌ، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى...»(٥٧)، أمّا المعنى المراد فهو: خاشعونَ خاضعون(٥٨).

٦٧ - ﴿يا أيُّها الرسولُ بلّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ من ربكَ وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فما بلّغتَ رسالته﴾: يقول بعض الملاحدة: إنّ هذا كلام غير مفيد، وهو كقولك لغلامك: كل هذا الطعام فإنْ لم تأكله فإنك ما أكلته.

والجواب: إنّ هذا أمرٌ بتبليغ الرسالة في المستقبل؛ أي: بلغ ما أنزلَ إليك من ربك في المستقبل، فإن لم تفعل ذلك فكأنك لم تبلّغ الرسالة أصلاً(٥٩).

أو يُقال: إنّ (ما) في قوله تعالى ﴿بلّغ ما أُنزل﴾ للعموم، والمعنى: بلِّغ جميع ما أُنزلَ إليك من ربك فإن كتمت شيئًا، فما أدّيتَ شيئًا من رسالته...(٦٠).

٦٩ - ﴿إنَّ الذينَ آمنوا والذينَ هادوا والصابئون والنصارى مَن آمنَ باللهِ واليوم الآخر وعمل صالحًا فلا خوفٌ عليهمْ ولا هُمْ يَحْزَنون﴾: قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «كلّ فرقةٍ آمنت بالله واليوم الآخر، وهو الميعاد والجزاء يومَ الدين، وعملت عملاً صالحًا، ولا يكون ذلك حتى يكون موافقًا للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين...»(٦١).

٩٥ - ﴿ومَن قتلهُ متعمّدًا فجزاءٌ مِثلُ ما قتلَ مِنَ النَّعَمِ يحكمُ بهِ ذَوَا عَدْلٍ منكمْ هَدْيًا بالغ الكعبة﴾: «أي: واصلاً إلى الكعبة، والمراد: وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك...»(٦٢).

٩٧ - ﴿جعلَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قِيامًا للنّاسِ والشهرَ الحرامَ والهديَ والقلائد﴾: ﴿قيامًا للناس﴾ أي: فيها قوام معيشتهم ودينهم ومدارهما، أي: ما يصلح دينهم ودنياهم(٦٣).

١٠٥ - ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا عليكمْ أنفسَكُمْ لا يضرُّكم من ضلَّ إذا اهْتَدَيْتُم...﴾ الآية: هذه الآية الكريمة تأمر المؤمن أن يلزم العمل بطاعة الله تعالى، ثم لا يضرّه بعد ذلك ضلال الضّالين، وليعلم أنّ من طاعة الله تعالى: الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكر، فإذا أدّى ما عليه من ذلك؛ أي: أصلح نفسه ونصح غيره، فإنه لا يضرّه تمادي الضّال في ضلاله(٦٤).

١٠٨ - ﴿ذلكَ أدنى أنْ يأتوا بالشهادةِ على وَجْهِها أو يخافوا أنْ تُرَدَّ أيمانٌ بَعْدَ أيْمانِهِم﴾: معنى ﴿تُرَدّ...﴾ أي: تَرجِّع الأيمان إلى ورثة الموصي بعد أيمان الشهيدين، فيفتضحوا بظهور كذبهم(٦٥).

١٠٩ - ﴿يومَ يجمعُ اللهُ الرسلَ فيقولُ ماذا أُجِبْتُمْ قالوا لا علمَ لنا﴾: قد يسأل سائلٌ فيقول: كيف يقولون: لا علم لنا وقد علموا بما أجيبوا، والجواب على هذا: أنّ للعلماء في توجيه هذه الآية أكثر من رأي، نذكر بعضها:

الأول: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكلِّ شيء، فنحن وإنْ كنّا أجبنا وعرفنا من أجابنا، ولكن منهم من كنا نطّلع على ظاهره، لا علم لنا بباطنه،

وأنت العليم بكلِّ شيء، المطّلع على كلِّ شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم، فإنّك ﴿أنت علاّم الغيوب﴾[٦٦].

الثاني : قالوا ذلك من هول ذلك اليوم؛ أي إنهم ذهلوا عن الجواب، وهو قولُ مجاهد، والحسن البصري والسدي[٦٧].

الثالث : أن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد علموا أن الغرض من السؤال هو توبيخ أعدائهم، فوكّلوا الأمر إلى علمه تعالى وإحاطته بما ابتلوا به منهم، وكابدوا من سوء إجابتهم إظهارًا للتشكّي واللجوء إلى ربهم في الانتقام منهم[٦٨].

وقيل غير ذلك.

١١٠ - **﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً﴾**: **﴿وكهلا﴾**؛ لأنّ تكليم الكهل الناسَ ليس أمرًا عجيبًا، ولذا ذهب بعض العلماء إلى أنّ المعنى تدعو إلى الله الناسَ في صغرك وكبرك، وضمن تلكم تدعو[٦٩].

وذهب الطبري إلى أنّ المعنى: أنَّ اللهَ تعالى أيَّدَ عيسى عليه السلام بروح القدس صغيرًا في المهد، وكهلاً كبيرًا[٧٠].

أمّا الزمخشري فيرى أنّ المراد: أن كلامك في صغرك وكبرك لا يتفاوت[٧١].

وليس بين هذه الأقوال تضادٌّ بحمد الله تعالى.

١١٦ - **﴿وإذْ قالَ اللهُ يا عيسى ابنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للناسِ اتخذوني وأُميَ إلهينِ مِنْ دونِ الله...﴾**: الجمهور على أنّ هذا السؤال إنّما يكون يوم القيامة، وإنما عبّر جلّ جلاله بـ **﴿قال﴾** وهو فعلٌ ماض للدلالة على تحقّق وقوعه[٧٢].

وذهب السدي إلى أنّ ذلك قد وقع حين رفعه الله تعالى إلى السماء[٧٣].

سورة الأنعام

٥ - **﴿فقدْ كذّبوا بالحقِّ لمّا جاءَهمْ فسوفَ يأتيهمْ أنباءُ ما كانوا به يَسْتهْزؤون﴾**: النبأ: أي الخبر العظيم، والمقصود به هنا يوم القيامة، وهذا الخبر قد علم به من قبل، والمراد به في هذه الآية الكريمة تحقيق مضمونه، وهو العذاب...[٧٤].

٧ - **﴿ولَوْ نَزَّلْنا عليكَ كتابًا في قِرطاس...﴾**: القرطاس هو: الورق، فما معنى كتابًا في ورق، المراد بـ **﴿كتابًا﴾** هنا: كلامًا مكتوبًا في ورق[٧٥].

٨ - **﴿وقالوا لولا أُنزل عليهِ مَلَك...﴾**: الله تعالى قد أنزلَ جبريل عليه السلام وهو ملك، فما المراد بهذه الآية، المراد بها: أن المشركين طلبوا إنزال ملك يشاهدونه ويخاطبهم ويخاطبونه ويشهد لمحمد ﷺ أنّه نبيّ[٧٦].

٢٣ - **﴿ثمَّ لم تكن فِتنتُهمْ إلاّ أنْ قالوا...﴾**: قال الطبري رحمه الله تعالى: «ثمَّ لم يكن قولهم عند فتنتنا إيّاهم اعتذارًا عمّا سلف منهم من الشرك بالله **﴿إلاّ أنْ قالوا...﴾**، فوضعت الفتنة موضع القول؛ لمعرفة السامعين معنى الكلام، وإنّما الفتنة: الاختبار والابتلاء، ولكن لمّا كان الجواب من القوم غير واقعٍ هنالك إلاّ عند الاختبار، وضعت الفتنة التي هي الاختبار موضع الخبر عن جوابهم ومعذرتهم[٧٧].

٥٤ - **﴿وإذا جاءكَ الذينَ يؤمنونَ بآياتنا فقلْ سلامٌ عليكمْ كتبَ ربُّكمْ على نفسِهِ الرحمةَ أنَّهُ مَن عَمِلَ منكمْ سُوءًا بجهالةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ...﴾**: **﴿بجهالة﴾** فيه معنيان: أحدهما: أنه فاعل فعل الجهلة؛ لأنّ من عمل ما يؤدّي إلى الضرر في العاقبة وهو عالمٌ بذلك أو ظانّ، فهو من أهل السَّفه والجهل، لا من أهل الحكمة والتدبير...

والثاني: أنه جاهلٌ بما يتعلّق به من المكروه والمضرّة...»[٧٨].

٦٠ - **﴿وَهُوَ الذي يَتوفَّاكُم بالليلِ، ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُم بالنّهار﴾**: قال أبو حيّان رحمه الله تعالى: «التوفي عبارة في العرف عن الموت، وهنا المعنيُّ به النوم...»[٧٩].

- ﴿جَرَحْتُم﴾: أي: كسبتم[٨٠].

٦٧ - ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾: أي: «لكلِّ خبرٍ وقوع»[٨١].

٧٠ - ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾: أي: وإن تفدِ نفسها بكلِّ فداءٍ لا يقبل منها[٨٢].

٨٢ - ﴿الذين آمنوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهم بِظلمٍ أولئكَ لهمُ الأمنُ وهم مهتدون﴾: المراد بالظلم في هذه الآية الشرك، فقد أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه ليس بذاك، ألا تسمعُ إلى قول لقمان لابنه: ﴿إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيم﴾»[٨٣].

١٠٠ - ﴿وجعلوا لله شركاءَ الجنَّ وخَلَقَهُمْ وخَرَقُوا لَهُ بنينَ وبناتٍ بغيرِ علم﴾: ﴿خرقوا﴾ أي: اختلقوا[٨٤].

١٢٥ - ﴿... كذلك يجعلُ اللهُ الرجسَ على الذينَ لا يُؤْمِنون﴾: قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: ﴿الرجس﴾: الشيطان، فيكون المعنى: كذلك يسلّط الله الشيطانَ على الذين لا يؤمنون.

وقال مجاهد: ﴿الرجس﴾: كلّ ما لا خيرَ فيه.

وقال ابن زيد: ﴿الرجس﴾: العذاب[٨٥].

١٢٨ - ﴿يا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِنَ الإنس﴾: أي: استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم[٨٦].

١٣٠ - ﴿يا معشر الجِنِّ والإنسِ أَلَمْ يأتِكُمْ رسلٌ منكم...﴾: «أي: من جملتكم، والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما نصّ على ذلك مجاهد وابن جريج، وغير واحدٍ من الأئمة من السلف والخلف، وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر»[٨٧].

١٤٢ - ﴿وَمِنَ الأنعامِ حَمُولةً وفَرْشًا﴾: (الفرش) صفة لما لطف جرمُه من الأنعام فقرب من الأرض[٨٨].

١٤٥ - ﴿قُل لا أَجِدُ فيما أُوحِيَ إليَّ مُحَرَّمًا على طاعمٍ يَطْعَمُهُ إلاَّ أَنْ يكونَ مَيْتَةً...﴾ الآية: «اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في هذا الحصر المذكور في هذه الآية، مع أنَّ ثمَّة محرمات لم تذكر فيها، كالسباع، وكلّ ذي مخلب من الطير ونحو ذلك. فقال بعضهم: إنّ هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد على ما ذكر فيها فلا ينافي هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحي إليه في ذلك الوقت.

وقال بعضهم: إنّ هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات، بعضها صريحًا، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلّة...»[٨٩].

- ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لغيرِ الله﴾: المراد بـ ﴿فسقًا﴾ المذبوح للأوثان، سمّاه تعالى (فسقًا) لتوغله في باب الفسق[٩٠].

١٥٠ - ﴿فإنْ شَهِدوا فلا تَشْهَدْ مَعَهُم﴾: معنى ﴿لا تشهد معهم﴾: «لا تتابعهم على ما هم عليه من التكذيب بوحي الله وتنزيله...»؛ لأنه إذا تابعهم وسلّم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم...

قال الطبري رحمه الله تعالى: «وخاطب بذلك جلّ ثناؤه نبيّه ﷺ، والمراد به أصحابه والمؤمنون به»[٩١].

١٥٤ - ﴿ثُمَّ آتينا موسى الكتاب﴾: «(ثم) في كلام العرب [كما هو معروف] حرفٌ يدلّ على أنّ ما بعده من الكلام والخبر بعد الذي قبلها»، وقصة موسى عليه السلام وإيتائه الكتاب قبل المعطوف عليه، وهو ما تقدّم من قوله: ﴿ذلكم وصّاكم به﴾، وللعلماء في توجيه ذلك أقوالٌ منها:

- ثمّ قل بعد ذلك يا محمد: آتى ربك موسى الكتاب، فترك ذكر (قل)؛ إذ كان قد تقدّم في أوّل القصة ما يدل على أنه مرادٌ فيها، وذلك قوله تعالى:

﴿قل تعالوا أتلُ ما حرَم ربكم عليكم﴾، فقصّ ما حرّم عليهم وأحلّ، ثم قل ﴿آتينا موسى﴾...» وهذا قول الطبري[٩٢].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وفي هذا نظر، و(ثم) ههنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر لا للترتيب... لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله: ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيمًا فاتّبعوه﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثمّ آتينا موسى الكتاب﴾، وكثيرًا ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة»[٩٣]، وهذا قول الفرّاء[٩٤]، وتعقبه ابن عصفور[٩٥] بأنه ليس بشيء؛ لأن (ثمّ) تقتضي تأخّر الثاني عن الأول بمهلة، ولا مهلة في الإخبارين، فلا بدّ من الرجوع إلى أنها انسلخ عنها معنى الترتيب، أو أنه ترتيب رتبي[٩٦]. وقد رجّح هذا الأخير ابن عاشور[٩٧]. وقد ذهب أبو حيّان رحمه الله تعالى إلى أنّ (ثمّ) هنا استعملت للعطف كالواو من غير اعتبار مهلة[٩٨] والله تعالى أعلم بمراده.

١٥٨ - ﴿... يومَ يأتي بعضُ آياتِ رَبِّكَ لا ينفعُ نَفْسًا إيمانُها لَمْ تكنْ آمنتْ مِنْ قَبْلُ أوْ كَسَبَتْ في إيمانِها خيرًا﴾: قسمت الآية النفوس إلى قسمين: قسمٌ لم يؤمن حتى أتت بعض آيات الله تعالى، وقسمٌ آمن، ولكنه لم يكتسب خيرًا حتى أتت بعض الآيات، والذي يعنينا هنا هو القسم الأخير، فظاهر الآية يدلّ على أنّ الذي اقتصر على الإيمان وفرّط في عمل الخير فإنّ إيمانه لا ينفعه، وهذا غير مراد، والمعنى - كما يقول الإمام - الطبري رحمه الله تعالى: «لا ينفع من كان بالله وبرسله مصدّقًا، ولفرائض الله مضيعًا غير مكتسب بجوارحه لله طاعة، إذا هي طلعت من مغربها [يعني الشمس]، أعمالُه إن عمل، وكسبه إن اكتسب؛ لتفريطه الذي سلف قبل طلوعها في ذلك[٩٩].

فالمعنى إذًا: لا ينفع إيمان الكافر ولا ما يعمله المؤمن من الصالحات إذا أتت بعض آيات الله تعالى.

١٦٣ - ﴿... وبذلكَ أُمرْتُ وأنا أوّلُ المسلمين﴾: «قال قتادة: من هذه الأمة. وهو كما قال: فإنّ جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له»[١٠٠].

سورة الأعراف

٢١ - ﴿وَقاسَمَهُما إني لكما لَمِنَ الناصحين﴾: أي: حلف لهما[١٠١]، ولمّا كان منه القَسَم، ومنهما القبول، جيء به على زنة المفاعلة[١٠٢].

٢٢ - ﴿فَدَلاّهما بغُرور﴾: «أي: استنزلهما إلى الأكل من الشجرة بغروره؛ أي: بخداعه إياهما... جعل من يغترّ بالكلام حتى يصدق فيقع في مصيبة بالذي يدلى من علوّ إلى أسفل بحبلٍ ضعيف فينقطع به فيهلك...»[١٠٣].

٢٦ - ﴿يا بَني آدمَ قدْ أنزلنا عليكمْ لِباسًا يُواري سَوْءاتِكُمْ وَريشًا...﴾: معنى ﴿أنزلنا عليكم﴾: خلقنا لكم[١٠٤].

وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: «جعل ما في الأرض مُنزلاً من السماء؛ لأنه قضى ثَمَّ وكتب»[١٠٥].

- ﴿وريشًا﴾ «يعني: مالاً في قول ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والسدي، فقال: تَرَيّش الرجل إذا تموّل، وقيل: الريش الجمال؛ أي: ما يتجملون به من الثياب...»[١٠٦].

٢٩ - ﴿وأقيموا وُجُوهَكُمْ عندَ كلِّ مَسْجِدٍ﴾: فيه أقوال:

الأول : إذا حضرت الصلاة وأنتم في مسجد، فصلّوا فيه، ولا يقولنّ أحدُكم: أُصلّي في مسجدي. قاله ابن عباس، والضحّاك، واختاره ابن قتيبة.

الثاني : توجهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة، قاله مجاهد، والسدي، وابن زيد.

الثالث : اجعلوا سجودكم خالصًا لله تعالى دون غيره. قاله الربيع بن أنس، ورجّحه الطبري.

ما ظهر لفظه وخفي معناه من كتاب الله

الرابع: اقصدوا المسجد في وقت كلِّ صلاة، أمرًا بالجماعة لها...[١٠٧].

٣٥ - ﴿**يا بَني آدمَ إمّا يأتِيَنّكمْ رسُلٌ منكم...**﴾: يعني: إن يأتكم...[١٠٨].

٣٧ - ﴿**فَمَنْ أظلمُ ممَّنِ افترى على اللهِ كذبًا أوْ كَذَّبَ بآياتِهِ أولئكَ ينالُهمْ نَصيبُهُم مِنَ الكتاب**﴾: المراد بـ ﴿**من الكتاب**﴾: مما كتب لهم[١٠٩].

٥١ - ﴿... **فاليومَ نَنْسَاهُمْ كما نَسُوا لقاءَ يومِهمْ هذا...**﴾: النسيان في الموضعين بمعنى الترك، والمراد: فاليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل ليوم القيامة[١١٠].

٥٢ - ٥٣: ﴿**وَلَقَدْ جئناهم بكتابٍ فَصَّلْناه على علمٍ هدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون، هَلْ ينظرون إلاّ تأويله...**﴾: المراد بـ ﴿**تأويله**﴾ «ما يؤول إليه أمرهم، من ورودهم على عذاب الله...»[١١١].

٨٤ - ﴿**وأمْطَرنا عليهم مَطَرًا**﴾: أي: مطرًا من حجارةٍ من سجّيل كما قال تعالى: ﴿**وأمطرنا عليها حجارةً من سجيل منضود مسوّمة عند ربّك...**﴾[١١٢].

٨٨ - ٨٩: ﴿**قالَ الملأُ الذينَ استكبروا مِن قومِهِ لَنُخرِجَنّكَ يا شعيبُ والذين آمنوا مَعَكَ مِنْ قريتنا أو لَتَعُودُنَّ في مِلّتِنا. قالَ أوَلَوْا كُنّا كارهين. قد افترينا على اللهِ كَذِبًا إنْ عُدْنا في مِلّتِكُمْ بعدَ إذْ نجّانا اللهُ منها وما يكون لنا أنْ نعودَ فيها إلاّ أن يشاءَ اللهُ ربُّنا...**﴾: قال البغوي رحمه الله تعالى: «فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿**أو لتعودُنّ في ملّتنا**﴾، ﴿**وما يكونُ لنا أن نعود فيها**﴾[١١٣]، ولم يكن شعيب قطّ على ملتهم حتى يصحّ قولهم: ترجع إلى ملتنا؟

قيل: معناه: أو لتدخُلنّ في ملتنا، فقال: وما كان لنا أن ندخل فيها.

وقيل: معناه: إن صرنا في ملتكم. ومعنى عاد: صار.

وقيل: أراد به قومَ شعيب؛ لأنهم كانوا كُفّارًا فآمنوا، فأجاب شعيب عنهم»[١١٤].

- ﴿**رَبَّنا افْتحْ بيننا وبينَ قومِنا بالحقّ وأنتَ خيرُ الفاتحين**﴾: أي: احكم بيننا... وأنت خيرُ الحاكمين[١١٥].

٩٥ - ﴿**ثُمَّ بَدَّلْنا مكانَ السيّئةِ الحسنةَ**﴾: ﴿**السيّئة**﴾: البأساء والضّرّاءَ و﴿**الحسنة**﴾: الرخاء والنعمة والسعة في المعيشة[١١٦].

- ﴿**حَتَّى عَفَوا**﴾ يعني: حتّى كَثُروا[١١٧].

١٠٠ - ﴿**أوَلَمْ يَهْدِ للذينَ يَرِثُونَ الأرضَ مِنْ بعدِ أهْلِها أنْ لو نشاءُ أصَبْناهُمْ بذنوبهم...**﴾: ﴿**يَهْد**﴾ أي: يتبيّن[١١٨].

١٣٠ - ﴿**ولقد أخذنا آلَ فرعونَ بالسِّنين**﴾: أي: أخذناهم بالقحط[١١٩].

١٤٠ - ﴿**قالَ أغيرَ اللهِ أبْغيكُمْ إلهًا وهو فضّلكم على العالمين**﴾: أي: «على عالمي دهركم وزمانكم»[١٢٠].

١٤٣ - ﴿**فلمّا أفاقَ قالَ سبحانكَ تبتُ إليك وأنا أوّلُ المؤمنين**﴾: أخرج الطبري بسنده عن أبي العالية أنه قال في هذه الآية: «كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أوّل من آمن بأنه لا يراك أحدٌ من خلقك إلى يوم القيامة»[١٢١].

١٤٥ - ﴿**فَخُذْها بقوّةٍ وأْمُرْ قومَكَ يأخذوا بأحْسَنِها**﴾: قد يسأل سائل، إذا كانوا مأمورين بأن يأخذوا بأحسن ما في شريعتهم، فهل لهم أن يتركوا حسنها؟ وقد أجاب العلماء عن هذا السؤال بأجوبة،

منها: أن أحسن هنا مسلوب المفاضلة؛ إذ كلها حسنة وجيءَ بلفظة أحسن للمبالغة في الحسن.

وقيل: أحسنها: الفرائض والنوافل، وهي ما يستحقّ عليها الثواب، وما دونها المباح؛ لأنه لا يستحقّ عليه الثواب.

وقيل: ﴿بأحسنها﴾: بأحسن الأمرين في كلّ شيء كالعفو أحسن من القصاص، والصبر أحسن من الانتصار(١٢٢).

١٥٠ - ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي...﴾: هارون عليه السلام شقيق موسى عليه السلام، ولكنه عبّر بهذا التعبير استعطافًا، وليكون أرقَّ عليه(١٢٣).

١٦٥ - ﴿فلمّا نَسُوا ما ذُكِّروا بِه﴾ : أي: تركوا...(١٢٤).

١٦٨ - ﴿وَبَلَوْناهُمْ بالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ﴾: أي: واختبرناهم بالرخاء في العيش، والشدّة فيه...(١٢٥).

١٧٦ - ﴿... فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلبِ إِنْ تحملْ عليهِ يَلْهَثْ﴾: معنى ﴿تحمل عليه﴾ تزجره وتطرده(١٢٦).

١٨٩ - ﴿... فلمّا تغشاها حَمَلَتْ حَمْلاً خفيفًا فَمَرَّتْ به﴾: ﴿فَمَرَّت به﴾ يعني: استمرت به(١٢٧). قال ابن عاشور: «وحقيقة المرور: الاجتياز، ويُستعار للتغافل وعدم الاكتراث للشيء، كقوله تعالى: ﴿فلمّا كشفنا عنه ضرّه مرَّ كأنْ لم يدعنا إلى ضُرٍّ مسّه﴾(١٢٨)، أي: نسي دعاءنا، وأعرض عن شكرنا؛ لأنّ المارّ بالشيء لا يقف عنده ولا يسائله... بمعنى ﴿فمرّت به﴾ لم تتفطن له، ولم تفكر في شأنه، وكلّ هذا حكاية للواقع»(١٢٩).

- ﴿فلمّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ ربَّهُما لَئِنْ آتيتنا صالحًا لنكونَنّ مِنَ الشاكرين﴾: ﴿صالحًا﴾ أي: بشرًا سويًّا سليمًا. هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، وإليه ذهب أكثر المفسّرين(١٣٠).

وذهب الحسن وقتادة إلى أنّ المراد بـ ﴿صالحًا﴾ غلامًا(١٣١).

أمّا الإمام الطبري رحمه الله تعالى فقد ذهب إلى أنّ جميع معاني الصلاح مرادة هنا، ويعني بذلك استواء الخلق وصلاح الدين وصلاح العقل، ولم يذكر وهو يعدّد أقوال العلماء من قال بأنّ المراد بالصلاح هنا الدين، وكيف يكون المراد الصلاح في الدين، والله تعالى يقول: ﴿فلمّا آتاهما صالحًا جعلا له شركاء﴾، إذ لو كانت بغيتها صلاح الدين لَمَا جعلا له شركاء فيما آتاهما. والله تعالى أعلم.

٢٠١ - ٢٠٢ : ﴿إنَّ الذين اتَّقَوا إذا مَسَّهُمْ طائفٌ مِنَ الشيطانِ تذكّروا فإذا هم مُبْصِرون. وإخوانُهُمْ يَمُدُّوْنَهُمْ فِي الغَيِّ ثمَّ لا يُقْصِرون﴾: الإشكال هنا في ضمير ﴿وإخوانهم﴾؛ إذ لا يصحّ أن يعود إلى المذكور قبله قريبًا؛ لأنّ الذي ذكر قبله ﴿الذين اتقوا﴾، فلا يصحّ أن يكون الخبر، وهو ﴿يمدونهم في الغي﴾ متعلقًا بضمير يعود إلى المتقين...(١٣٢)، والذي يعنينا هو المعنى وهو: «وإخوان الشياطين تمدهم الشياطينُ في الغَيّ»(١٣٣).

٢٠٣ - ﴿وإذا لَمْ تأتِهِم بآيةٍ قالوا لولا اجْتَبَيْتَها﴾: قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «في قوله: ﴿لولا اجتبيتها﴾ قولان:

أحدهما: هلاّ افتعلتها من تلقاء نفسك. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، والفراء، والزجّاج، وابن قتيبة في آخرين. وحكي عن الفراء أنه قال: «العرب تقول: اجتبيت الكلام، واختلقته، وارتجلته: إذا افتعلته من تلقاء نفسك.

والثاني: هلاّ طلبتها لنا قبل مسألتك؟ ذكره الماورديّ، والأوّل أصحّ»(١٣٤). ●

ما ظهر لفظه وخفي معناه من كتاب الله

الحواشي

١ – ينظر التحرير والتنوير: ٤/ ٢٢٠. وجامع البيان: ٣/ ٥٧٠، وتفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٨٦.
٢ – ينظر جامع البيان: ٣/ ٥٩٠ – ٥٩١، وتفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٩٠.
٣ – تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٩٥ بتصرّف. وينظر جامع البيان: ٣/ ٦١٤.
٤ – التحرير والتنوير: ٤/ ٢٥٣.
٥ – جامع البيان: ٣/ ٦٢٠، وأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنه قال لعثمان رضي الله عنه: «الأخوان في لسان قومك وكلام قومك ليسا بإخوة...». ففي صحته نظر: يراجع تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٩٩ فإنّ فيه كلامًا نفيسًا في ردّ هذا الأثر.
٦ – ينظر المصدر السابق: ١/ ٥٩٩.
٧ – ينظر جامع البيان: ٣/ ٦٢٨، وتفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٠٠.
٨ – ينظر جامع البيان: ٣/ ٦٣٣.
٩ – ينظر المصدر السابق: ٣/ ٦٤٠ وما بعدها، وتفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٠٤، وفتح القدير: ١/ ٤٧٩.
١٠ – جامع البيان: ٣/ ٦٤٠.
١١ – ينظر المصدر السابق: ٣/ ٦٤٣ – ٦٤٤، وتفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٠٤.
١٢ – الكشاف: ١/ ٥٢٢، وينظر جامع البيان: ٣/ ٦٤٦ – ٦٤٧.
١٣ – جامع البيان: ٤/ ٢٠.
١٤ – فتح القدير: ١/ ٤٩٢.
١٥ – جامع البيان: ٤/ ٢١، والكشاف: ١/ ٦٢٠.
١٦ – جامع البيان: ٤/ ٣٣، وينظر تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٢٦.
١٧ – جامع البيان: ٤/ ٣٨.
١٨ – تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٢٦.
١٩ – التحرير والتنوير: ٥/ ٢٥ بحذف يسير.
٢٠ – جامع البيان: ٤/ ٥٢، وينظر تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٣٨.
٢١ – ينظر المصدران السابقان: ٤/ ١٢١، ١/ ٦٦٣.
٢٢ – ينظر جامع البيان: ٤/ ١٢٧، ومعالم التنزيل: ٢/ ٢٣٢.
٢٣ – تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٦٤.
٢٤ – روح المعاني: ٣/ ٥٤، وينظر التحرير والتنوير: ٥/ ٨٦.
٢٥ – ينظر جامع البيان: ٤/ ١٤٢ – ١٤٣.
٢٦ – ينظر جامع البيان: ٤/ ١٥٤، وتفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٧٨.
٢٧ – التحرير والتنوير: ٥/ ١٠٨.
٢٨ – ينظر جامع البيان: ٤/ ١٥٩، والتحرير والتنوير: ٥/ ١٠٨.
٢٩ – ينظر جامع البيان: ٤/ ١٦٨، وتفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٨٥.
٣٠ – تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٨٥، وروح المعاني: ٣/ ٧٨.
٣١ – تيسير الكريم الرحمن: ١٥٢، وينظر تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٨٦.
٣٢ – ينظر جامع البيان: ٤/ ١٧٦.
٣٣ – تيسير الكريم الرحمن: ١٦١. وينظر روح المعاني: ٣/ ١٣٠.
٣٤ – الكشاف: ١/ ٥٩٥. وينظر روح المعاني: ٣/ ١٣٤.
٣٥ – إعراب القرآن وبيانه: ٢/ ٣١٥. وينظر التحرير والتنوير: ٥/ ١٩٤.
٣٦ – جامع البيان: ٤/ ٢٧٩.
٣٧ – ينظر تفسير القرآن العظيم: ١/ ٧٤١.
٣٨ – التحرير والتنوير: ٥/ ٢٣٦.
٣٩ – ينظر جامع البيان: ٤/ ٣٤٦، والكشاف: ١/ ٦١٨.
٤٠ – الكشاف: ١/ ٦٢٠ بحذفٍ يسير، وينظر تفسير القرآن العظيم: ١/ ٧٥٠.
٤١ – جامع البيان: ٤/ ٣٧٨.
٤٢ – المصدر السابق: ٤/ ٣٨٣.
٤٣ – فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: ١٢٩. وينظر تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٧.
٤٤ – فتح الرحمن: ١٣٠. وينظر جامع البيان: ٤/ ٤٢١.
٤٥ – فتح القدير: ٢/ ١٣.
٤٦ – جامع البيان: ٤/ ٤٢٧. وينظر تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٤.
٤٧ – ينظر جامع البيان: ٤/ ٤٣٩، وتفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٧.
٤٨ – ينظر الكشاف: ١/ ٦٤١، وفتح القدير: ٢/ ١٦.
٤٩ – تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٩. وينظر جامع البيان: ٤/ ٥٠٥ – ٥٠٦، والكشاف: ١/ ٦٥٢.
٥٠ – تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٣.
٥١ – جامع البيان: ٤/ ٥٤٠. وينظر الكشاف: ١/ ٦٦٠.
٥٢ – ينظر جامع البيان: ٤/ ٥٤٠، وفتح القدير: ٢/ ٣٤، وتيسير الكريم الرحمن: ١٩١.
٥٣ – التحميم: حمّم وجهه: سخّم الوجه بالفحم. القاموس المحيط: (حمم).
٥٤ – صحيح مسلم: ٢٩، كتاب الحدود (٦) باب رجم اليهود... الحديث رقم (١٧٠٠)، وينظر جامع البيان: ٤/ ٥٧٧، وأسباب النزول للواحدي: ١٣٢.
٥٥ – تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٩١.
٥٦ – فتح القدير: ٤/ ٤٩ بتصرّف يسير.
٥٧ – تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٩٩.
٥٨ – ينظر الكشاف: ١/ ٦٨٢، وفتح القدير: ٢/ ٥٣.

٥٩ – مدارك التنزيل: ٤١١/١.
٦٠ – ينظر تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٠٧ – ١٠٨، وفتح القدير: ٦١/٢، وروح المعاني: ٣٥٥/٣.
٦١ – تفسير القرآن العظيم: ١١١/٢.
٦٢ – تفسير القرآن العظيم: ١٣٨/٢، والكشاف: ٧١٢/١.
٦٣ – مدارك التنزيل: ٤٢٥/١، وينظر الكشاف: ٧١٤/١.
٦٤ – ينظر جامع البيان: ١٠٠/٥، والكشاف: ٧١٨/١، وتفسير القرآن العظيم: ١٥١/٢.
٦٥ – ينظر الكشاف: ٧٢١/١، والتحرير والتنوير: ٩٤/٧.
٦٦ – هذا الرأي الذي رجّحه الطبري، واستحسنه ابن كثير، ينظر جامع البيان: ١٢٦/٥، وتفسير القرآن العظيم: ١٥٨/٢.
٦٧ – المصدران السابقان: ١٢٥/٥، ١٥٨/٢.
٦٨ – هذا قول الزمخشري، ينظر الكشاف: ٧٢٢/١.
٦٩ – تفسير القرآن العظيم: ١٥٩/٢.
٧٠ – جامع البيان: ١٢٨/٥.
٧١ – ينظر الكشاف: ٧٢٣/١.
٧٢ – ينظر معالم التنزيل للبغوي: ١٢١/٣، وفيه يقول: «واختلفوا في أنّ هذا القول متى يكون، فقال السدّي... وقال سائر المفسرين...» ثم أخذ يستدل لهذا الرأي، وينظر: البحر المحيط: ٦٣/٤، وتفسير القرآن العظيم: ١٦٦/٢، وفتح القدير: ٩٦/٢.
٧٣ – رجّح الإمام الطبري هذا الرأي، ينظر جامع البيان: ١٣٨/٥، وينظر ردّ الإمام ابن كثير عليه في تفسيره: ١٦٦/٢.
٧٤ – ينظر البحر المحيط: ٧٩/٤، والتحرير والتنوير: ١٣٦/٧.
٧٥ – ينظر الكشاف: ٨/٢، والبحر المحيط: ٨٢/٤.
٧٦ – ينظر جامع البيان: ١٥١/٥، والبحر المحيط: ٨٢/٤، وفتح القدير: ١٠٢/٢.
٧٧ – جامع البيان: ١٦٦/٥، وينظر تفسير القرآن العظيم: ١٧٥/٢.
٧٨ – الكشاف: ٢٩/٢ بحذف يسير، وينظر جامع البيان: ٢٠٦/٥.
٧٩ – البحر المحيط: ١٥٠/٤، وينظر الكشاف: ٣١/٢.
٨٠ – معالم التنزيل: ١٥١/٣، والكشاف: ٣١/٢.
٨١ – تفسير القرآن العظيم: ١٩٦/٢، وينظر جامع البيان: ٢٢٤/٥.
٨٢ – ينظر جامع البيان: ٢٣٠/٥، والكشاف: ٣٥/٢.
٨٣ – صحيح البخاري بشرح فتح الباري – ٦٥ – كتاب التفسير: ٣١، سورة لقمان: ١. باب: (لا تشرك بالله إنّ الشركَ لظلمٌ عظيم): الحديث رقم (٤٧٧٦). وينظر صحيح مسلم بشرح النووي، ١ – كتاب الإيمان: باب صدق الإيمان وإخلاصه، الحديث رقم: ١٩٧.
٨٤ – جامع البيان: ٢٩١/٥، وينظر الكشاف: ٥٠/٢.
٨٥ – جامع البيان: ٣٤١/٥، وتفسير القرآن العظيم: ٢٣٧/٢.
٨٦ – المصدران السابقان: ٣٤٢/٥، ٢/ ٢٣٧ – ٢٣٨.
٨٧ – تفسير القرآن العظيم: ٢٣٩/٢.
٨٨ – ينظر جامع البيان: ٣٧٤/٥، والكشاف: ٦٩/٢، وتفسير القرآن العظيم: ٢٤٦/٢.
٨٩ – تيسير الكريم الرحمن: ٢٤٠، وينظر في تفصيل المحرمات: معالم التنزيل: ٣/ ١٩٨ – ١٩٩، والبحر المحيط: ٤/ ٢٤٣ – ٢٤٤.
٩٠ – ينظر الكشاف: ٧٠/٢، والبحر المحيط: ٢٤٥/٤.
٩١ – جامع البيان: ٣٨٩/٥. وينظر لما سبق المصدر السابق، والكشاف: ٧٤/٢، والبحر المحيط: ٢٤٩/٤.
٩٢ – جامع البيان: ٣٩٨/٥.
٩٣ – تفسير القرآن العظيم: ٢٥٨/٢.
٩٤ – هو يحيى بن زياد بن عبدالله الديلمي، أبو زكريا (– ٢٠٧هـ)، إمام الكوفيين بالنحو واللغة والأدب، عهد إليه المأمون بتربية ابنيه، له: معاني القرآن، وكتاب اللغات، وما تلحن فيه العامة وغيرها كثير. وفيات الأعيان: ٢٢٨/٢.
٩٥ – هو علي بن مؤمن بن محمد، الحضرمي، الإشبيلي، أبو الحسن (– ٦٦٩هـ)، حامل لواء العربية بالأندلس في عصره، له: المقرب في النحو، والممتع في التصريف، وغيرها. شذرات الذهب: ٣٣٠/٥.
٩٦ – روح المعاني: ٣٠٢/٤.
٩٧ – التحرير والتنوير: ١٧٥/٨.
٩٨ – ينظر البحر المحيط: ٢٥٥/٤.
٩٩ – جامع البيان: ٤١٢/٥. وينظر ما قاله الزمخشري إذ تمسّك بظاهر الآية قاصداً الاستدلال بها على صحة عقيدته في أنّ الكافر والعاصي سواءٌ في الخلود، الكشاف: ٧٨/٢. وينظر لزامًا ردّ ابن المنير في الانتصاف: ٧٨/٢.
١٠٠ – تفسير القرآن العظيم: ٢٦٧/٢، وينظر معالم التنزيل: ٢١١/٣، والبحر المحيط: ٢٦٣/٤.
١٠١ – جامع البيان: ٤٥٠/٥.
١٠٢ – ينظر الكشاف: ٩١/٢.
١٠٣ – البحر المحيط: ٢٨٠/٤، وينظر الكشاف: ٩١/٢.
١٠٤ – ينظر جامع البيان: ٤٥٥/٥، ومعالم التنزيل: ٢٢١/٣، وفتح القدير: ١٩٨/٢.
١٠٥ – الكشاف: ٩٣/٢.
١٠٦ – معالم التنزيل: ٢٢٢/٣، وينظر جامع البيان: ٤٥٧/٥.
١٠٧ – زاد المسير: ١٤٢، وينظر جامع البيان: ٥/ ٤٦٤ – ٤٦٥، ومعالم التنزيل: ٢٢٣/٣، وتفسير غريب القرآن: ١٧٦.
١٠٨ – ينظر جامع البيان: ٤٧٧/٥، والكشاف: ٩٧/٢.
١٠٩ – جامع البيان: ٤٧٨/٥، ومعالم التنزيل: ٢٢٧/٣، والكشاف: ٩٨/٢.

١١٠ – ينظر جامع البيان: ٥/٥١٠.

١١١ – ينظر المصدر السابق: ٥/٥١١، وتفسير القرآن العظيم: ٢/٣٩٥.

١١٢ – هود: ٨٢ – ٨٣.

١١٣ – ينظر جامع البيان: ٥/٢٤٢، وتفسير القرآن العظيم: ٢/٣٠٩.

١١٤ – معالم التنزيل: ٣/ ٢٥٧ – ٢٥٨، وينظر الكشاف: ٢/١٢٢.

١١٥ – ينظر جامع البيان: ٦/٤.

١١٦ – ينظر المصدر السابق: ٦/٨.

١١٧ – ينظر المصدر السابق: ٦/٨، والكشاف: ٢/١٢٥.

١١٨ – ينظر المصدران السابقان: ٦/١١، ٢/١٢٣، وتفسير القرآن العظيم: ٢/٣١٣.

١١٩ – تنظر المصادر السابقة: ٦/٢٩، ٢/١٣٥، ٢/٣٢٠.

١٢٠ – جامع البيان: ٥/٤٧.

١٢١ – المصدر السابق: ٥/٥٥.

١٢٢ – ينظر معالم التنزيل: ٣/٢٨١، والتحرير والتنوير: ٩/١٠١.

١٢٣ – ينظر جامع البيان: ٦/٦٩، والكشاف: ٢/١٥٣.

١٢٤ – ينظر المصدران السابقان: ٦/١٠٠، ٢/١٦١.

١٢٥ – ينظر جامع البيان: ٦/١٠٤.

١٢٦ – ينظر المصدر السابق: ٦/١٢٧، والكشاف: ٢/١٦٨.

١٢٧ – ينظر جامع البيان: ٦/١٤٢، وتفسير القرآن العظيم: ٢/٣٦٤.

١٢٨ – يونس : ١٢.

١٢٩ – التحرير والتنوير: ٩/٢١٢ بتصرف يسير.

١٣٠ – ينظر معالم التنزيل: ٣/٣١١، والكشاف: ٢/٢٣٠، وزاد المسير: ٣/٢٣٠، ذكر هذا القول والذي يليه فقط. وينظر تفسير القرآن العظيم: ٣٦٤، وروح المعاني: ٥/١٣٠.

١٣١ – زاد المسير: ٣/٢٣٠، وينظر جامع البيان: ٦/١٤٣، وذهب ابن عاشور إلى أنّ (صالحًا) وصف جرى على موصوف محذوف، وظاهر التذكير أن المحذوف تقديره: (ذكرًا)... وأن معنى (صالحًا) نافعًا، ينظر التحرير والتنوير: ٩/٢١٣.

١٣٢ – ينظر المصدر السابق: ٩/٢٣٤.

١٣٣ – جامع البيان: ٦/١٥٧، وينظر تفسير القرآن العظيم: ٢/٣٧٠.

١٣٤ – زاد المسير: ٣/٢٣٧، وينظر جامع البيان: ٦/ ١٥٩ – ١٦٠، والكشاف: ٢/١٨١، وتفسير القرآن العظيم: ٢/٣٧١.

المصادر والمراجع:

الآلوسي : السيد محمود.

– روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

البغوي : أبو محمد الحسين بن مسعود.

– معالم التنزيل: حققه وخرّج أحاديثه: محمد عبدالله النمر، وعثمان ضميرية، وسليمان الحرش، ط٤، دار طيبة، الرياض، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي.

– زاد المسير في علم التفسير، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

أبو حيّان : محمد بن يوسف الأندلسي.

– البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ = ١٩١٣م.

الزّمخشريّ : محمود بن عمر.

– الكشّاف، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

السّعدي : عبد الرحمن بن ناصر.

– تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م.

الشّوكانيّ : محمد بن علي.

– فتح القدير، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

الطّبريّ : محمد بن جرير.

– جامع البيان في تأويل القرآن، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.

ابن عاشور : محمد الطاهر.

– التّحْرير والتنوير، الدّار التُّونسيَّة للنشر، د.ت.

ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم.

– تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.

ابن كثير : إسماعيل القرشي الدمشقي.

– تفسير القرآن العظيم، ط٤، مؤسسة الريّان، بيروت – لبنان، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.

النسفي : عبد الله بن أحمد.

– مدارك التنزيل وحقائق التأويل، قدّم له الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم، بيروت، د.ت.

الواحدي : أبو الحسن علي بن أحمد.

– أسباب النزول، تحقيق طارق الطنطاوي، مكتبة القرآن، القاهرة، د.ت.

موت الدماغ في ضوء القواعد الشرعية واجتهادات العلماء

المهندس/ ريّان توفيق خليل
الهيئة الإدارية لرابطة علماء الموصل
الموصل - العراق

موت الدماغ في ضوء القواعد الشرعية واجتهادات العلماء

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد.. فإن حفظ النفوس مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، ويأتي في المرتبة الثانية بعد حفظ الدين في سلم الضروريات الخمس، التي تكفّلت الشريعة بالحفاظ عليها وجوداً وعدماً.

ولقد كان الاتجاه السائد قديماً أن الحياة الإنسانية تنتهي عندما يكون القلب العضويّ قد توقف عن العمل توقّفاً لا رجعة بعده، آنذاك يجب تجهيز ذلك الإنسان الذي قد صار في عداد الأموات، ودفنه، وتعتد امرأته، إلى غير ذلك من الأحكام المترتبة على الموت.

إلاّ أنه بسبب سعي الإنسان المتواصل لاكتشاف أسرار جسمه، وآلية عمل أعضائه المختلفة وعلاقتها بعضها ببعض، قد برز أمرٌ آخر، يعتقد الأطباء أنه السبب المباشر الذي ينبغي أن يعزى إليه الموت، ذلكم هو موت الدماغ، وعلى وجه التحديد موت جذعه.

فما الموقف الفقهي إزاء هذه القضية المستجدة؟ وهل يجوز أن تمتد يد الطبيب لإيقاف أجهزة الإنعاش الطبيّ التي تحفز القلب بالعمل آلياً لضخ الدم إلى أجهزة الجسم المختلفة؟ أم أن هذا يعدّ تعدّياً على إنسانٍ كامل الأهلية.

على الرغم من صدور عدة بحوث تعالج هذه القضية، وعقد ندواتٍ في أرجاء العالم الإسلامي المختلفة، مزجت بين الرأي الشرعي والرأي الطبي، إلا أنها لا تزال قضية ساخنة، تقتضي المزيد من العناية والاهتمام، والتأصيل الشرعي.

وتكمن أهمية الموضوع عندما يكون هناك فاصلٌ بين موت الدماغ وتوقّف القلب عن العمل، وكلما ازداد الفاصل ازدادت المسألة تعقيدًا، فلو مات الدماغ، واستمر القلب بضخ الدم، كيف سيكون حسم المسائل الآتية:

١ - لو مات ابن المريض مثلاً بعد موت دماغه، فهل يرث المريض ابنه على أساس أنه لا يزال حيًّا بسبب نبض قلبه؟ أم أن الابن هو الذي سيرث أباه؛ لأنه قد مات قبله بموت دماغه.

٢ - عدة المرأة، هل تحسب من حين موت الدماغ أو توقّف القلب؟

٣ - لو أوصى شخصٌ له بعد موت دماغه، هل تصح الوصيّة بناءً على أنه لا يزال حيًّا أم تبطل؛ لأنه قد مات بموت دماغه؟

٤ - رفع أجهزة الإنعاش، هل يعدّ تعدّيًا على حياةٍ محترمة أم أنه إجراءٌ قد يرتقي إلى مستوى الوجوب، من جهة القيام بحقوق هذا الجسد - الذي صار في عداد الأموات - من غسلٍ وتكفينٍ ودفن؟.

٥ - لو أوصى إنسانٌ كامل الأهليّة ببعض أعضائه، ثم مات دماغه، هل يجوز أن يمتدّ مبضع الجراح لاستئصال هذه الأعضاء؟ وبخاصّةٍ إذا علمنا أنّ الظرف المناسب لتنفيذ هذه الوصية موت الدماغ؛ بسبب استمرار التروية الدموية التي تحافظ على حياة الأعضاء المختلفة، أم أنّ هذا الإجراء يعدّ تعدّيًا على إنسانٍ لا يزال في عداد الأحياء؟

هذه المسائل وسواها تدل على أهمية هذه المسألة، ووجوب العناية بها، ورصدها من زوايا مختلفة، من أجل هذا كان هذا الجهد مساهمةً في عرض هذه المسألة من خلال مباحث أربعة:

المبحث الأول

الدماغ ووظائفه

لا شكّ في أنّ القضية التي نحن بصدد بيان حكمها الشرعي تعتمد أولاً على المعطيات الطبية الحديثة، التي تدرس بدن الإنسان وأعضاءه، لذا كان لزامًا علينا أن نعرض وجهة نظر أهل الذكر - الأطباء - حول هذه المسألة؛ لتتضح الصورة أمامنا، ويتسنى لنا من بعد استخراج حكمها الشرعي.

وبمتابعة البحوث المتخصّصة نخلص إلى أن جسم الإنسان يتكوّن من عددٍ هائل من الخلايا، تعمل كلّ خليّة في كلّ عضوٍ من أعضاء الجسد في تناسقٍ دقيق مع الخلايا الأخرى في العضو نفسه؛ لتحقيق وظيفة هذا العضو على أكمل وجه، ويعمل كلّ عضوٍ في تناسقٍ أدقّ مع بقية أعضاء الجسد؛ لتحقيق الفائدة العامة لهذا البنيان، ويشرف الدماغ على ذلك كله، وذلك عن طريق الاتصال المباشر مع أعضاء الجسد كافة بوساطة الأعصاب، حيث تنطلق الأعصاب من الدماغ إلى أنحاء الجسد كافة، عن طريق إرسال مراسيل (هرمونات) من الدماغ إلى تلك الأعضاء تحمل معها أوامره وتعليماته، إضافةً إلى وظيفة الدماغ الخاصة، كونه مركزًا للإدراك والوعي.

تعريف الدماغ

يطلق الدماغ على الجهاز العصبي المركزي، ويتكوّن من الأجزاء الأساسية الآتية:

١ - **المخ** : وهو أكبر جزء من الدماغ، يحتوي على مراكز الحسّ، والحركة الإرادية، والذاكرة، والوعي، والمراكز المسؤولة عن طباع الإنسان وشخصيته.

٢ - **المخيخ** : وفيه مراكز التوازن.

٣ - **جذع الدماغ** : ويتألف من الدماغ المتوسط، والجسر، والبصلة. وهو مكوّن أساسًا من الألياف النخاعية الصاعدة والنازلة والمتصالبة؛

فهو بذلك يشكّل همزة الوصل الأساسية بين المراكز العلوية - المخ والمخيخ - وبين النخاع الشوكي وبقية أجزاء الجسد.

ويحتوي جذع الدماغ على المراكز العصبية المهمة، والمركز المنظم للقلب، ومراكز السيطرة على الوعي والنوم واليقظة.

٤ - **النخاع الشوكي** : يقع في القناة الشوكية، التي تقع داخل العمود الفقري، ويتضمن عمله أمرين أساسيين:

الأول : أنه صلة الوصل بين الدماغ العلوي وبقية الجسم ما عدا الرأس.

الثاني : أنه مركز لمعظم المنعكسات العصبية الاضطرارية، ولا يتضمن عمله أيّ فعلٍ اختياريّ.

ومع أنه جزء من الجهاز العصبي المركزي، إلاّ أن مصطلح موت الدماغ الوارد في بحوث موت الدماغ لا يشمله، فالمقصود بموت الدماغ الأقسام الثلاثة الأولى[١].

ما المقصود بموت الدماغ ؟

المراد بموت الدماغ عند الأطباء التلف الدائم في الدماغ، حيث يؤدي إلى توقّف دائم لجميع وظائفه بما فيها وظائف جذع الدماغ[٢].

ونظرًا لخطورة هذه القضية وحساسيتها وضعت الهيئات والمراكز الطبية المختلفة شروطًا وضوابط، يمكن من خلالها تشخيص موت الدماغ، حيث إذا اختلّ واحد منها لا يكون الدماغ قد وصل إلى مرحلة اللاعودة، فقد صدر عام (١٩٧٦) عن المؤتمر المشترك للكليات الملكية للأطباء في المملكة المتحدة جملة من الشروط لا بدّ من توافرها لتشخيص موت الدماغ، منها:

١ - أن يكون المريض في حالة غيبوبة عميقة، وأن تستبعد أسباب الغيبوبة القابلة للعلاج كليًّا أو جزئيًّا مثل العقاقير المهدئة أو المنومة.

٢ - أن يكون المريض معتمدًا على أجهزة التنفس الصناعي؛ لانعدام التنفس التلقائي.

٣ - أن لا يكون هناك شكٌّ في وجود تلفٍ في الدماغ غير قابل للعلاج.

٤ - أن يثبت بالفحص السريري علامات موت جذع الدماغ، كاتساع العينين اتساعًا ثابتًا لا يتأثر بالضوء.

٥ - انعدام الاستجابة لمحاولة التنفس التلقائي[٣].

وهذه الشروط التي انبثقت عن المدرسة البريطانية، التي تأخذ بمفهوم الموت جذع الدماغ فحسب. أما المدرسة الأمريكية فإنها تشترط موت جميع الدماغ، وبه أخذت وزارة الصحة في المملكة العربية السعودية. ويقتضي ذلك إجراء فحص رسم الدماغ الكهربائي، وينبغي أن لا تكون هناك أي ذبذبة في ذلك الرسم، مما يدل على توقّف النشاط الكهربائي للدماغ[٤].

وهذا التعريف هو الذي سنعتمده في بحثنا؛ لأنه أكثر حيطة، ولا بدّ من أن نشير إلى أنّ ما سنذكره من أحكامٍ بخصوص قضية البحث ينطلق من تشخيصٍ دقيق لإنسانٍ قد مات دماغه كليًّا، وحكم الأطباء الاختصاصيّون بأنه قد وصل إلى مرحلة اللاعودة، مع الأخذ بعين الاهتمام الاحتياطات كافة التي توصّل إليها العلم الحديث، كالتأكد من هبوط الوظائف الحيوية للمخ وجذعه بوساطة أجهزة قياس حديثة[٥]؛ لذا لا تعدّ الأحكام التي سنتوصل إليها سارية المفعول إذا وجد أي خللٍ أو شكّ في التشخيص.

المبحث الثاني

مفهوم الحياة والموت

نتناول في هذا المبحث مفهوم الحياة والموت عند المتكلمين والفقهاء، ثم نمزج بين الوجهتين؛ لنصل إلى نتيجةٍ نستثمرها في بيان حكم موت الدماغ، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

الحياة والموت عند علماء الكلام

تعرض علم الكلام لتعريف الحياة والموت، بناءً على أنّ موضوع علم الكلام هو المعلوم من حيث إنه يتعلّق به إثبات العقائد الدينية، فتعرضوا لأحوال الصانع من القدم والوحدة والقدرة وغيرها، وأحوال الجسم من الحدوث والافتقار والتركب من الأجزاء، مما هو عقيدة إسلامية، أو وسيلة إليها(٦). والحياة والموت من العوارض التي تعرض لبدن الإنسان الذي هو أحد الأجسام التي تناولها علم الكلام من حيث ما يعرض لها من أحوال.

فقد عرفها العضد بقوله: «الحياة قوة تتبع اعتدال النوع، وينبض منها سائر القوى»(٧). وشرح السيد هذا التعريف بقوله: «ومعنى ذلك أنّ كلّ نوعٍ من أنواع المركبات العنصرية، له مزاجٌ مخصوص يناسب الآثار والخواص المطلوبة منه، حتى إذا خرج عن ذلك المزاج لم يبقَ ذلك النوع، فالحياة في كل نوعٍ من أنواع الحيوانات تابعة لذلك المزاج، المسمى بالاعتدال النوعي. ويفيض من تلك القوة سائر القوى الحيوانية، كقوى الحسّ والحركة والتصرّف في الأغذية»(٨).

ثمّ أورد اعتراضًا على التعريف، حاصله أن العضو المشلول محكومٌ عليه بالحياة، مع انعدام الحسّ والحركة الاختيارية، وأجاب بأن عدم الفعل ليس من جهة عدم المقتضي للحسّ أو الحركة، بل لوجود المانع(٩). وهو خصوصُ العلة العارضة لهذا العضو.

وعرّفوا الموت بأنه عدم الحياة عمّا من شأنه أن يكون حيًّا. وقيل: كيفيّة وجودية يخلقها الله تعالى في الحيّ، فهو ضدّها(٩).

فعلى التعريف الأول يكون تقابل الحياة(١٠) والموت من تقابل الملكة والعدم، وعلى الثاني من تقابل التضاد. وهذا الخلاف لا ثمرة له فيما نحن بصدده من أحكامٍ فرعيّة، فعلى كلا التعريفين لا يمكن أن تجتمع الحياة مع الموت في محلٍّ واحد، وكذا لا يمكن أن يرتفعا، أما على كونهما متقابلين تقابل الملكة والعدم فظاهر، وأمّا على كونهما متقابلين تقابل التضاد فكذلك؛ لأن المتضايفين، وإن جاز ارتفاعهما، إلاّ أن هذا ليس كليًّا، فالحركة والسكون متضادّان، ولا يجوز ارتفاعهما معًا عن الجسم(١١).

قال ابن حزم: «... إذ لا يختلف اثنان من أهل الشريعة وغيرهم، في أنه ليس إلاّ حيّ أو ميت، ولا سبيل إلى قسمٍ ثالث»(١٢).

وبناءً على هذا لا بُدّ من أن نستبعد ما قد يقفز إلى الذهن ابتداءً، من أن ميّتَ الدماغ ليس بحيٍّ ولا ميّت، فهذا الاحتمال غير واردٍ إطلاقًا.

هذا وقد بنى المتكلّمون هذا التصوّر للحياة والموت من خلال متابعة جملة من نصوص الكتاب والسنّة كما يأتي:

١ – قوله تعالى: **﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِنْ أَحَدٍ أو تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾**(١٣)، فقد نفى المولى عن أولئك القوم الهالكين صدور أيٍّ أثرٍ، وذلك من خلال نفي الركز وهو الصوت الخفيّ(١٤). ووجه

الاستدلال أنّ نفيَ هذه الآثار قد تسبّبَ عن الموت، فيفهم منه أنّ الحياة التي تقابل الموت هي التي تنبعث عنها تلك الآثار.

٢ - قوله تعالى: ﴿إنْ كانَتْ إلاّ صَيْحَةً واحدَةً فَإذَا هُمْ خَامِدُون﴾[١٥]. والخمود انطفاءُ النار، استعير للموت بعد الحياة المليئة بالقوة والطغيان؛ ليتضمن الكلام تشبيه حال حياتهم بشبوب النار، وحال موتهم بخمود النار[١٦].

٣ - قوله ﷺ فيما رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه «إذا استَهلّ المولودُ وَرِثَ»[١٧]. قال ابن الأثير: استهل المولود إذا بكى عند ولادته، وهو كنايةٌ عن ولادته حيًّا، وإن لم يستهل، بل وجدت منه أمارة تدل على حياته[١٨].

الاستنتاج

يُستفاد من كلام علماء الكلام المارّ أنّ للحياة الإنسانية آثارًا تترتب عليها، كالحسّ والحركة والتصرّف في الأغذية والإدراك.

ولنا بعد هذا أن نتساءل عن السرّ الكامن وراء هذه الآثار، التي لا يمكن أن تصدر عن المادة المجرّدة، وسوف لن يطول بنا البحث، ما دمنا ننطلق من التصوّر الإسلاميّ للإنسان، الذي يقرّر بأنه جسدٌ وروح، قال تعالى: ﴿فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه من رُوحي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين﴾[١٩]. والجسد ماثلٌ أمامنا، واقعٌ تحت علومنا التجريبيّة، التي أفصحت عن الكثير من فعاليات أجهزة هذا الجسد، إلاّ أنها لا تزال عاجزةً عن الوقوف على السرّ الذي يكمن وراء هذه الأنشطة، نعم توصلّت تلك العلوم إلى أنّ مركز هذه الفعاليات يكمن في دماغ الإنسان، ولكن كيف تصدر المعاني المختلفة عن هذا الجزء الماديّ؟ كيف يدرك الإنسان؟ كيف يحب ويكره؟ كيف يشعر بالارتياح والانقباض؟ لا شكّ في أنّ المادة الصمّاء لا يصدر عنها مثل هذه المعاني؛ فلا بُدَّ من أمرٍ آخر يكمن وراء هذه المادة، هو الذي يسيّرها، ويجعلها خاضعةً لأمره، ذلكم هو الروح أو النفس[٢٠]، وهو الذي ينبغي أن تعزى إليه آثار هذا البدن المختلفة.

وقد صرّح الإمام الرازي بأنّ الموصوف بجميع أقسام الإدراكات والمباشر لجميع التحريكات والتدبيرات لهذا البدن هو النفس[٢١].

وهذه الروح تتعلق بظاهر البدن وباطنه ضمن مستوياتٍ ثلاثة، يقول الإمام الرازي: «النفس الإنسانية عبارةٌ عن جوهرٍ مشرق روحانيّ، إذا تعلّق بالبدن حصل ضوؤه في جميع الأعضاء، وهو الحياة، فنقول إنه في وقت الموت ينقطع تعلّقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه، وذلك هو الموت، وأما في وقت النوم فإنه ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه، ولا ينقطع ضوؤه عن باطن البدن، وإذا ثبت هذا ظهر أنَّ القادر الحكيم دبّر تعلّق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه، وذلك اليقظة.

ثانيها: أن يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه، وذلك هو النوم.

ثالثها: أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكليّة، وهو الموت»[٢٢].

المطلب الثاني

الحياة والموت عند الفقهاء

لا شكّ في أنّ موضوع الحياة والموت لهما صلةٌ وثيقة بأفعال المكلَّفين، التي تمثّل موضوع علم الفقه؛ إذ تترتّب أحكامٌ عديدة على الحياة، أبرزها احترام الآدميّ، وعدم جواز التعدّي عليه، وثبوت أهليّة

وجوب وأداءٍ له، وكذا على الموت من وجوب تجهيز الميّت، ودفنه، وتقسيم تركته، واعتداد زوجته، وما إلى ذلك.

من أجل ذلك قد بحث الفقهاء بداية الحياة الإنسانية ونهايتها، ووجدوا منطلقًا ينطلقون منه لبناء تصوّرهم عن بدايتها، وهو ما رواه البخاريّ عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: (إنّ أَحَدَكُم يجمعُ خلقه في بَطنِ أُمّهِ أربعينَ يوماً، ثُمَّ يكونُ عَلَقَةً مثلَ ذلك، ثُمّ يَكونُ مُضغةً مثلَ ذلك، ثُمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا، فَيُؤمَرُ بأَرْبعِ كلمَاتٍ، ويُقالُ لَهُ: اكتب عَمَلَهُ وَرِزقَهُ وأَجَلَهُ وشَقِيٌّ أو سَعيد، ثُمَّ ينفخُ فيه الروح...) الحديث[٢٣].

ووجه الاستدلال أنه قد تقرّر أنّ ماهيّة الإنسان متكوّنة من جسدٍ وروح بمقتضى قوله تعالى: **﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾**[٢٤]، لذا فإن الإنسان لا يحوز وصف الإنسانية إلاّ بتحقّق جزئيه معًا، ضرورة أنّ الكلَّ إنما يتألّفُ من مجموع أجزائه. والحديثُ قد أفصح عن أنَّ نفخَ الروح يكون بعد مائةٍ وعشرين يومًا من حياة الجنين الخلويّة.

وعزّز الفقهاء هذا الاستنتاج بقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾**[٢٥]، حيث روي عن ابن عباس والشعبي والضحّاك: أن الخلق الآخر هو الروح[٢٦].

وفرّق الفقهاء بين نوعين من الحياة، أطلقوا على الأولى منهما الحياة النباتية[٢٧]، وعلى الثانية الحياة الإنسانية، وجعلوا الفاصل بين هاتين المرحلتين نفخ الروح، والقول المعتمد عند جمهورهم هو احترام الحياة مطلقًا نباتية كانت أم إنسانية، إلاّ أنهم أجمعوا على حرمة التعدّي على الحياة الإنسانية ولو في حالة العذر، في حين أجاز بعضهم الإجهاض قبل نفخ الروح؛ لعذر، كأن ينقطع به لبن الأم، وليس لأبي الصبيّ ما يستأجر به الظئر[٢٨].

وهذا يعني أنّ الجنين عند نفخ الروح يغدو كائنًا محترمًا، له أهليّة وجوب، فلا يجوز التعدّي عليه بأيّ حالٍ من الأحوال.

النصوص الفقهية التي تؤكد هذه النتيجة

١ - قال الشيخ محمد عليش المالكي: وربّما أشعر جواز العزل بأنّ المنيّ إذا صار داخل الرحم، فلا يجوز إخراجه، وهو كذلك، وأشدّ منه إذا تخلّق، وأشدّ من هذا إذا نفخت فيه الروح، فيحرم إجماعًا[٢٩].

٢ - قال شهاب الدين الرمليّ الشافعيّ، وقد يقال أما حالة نفخ الروح فما بعده إلى الوضع فلا شكّ في التحريم[٣٠].

٣ - نقل ابن عابدين عن كراهية التاترخانية قوله: ولا أقول بالحلّ - حلّ الإسقاط قبل نفخ الروح - إذ المحرّم لو كسر بيض الصيد ضمنه؛ لأنه أصله، فلمّا كان يؤاخذ بالجزاء، فلا أقلّ من أن يلحقها إثم هنا إذا أسقطت بغير عذر[٣١].

٤ - قال ابن الجوزي: لمّا كان موضوع النكاح لطلب الولد، وليس من كلّ الماء يكون الولد، فإذا تكوّن حصل المقصود من النكاح. فتعمد إسقاطه مخالفة لمراد الحكمة. إلاّ أنه إن كان ذلك في أول الحمل، فقبل نفخ الروح، كان فيه إثمٌ كبير؛ لأنه مترقٍ إلى الكمال، وسارٍ إلى التمام، إلاّ أنه أقلُّ

إثمًا من الذي نفخ فيه الروح، فإذا تعمدت إسقاط ما فيه الروح كان كقتل مؤمن(٣٢).

هذا وقد وجد الفقهاء أنفسهم مضطرين إلى بيان بعض أمارات الحياة في بعض أبواب الفقه؛ نظرًا لما لها من أهميّة في بناء الأحكام الخاصة بتلك الأبواب، فقد ذكروا في باب استهلال الصبيّ ما يفيد بأن أمارة الحياة أن يوجد أيُّ فعلٍ اختياريّ صادرٍ من المولود، قال ابن نجيم: استهلال الصبيّ في اللغة أن يرفع صوته بالبكاء عند ولادته، وفي الشرع أن يكون منه ما يدل على حياته من رفع صوتٍ، أو حركةِ عضوٍ، ولو أن يطرف بعينه(٣٣). وبناءً على هذا فإذا لم يستهل يحكم بموته فلا يرث ولا يورث(٣٤).

وذكروا في باب الجناية على الجنين: أنه تجب ديةٌ كاملة إن انفصل حيًّا ومات من جرّاء هذه الجناية، بأن بقي متألّمًا حتى مات. قال النووي معلّلاً وجوب الدية: لأنّا تيقّنا موته، فأشبه سائر الأحياء، وسواءٌ استهلّ أو وجد ما يدل على حياته، كتنفّس، وامتصاص لبنٍ، وحركةٍ قويّة كقبض يدٍ وبسطها، ولا عبرة بمجرّد الاختلاج على المشهور(٣٥).

ولمّا تناول الفقهاء موضوع الموت لم يجدوا منطلقًا صريحًا يتكئون عليه لبناء تصوّرهم حوله، إلاّ أنهم تعرّضوا لأمارته كاسترخاء القدم، وميل الأنف، وانخساف الصدغ(٣٦).

ولا شكّ في أنّ هذه الأمارات تستعقب الموت، ولا تمثّل حقيقته، فهي آثارٌ تنشأ عن هذه العملية، وقد تتخلّف أحيانًا، ممّا حدى بالفقهاء بأن يتريّثوا بإعلان حكم الموت حتى حصول اليقين، قال الخطيب الشربيني: «فإن شكّ في موته آخر وجوبًا، كما قاله في المجموع إلى اليقين بتغيّر الرائحة أو غيره»(٣٧).

المطلب الثالث

في الخلاصة والاستنتاج

المتتبّع لوجهة نظر الفريقين يرى أنهما بمنزلة قناتين تلتقيان لتتكوّن منهما حقيقة كلّ من الحياة والموت، فقد خلص الفقهاء إلى أنّ بداية الحياة الإنسانية إنّما تكون بعد نفخ الروح بالجسد، وجاءَ المتكلّمون ليقرروا أنّ منشأ الحسّ والحركة الاختيارية والإدراك في الإنسان إنّما هو الروح ليس إلاّ.

ثمّ قال الفقهاء إنّ من أمارات الموت انعدام الحركات الإرادية. فقد حكموا على الجنين المنفصل بسبب تعدٍّ على أمّه حكموا عليه بالموت ما دام لم يصدر منه أيُّ فعلٍ أو حركة، كامتصاص الثدي أو قبض اليد وبسطها.

وهذا يقودنا إلى نتيجةٍ ظاهرة أنّ الروح التي هي منبع لهذه الآثار قد غادرت البدن، وهي نتيجة منطقيّة، أصلها مبدأ السببية العادية الذي جعله المولى جلّ جلاله حاكمًا في هذا الوجود، فالنار سببٌ عاديّ للإحراق، والماء سببٌ عاديّ للريّ، فإذا انتفى السبب انتفى مسبّبه انتفاءً عاديًا، وبما أنّ سبب الحياة هو تعلّق الروح ببدن الآدميّ، لذا يعني انتفاء تعلّقها بالبدن غياب الحياة، ولمّا كان كلّ من الحياة والموت متقابلين تقابل التضاد على أقلّ تقدير، فإنّ انتفاء الحياة يعني الموت؛ إذ لم يقل أحد بالوساطة، ولم تكن هذه الحقيقة غائبة عن أذهان الفقهاء، إلاّ أنه لاستحالة تحديد وقت مغادرة الروح للبدن أو صعوبته، وفق معطياتهم الطبيّة القديمة، وجدوا أنفسهم مضطرين لبيان أمارات الموت دون التعرّض لمبعث هذه الأمارات ومنشئها.

وبما أنّ نهاية الحياة الإنسانية لم يرد بشأنها نصٌّ صريح يمكن بناء الحكم عليه، فمعنى هذا أنها

قد تركت لاجتهاد الإنسان نفسه، فإذا أمكن لأهل الاختصاص أن يقرّروا أنّ هذا البدن قد غدا عاجزًا عن الانفعال لأوامر الروح (النفس)، من خلال انعدام الحسّ والحركة وسواهما من آثار الروح، فلا مناص حينئذٍ إلاّ أن نحكم بتحقّق موت هذا الإنسان، وهذا ابن القيّم يؤكد النتيجة فيقول: «إنها - الروح - جسمٌ مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جنس[٣٨] نورانيّ علوي خفيف حيّ متحرك، يتنفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيه سريان الماء في الورد، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكًا لهذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار من الحسّ والحركة الإرادية. وإذا فسدت الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح. وهذا القول هو الصواب في المسألة، وهو الذي لا يصحّ غيره، وكل الأقوال سواه باطلة، وعليه دلّ الكتاب والسنّة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة»[٣٩].

وقريبٌ من هذا قول الإمام الغزالي: «ومعنى مفارقتها - الروح - للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد، بخروج الجسد عن طاعتها، فإنّ الأعضاء آلات للروح تستعملها، حتى إنها لتبطش باليد، وتسمع بالأذن، وتبصر بالعين، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب، والقلب ها هنا عبارة عن الروح[٤٠].

المبحث الثالث

مستويات الحياة وأثرها في تحديد الوفاة

بحث فقهاؤنا القدامى مسألة توارد الفعلين على محلٍ واحد في كتاب الجنايات، وصورة المسألة أن يشترك اثنان في الاعتداء على إنسانٍ معصوم الدم، فينتج عن فعل الأول منهما حالة غير مستقرة، ويصدر عن الثاني فعلٌ، يكون من شأنه الإجهاز على هذا المصاب، فمن القاتل؟ الأول أم الثاني؟

لا شكّ أن الوقوف على زمن الوفاة في هذه المسألة على درجةٍ كبيرة من الأهمية؛ لتعلق أحكام في غاية الخطورة به كتحديد القاتل، وحرمانه من الميراث، إن كان وارثًا للمقتول، والوصية إن كان المقتول قد أوصى له، وغير ذلك، وسنتناول المسألة بالتفصيل لما لها من صلةٍ مباشرة بقضية بحثنا.

أولاً: الحنفية

قال صاحب الدر المختار: «قطع عنقه وبقي من الحلقوم قليل، وفيه الروح، فقتله آخر، فلا قود فيه عليه؛ لأنه في حكم الميّت»[٤١].

وعلّق العلاّمة الطحطاوي على قوله «لأنه في حكم الميت»، فقال: «لو مات ابنه وهو على تلك الحالة ورثه ابنه، ولم يرث هو من ابنه»، وعزاه للذخيرة[٤٢].

ونقل ابن عابدين عن التاتر خانية الفرع الآتي: «شقّ بطنه وأخرج أمعاءه، ثم ضرب رجلٌ عنقه بالسيف عمدًا، فالقاتل هو الثاني»، ثم قال: «هذا إذا كان مما يعيش بعد الشقّ يومًا أو بعض يوم، وإن كان بحال، لا يتوهّم معه وجود الحياة، ولم يبقَ معه إلاّ اضطراب الموت، فالقاتل هو الأول»[٤٣].

ثانيًا: المالكية

قال الخرشي في شرحه لمختصر الخليل: «لو أجهز على منفوذ المقاتل[٤٤] من غيره، فلا يقتصّ إلاّ من الأول، ويرث ويُورث، وعلى الثاني العقوبة بالاجتهاد[٤٥].

ولهم قولان آخران ذكرهما العلاّمة العدوي

فقال: «فقيل يقتل به الأول، ولا يرث ولا يورث، والقول الآخر يقتل به الثاني، ويرث ويورث».

ومحققو مذهبهم رجّحوا القول الأول؛ أي إنّ القاتل هو الأول[٤٦].

وقال الشيخ محمد عليش: «وإنْ تعدّد (المباشر) للضرب أو الجرح العمد العدوان، الذي نشأ عنه موت معصوم مكافىء للمباشرين، غير الحربيين، في زمنٍ واحد، أو أزمانٍ متوالية (ففي المالئات) عن قتله (يقتل الجميع وإلاّ)؛ أي وإن لم يتمالؤوا على قتله، بأن قصد كل واحدٍ قتله بانفراده بدون اتفاقٍ مع غيره عليه (قدم الأقوى) فعلاً؛ أي من مات عن فعله، بأن أنفذ مقتله واقتصّ عن جرحٍ بمثل جرحه»[٤٧].

ثالثًا : الشافعية

قال الخطيب الشربيني: «فصلٌ في الجناية من اثنين وما يذكر معها، إذا (وجد من شخصين معًا)؛ أي مجتمعين في زمنٍ واحد (فعلان مزهقان) للروح، لو انفرد كلٌّ منهما لأمكن إحالة الإزهاق عليه، وهما (مذففان)؛ أي مسرعان للقتل (فقاتلان)، ثم قال: (وإن أنهاه رجلٌ إلى حركة مذبوحٍ بأن لم يبقَ) معها (إبصارٌ ونطق) اختياريّ (و) لا (حركة اختيار)، وهي التي يبقى معها الإدراك، وهي المستقرة، ويقطع بموته بعد يومٍ أو أيّام، وهي التي اشترط وجودها في إيجاب القصاص، دون المستمرة، وهي التي لو ترك معها لعاش، (ثم جنى آخر فالأول قاتل ويعزّر الثاني) منهما؛ لهتك حرمة الميت، كما لو قطع منه عضوًا»[٤٨].

رابعًا : الحنابلة

قال ابن قدامة: «إذا جنى عليه اثنان جنايتين نظرنا، فإن كانت الأولى أخرجته من حكم الحياة، مثل قطع حشوته، أي ما في بطنه، وإبانتها منه، أو ذبحه، ثم ضرب عنقه الثاني، فالأول هو القاتل؛ لأنه لا يبقى مع جنايته حياة، فالقود عليه خاصّةً، وعلى الثاني التعزير، كما لو جنى على ميّت»[٤٩].

الاستنتاج

من خلال متابعة كلام الفقهاء في مسألة توارد الفعلين، وتأمّل شقوقها المختلفة، نخرج بنتيجةٍ مفادها أن مستويات الحياة عند الفقهاء ثلاثة:

الأول : الحياة المستمرة وهي: حياة الإنسان العاديّ التي تبقى إلى انقضاء الأجل، بموتٍ أو قتل، وهي حياةٌ محترمة، لا يجوز التعدّي إطلاقًا. ومن آثارها الحركة الاختيارية والنطق والإدراك.

الثاني : الحياة المستقرة وهي: حياة من أصيب بجناية، وقطع بموته بعد ساعةٍ أو يوم، وتكون هذه الحياة بوجود الروح في الجسد، ومن آثارها الحركة الاختيارية والإدراك، ولهذه الحياة حكم الحياة المستمرة، نظرًا لوجود الروح والآثار من حركةٍ اختيارية وإدراك.

الثالث : حياة عيش المذبوح وهي: التي لا يبقى معها إبصارٌ ولا نطقٌ ولا حركة اختيارية، والمتعدي على هذه الحياة لا يعدّ قاتلاً؛ لانتفاء الحياة الإنسانية بانتفاء آثارها، إلاّ أنه يعزّر نتيجة اعتدائه على جثة قد باتت في حكم الأموات[٥٠].

وبناءً على ما تقدّم، يكون ميّت الدماغ بمستوى حالة الذي يحيى حياة المذبوح، إن لم يكن أسوأ حالاً منه على أقلّ تقدير، ووجه الاشتراك بينهما أنّ كلاًّ منهما قد فقد النطق والإبصار والحركة الاختيارية، لا بل إنّ ميّت الدماغ قد فقد الانفعال لأيّ أثرٍ خارجيّ.

المبحث الرابع

التخريج الفقهي والاعتراضات

يمكننا من خلال المفاعلة بين المعطيات الشرعية المتقدمة والمعطيات الطبية أن نصل إلى جملةٍ من النتائج تصبّ جميعها في اتجاهٍ واحد كما يأتي:

المعطيات الشرعية	المعطيات الطبية
السبب الذي يعزى إليه إدراك الأشياء هو الروح	مراكز الحس والذاكرة والوعي تكمن في الدماغ وعلى وجه التحديد في المخ.
النتيجة : الروح هي التي تدرك الأشياء بوساطة الدماغ وهذه النتيجة تستلزم بوساطة مبدأ عكس النقيض المقدّمة الآتية **موت الدماغ يفضي إلى عدم الإدراك(٥١)**	

المعطيات الشرعية	المعطيات الطبية
السبب الذي يعزى إليه حركة الاعضاء هو الروح	مراكز الحركة الإرادية تكمن في الدماغ وعلى وجه التحديد في المخ.
النتيجة : الروح سبب لحركة الإعضاء الاختيارية بوساطة الدماغ **وتنعكس بوساطة عكس النقيض إلى: موت الدماغ سبب لانعدام الحركة الإرادية**	

المعطيات الشرعية	المعطيات الطبية
علامة الحياة غير المستقرة (حركة المذبوح) – التي لا يعدّ الاعتداء عليها قتلاً – ذهاب الإبصار والنطق والحركة الاختيارية.	علامة موت الدماغ انعدام الحسّ والحركة الاختيارية والفعل الانعكاسي.
النتيجة : علامة مفارقة الروح للجسد موت الدماغ	

فهذه النتائج الثلاث تؤكد أنّ الإنسان إذا مات دماغه، يكون في عداد الأموات شرعًا، وقد جاءت هذه النتائج منسجمةً مع القرار الذي أصدره مجمع الفقه الإسلاميّ في دورة مؤتمره الثالث بعمّان عام ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م حيث قرّر ما يأتي:

يعدّ الشخص ميّتًا شرعًا وتترتب جميع الأحكام المقررة شرعًا للوفاة عند ذلك، إذا تبيّنت فيه إحدى العلامتين التاليتين:

١ - إذا توقف قلبه وتنفسه توقّفًا تامًّا، وحكم الأطباء بأنّ هذا التوقّف لا رجعة فيه.

٢ - إذا تعطلت جميع وظائف دماغه تعطّلاً نهائيًّا، وحكم الأطباء الاختصاصيّون الخبراء بأنّ هذا التعطّل لا رجعة فيه، وأخذ دماغه في التحلّل.

وفي هذه الحالة يسوّغ رفع أجهزة الإنعاش المركبة على الشخص، وإن كان بعض الأعضاء كالقلب مثلاً لا يزال يعمل آليًّا بفعل الأجهزة المركبة، والله أعلم(٥٢).

وإذ قد انتهينا إلى هذه النتيجة، لا بدّ من بيان الاعتراضات التي قد ترد عليها، وبيان ما فيها، وجملة الاعتراضات ثلاثة:

الاعتراض الأول

يرد على قياس موت الدماغ، على ذلك الإنسان الذي وصل إلى مستوى عيش المذبوح، بأنه قياسٌ مع الفارق؛ إذ قد فرّق العلماء بين صورتين اثنتين:

الأولى : أن يتعدّد الجناة، فيوصله الأول منهما إلى منزلة عيش المذبوح، ويقوم الثاني بالإجهاز عليه، فالقود إنما هو على الأول، وعلى الثاني التعزير كما مرّ.

الثانية : أن يصل الإنسان إلى حالة النزع بسبب مرض، فيتعدى عليه شخصٌ، ويجهز عليه، فيجب القود على هذا المعتدي، قال صاحب الدر: «ولو قتله وهو في حالة النزع قتل به». وعلّق ابن عابدين عليه بقوله: «وإن كان يعلم القاتل أنه لا يعيش به»، ونسبه لكتبٍ معتمدةٍ في المذهب(٥٣).

وصورة موت الدماغ من قبيل الثانية لا الأولى؛ إذ ليس ثمة جناة.

والجواب عن هذا الاعتراض بتنقيح المناط - وهو إلغاء الأوصاف التي لا مدخلية لها في الوصف المشترك بين الأصل والفرع(٥٤) -: إذ سبب تفرقة العلماء بين الصورتين أنه قد وجد في صورة تعدّد الجناة ما يمكن أن يحال عليه الموت، وهو فعل الأول، أما فيمن وصل إلى مرحلة النزع فلم يوجد ما يمكن أن يحال عليه الموت إلا فعل هذا المتعدي، ويرجع السرّ في عدم إحالة فقهائنا، رحمهم الله، سبب الموت إلى المرض إلى أن معطياتهم الطبية لم توفّر لهم قناعة تامّة بأنّ هذا المريض قد وصل إلى مرحلة النزع فعلاً أو ما يُسمى بمرحلة اللا عودة؛ إذ ربّما تطرأ الصحة ثانيةً. وهذا فقيه الحنفية ابن عابدين يؤكد هذا الاستنتاج، فيقول: «ولعلّ الفرق بينه - من وصل إلى اضطراب الموت - وبين من هو في النزع، أن النزع غير متحقّق، فإن المريض قد يصل إلى حالة شبه النزع، بل قد يُظنّ أنه قد مات، ويفعل به كالموتى ثم يعيش بعده طويلاً، بخلاف من شقّ بطنه، وأخرجت أمعاؤه، فإنه يتحقق موته، لكن إذا كان فيه من الحياة ما يعيش معها يومًا، فإنها حياةٌ معتبرة شرعًا كما مرّ في الذبائح؛ فلذا كان القاتل هو الثاني، وأمّا لو كان يضطرب اضطراب الموت من الشقّ فالحياة غير معتبرة أصلاً، فهو ميّتٌ حكمًا؛ فلذا كان القاتل هو الأول، هذا ما ظهر لي فتأمّل»(٥٥).

أما وقد ثبت أن ميّت الدماغ قد وصل إلى نقطة

اللاعودة، فهو لذلك أسوأ حالاً من الذي وصل إلى حركة المذبوح، فالفقه إحالة الموت إلى تعطّل الدماغ، وهو سببٌ صحيح لا يمكن أن يتطرّق إليه احتمال الشفاء، فإن خلايا الدماغ إذا تلفت فليس ثمة ما يصلحها، كما قرّر ذلك أهل التخصّص.

الاعتراض الثاني

قد يُردّ ما توصّلنا إليه من نتيجة إلى أنه قد يأتي اليوم الذي يتمكّن فيه الأطباء من نقل الدماغ وزراعته، أسوةً ببقية الأعضاء، فكيف يحكم على هذا المريض الذي قد تلف دماغه اليوم بالموت؟

والجواب أنّ هذه الشبهة قد تُتَصور من الناحية النظرية الصرفة، أما من حيث الواقع، فهي ضمن الإمكانات الطبيّة الحاليّة ضربٌ من المستحيل؛ إذ كيف سيؤمن وصول الدم إلى خلايا الدماغ، التي لا يمكن أن تنتظر أكثر من بضع دقائق دون غذاء، أضف إلى ذلك الكمّ الهائل من التوصيلات العصبية والدموية التي لا يمكن إنجازها إلاّ ضمن زمنٍ ليس بالقليل.

وعلى الرغم من هذا، إلاّ أنّنا لو افترضنا أن إنسانًا قد حُكم عليه بالإعدام، ولمّا فصل الرأس عن العنق تلقّف الأطباء هذا الرأس مباشرةً، وحاولوا بإمكاناتهم الطبية الفائقة أن يحافظوا على حياته، فلو أنّ مريضًا في ردهة العناية المركّزة قد تلف دماغه تلفًا نهائيًا، وما دُمنا في الافتراض لنفترض أن أطباء جراحة الجملة العصبية قد تمكّنوا من غرس هذا الدماغ بدل ذلك الدماغ التالف، ولنسبح في الخيال، ولنفترض أيضًا أنّ الحياة بدأت تدبّ في هذا المريض، وبدأ يستعيد إدراكه، فهل معنى هذا أن الروح قد عادت إلى مريض العناية المركّزة بعد أن كانت قد غادرته بموت دماغه؟

والجواب أنّ هذه الفرضية لو صحّت، لكان معنى هذا أنّنا أعدنا لهذا الدماغ المزروع أعضاء تنفعل لإيعازاته. وبعبارةٍ أخرى، فقد نقلنا الجسد إلى الدماغ، ولم ننقل الدماغ إلى الجسد، ومعنى هذا أننا حافظنا على الروح المتعلقة بذلك الدماغ الذي فصل رأس صاحبه عن جسده، أمّا مريض العناية المركّزة فقد مات بموته دماغه وانفصلت روحه إلى عالم الأرواح إلى غير رجعة.

الاعتراض الثالث

يرى بعض الباحثين أنّ موت الدماغ لا يعني أنّ الحياة الإنسانية قد انتهت، فهو نذير موت محض. وفي مقدمة أولئك الباحثين الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي؛ إذ يقول:

«بيدَ أن موتَ الدماغ هذا لا يعدّ وحده، في ميزان الشريعة الإسلامية، دليلاً قاطعًا على حلول الموت فعلاً، بل هو في أكثر الأحيان نذير موتٍ محقّق، حسب المقاييس الطبيّة المجمع عليها. إلاّ أنه ليس نذيرًا قطعيًا بالموت في حكم الشريعة، بل العقيدة الإسلامية، ذلك لأنّ هذه الحالة، وإن كان من شأنها أن تورث الطبيب يقينًا تامًّا بأنها حالة موت، وبأن المسألة عندئذٍ لا تعدو أن تكون مسألة وقت، يتمثل في بضع دقائق ويسكن القلب بعدها بيقين، إلاّ أنّ هذا اليقين بحدّ ذاته ليس يقينًا علميًّا لدى التأمّل والتحقّق، وإنما هو طمأنينة نفسيّة منبعثة من كثرة التجارب المتكرّرة التي لم تشذ، والتي يسمّيها كثيرٌ من العلماء، ومنهم الغزالي، اليقين التدريبيّ»(٥٦).

وبنى فضيلته هذا التصوّر على أمرين:

أولهما : أن أحكام الموت إنّما تترتب على وقوعه الفعليّ لا على توقعاته.

ثانيهما : أن هذه الدلالات أو التوقّعات، مهما استندت إلى اليقين العلميّ، فإنّ انتعاش المريض،

وتوجّهه مرةً أُخرى إلى الحياة، ليس مستحيلاً عقليًّا، ومن ثم ليس مستحيلاً شرعيًّا.. ذلك لأنّ الموت الحقيقيّ التامّ لم ينزل به بعد، ومقدمات الموت وأسبابه التي لم تشذ قط، ليست أسبابًا موجبة بطبعها، وإنما بجعل الله إيّاها علامات على قربه. ولله أن يبطل دلالتها، ويلغي سببيّتها للموت عندما يشاء(٥٧).

وكلا هذين الأمرين محلّ نظر.

أمّا **أولهما**، فإنّ هذا البحث كفيلٌ في إثبات أنّ موت الدماغ ليس نذير موت، بل أمارةٌ واضحةٌ على تحقّقه، فقد غدا ميّت الدماغ جثةً هامدة، انقطعت عن العالم الخارجيّ، ووصلت إلى مرحلة اللا عودة. أما استمرار النبض والتنفس الآليّ، فلا يستلزم استمرار تعلّق الروح بالبدن، كيف وإنّ الجنين يبدأ قلبه بالنبض في نهاية الأسبوع السادس من حياته، والروح لمّا تنفخ فيه بعد، إلاّ أن الفارق بين الصورتين، أنّ الجنين الذي ينبض قلبه ذاتيًا – أي دون توسّط أجهزة – مستعدّ للحياة، أمّا ميّت الدماغ فقد وصل إلى مرحلة اللا عودة، وغادرت روحه بدنه، بسبب عجز الأعضاء عن الانفعال لأوامر الروح، كما مرّ عن الإمام الغزالي وابن القيّم رحمهما الله.

وأما **ثاني الأمرين** فإن قوله «إنّ انتعاش المريض، وتوجّهه مرةً أخرى إلى الحياة، ليس مستحيلاً عقليًّا، ومن ثَمّ ليس مستحيلاً شرعيًّا» مسلمٌ، إلاّ أنه لا يتمّ تقريبه، فلا ينتج إلغاء موت الدماغ وعدم اعتباره؛ لأنّ انتعاش الميّت الذي توقّف قلبه وتنفّسه كذلك ليس بمستحيل عقلاً، ومن ثَمّ فقد بحث الفقهاء في ميّتٍ أحياه الله عزّ وجلّ، معجزة لنبيّ أو كرامة لوليّ، وقد قسّمت تركته، فهل تنقض القسمة أم لا؟ والمسألة، وإن كانت افتراضية، ممكنة في حدّ ذاتها، وليست مستحيلة فتردّ نقضًا.

ومع أنّ الأستاذ البوطي لم يسلّم بموت الدماغ، إلاّ أنه أجاز رفع أجهزة الإنعاش، وعلّل ذلك بقوله: «ومن ثمّ فإنّ فصل هذه الأجهزة عنه لا يعدّ قتلاً له، ولا تسبّبًا بموته، مهما ظهر أنّ هذا الفصل قد ينهي حركة القلب، ويعجّل بالموت. ذلك لأنّ الحياة الحقيقية ليست تلك التي تنبعث من أجهزة، فتمدّ القلب بالوجيب، وتجعل صاحبه كأنه يمارس الشهيق والزفير. وإنما الحياة ذلك السرّ المنبعث من داخل الكيان، بل من كلّ أجزاء الجسد. ومن ثمّ فإنّ للطبيب أو لذوي المريض فصل هذه الأجهزة وإنهاء عملها في الوقت الذي يشاءون(٥٨).

ولنا هنا مع فضيلته وقفةٌ أخرى، فإذا كان قد عدّ موت الدماغ نذيرُ موت محض، فإنّ هذا يعني أنّ الموت لم ينزل بهذا المريض بعد، فلا يزال إذًا على قيد الحياة؛ لأنه إذا انتفى الموت فلا بُدَّ من أن تكون الحياة هي الوصف العارض لهذا المريض، فالقسمة ثنائية كما مرّ، فكيف يسوغ حينئذٍ رفع أجهزة الإنعاش، وهي الوسيلة الوحيدة للحفاظ على هذه الحياة، وهل إذا تعطّل قلب الإنسان أو كبده، وأمكن الاستعاضة عنه بعضوٍ آليّ، فهل يجوز القول بإيقاف عمل هذا القلب أو الكبد بسند أن الحياة الإنسانية ليست تلك التي تنبعث من الأجهزة كما يقول فضيلته؟!

خاتمة البحث

تمَ التوصّل إلى جملةٍ من النتائج من خلال مسيرة البحث، وقبل أن نسطرها لا بدَ من أن نشير إلى أنّنا قد اعتمدنا التعريفَ الصادرَ عن المدرسة الأمريكية لموت الدماغ، التي تشترط موت الدماغ بأكمله.

وأبرز نتائج البحث:

١ – تبدأ الحياة الإنسانية بنفخ الروح، بعد أربعة أشهر من حياة الجنين.

٢ – تترتب على الحياة الإنسانية آثارٌ مختلفة، منها الحس، والحركة الاختيارية، والإدراك، والإبصار، والنطق.

٣ – السبب الذي تُعزى إليه تلك الآثار المختلفة هو الروح.

٤ – ولمّا كان الموت يقابل الحياة فإنّ انعدام تلك الآثار أمارة على تحقّق الموت.

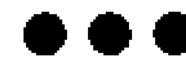
٥ – للحياة الإنسانية ثلاث مستويات:

أ – الحياة المستمرة، ومن آثارها الحركة الاختياريّة والنطق، وهي حياةٌ محترمة لا يجوز التعدّي عليها إطلاقًا.

ب – الحياة المستقرة، ومن آثارها الحركة الاختياريّة والإدراك، وهي حياةُ من أصيب بجناية وقطع بموته بعد حين، وهي حياةٌ محترمة لا يجوز التعدّي عليها كذلك.

ج – حياة عيش المذبوح، وهي التي لا يبقى معها إبصارٌ ولا نطقٌ ولا حركة اختيارية، والمتعدّي على هذه الحياة لا يُعدُّ قاتلاً.

وبما أنّ ميّت الدماغ قد فقد نطقه وإدراكه وحركته الاختيارية لذلك يندرج ضمن هذا المستوى الثالث، والله أعلم. ●



الحواشي

١ – موت الدماغ بين الطب والإسلام: ٤١ – ٤٣.
٢ – المرجع السابق: ٥٦.
٣ – ينظر: ندوة الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها في المفهوم الإسلامي: ٣٥٥ – ٣٦٦.
٤ – ينظر: الموقف الفقهي والأخلاقيّ من قضية زرع الأعضاء: ٣٤.
٥ – ينظر: بداية حياة الإنسانية ونهايتها: ٣٤٢.
٦ – شرح المقاصد: ١/١٧٣.
٧ – المواقف: ١٣٩.
٨ – شرح السيد الشريف على المواقف مع حاشيتي عبد الحكيم والچلبي: ٥/٢٨٨.
٩ – المرجع السابق.
١٠ – المواقف: ١٤٠.
١١ – ينظر: شرح المقاصد: ٢/٦٤.
١٢ – المحلى: ١٠/٥١٨.
١٣ – سورة مريم: ٩٨.
١٤ – روح المعاني: ١٦/١٤٤.
١٥ – سورة يس: ٢٩.
١٦ – ينظر: التحرير والتنوير: ٢٢/٦.
١٧ – ينظر: نيل الأوطار: ٦/٦٧.
١٨ – المرجع السابق.
١٩ – سورة ص: ٧٢.
٢٠ – النفس والروح مترادفان عند جمهور المتكلمين. ينظر: شرح السيد على المواقف مع حاشيتي عبد الحكيم والچلبي: ٧/٢٨٤.
٢١ – المطالب العالية من العلم الإلهي: ٧/٢٥٥.
٢٢ – تفسير الرازي: ٢٦/٢٨٤.
٢٣ – عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ١٥/١٢٩.
٢٤ – سورة ص: ٧١ – ٧٢.
٢٥ – سورة المؤمنون: ١٢ – ١٤.
٢٦ – ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٢/١٠٩.
٢٧ – ينظر: أبحاث طبيّة في قضايا فقهية معاصرة: ٨٩.
٢٨ – حاشية ابن عابدين: ٣/١٧٦.
٢٩ – شرح منح الجليل: ٢/٦٨.
٣٠ – نهاية المحتاج: ٨/٤١٦، وينظر: فتح القدير: ٣/٤٠١.
٣١ – حاشية ابن عابدين: ٣/١٧٦.
٣٢ – أحكام النساء: ١٧١ – ١٧٢.

٣٣ – البحر الرائق شرح كنز الدقائق: ٢/٢٠٢.
٣٤ – الموسوعة الفقهية: ٤/١٣٤.
٣٥ – روضة الطالبين: ٩/٢٧٦.
٣٦ – ينظر: مغني المحتاج: ١/٣٣٢، وفتح القدير: ٢/١٠٣.
٣٧ – مغني المحتاج: ١/٣٣٢.
٣٨ – لعلّ الصواب جسمٌ نورانيّ.
٣٩ – الروح: ٢٤٢.
٤٠ – إحياء علوم الدين: ٤/ ٤٩٣ – ٤٩٤.
٤١ – ينظر: حاشية ابن عابدين على الدرّ المختار: ٦/٥٤٤.
٤٢ – حاشية الطحاوي على الدرّ المختار: ٤/٢٦٥.
٤٣ – حاشية ابن عابدين: ٦/٥٤٤.
٤٤ – المقاتل: جمع مَقتل وهو اسمٌ لمكان القتل، والمراد به مصابٌ إصابة قاتلة.
٤٥ – الخرشي على مختصر الخليل: ٨/٧.
٤٦ – انظر: الخرشي: ٨/ ٧ – ٨.
٤٧ – شرح منح الجليل: ٤/٣٦١.
٤٨ – مغني المحتاج: ٤/ ١٢ – ١٣. وينظر: روضة الطالبين: ٩/ ١٤٤ – ١٤٦.
٤٩ – المغني: ٨/٢٣٩.
٥٠ – ينظر التفصيل في: المنثور في القواعد: ٢/١٠٥، والموسوعة الفقهية: ١٨/٢٦٩.
٥١ – عكس النقيض اصطلاحٌ للمناطقة، وهو عبارةٌ عن جعل نقيض الجزء الثاني من القضية جزءًا أو لا، ونقيض الجزء الأول ثانيًا مع بقاء الكيف والصدق. فالموجبة الكلية تنعكس موجبة كلية. ينظر: مجموع شروح الشمسية: ٢/١٦٩.

فقولنا كلّ ميّتة لا يحلّ أكلها في حالة الاختيار، ينعكس، بوساطة عكس النقيض إلى قولنا، كلُّ ما يحلّ أكله اختيارًا ليس بميّتة.

وتأسيسًا على هذا المبدأ ينعكس قولنا الروح هي التي تدرك بوساطة الدماغ – أي بوساطة الحياة التي تنبض بها – إلى قولنا موت الدماغ يفضي إلى عدم إدراك الروح للأشياء. فإنّ نقيض الحياة هو اللاحياة، وهي مساوية للموت.

٥٢ – ينظر: الفقه الإسلاميّ وأدلته: ٨/٥١٠١.
٥٣ – ينظر: حاشية ابن عابدين: ٦/٥٤٤.
٥٤ – ينظر: الموسوعة الفقهية: ١٤/٧٧.
٥٥ – حاشية ابن عابدين: ٦/ ٥٤٤ – ٥٤٥.
٥٦ – قضايا فقهية معاصرة: ١٢٩.
٥٧ – المرجع السابق: ١٢٩ – ١٣٠.
٥٨ – المرجع السابق: ١٣٠.

المصادر والمراجع

الآلوسي : محمود.
– روح المعاني، دار الفكر، بيروت، د.ت.
الإيجي : عبد الرحمن بن أحمد.
– المواقف، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
البار : محمد علي.
– الموقف الفقهي والأخلاقي من قضية زرع الأعضاء، ط١، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٩٩٤م.
البوطي : محمد سعيد رمضان.
– بحوث فقهية معاصرة، ط٥، دار الشادي، دمشق، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.
التفتازاني : مسعود بن عمر.
– شرح المقاصد، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩.
الجرجاني : السيد شريف.
– شرح المواقف، ط١، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٧م.
ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي.
– أحكام النساء، تح. عبد القادر أحمد عبد القادر، ط١، دار الوفاء – المنصورة، دار ابن قتيبة – الكويت، ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م.
ابن حزم : علي بن أحمد.
– المحلّى، دار الفكر، د.ت.
الخرشي :
– الخرشي على مختصر خليل، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.
الدفر : ندى محمد نعيم.
– موت الدماغ بين الطب والإسلام، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٧م.
الرازي : محمد بن عمر.
– التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
– المطالب العالية من العلم الإلهي، ط١، دار الكتب المصرية، بيروت، ١٩٨٧م.
الرملي : أحمد بن حمزة.
– نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، المكتبة الإسلامية، د.ت.
الزحيلي : وهبة.
– الفقه الإسلامي وأدلته، ط٤، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٧م.
الزركشي : محمد بن بهادر.
– المنثور في القواعد، ط١، مؤسسة الخليج، الكويت.
الشربيني : محمد الخطيب.
– مغني المحتاج، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.
الشوكاني : محمد بن علي.

- نيل الأوطار من أحاديث سيّد الأخيار، دار الحديث، القاهرة، د.ت.

الطحاوي : أحمد.

- حاشية الطحاوي على الدرّ المختار، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٥م.

ابن عابدين : محمد أمين بن عمر.

- حاشية ردّ المختار، ط٢، البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م.

ابن عاشور : محمد الطاهر.

- التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

العدوي :

- حاشية العدوي على شرح مختصر خليل، على هامش الخرشي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

عليش : محمد.

- شرح منح الجليل.

العيني.

- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت، د.ت.

الغزالي : محمد بن محمد.

- إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.

ابن قدامة : عبد الله بن أحمد.

- المغني، دار الفكر، د.ت.

القرطبي : محمد بن أحمد الأنصاري.

- الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م.

ابن قيّم الجوزية.

- الروح، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩م.

المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية.

- بحوث ندوة الحياة الإنسانية، بدايتها ونهايتها في المفهوم الإسلامي، المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، الكويت، د.ت.

ابن نجيم : زين الدين.

- البحر الرائق، ط٢، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

النووي : يحيى بن شرف.

- روضة الطالبين، المكتبة الإسلامية، د.ت.

ابن الهمام.

- فتح القدير، دار الفكر، بيروت، د.ت.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت.

- الموسوعة الفقهية، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٤م.

ياسين : محمد نعيم.

- أبحاث فقهية في قضايا طبيّة معاصرة، ط١، دار النفائس، عمان - الأردن، ١٩٩٦م.



الشاهد الشعري وقضايا النقد والبلاغة في كتاب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» نموذج شعر المتنبي

الدكتور/ محمد الحجوي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القنيطرة / المغرب

الشاهد الشعري وقضايا النقد والبلاغة في كتاب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» نموذج شعر المتنبي

لقد كان الشاهد الشعري حاضرًا في جميع مراحل التأليف في النقد والبلاغة وفي الدراسات الأدبيّة عامّة، وكان الشعر الجاهلي والإسلامي في المرحلة الأولى يأخذ حظًّا وافرًا في هذه الدراسات، إضافة إلى القرآن والحديث وأقوال الأعراب الفصحاء؛ وذلك أن العلماء الأوائل، الذين عُنُوا بالدراسات الأدبيّة والبلاغيّة والنقديّة أمثال أبي عمرو بن العلاء (ـ ١٥٤هـ)، وخلف الأحمر (ت ١٨٠هـ)، وأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) والأصمعي (ت ٢١٦هـ)، وابن سلام الجُمحي (ت ٢٣١هـ)، وغيرهم، كانوا يعدّون الشعر الجاهلي والإسلامي أنموذجًا أمثل في سلامة المعاني وجزالة اللغة والإصابة في التشبيهات والكنايات والاستعارات.

ذكر ابن رشيق أنّ أبا عمرو بن العلاء كان يستحسن استعارة ذي الرمة في قوله:

أقامتْ بها حتى ذوى العود والتوى
وساقَ الثّريّا في مُلاءته الفَجرُ

وكان يقول: "ألا تراه كيف صيّر له ملاءة، ولا ملاءة له، وإنما استعار له هذه اللفظة"(١).

وكان ابن سلام يستحسن غاية الاستحسان طريقة امرئ القيس في التشبيهات: "وشبه النساء بالظباء والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وقيّد الأوابد، وأجاد في التشبيه"(٢).

وأشار الجاحظ إلى الخصائص التي جعلت العلماء يتسجيدون الشعر القديم وأقوال الأعراب الفصحاء وخطبهم، فقال: "ولم أجد في خطب السلف الطيّب والأعراب الأقحاح ألفاظًا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعًا رديئًا، ولا قولاً مستكرهاً"(٣).

وفي العصر العباسي تغيّر الشعر العربي شكلاً ومضمونًا نتيجة التطور الثقافي والحضاري والفكري الذي شهده العصر؛ إذ اختلط العرب بأمم ذات حضارة ومعرفة بالعلوم العقليّة والفلسفيّة، فكان لهذا الاختلاط أثره الكبير في الأدب والمناهج وطريقة التفكير عند العرب. وإذا كان العلماء اللغويون في

منتصف القرن الثاني وأوائل الثالث قد رفضوا الاستشهاد بشعر المحدَثين، فإنّ العلماء في أواخر القرن الثالث قد بدأوا يولون عنايتهم للشعر المحدَث بوصفه ظاهرة فنيّة مختلفة شكلاً ومضموناً عن شعر القدماء؛ فصياغته جديدة، ومعانيه طريفة بمنحاها الفلسفي والبديعي؛ إذ ارتقى الشاعر المحدَث إلى "ما هو أشق وأصعب، فلم تقنعه هذه التكاليف في البلاغة حتى طلب البديع"(٤).

وكان أبو تمام رائد الاتجاهين معًا؛ الاتجاه الفلسفي العميق الرؤية، والاتجاه البديعي الطريف. قال الآمدي: "فأبو تمام انفرد بمذهب اخترعه، وصار فيه أولاً وإمامًا متبوعًا، وشُهِر به حتى قيل: هذا مذهب أبي تمام، وطريقة أبي تمام، وسلك الناس نهجه، واقتفوا أثره"(٥).

وقال في مذهبه الفلسفي، الذي فضّله أصحاب الصنعة: "ومثل من فضّل أبا تمام، ونسبه إلى غموض المعاني ودقتها، وكثرة ما يورد، مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج، وهؤلاء أهل المعاني، والشعراء أصحاب الصنعة، ومن يميل إلى التدقيق وفلسفي الكلام"(٦).

لكن هذا القول، وذلك في شعر أبي تمام بخاصّة، وفي شعر المحدثين بعامّة، لم يكن نابعًا من مبدأ الاستحسان المطلق، بل كانت نظرة النقاد تتفاوت بين الاستحسان والاستهجان تبعًا لميول كل ناقد وثقافته؛ ومهما يكن الاختلاف في شعرهم قد بلغ ذروته(٧)، فإنه ينبغي النظر إلى أشعارهم بشيء من التأمل والتأني والإمعان، حتى لا نصدر أحكامًا متسرّعة في تخطئتهم، وهم الذين يصدق عليهم قول الخليل بن أحمد: "الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنّى شاءوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تصريف اللفظ وتقييده، ومدّ المقصور وقصر الممدود، والجمع بين لغاته، والتفريق بين صفاته، واستخراج ما كلّت الألسن عن وصفه ونعته، والأذهان عن فهمه وإيضاحه، فيقربون البعيد ويبعدون القريب، ويحتج بهم ولا يحتج عليهم"(٨).

وكان المتنبي، وهو الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في زمانه وبعد زمانه، من هؤلاء الشعراء الذين اتّسع مجالهم في ميدان الشعر صياغةً وأغراضًا وتصرفًا في ألوان المعاني مع طبع ومعرفة بوجوه تصرف الأعراب ببلاغة الكلام، حتى صار يحتج بشعره ولا يحتج عليه، قال ابن جني - وهو أعلم الناس بلغة العرب -: "وذاكرت المتنبي شاعرنا نحوًا من هذا، وطالبته به في شيء من شعره، فقال: لا أدري ما هو، إلا أنّ الشاعر قد قال:

لسنا كمن حلت إياد دارها (البيت)

فعجبت من ذكائه وحضوره مع قوة المطالبة له، حتى أورد ما هو في معنى البيت الذي تعقبته عليه من شعره"(٩).

ولهذا لا نستغرب أن تقوم حركة نقديّة خصبة حول شعره، مسّت اللغة والمعاني والأغراض؛ لكن هذه الحركة لم تعرف اعتدالاً وإنصافًا في بيان محاسن شعره ومساوئه؛ إذ شابتها أحقاد وضغائن على الشاعر دون النظر إلى شعره بعين الإنصاف، وهذا ما جعل القاضي الجرجاني يؤلّف كتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه)؛ ليكون حكمًا عدلاً بين الفريقين، فلا هوى ولا عصبيّة، ولا تعسف ولا جور، وإنما حكم يقوم على التقويم السليم والنظر المتأني، الذي يراعي أحوال الناس وطبيعة تركيب خلقتهم التي فطرت على السهو والخطأ: "وإذا كانت الخلقة مبنيّة على السهو، وممزوجة بالنسيان، فاستسقاط من عزّ حاله حيف، والتحامل على من وجه إليه ظلم"(١٠).

وتشاء هذه الحركة النقدية التقويميّة لشعر المتنبي أن تمتدّ إلى الغرب الإسلامي عند شاعر وناقد وبلاغي، كان عميق النظر في المعاني والمباني، هو حازم

القرطاجنّي، الذي أحدث كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) نقلة كبيرة في النظر إلى المعاني وضروب فنون البلاغة. لقد كان حازم ناقدًا بصيرًا بجواهر الكلام، وبطرق تأليفه، وبالوسائل التي تساعد على تجويده، فوضع قوانين تساعد من أراد أن يبرّز في هذا الميدان، "وإنما احتجت إلى الفرق بين المواد المستحسنة في الشعر والمستقبحة، وترديد القول في إيضاح الجهات التي تقبح، وإلى ذكر غلط أكثر الناس في هذه الصناعة؛ لأرشد من لعل كلامي يحل منه محل القبول من الناظرين في هذه الصناعة إلى اقتباس القوانين الصحيحة في هذه الصناعة، وأزع كل ذي حجر عما يتعب به فكره ويصم شعره"[11].

ومن هنا ينبغي أن نعدّ أقواله في شواهد شعر المتنبي وغيره من الشعراء حجة في المعاني، وقانونًا فاصلاً بين الجودة والرداءة، والقدرة والعجز، والإصابة والإخفاق. إن أقواله تعد حجة من خلال جوانب متعددة، منها: أن حازمًا شاعر فحل، أبان في أشعاره عن اقتدار في التصرف في المعاني وضروب المقاصد الشعرية، ومنها أنه، كما قلنا آنفًا، ناقد بصير بالكلام، ومطلع على أقوال النقاد العرب وأقوال الفلاسفة، ولاسيما أرسطو وشراحه: الفارابي، وابن سينا، وابن رشد.

قال أستاذنا الدكتور أمجد الطرابلسي عن المدرسة النقدية المتأثرة بالفلسفة والمنطق في الغرب الإسلامي، وحازم قطب من أقطابها: "وهي مدرسة يبدو واضحًا من خلال الآثار التي تركها لنا أعلامها، أنهم كانوا جميعًا – مع تمكنهم حق التمكن من اللغة العربية وآدابها بعامة، ومن الدراسات النقدية والبلاغية العربية بخاصة – أحسن اطلاعًا على منطق أرسطو، وأعمق فهمًا لمضمون كتابيه: (الشعر) و(الخطابة)، من النقاد والبلاغيين، الذين عرفتهم القرون السابقة في مشرق الوطن العربي ومغربه"[12].

وقبل أن نتتبع شعر المتنبي في كتاب حازم نشير إلى ملحوظات نعدّها إضاءة وتنويرًا لآراء حازم في شعر المتنبي:

الأولى: أن حازمًا كان يستحضر شعر المتنبي في المواضع التي يذكر فيها دقة المعاني وعلو شأن العرب في البلاغة والفصاحة، وكأنه بذلك كان يردّ مثل الجاحظ رأي الذين كانوا يهونون من شأن البلاغة العربية المتمثلة في أشعار الفحول.

الثانية: كان حازم يذكر شعر المتنبي في أثناء حديثه عن صناعة البلاغة، التي لا يتأتّى تحصيلها في الزمن القريب؛ لأنها صناعة تأصّلت قواعدها منذ قرون، وتعلّمها يحتاج إلى طبع ومراس ودربة: "وهذا أبو الطيب المتنبي، وهو إمام في الشعر، لم يستقم شعره إلا من مزاولة الصناعة عشرين سنة، ثم زاولها بعد ذلك زمنًا طويلاً، وتوفي وهو يصيب فيها ويخطئ"[13].

الثالثة: أن شعر المتنبي بلغ عنده درجة كبيرة في سمو المعاني ودقتها، حتى إنه كان يكتفي ببيت أو نصف بيت من شعره للاستشهاد على قضايا عميقة في المعاني والمباني.

الرابعة: أن شعر المتنبي يأتي في كتابه في الرتبة الأولى من حيث الإحصاء مقابلاً بأشعار فحول المحدثين؛ إذ استشهد بواحد وأربعين بيتًا من شعره، وباثنين وعشرين بيتًا من شعر أبي تمام، وبستة عشر بيتًا من شعر ابن الرومي، وبتسعة أبيات من شعر البحتري.

وهذه الرتبة لشعر المتنبي لم تأت مصادفة؛ لأن حازمًا حينما وضع لهذه الصناعة قواعدها على طريقة قلّ نظيرها في مؤلفات أخرى كان لا ريب قد وقف زمنًا طويلاً ناظرًا ومتأملاً في دواوين الشعراء ومؤلفات جهابذة النقد والبلاغة، فوجد شعر المتنبي خير مساعد له؛ لتنوير نظريته النقدية والبلاغية وإضاءتها أحسن إضاءة.

وإذا كانت نظرية حازم النقدية والبلاغية قائمة أساسًا على البحث في المعاني والأساليب، والتخييل والمحاكاة، وإحكام الأوزان والقوافي والمطالع والمقاطع، وقضايا البديع مع سلامة الشعر من التكلف والحوشي والغريب والشاذ، فإننا نجد شعر المتنبي حاضرًا في هذه النظرية بكل تفريعاتها ودقائقها، حتى إننا يمكن أن نقول إنّ أصول هذه النظرية لم تتوضح إلا بشعره.

فبالنسبة لفنون البديع التي خصص لها حيزًا في كتابه وأظهر لنا موقفه منها؛ لأنها عُدّت عند بعض البلاغيين ضربًا من التزيين والتحسين والزخرف، نجده يستشهد بشعر المتنبي في فن (الطباق)، وفي نوع منه عدّ دليلاً على براعة الشعراء وقدرتهم على الإبداع في المعاني، وهو ما ضوعفت فيه المطابقة، ولذلك قال حازم: "ومن أبدع ما ضوعفت فيه المطابقة وجاءت العبارة الدالة عليها في أحسن ترتيب وأبدع تركيب قول أبي الطيب المتنبي:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي،

وأنثني وبياض الصبح يغري بي(١٤)

نص حازم هنا على حسن الترتيب والإبداع في التركيب، وهاتان الميزتان، إضافة إلى مزايا أخرى تنحصر في شرف اللفظ وعدم التكلف، أشار إليهما الثعالبي من قبل في قوله: "فلله دره، وناهيك بشرف لفظه وفضله وبراعة نسجه، وما أحسن ما جمع أربع مطابقات في بيت واحد، وما أراه سبق إلى مثلها"(١٥).

ومما يدل على جمع مطابقات في بيت واحد من براعة الشعراء في المعاني وقوف السجلماسي على هذه الملحوظة، حيث ذكر أن الشاعر البحتري سبق المتنبي، فجمع في بيت واحد أربع مطابقات في قوله:

يا أمةً كانَ قبحُ الجورِ يُسْخِطُها

دهرًا، فأصبحَ حسنُ العدلِ يُرضِيها

لكن "وسنان جفن المتعصب غفل في المعادة بالكون الذي دلت القرينة على انصرامه، وبالإصباح الصائر إليه الأمر، وهما طباق صحيح، ولم يغفل في بيت المتنبي بالزور والانثناء"(١٦).

ولم تغب شواهد المتنبي في حديث حازم عن التفسير، وهو فن يحتاج فيه الشاعر إلى قدرة ذهنية فائقة، لاسيما التفسير إذا جاء في بيت واحد، وقد استشهد ببيتين من شعر المتنبي؛ لبيان نوعين منه، وهما: تفسير الإيضاح، وتفسير السبب. والشاهدان من أجود ما قيل في التفسير؛ ففي النوع الأول؛ أي تفسير الإيضاح أورد قوله:

ذكيٌّ تظُنّيه طليعةَ عينه

يرى قلبَه في يومِه ما ترى غدا

وفي تفسير السبب ذكر قوله:

فتًى كالسَّحابِ الجونِ يُرتجى ويُتقى،

يُرجى الحيا منه وتُخشى الصواعق(١٧)

لقد أبدع المتنبي في هذا التفسير غاية الإبداع، ولهذا وقف النقاد عند فضيلته، لاسيما أنه ورد في بيت واحد؛ لأن الغالب في هذا النوع أن يرد في أكثر من بيت لضرورة تركيب القول من مفسَّر ومفسِّر. قال السجلماسي: "فإنه قد أحكمه كما قيل أشد إحكام، وجاء به أحسن مجيء"(١٨).

وكان شعر المتنبي حاضرًا أيضًا في مواضع حديث حازم عن التكلف والتمحّل، وأثر الألفاظ القبيحة في استهجان الشعر، ووضع الألفاظ في غير موضعها، واستعمال عبارات تنبو النفس عنها. وقد استهجن في هذا الموضع من شعر المتنبي لفظة "مسبطر" التي خاطب بها أم سيف الدولة في قوله:

رُواق العزّ فوقك مسبطرّ،

وملك علي ابنك في كمال

قال: "لفظة (مسبطر) بعد قوله للمرأة (فوقك) قبيحة"[١٩].

ونرى أن حازمًا اتبع الصاحب بن عباد في نقده للمتنبي في هذه اللفظة حيث قال: "ذكره الاسبطرار في مرثية النساء من الخذلان"، وهذه اللفظة لا تبلغ درجة القبح والغثاثة التي تجعل المتنبي يقابل بشعراء التمحّل وتوعير اللفظ، ولكن وقوعها في هذا التعبير جعل الذوق ينبو عنها، ولذلك ربطها حازم بلفظة "فوقك" للمرأة.

وأدخل حازم في باب تعقيد اللفظ إبدال ضمير المخاطب بضمير الغائب في قول المتنبي:

قوم تفرّست المنايا فيكم

فرأت لكم في الحرب صبرَ كرام

وهذا الباب أهون من اللفظ القبيح والحوشي الغريب، لكن إشارة حازم إلى مثل هذه الهنات دليل على أنه كان يعدّ مساوئ المتنبي أقل مما ورد عند شعراء التكلف والتمحّل.

الأقاويل التخييلية والإقناعية:

مصطلح الأقاويل الشعرية والخطابية من المصطلحات التي ترددت عند شراح كتابي أرسطو: (الخطابة) و(الشعر)، وعند النقاد العرب المتأثّرين بمنطقه، وإذا كان الاتجاه الذي لم يتأثر بأرسطو قد فرّق بين الشعر والخطابة؛ لأن لكل واحد مجالاً خاصًّا به، فإن النقاد المتأثرين به بحثوا في مواضع التقاء النوعين على الرغم من أن لكل منهما طريقةً خاصة في صياغة المعاني والتأثير في المتلقي؛ إذ الخطابة تعتمد الإقناع، والشعر يعتمد التخييل والمحاكاة، إلا أن كل واحد منهما يأخذ من طريقة الآخر ليعضد به وسيلته في التأثير؛ إنّ "صناعة الشعر تستعمل يسيرًا من الأقاويل الخطابية، كما أن الخطابة تستعمل يسيرًا من الأقوال الشعرية؛ لتعضد المحاكاة في هذه بالإقناع، والإقناع في تلك بالمحاكاة"[٢٠]، والأولى تسعى أن تكون لغتها مفهومة وغير مشتركة، بينما الشعر يسعى إلى التعجب والالتذاذ؛ وبهذا المفهوم لا يمنع أن تلتقي الخطابة مع الشعر؛ لأن كليهما يتوجهان إلى الجانب الانفعالي في المتلقي من أجل التأثير فيه، وهذا الجانب يحتاج إلى يسير من المحاكاة والتخييل، ولذلك تجد في الخطابة ضروبًا من الكنايات والاستعارات والتشبيهات البديعية، وهي من ميدان الشعر ومجاله الذي تدور فيه.

والغاية من ذلك التنويع والانتقال من فنّ إلى فنّ؛ إذ النفوس ترتاح لذلك وتسأم من النهج على أسلوب واحد، ولو كان بديعًا في نفسه: "ويحسن أيضًا أن يقصد تنويع الكلام من جهة الترتيبات الواقعة في عباراته وفيما دلت عليه بالوضع في جميع ذلك، والبعد به عن التواطؤ والتشابه، وأن يؤخذ الكلام من كل مأخذ حتى يكون مستجدًّا، بعيدًا من التكرار، فيكون أخف على النفس، وأوقع منها بمحل القبول"[٢١].

ولذلك لم ينظر حازم إلى الخطابة من جانبها السلبي، الذي أشار إليه أفلاطون؛ لأنه عدّها فنًّا من القول يقوم على تزييف الحقيقة وترويج الأكاذيب عن طريق الإقناع الكلامي. إن حازمًا نظر إلى الخطابة من الجانب الإقناعي الذي يعتمد التحسين اللفظي والبياني، وهما يُعدّان مقياسًا في الفصاحة والبلاغة، وبذلك تصبح الخطابة مثل الشعر في التأثير والتوجيه وإثارة انفعال المتلقي. إذا كان هذا المذهب مستحسنًا في الشعر؛ أي الجمع بين الأقاويل الشعريّة والخطابيّة، فإن خير من مثله من الشعراء أبو الطيب المتنبي؛ إذ جمع بين اللونين من الأقاويل بطريقة بارعة تدل على حسن فهمه للمذهب والغاية المنشودة منه؛ ولذلك دعا حازم الشعراء إلى اتباع منهجه والاقتداء بأسلوبه، "وقد كان أبو الطيب يعتمد هذا كثيرًا ويحسن وضع البيت الإقناعي من الأبيات

المخيلة؛ لأنه كان يصدر الفصول بالأبيات المخيلة، ثم يختمها ببيت إقناعي، يعضد به ما قدم من التخييل، ويجم النفوس لاستقبال الأبيات المخيلة في الفصل التالي. فكان لكلامه حسنٌ موقع في النفوس بذلك، ويجب أن يعتمد مذهب أبي الطيب في ذلك، فإنه حسن"(٢٢).

ونص في موضع آخر على مثل ذلك فقال: "ويجب أن يؤتم به في ذلك؛ فإن مسلكه فيه أوضح المسالك"(٢٣).

لا ريب في أن المتنبي بإحسانه في هذا المذهب قد أكسب شعره جلالاً وفخامة، قلّ نظيرهما عند الشعراء الذين لم يسلكوا هذا المسلك.

صحة المعاني وسلامتها من الإحالة:

تعرّض حازم لصحة المعاني وسلامتها من الإحالة، فحصر الأوصاف في الواجب والممكن والممتنع والمستحيل. وهذه الأقسام الأربعة منها ما تدور الأوصاف عليه وهما الواجب والممكن، ومنها ما يأتي على جهة المجاز وهو الأوصاف الممتنعة؛ لأننا يمكن أن نتصورها وإن لم تقع في الوجود، ومنها ما يقع في صناعة البلاغة على جهة الجهل والغلط، وهي المعاني المستحيلة(٢٤). ومن هنا يجوز للشاعر أن يأتي بالمعاني التي تحتوي على مبالغة، شريطة أن تُتصور وتُصرف إلى جهة الإمكان؛ ونجد حازمًا يستشهد على ذلك ببيتين للمتنبي، هما قوله:

وأنّى اهتدى هذا الرسولُ بأرضه
وما سكنتْ مذ سرتَ فيها القساطلُ
ومن أيّ ماء كان يسقي جياده
ولم تصفُ من مزجِ الدماءِ المناهلُ

هذا المعنى، وإن جاء على جهة المبالغة، يمكن أن نتصور له حقيقة، وإن لم تكن قد وقعت بالفعل؛ لأنه يجوز أن يغزو الجيش أرض قوم، فيصير حزنَها سهلاً لكثرة عدده وما يحمل من العتاد والذخيرة "فأراد المبالغة في جيش ممدوحه فجعله بالغًا إلى هذا المقدار"(٢٥).

وكذلك لا يمتنع عن جيش ممدوحه أن يقتل أعدادًا هائلة من جيش العدو، فيجعل المياه تتكدر من دمائهم مدةً طويلة، "فأراد المبالغة فيما أراق هذا الممدوح من دماء الروم، فجعله بالغًا إلى ذلك المقدار"(٢٦).

هذه المبالغة محمودة، وهي لا تقابل بمبالغات شعراء آخرين ذمّها النقاد، ولذلك كان إجماعهم على مذهب الاعتدال والاقتصاد في الوصف، باستثناء طائفة قليلة منهم كانت تستحسن الغلوّ والإغراق في المعاني(٢٧).

مذهبا التسويم والتحجيل:

التسويم أن يقسم الشاعر كلامه إلى فصول، ويجعل كلّ فصل مشتملاً على حال من شأن النفوس أن تجد فيها نشاطًا واستراحة، فتكون القصيدة بذلك كأنها عقد مفصل. وهو من المذاهب الفنيّة التي تميّزت في نظرية حازم النقدية بشكل أكثر وضوحًا؛ ولبيان محاسن هذا المذهب في الشعر اختار حازم مجموعة أبيات من قصيدة للمتنبي، اطّرد فيها تسويم رؤوس الفصول أحسن اطراد، وهي قوله:

أغالبُ فيك الشوقَ، والشوقُ أغلبُ،
وأعجبُ من ذا الهجر، والوصلُ أعجبُ

هذا البيت من الفصل الأول ضمنه تعجبًا من الهجر الذي لا يعاقبه وصل، والمقاصد التي نحاها في هذا الفصل أنه أكد التعجيب في البيت الثاني، ثم ذكر بُعد الأحباء وقرب الأعداء، وهذا مناسب للهجر(٢٨).

وافتتح الفصل الثاني بالتعجب من وشك بينه وسرعة سيره، فقال:

ولله سيري ما أقل تئيّة
عشية شرقي الحدالي وغرب

وهو استفتاح مناسب لما ذكر من التعجب

والرحيل من قبل، ولذلك بيّن في هذا الفصل حالته وحالة من ودّعه في وقت الرحيل(٢٩).

ثم استفتح الفصل الثالث بتذكر العهود السارّة وتعديدها فقال:

وكم لظلام الليل عندك من يد
تخبّر أن المانويّة تكذبُ

علاقة هذا الفصل بالفصل الثاني هي التذكر؛ إذ تذكر موطن البين؛ وفي صدر الفصل الثالث تذكر موطن الوصل والقرب، ثم تمّمه بذكر ما اقترن بذلك الوصل من محاذرة الرقبة(٣٠).

ثم استفتح الفصل الرابع بتذكر الحال التي حاذر فيها الرقبة عند رحيله عن سيف الدولة، فقال:

ويومٍ كليل العاشقين كمنته
أراقب فيه الشمسَ أيان تغرب

أما الفصل الخامس فقد استفتحه بذمّ الدنيا وما تؤول إليه أحوالها:

لحى الله ذي الدنيا مناخًا لراكبٍ
فكلُّ بعيد الهم فيها معذّبُ

هذا الاطّراد المرتب البديع وصفه حازم بقوله: "فاطّرد له الكلام في جميع ذلك أحسن اطّراد، وانتقل في جميع ذلك من الشيء إلى ما يناسبه، وإلى ما هو منه بسبب، ويجمعه وإياه غرض. فكان الكلام بذلك مرتّبًا أحسن ترتيب، ومفصلاً أحسن تفصيل، وموضوعًا بعضه من بعض أحكم وضع"(٣١).

هذا الفن الذي أحسن فيه المتنبي كلّ الإحسان عدّه حازم ركنًا عظيمًا من أركان الصناعة النظميّة، لا يجيده إلا من صفا طبعه، وقويت مادّته الشعرية مثل المتنبي: "وهذا الفن من الصناعة ركن عظيم من أركان الصناعة النظميّة لا يسمو إليه إلا من وُقيت مادته ووفاق طبعه"(٣٢).

ومثل التسويم التحجيل إلا أنه يكون في أواخر الفصول، حيث يُذيلها الشاعر بأبيات الحكمة والاستدلال، مراعيًا سهولة الألفاظ وجزالتها مع تمكّن القافية، وقد برز فيه المتنبي وبلغ فيه شأوًا بعيدًا حتى عُدّ قدوة للشعراء، وإن لم يكن قد سُبق إليه، ولذلك أشار حازم إلى أنّ زهيرًا الشاعر الجاهلي كان سبّاقًا إلى هذا المذهب(٣٣) ومحسنًا فيه: "ثم جاء أبو الطيب المتنبي في المولدين، فولع بهذا الفن من الصنعة، وأخذ خاطره به حتى برّز في ذلك وجلّى، وصار كلامه في ذلك منتميًا إلى الطراز الأعلى"(٣٤).

ومما اختص به المتنبي من بين جميع الشعراء في مناحي الأساليب والمنازع الشعرية أنه كان يتخذ منزعًا متميّزًا به، حتى صار علمًا فيه، كتوطئة صدور الفصول بالحكم التي يوقعها في نهايتها، ومثل هذا المنزع يكون صورة لنفسيّة الشاعر وعلامة على طبعه وسجيّته، فيصبح مثل القانون، فإذا أنشد شعره قيل: هذا شعر فلان، وطريقة فلان؛ لكونه يميل إلى هذه الهيئة وينزع هذا المنزع دون غيره: "وقد يعني بالمنزع أيضًا كيفية مأخذ الشاعر في بنية نظمه وصيغة عباراته، وما يتخذه أبدًا كالقانون في ذلك، كمأخذ أبي الطيب في توطئة صدور الفصول للحِكَم التي يوقعها في نهاياتها، فإن ذلك كله منزع اختُصّ به أو اختص بالإكثار منه والاعتناء به"(٣٥).

هذه أهم القضايا النقدية والبلاغية التي أثارها حازم في شعر المتنبي، والناظر في هذه القضايا يلاحظ أن حازمًا مثل سائر النقاد الأندلسيين، يعدّ المتنبي حجّة في المعاني والأغراض وفنون البلاغة، فلذلك كان الجزء المهم من نظريته النقدية والبلاغية مستنتجًا من شعره، ولو قُدّر لحازم أن يعيد الحديث في نظرية عمود الشعر كما أثيرت عند نقاد القرنين الرابع والخامس الهجريين، لكان شعر المتنبي خير من يمثل هذه النظرية(٣٦).

إن دراسة شعر المتنبي في كتاب حازم تجعل

الشاهد الشعري وقضايا النقد والبلاغة في كتاب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» نموذج شعر المتنبي

الباحث يصل إلى نتائج ذات دلالة في الشاهد الشعري، وأثره في النظريات النقدية والبلاغية، منها:

أولاً: يؤخذ الشاهد الشعري في معظم فصول كتاب حازم من شعر المحدَثين أصحاب المعاني والرؤية الفلسفية الدقيقة، مثل أبي تمام والمتنبي، وبذلك يختلف حازم عن التيار الذي كان يحصر البلاغة في الشعر البدوي، الذي اتسم بالبعد عن التصنع والزخرف.

ثانيًا: أهمل حازم، مثله في ذلك مثل أعلام المدرسة النقدية الفلسفية، الخوض في القضايا اللغوية والنحوية، واهتم بالمعاني والمباني والأغراض والمنازع الشعريّة، وما يتصل بها من فنون بلاغية وقضايا العروض والقافية؛ لأنه كان يسعى إلى تأسيس نظرية متميزة في النقد والبلاغة، ولا تتضح معالمها إلا بالوقوف على تلك القضايا من خلال إبداعات الشعراء وملحوظات النقاد العرب وغير العرب.

ثالثًا: تجنب حازم أخذ الشواهد الشعرية والتعليقات عليها من كتب خصوم الشعراء، لا سيما شعر أبي تمام والمتنبي، وهما الشاعران اللذان اختلف الناس في شعرهما اختلافًا بيّنًا. وهذا المنهج أبعده من الوقوع في معارك وهمية، قد تؤذي الفن والنقد أكثر مما تدفع بهما إلى الرؤية الواضحة.

رابعًا: التقت النظرية النقدية عند حازم في تجلّياتها كلها بأروع ما وجد في شعرنا العربي القديم، فكان النقد البنّاء مع الإبداع الفني الأصيل يسيران جنبًا إلى جنب للتعبير عن عمق ما بلغ إليه الأدب العربي من نضج ورقي على مستوى الإبداع، وعلى مستوى الدراسة النقدية العميقة. ●

●●●

الحواشي

(١) العمدة: ١/٤٦١.
(٢) طبقات فحول الشعراء: ١/٥٥.
(٣) البيان والتبيين: ٢/٨-٩..
(٤) شرح ديوان الحماسة: ١/٧.
(٥) الموازنة: ١٦.
(٦) المصدر نفسه: ١٠.
(٧) قال بعض النقاد في شعر أبي تمام: "فيه ما أستحسنه، وفيه ما لا أعرفه ولم أسمع بمثله، فإما أن يكون هذا الرجل أشعر الناس جميعًا، وإما أن يكون الناس جميعًا أشعر منه"، ينظر أخبار أبي تمام: ٢٤٥".
(٨) منهاج البلغاء: ١٤٣ – ١٤٤.
(٩) الخصائص: ٢/٤٠٣، أورد ابن جني هذا الخبر في حديثه عن الإضمار في قول الشاعر:

ولا تحسبن القتل محضًا شربته
نزارًا، ولا أن النفوس استقرت

فقال: «فلابد إذًا من أن تضمر لنزار ناصبًا يتناوله، يدل عليه قوله: (القتل)، أي قتلت نزارًا».
(١٠) الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٤.
(١١) منهاج البلغاء: ٢٨
(١٢) المنزع البديع: ١٢
(١٣) منهاج البلغاء: ٨٨.
(١٤) المصدر نفسه: ٤٩ – ٥٠.
(١٥) اليتيمة: ١/١٥٣-١٥٤، والمنزع البديع: ٣٧٩.
(١٦) المنزع البديع: ٣٧٩ – ٣٨٠.
(١٧) منهاج البلغاء: ٥٧.
(١٨) المنزع البديع: ٤٢٦.
(١٩) منهاج البلغاء: ١٥١.
(٢٠) المصدر نفسه: ٢٩٣.
(٢١) المصدر نفسه: ١٦.
(٢٢) المصدر نفسه: ٢٩٣.
(٢٣) المصدر نفسه: ٣٦٣.
(٢٤) يرى حازم أن صناعة الشعر تستعمل الكذب، إلا أنها لا ينبغي أن تتعدى الممكن أو الممتنع إلى المستحيل.
(٢٥) منهاج البلغاء: ١٣٥ – ١٣٦.
(٢٦) المصدر نفسه.
(٢٧) منهم قدامة بن جعفر، إذ أجاز الغلو في المعنى، وجعل ذلك من نعوت الشعر الجيدة؛ لأن الشعراء يريدون به المثل وبلوغ النهاية في النعت، قال: "إن الغلو عندي أجود المذهبين، وهو

ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديمًا" (نقد الشعر: ٩٤).

(٢٨) وهو قوله:

أمـــا تــغــلــط الأيـــام فيّ بأن أُرى
بــغــيضًــا تــنــائي أو حــبــيــبًــا تُــقــرّب

(٢٩) وهو قوله:

عشــيــة أحــفــى الــنــاس بــي جــفــوتــه
وأهــدى الــطــريــقين الــذي أتجنب

(٣٠) وهو قوله:

وقـاك ردى الأعـداء تسـري عـلـيـهـم
وزارك فــيــه ذو الــدلال المحجـب

(٣١) منهاج البلغاء: ٢٩٨-٢٩٩.

(٣٢) المصدر نفسه: ٣٠٠.

(٣٣) من ذلك الأبيات التي ذيل بها معلقته الشهيرة :

سئمت تـكـاليف الحياة، ومـن يـعـش
ثـمـانين حـولاً، لا أبـالك، يسـأم
رأيت المنـايـا خـبـط عشـواء، مـن تصب
تمتـه، ومـن تـخـطـئ يـعـمـر فـيـهـرم

(الأبيات)

(٣٤) منهاج البلغاء: ٣٠١.

(٣٥) المصدر نفسه: ٣٦٦.

(٣٦) الشاهد الشعري في البلاغة العربية: نموذج المتنبي، د. مصطفى الجوزو، مجلة الفكر العربي، يونيو ١٩٨٧م.

المصادر والمراجع

الآمدي: الحسن بن بشر.
- الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تح. محمد محيي الدين عبدالحميد، دار المسيرة .

ابن جني: عثمان.
- الخصائص، تح. محمد على النجار، ط٢، دار الهدى للطباعة والنشر.

ابن رشيق القيرواني: الحسين.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح. الدكتور محمد قرقزان، ط١، دار المعرفة.

الثعالبي: عبدالملك بن محمد.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح. محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٢، ١٩٥٦م.

الجاحظ: عثمان بن بحر.
- البيان والتبيين، تح. وشرح عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر.

جعفر: قدامة.
- نقد الشعر، تح. محمد عبدالمنعم خفاجي، ط١، ١٩٨٠م.

الجمحي: محمد بن سلام.
- طبقات فحول الشعراء، تح. محمود شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤م.

الجوزو: مصطفى.
- الشاهد الشعري في البلاغة العربية، نموذج المتنبي، مجلة الفكر العربي، يونيو ١٩٨٧م.

السجلماسي: القاسم.
- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تقديم وتح. الدكتور علال الغازي، ط١، ١٩٨٠م.

الصولي: أبو بكر.
- أخبار أبي تمام، تح خليل محمد عساكر، ومحمد عبده عزام، القاهرة، ١٩٣٧م.

الجرجاني: علي بن عبدالعزيز.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، دار القلم، بيروت .

القرطاجني: أبو الحسن حازم.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح. الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

المرزوقي: أحمد بن محمد بن الحسن.
- شرح ديوان الحماسة تح. أحمد أمين، وعبدالسلام هارون، ط١، ١٩٥١م .

جهاز القراءة عند ابن فارس من خلال تلقيه لديوان الحماسة

الأستاذ / محمد إقبال عروي
المغرب

«إن أفق انتظار القارئ يظل منفتحا بإزاء المعاني الثواني، التي تتضمنها وحدات الدلالة الشعرية، وهو ما لا تستطيع أي قراءة مرجعية للنص الفني أن تخنقه، أوتحد من طاقته الجمالية»

د. إدريس بلمليح (ص: ٣٣٢ ـ ٣٣٣)

إذا كان من المشروع أن يعلن البحث عن أهدافه من فقراته الأولى، فإنني أجمل القول في حصر الهدف العام من هذه الرحلة داخل شرح ديوان الحماسة لابن فارس في تلمّس معالم الطريقة التي قرأ بها هذا العالم مختار أبي تمام الشعري، والوسائل اللغوية والبلاغية التي استعان بها في تلقيه وتحديده لدلالة المقطعات الشعرية.

ومن البدهي أن تكمن أسباب ومحددات خلف كل اختيار، وإلا فقدَ البحث مسوّغات الاشتغال به.

والواقع أنّ العمل على إبراز طبيعة قراءة النص الشعري عند ابن فارس تكتسي أهمية خاصة، يمكن إجمال بعض مظاهرها في العناصر الآتية :

١ – يعدّ شرح ابن فارس، بالشكل الذي وصل إلينا، حلقة في سلسلة طويلة من الشروح لحماسة أبي تمام، وما من شك في أن ضبط ملامح السلسلة، واستيعاب خصائصها، لا يتمّ إلا بعد تعرف حلقاتها المختلفة تعرّفًا دقيقًا؛ إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

٢ – المتأمل في أطروحة أستاذنا إدريس بلمليح(١) يقف على تصنيف شروحات القدامى لمختارات الشعر العربي داخل أجهزة متمايزة بتمايز أساليبها وأدواتها. وقد انتهت عنده إلى ثلاثة أجهزة هي: القراءة المرجعية، والقراءة التغريضية، والقراءة التأويلية. وقد أضحى سهلاً على كل دارس أن يجد التصنيف الملائم للشراح والنقاد القدامى.

وتأسيسًا على منطلقات أستاذنا المحددة في أطروحته، ورغبة في تأطير الشرح الذي أنجزه ابن فارس داخل جهاز قرائي محدد، كان لابد من الاشتغال بهذا الموضوع؛ لنقدم الدليل من داخل مدونته على صحة نسبته إلى هذا الجهاز في القراءة أو ذاك.

٣ – لقد نبغ ابن فارس في عصر اشتُهر بالمباحث اللغوية والنحوية، كما أن الاهتمام انصبَّ، في جزء منه، على الصراع بين القدماء والمحدثين، مثل الصراع حول أبي تمام والبحتري. وإذا كان الآمدي، مثلاً، قد بقي متأرجحًا بين القراءة المرجعية والقراءة التأويلية، كما تدل على ذلك وقفاته إزاء العديد من الاستعارات والمعاني، واستقباحه بعضها، واستحسانه بعضها الآخر[٢]، فما موقف ابن فارس؟ هل تحكم فيه جهاز القراءة المرجعية، أم استطاع التخلص من ذلك الجهاز جزئيًّا أو كليًّا؟.

وهذا مسوّغ جوهري أخاله مشجعًا على الاشتغال بهذا الموضوع.

ولكن الشروع في هذا السبيل يقتضي الوقوف عند بعض الإضاءات التي تصب في مضمار التحقيق والبحث عن علاقات التأثر والتأثير بين العلماء.

نسبة الكتاب إلى ابن فارس:

يجزم د. هادي حسن حمودي، محقق كتاب (الحماسة)، بنسبة هذا الشرح إلى ابن فارس، ويقدم لذلك مجموعة أدلة نلخصها في العناصر الآتية:

أ – إشارة الأقدمين إلى أن لابن فارس كتاب (الحماسة المحدثة)، وتفرد النديم بتسمية الكتاب بـ (الحماسة)، وباعتقاد د. هادي حسن حمودي، يرجح النظر عدّ العنوانين اسمين لمؤلفين مختلفين، إذا علمنا أنّ عناوين كتب ابن فارس مختلفة ما بين مصدر وآخر، ثم إن بعض المصادر لم تذكر جميع كتب ابن فارس.

ب – تهدي المقابلة بين كتاب (الحماسة) وبقية كتب ابن فارس إلى أن خلفها شخصية واحدة وأسلوبًا لا يختلف، من ذلك:

– أن صاحب المخطوطة (كتاب الحماسة) عالم لغوي يعتد باطلاعه اللغوي، وهذا شأن ابن فارس في مجموع كتبه.

– يطّرد في المخطوطة ذكر "جل وعز" أو "جل ثناؤه" بعد لفظ الجلالة، وهذا مذهب ابن فارس في كلّ كتبه.

– معاني الألفاظ المشروحة مأخوذة من (مقاييس اللغة) و(مجمل اللغة)، مما يدل على أن مصنف المخطوطة هو مصنف المقاييس والمجمل.

– أسلوب المخطوطة خال من المحسنات، ولا يعنى بالبديع، وهو الملحوظ في المؤلفات التي ثبتت نسبتها إلى ابن فارس.

– اعتناء المصنف بظواهر التصحيف والتحريف واختلاف الروايات له علاقة بموقف ابن فارس من هذه الموضوعات.

– ظاهرة الإيجاز سمة لصيقة بأسلوب ابن فارس في كتبه وفي المخطوطة.

– كثرة استخدام المخطوطة للأداة "أي"، وهو المعهود عن ابن فارس في المقاييس والمجمل[٣].

وعند فحصنا هذه الأدلة نستطيع القول: إن بعضها يحق أن يتخذ دليلاً، أما بعضها الآخر، فلا يعدو أن يكون فرضيات تحتاج بدورها إلى أدلة تدعمها.

هل تأثر المرزوقي بابن فارس وأخذ عنه:

يذهب د. هادي حسن حمودي إلى أن المرزوقي أخذ عن ابن فارس أمورًا كثيرة دون أن يذكر مظان الأخذ والاقتباس، ودون أن يذكر اسم ابن فارس ولو مرة واحدة. يقول: «إن هذه المخطوطة قد كتبت أصلاً بضمن الشروح الأولى لحماسة أبي تمام، ويمكن القول إنها كتبت قبل شرح المرزوقي للحماسة بمدة سمحت للمرزوقي أن ينقل عنها كثيرًا من التفسير اللغوي للألفاظ، وكذا تفسير بعض ظواهر الشرح ذاته، بلا إشارة إليها»[٤]

وقدّم لدعواه أدلة تسير في اتجاه المقابلة الجزئية

بين شرح ابن فارس وشرح المرزوقي مثل :

يقول الشاعر أبو الغول الطهوي (الوافر):

فَــوارِسُ لا يَــمَــلُّــونَ المنَــايـــا

إذا دارَتْ رَحَــى الحَرْبِ الــزَّبُــونُ

يقول ابن فارس: «الزبون: الدفوع، والزبن: الدفع، ومنه الزبانية.»

ويقول المرزوقي: «والزبون: الدفوع، ومنه الزبانية.»

ويقول الشاعر الفِنْد الزِّمَّاني (الهزج)

مَشَينا مِشْيَةَ الليْثِ   غَدَا والليْثُ غَضْبانُ

يقول ابن فارس: «وبالعين أجود»؛ أي عدا، لأن الليث عادته العدوان .

ويقول المرزوقي: «ومن روى» عدا، على أن يكون من العدوان، فليست روايته بحسنة؛ لأن الليث في أكثر أحواله ظالم عاد.

ولعل هذه المقابلة تفقد، لدى التحقيق، قيمتها؛ لأنها لا تقوم دليلاً قاطعًا على صحة دعوى الأخذ والتأثر، ثم إن فكرة الأخذ والتأثر في حد ذاتها لا تثير أي قلق أو امتعاض أو تحفظ، ومن ثم لا يتعين أن تُتّخذ موضوعًا للاشتغال؛ لأن تاريخ العلوم والمعارف شاهد على أخذ اللاحقين من السابقين.

أما عن عدّ الشبه بين الشروح اللغوية دليلاً على تأثر المرزوقي (ت ٤٢١هـ) بابن فارس (٣٠٦-٣٩٥هـ)، فالأولى أن نقول إن كليهما متأثر بالمعجم العربي، وليس في ذلك منقصة لهذا أو ذاك.

غير أن الواجب يقتضي نقد هادي حسن حمودي في هذه المقابلات؛ لأنها تقوم، أحيانًا، على الرغبة المحضة في الرفع من شأن شرح ابن فارس، وعدّه أصل الشروح اللاحقة .

والدليل على ذلك ما قاله في إحدى الحواشي تعليقًا على شرح ابن فارس لقول موسى بن جابر (الطويل):

ذَهَبـتُم فَلُذْتُم بالأمير وقلتم

تُركنا أحاديثًا ولحمًا مُوَضّعا

فقد شرحه ابن فارس على الشكل الآتي: "لذتم: أي عذتم وتعلقتم به، وقلتم تركنا أحاديثا: أي جعلوا بنا أفعالاً يُتحدث بها، ولحمًا مبضعًا: المقطع المبضع، وإنما سمي موضّعًا؛ لأنه قد قطع، ووضع في كل موضع قطعة منه"(٥).

وقال محقق الكتاب: «لم يخرج شرح المرزوقي عن هذا اللفظ.»

والحق أن شرح المرزوقي تجاوز ذلك إلى تمثل الصور التخيلية التي أرادها الشاعر من وراء هذا التشبيه، واستيعاب المستوى الدلالي المرتبط بالمهانة والضعة. يقول: "يغري الخصوم بالاعتداء عليهم، فهم كاللحم المبضع على خوان الجزار، تمتد الأيدي على توضعه إليه، وتتعلق الأطماع بتناوله وأخذه"(٦)، وهو شرح يتجاوز وحدات المعجم، وينقض دعوى التأثر.

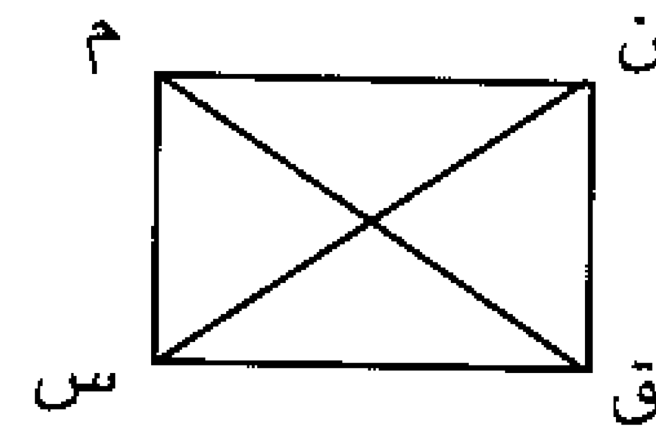
أما بخصوص المثال الثاني، المتعلق برد المرزوقي رواية من روى البيت بـ "عدا"، فهو نقد يتوجه على اختلاف الرواة، ولا يقوم دليلاً على أخذ المرزوقي من ابن فارس.

تحديد مفهوم القراءة:

إن التحديد الدقيق لمفهوم القراءة يقتضي الإحاطة بالظروف والملابسات التي أتاحت إمكان الحديث عن تلقّي الأعمال الأدبية وقراءتها، وإبراز دور القارئ في عملية التواصل الفني. فقد أشار فولفغانغ إيزر إلى الإشكال المتعلق بالاهتمام الشامل بالنص ومؤلفه، وتهميش كل ما له علاقة بالقارئ. يقول: "وبما أن نقطة الاهتمام الجوهرية كانت قصد المؤلف أو المعنى

المعاصر النفسي والاجتماعي والتاريخي للنص، أو الطريقة التي تشكّل بها النص، فقد تشكل نزوع نحو إغفال حقيقة جوهرية، وهي أن النص ليس في وسعه أن يملك المعنى إلا عندما يكون قد قرئ، كان الجميع بالطبع يعدّ هذه مسألة مسلّمة، وعلى الرغم من هذا، إلا أننا لا نعرف إلا القليل عمّا هو ذلك الشيء الذي نعدّه مسألة مسلّمة. إن قراءة النص هي الشرط الضروري للتأويل"(٧)

ويحاول "ي. جيللي Y. GILLI " أن يبرز هذا التحول في الاهتمام انطلاقًا من الوقوف على الرسم التالي :



فهذا الرسم يحدد الأقطاب الأربعة للعملية الإبداعية، فـ "ن": تعني النص، و "م": تعني المؤلف، و "ق": تعني القارئ، أما "س": فهي تدل على السياق .

وبحسب "ي. جيللي" نستطيع القول إن اهتمام النقد الأدبي قد انصب منذ مدة طويلة على قطب إنتاج النص، والعناصر التي من المحتمل أن تؤثر في تكونه، مثل البيوغرافية والوضعية الخاصة للمؤلف، ثم انتقل الاهتمام، نسبيًّا، إلى قطب النص، ومنذ سنين، حظيت الأقطاب الثلاثة "المؤلف والنص والسياق" باهتمام النقاد والدارسين.

ومع مدرسة "كونسطانس CONSTANCE "، و"جمالية التلقي"، تمَّ تغيير وجهة النقد في اتجاه تلقي النص؛ أي في اتجاه قطب القارئ، وبفضل هذه النظرة أمكن إعادة النظر في الأقطاب الأخرى، وفي العلاقة المتحكمة فيها.

واستدل "ي. جيللي" بكلام لإيزر يمثل إحراجًا للوضعية النقدية قبيل الاهتمام بالقارئ ودوره في تحديد الدلالة، يقول: "إذا كان المعنى، كما يسعى فن التأويل إلى أن يجعلنا نعتقد ذلك، مختفيًا داخل النص نفسه، فلنا أن نتساءل: لماذا تلعب النصوص لعبة Cache-cach نفسها مع المؤولين؟ ولماذا، بالتحديد، تتغير المعاني المكتشفة في مدة معينة، مع أن الحروف والكلمات والجمل تظل هي نفسها دون تغيير؟"(٨)

وإن هذه الملحوظة هي التي جعلت "هانس روبير ياوس" يميز العمل الأدبي عن الموضوعات الفنية الأخرى، فالعمل الأدبي لا يقبع أسير ماديته، وإنما يعرف تجددًا وحيوية عبر تعدد متلقيه واختلاف مشاربهم، ومن ثم يرفض أن يحصر العمل الأدبي في شكله ومظهره المادي، يقول: "إن العمل الأدبي ليس موضوعًا موجودًا في ذاته، كما أنه لا يمثل المظهر نفسه لجميع ملاحظيه عبر التاريخ، إنه موجود على شكل توليف موسيقي، يوقظ لدى كل قارئ صدًى جديدًا يخرج النص من مادية الكلمات، ويحين وجوده"(٩).

إن تأكيد نظرية التلقي على قطب القارئ راجع إلى أن بروز المعنى وانبثاقه لا يعود على النص وحده، بل إنه يفترض بالتحديد مشاركة القارئ الذي يتقبله، وذلك أن التجربة تقوم حجة على أنه في "أثناء القراءة، ينتج التفاعل الذي يعدّ أساسيًّا بالنسبة لكل عمل أدبي، بين بنيته ومتلقيه. ولهذا السبب، نبهت الفينومينولوجيا على أن دراسة العمل الأدبي يجب أن تهتم بمعناه خارج شكله وصورته. وكنتيجة لهذا، يمكن القول إن العمل الأدبي له قطبان، قطب فني، وقطب جمالي، وأن القطب الفني هو نص المؤلف، بينما يرتبط القطب الجمالي بالتحقق الذي ينجزه القارئ"(١٠).

وقد ساعدت الدراسات الفلسفية، وفي مقدمتها الفينومينولوجيا، على إثارة الانتباه إلى مكون القارئ في تحيين العمل الأدبي وتحقيقه، وإعطائه معنى معينًا، وقد أفاد إيزر، من جهود "أنجاردن" خاصة، الذي أكد العلاقة التحققيّة والتحيينيّة التي تربط

المتلقي بالنص، من ذلك قوله موضحًا مقولة الفراغات والفجوات التي يتعلق بها فعل القارئ، وسعيه على ملئها: "إن السمة المميزة لكل عمل فنيّ من أي نوع كان أنه ليس من صنف الشيء الذي يكون محددًا تمامًا من كل جهة بوساطة مستوى أولي من كيفياته المتنوعة، وهذا يعني، بعبارة أخرى، أن العمل الفني ينطوي في باطنه على فجوات مميزة له، تدخل في تعريفه؛ أي على مواضع اللاتحدد، إنه إبداع تخطيطي، وإضافة إلى ذلك، تكون كل تحديداته ومكوناته أو كيفياته في حالة تحقق فعلي، ولكن بعضًا منها تكون كامنة فقط. ويترتب على هذا أن العمل الفني يتطلب عاملاً آخر يوجد خارج ذاته، وهو الشخص الملاحظ؛ كي يجعله، وفقًا للتعبيري الخاص، عيانيًا concrete "(١١).

ولعل الاهتمام المتأخر بالقارئ هو ما يفسر، في بعض جوانبه، سر غياب التعريف العلمي والاصطلاحي لمفهوم القراءة في المعاجم الفرنسية والموسوعات المعرفية(١٢).

ولا نجد تحديدًا مصطلحيًا للمفهوم إلا في الأدبيات الألمانية التي تعدّ، بحق، المهاد التاريخي لنظرية التلقي.

وبحثًا عن مفهوم مركز للقراءة نقدم التعريف الذي صاغه الأستاذ إدريس بلمليح بعد معاينته التوجهات المختلفة، والأطروحات النظرية المتعلقة بنظرية التلقي والتواصل.. يقول: "إن القراءة وقع يحدثه فينا الأثر الفني، فنستجيب له بحسب ما كان يقصده منا منتجه؛ إذ افترض وجودنا وتعاملنا مع إنتاجه في اللحظة التي أبدع فيها نصه، ثم إنها إنتاج يوازي هذا النص، ويخلق معرفته الخاصة التي لا بد أن تفرز أنواعًا من القراءات المختلفة باختلاف أجهزتها وقدرة هذه الأجهزة على استيعاب مستويات النص وأبعاده"(١٣).

وهذا التعريف المحكم يحيل على العناصر الآتية:

أ – المبدع صاحب النص يبث إبداعه، ويسعى إلى أن يتواصل مع المتلقّي، وهو تواصل يتجاوز الإخبار إلى التفاعل، الذي ينتج دلالة الخطاب انطلاقًا من المبدأ القائل: "إن العمل الأدبي تأسيس للنص في وعي القارئ"(١٤).

ب – القراءة عمليّة تتلخص أولاً في الوقع الذي يخلفه الأثر في نفسيّة القارئ، أو هو تلك الدهشة الجماليّة باصطلاح أستاذنا بلمليح في مواضع عديدة من أطروحته .

ج – القراءة، ثانيًا، إنتاج نقدي وإبداعي يوازي النص الأدبي، وما الواقع والدهشة إلا عنصران مساهمان في تحقيق العمل الفني في وعي المتلقي.

د – كل معرفة خاصة بالنص تؤدي إلى إنتاج قراءات متعددة، وهذا ما حذا بإيزر إلى أن يجعل النص في منزلة بين منزلتين، منزلة المؤلف من جهة، ومنزلة التحقق الذي ينتجه القارئ من جهة ثانية، وذلك واضح من خلال قوله: "ومن هنا يمكن أن نستخلص أن للعمل الأدبي قطبين قد نسميهما: القطب الفني والقطب الجمالي، الأول نص المؤلف، والثاني التحقق المنجز من قبل القارئ، وعلى ضوء هذا التقاطب يتضح أن العمل ذاته لا يمكن أن يختزل لا في النص ولا في تحققه، ... إن مكان العمل الأدبي هو، إذًا، حيث يلتقي النص والقارئ"(١٥). ولعل هذا ما يسوّغ كثرة القراءات وتعددها بتعدد أجهزتها.

هـ – لابد لكل قراءة من جهاز يشمل الآليات والأدوات والخطوات.

ولتقريب دلالة هذا التعريف بمجال بحثنا، نقول: إن الباثّ عندنا هو مجموع الشعراء الذين اختار لهم أبو تمام منتخبات من أشعارهم، أما القارئ، فهو ابن فارس الذي لم يكتف بالشعور بالدهشة الجمالية إزاء تلك المختارات، (ولو لم تكتنفه تلك الدهشة، لما تجشم

مشاق شرح الحماسة)، وإنما قدم إنتاجًا موازيًا للنص، ضمنه فهمه لتلك المختارات، وأبرز جوانب الجمال الكامنة فيها .

وأما الجهاز الذي يعدّ أساس القراءة وشرطها العلمي، فهو ما سنسعى إلى الكشف عن آلياته في العناصر الموالية.

جهاز القراءة عند ابن فارس:

من خلال القراءة المتكررة لشرح ابن فارس تبيّن أن طريقته في إبراز معاني الأبيات تتخذ منهجًا محدّدًا يقوم على عناصر ثابتة، ويستعين بأدوات لغوية وبلاغية واضحة.

أولا - التوثيق:

نتيجة لما تعرض له الشعر العربي من تشويش مسّ وحداته المختلفة، عمل ابن فارس، كغيره من العلماء، على ضبط المختارات بقصد "الحفاظ على الصورة الأصليّة للأثر، حتى يتمكن المقصد من خلق وضع تواصلي، يكفل له تفاعلاً حيويًّا بينه وبين الباثّ من جهة، ثم بينه وبين الرسالة من جهة ثانية"(١٦).

ولولا هذا الجهد المبذول من قبل العلماء لما أمكن تحقيق أي تفاعل إيجابي بين عناصر العمليّة التواصليّة في المجال الأدبي؛ أي بين المختارات الشعرية وقرائها ومتلقيها عبر التاريخ.

١ - توثيق الحرف:

وهو توثيق لا يتعلق بالجهود المبذولة لتجاوز ظواهر التصحيف والتحريف، وإنما تتعدّاه إلى التوثيق الذي يكشف عن ممارسة الشعر لفعاليته القصوى لدى الشراح؛ إذ جعلهم يثبتون الروايات المختلفة ، ويفتحون صدورهم للتأويلات المختلفة بوصفها من صميم البيت أو القصيدة، وفي ذلك كله غنى دلالي يسعى الشراح إلى الاحتفاظ به، سواء بوعي منهم أو دون وعي.

ونستطيع أن نصوغ الأمثلة التالية من شرح ابن فارس:

يقول الفِند الزِّمَّاني (وهو شهل بن شيبان) (الهزج):

مَشَيْنا مِشْيَةَ الليثِ　　　غَدَا والليثُ غَضْبَانُ

قال ابن فارس: "ويروى: عدا، وبالعين غير المعجمة أجود؛ لأن الليث عادته العدوان"(١٧).

فالرواية التي يستجيدها ابن فارس تجعل معنى البيت: أن الشاعر وقومه يهجمون على بني ذهل كهجمة الليث الظالم الغضبان.

إلا أن التوثيق الحرفي عند ابن فارس، كما يجسّده المثال السابق، ينحصر في دائرة الشرح الظاهري، ولا يلتفت إلى أبعاد تخيلية في البيت لعلها المقصود الأول عند الشاعر، وعلينا أن نستحضر، في المقابل، شرح المرزوقي للبيت الذي يمثل نموذجًا لاستحضار الروايات المختلفة، ومحاولة الانفتاح على الإمكانات التوثيقية المختلفة للحرف، من أجل أن تشع الدلالات المختلفة التي تغني النص، وتجعله قادرًا على ملء فراغاته، وتوجيه خطاباته إلى المتلقي. بل إن الأمر لا يقتصر على هذا المستوى، وإنما يكون شرح المرزوقي مناسبة لإعادة النظر في مفهوم النص نفسه، وتخليصه من دائرة الأفق الدلالي الوحيد والمكتمل، ووضعه على مشارف التنوع الدلالي بتنوع الروايات والقراء سواء بسواء، وذلك وفق منطق إبداعي، يرى أن "تعدد القراءة في الشعر لا يعني قصورًا في خيال الشاعر أو القارئ، وإنما هو دليل على تعدد أبعاد الانفعال وطاقته اللامحدودة في ملء الأداء المكتنز بضروب شتى من الفكر والخيال"(١٨).

لقد توقف المرزوقي عند رواية "غدَا"، وعدّها الرواية الجيدة، وفسرها تفسيرًا يضاعف من فعالية الصورة المتخيلة. يقول: "سعينا إليه مشية الأسد ابتكر وهو جائع، وكنى عن الجوع بالغضب؛لأنه

يصحبه، وهذا التشبيه أخرج ما لا قوة له في التصور إلى ما له قوة فيه. ومن روى "عدا" على أن يكون من العدوان، فليست روايته بحسنة؛ لأن الليث في أكثر أحواله ظالم عاد"[١٩]؛ أي إنّ العدوان يجعل الصورة المتخيلة باردة؛ لأنها تقربك من أحوال الأسد الطبيعية، أما الابتكار، فهو يشحن اللفظ بحمولات إضافية؛ لأن الابتكار يعني الجوع والحاجة إلى الطعام، مما يقوي رغبة الأسد في غدوه، وهو ما لا يوجد في لفظ "عدا".

وبهذين المعنيين، ندرك فعالية الرسالة؛ لأنها تستوعب في ذاتها، بحسب اختلاف الروايات للحرف الواحد، كمونا دلاليًا وغنى معنويًا[٢٠]، يستوعب "المعنى ونقيضه، والشيء ومُباينُه في تصور خاص يصدر عن فقه جديد"[٢١] لما يتمتع به الشاعر والمتلقي على حد سواء. وهو ما يدل، في جانب آخر، على مرونة موقف الشراح، فهم لم يقفوا إزاء هذا الاختلاف موقفًا سلبيًا يتجسد في الرفض أو الإقصاء، وإنما وقفوا موقفًا إيجابيًا لم يكن ليتحقق لولا الأثر الفني الذي تحدثه الروايات المختلفة في نفسية الشراح .

٢ – توثيق اللفظ المفرد:

يلاحظ على ابن فارس في هذا المستوى أنه غالبًا ما يثبت الروايات دون أن يتدخل في توجيهها، أو التأكيد على واحدة دون أخرى، وهي ظاهرة بارزة في شرحه للعديد من المقطعات.

ونسوق، هنا، بعض الأمثلة على مذهبه في تناول الروايات المختلفة للفظ البيت .

يقول جعفر بن علبة الحارثي، وكان محبوسًا بمكة (الطويل):

هَوَايَ مع الرَّكْبِ اليَمَانِينَ مُصْعَدُ
جَنيبٌ وجثْماني بِمَكة موثَقُ
عجبتُ لمسرَاها وأنَّى تخلَّصت
إليَّ، وبابُ السجن مُغْلَقُ
ألمَّت فحيَّت، ثم قامتْ فودَّعت
فلمَّا تولّت كادتِ النفسُ تَزْهقُ

يقول ابن فارس" "يروى: أتتنا فحيت، ويروى: فكادت عليها مهجة النفس"[٢٢]، دون أن يشرح دلالة كل من الإتيان والإلمام، أو يرجح رواية على أخرى، تناسب سياق الكلام، وتنسجم مع الموقف النفسي للشاعر .

ويقول سبرة بن عمرو الفقعسي (الطويل):

نُحائي بها أكفاءَنا ونُهينُها
ونشربُ في أثمانها ونُقامِر

قال ابن فارس: "نحائي أي نعيش نحن وهم منها (أي الإبل)، وهو من الحياة، ويروى نحابي بها: أي نحبوهم منها، وهي رواية جيدة"[٢٣].

فبحسب الرواية الأولى، يكون المعنى أننا نقتسم مع غيرنا تلك الإبل، أما الرواية الثانية، فالمعنى هو أننا، كما يقول المرزوقي: "نجعلها حباء لنظرائنا فنتهادى بها، ونسهل تمكن العفاة والزوار منها، بابتذالها وإهانتها، ونبيعها فنصرف أثمانها إلى الخمر والإنفاق"[٢٤].

وإذا كان ابن فارس قد استحسن رواية "نحائي بها"، فإنه لم يقدم مسوّغ استحسانه بالشكل الذي نهجه المرزوقي الذي ردّ الرواية الأولى، وقال عنها: "وروى بعضهم "نحايي" على أن يكون نفاعل من الحياة، أي نعايشهم بها ونجامل، وليس بشيء، فلا تعرج عليها"[٢٥].

وهذا يجعلنا نستنتج أن ابن فارس أخذ من الشعر جانب الرواية، أو غلّبها على اهتمامه، أما المرزوقي، فقد جمع إلى فن الرواية دراية بالقول الشعري، فكان أحق بأن يتصف بعالم الشعر؛ لأن الشعر لا يُقتصر فيه على الرواية، وإنما هو "علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة

مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه"(٢٦). وإن فات المرزوقي أن يكون عالمًا بالشعر في المستوى الإبداعي، فلم يفته أن يكون عالمًا به في المستوى التذوقي التحليلي، وذلك ما نفتقده في كثير من وقفات ابن فارس.

وقال عبدالشارق بن عبدالعزى الجهني (الوافر):

فَجاؤوا عارِضًا بَرِدًا وجئنا
كَمِثلِ السيلِ نركبُ وازعينا

يقول ابن فارس: "نركب وازعينا"، الوازع: الكافّ، يقول: بين يدي كل واحد من الجيشين وازع، وهو شبه النقيب يأمرنا بالكف والوقف، فلم نلتفت إليه، لكننا ركبناه، فازدحمنا عليه، نبادره إلى الحرب.

ومنهم من يرويها: "وادعينا"، ومعنى هذا ذكرنا إنسانًا، فقلنا يا لفلان، وهذا هو الادعاء"(٢٧).

وباختلاف الروايتين يختلف المعنى، فمن رواها بالأول يكون المعنى متعلقًا بتجاوز النقباء رغبة في الالتحام بالعدو، ومن رواها "فادعينا" كان المعنى متعلقًا بمناداة كل فريق لمناصريه..

وعلى الرغم من الاختلاف الظاهر بين الروايتين، إلا أنهما تتكاملان لدى المتلقي، وذلك أن من علامات التحام الجيشين أن يكون الإقدام حماسيًّا يدفع القائد إلى الاستجابة لتيار الهجوم، وأن يستنجد كل فريق بمن يواليه ويناصره.

وقال آخر (الطويل):

أقولُ لنفسي وقد خوَّد رألُها
مكانَكِ لمّا تُشفقي حينَ مُشفقِ

مكانَكِ حتى تنظُري عمَّ تنجلي
عمايةُ هذا العارضِ المُتألقِ

فقد ذكر ابن فارس للبيت الثاني رواية ثانية هي: "غياية هذا العارض المتألق"، وقال: "العماية: السحابة، والعارض: السحاب الممطر، ومن يروي "غياية: فأراد بها الظلمة"(٢٨).

ومن الواضح أن الروايتين تقدّمان معنيين ربما يكونان مما أراده الشاعر عند تعامله مع مجاله التصوّري القائم على إبراز هول الأحداث التي تجبن لها النفس، ويهتزّ لها المرء، وهما معنيان متضافران؛ لأن هذه الأزمة الطارئة في هيئة السحاب من جهة، وفي ظلمة قتامتها من جهة ثانية، إنما تحمل معنى الظلم والعمى، كما يقول المرزوقي في شرحه للبيت(٢٩)، مضيفًا معنى ثالثًا من مستلزمات الظلمة والسواد، ومجسّدًا لانفتاح الدلالة وتراكب مستوياتها .

٣ - توثيق البيت اعتمادًا على السياق:

نقصد بهذا التوثيق إحساس ابن فارس بأن البيت لا يمكن أن يكون داخلاً ضمن عناصر القصيدة الأصليّة، وإنما هو غلط من الرواة، واعتمد في إبعاد البيت من القصيدة على السياق الدلالي، وهذا ما نلاحظه مع مقطعة جعفر بن علبة الحارثي (الطويل):

ألا لا أُبالي بعدَ يومي بِسَحْبَلٍ
إذا لم أُعذَّب أن يجيءَ حِمَاميا

تركتُ بجنبَي سحْبَل وتلاعه
مُراقَ دمٍ لا يبرحُ الدهرَ ثاويا

إذا ما أتيتَ الحارثيَّات فانعَنِي
لَهُنَّ وخَبِّرهن ألا تلاقِيا

فقد رفض عدّ البيت الثالث من القصيدة على أساس أنه غير متصل بما قبله تركيبًا ودلالة، فاللحظة الأولى في ثأر الشاعر من الأعداء يوم سِحْبَل، أما اللحظة الثانية فهي في رثاء النفس. يقول: "هذا شعر

غير متصل بما قبله، وفيه غلط؛ لأن هذا لمالك بن الريب، وذلك لغيره، وهذا شعر رجل حضره الموت، يقول "إذا رجعت إلى الحي، فقل مات مالك، وخبرهن أنا لا نلتقي"(٣٠).

وقد ظل هذا التوثيق معتمدًا لدى الشراح بعده، ونشير هنا إلى تعليق المرزوقي: "وهذا البيت مع ما بعده لمالك بن الريب فيما أظن، وانضما إلى أبيات جعفر بن علبة على سبيل الغلط"(٣١).

ثانيًا - الحفر اللغوي:

لاحظ د. إدريس بلمليح أن أصحاب المختارات الشعرية سعوا، إضافة إلى توثيق النصوص في مستوياتها المختلفة، إلى التعامل مع الإنتاج الشعري تعاملاً أدّى بهم إلى بناء تصورات دقيقة للأوضاع اللغوية والتاريخية التي عاشها الجمهور الأول الذي تلقى النص حين إنشاده.

وقد اقتضى منهم هذا العمل القيام بحفر لغوي قصد إدراك وحدات الرسالة في بُعدها المادي، واستحضار البعد الواقعي للنص، للوصول أخيرًا إلى إنجاز الوضع التواصلي المماثل للوضع الذي عاشه الجمهور الأول المتلقي للأشعار.

وقد تنوع هذا الحفر اللغوي، واتخذ "أشكالاً متعددة، تصبّ كلها في مصبّ رد الفعل الهادف إلى التفاعل مع النص بحسب أبعاده المرجعية، ومن ثمَّ التفاعل مع الواقع الذي أفرزه؛ أي الخضوع إلى سياقه المبدئي وزمنه الأول"(٣٢).

وعلى الرغم مما حققته هذه العملية من ردود أفعال، أثارتها النصوص في أصحاب المختارات والشروح، إلا أنه لا ينبغي أن ينسينا الأساس الإبستيمولوجي الذي تقوم عليه. إن هذا الحفر اللغوي، بالشكل المنجز لدى المفضل والتبريزي وابن فارس، كما سنرى لاحقًا، يدلّ على أن الشراح كانوا محكومين بتصور مبدئي مفاده أن الشعر محاكاة للواقع، وأن هذه المحاكاة فعل حقيقي وحدث صحيح قد باشره المبدع، ولا مجال لعدّ الخيال والتصور في هذا المبدأ.

وبالعودة إلى شرح ابن فارس لديوان الحماسة ندرك أنه كان متسلحًا بهذه الرؤية (المحاكاتية)، مطمئنًّا إلى أن الشاعر يعمل على نقل جزئيات الواقع وتمثيل وقائعه وأحداثه.

وسنتبين هذا الأمر في الفقرات الآتية، مع التذكير بأن الحفر اللغوي وجد مجاله الخصب عند ابن فارس في تتبع دلالات الوحدات المعجمية، وفي تأكيد المعاني المباشرة للنصوص.

الحفر اللغوي في مستوى الوحدات المعجمية:

إن أفق انتظار ابن فارس يسعى إلى شرح وحدات الأبيات شرحًا يقابل فيه بينها وبين جزئيات الحياة، التي قد تكون داخلة في مراد الشاعر أو في مجاله التصوري، وقد لا تكون، وهو سعي تحكمه، كما قلنا سابقًا، مقولة عدّ الشعر محاكاة للواقع وتمثيلاً له .

يقول الشاعر حجر بن خالد (الطويل):

ويَحلب ضَرْسُ الضَّيفِ فينا إذا شَتا

سَدِيفَ سنامٍ تَسْتريهِ أصابِعُه

يقول ابن فارس في شرح وحدات البيت: "إذا عضّ على اللقمة الدسمة تحلبت في فيه دسمًا، سديف السنام، يقول: نطعمه قطاع السنام، والسديف: المقطع من السنام، تستريه أصابعه: إي إذا كان اللحم في الجفنة دارت أصابع هذا الضيف فاسترت قطع السنام"(٣٣).

إن هذا الشرح الدقيق للمفردات يسير في اتجاه الربط الواضح بين الوحدات المعجمية وما يتصل بالحياة الواقعية من طبيعة للحم ووضعه في الجفان، وصدور الدسم عنه دلالة على جودته، وهي معاني تقترب مما يعهده الناس في حياتهم اليومية.

وغاب عن ابن فارس أن هذا المعنى المباشر قد لا يكون من مراد الشاعر ومقصوده، وإنما هو بصدد الفخر كما يدل على ذلك مطلع مقطعته (الطويل):

وجَدنا أبانا حلَّ في المجدِ بيتةً

وأعيى رِجالاً آخرينَ مطالِعُهْ

وقد تعلق الفخر في البيت المذكور بالمستوى الرفيع الذي يحظون به في كرمهم وضيافتهم. وهو ما أدركه المرزوقي بقوله: "والمعنى أنَّا لا نرضى بنحر الكسيرات المهزولات، بل نعتبط خيار الإبل وكرائمها عند حلول الضيفان"(٣٤).

إن هذا المعنى العميق لا يظهر في البنية السطحيّة للبيت الشعري، وذلك أن الشاعر لا يقدم المعنى تامًّا في قصيدته، وإنما يكتفي برسم (خطاطات) توجيهية، وعلى القارئ أن يفطن إليها ويوظفها لإنتاج معنى النص.

وقد فطن النقد القديم لهذا التصور، وإن لم يوسع القول فيه. نستنتج ذلك من كلام لابن قتيبة يبرز وعي المبدع بأنه لا يقدم إلا موجهات، وعلى القارئ الفطن أن يشغل ذهنه وطاقته التخيلية لملء الفراغات، وإلحاق الأشباه بنظائرها، يقول: "فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلامًا في نكاح، أو حمالة، أو تحضيض، أو صلح، أو ما أشبه ذلك، لم يأت به من واد واحد، بل يفتنّ، فيختصر تارة إرادة التخفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرر تارة إرادة التوكيد، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجميين، ويشير إلى الشيء، ويكني عن الشيء"(٣٥).

وقد أوضح (إيزر) هذه الحقيقة في قوله: "إن المعاني الضمنيّة، وليس ما يعبر عنه بوضوح، هي التي تعطي شكلاً ووزنًا للمعنى"(٣٦).

وقد غاب عن ابن فارس إدراك هذه الاستراتيجيّة التي ينهجها النص الأدبي، فاكتفى بظاهر العبارة، بينما وعى المرزوقي العلاقة الجدليّة بين مكشوف النص وخفيِّه .

وبهذا، يمكن الحكم بأن بيت (حجر بن خالد) خيّب أفق انتظار ابن فارس، باصطلاح (هانس روبير ياوس)، وذلك لأنه اكتفى بالقراءة الجزئية، ولم يقرأ البيت المذكور على ضوء سابق النظم ولاحقه، أو وفق حركة العودة من النهاية إلى البداية، ومن الكل إلى الجزء(٣٧).

ويقول الشاعر أُبي بن حمام المري (الطويل):

وأنَّ نِجَاري يا بنَ غُنمٍ مُخالفٌ

نِجَارَ اللئامِ فَابْغِني مِنْ وَرَائِيا

فقد حدد ابن فارس معنى الوراء في بعده القياسي المادي فقال: "لا تتقدم عليّ، فلست أهلاً لأن تتقدم عليّ، وإنما حقك أن تكون أبدًا تابعًا لي وماشيًا من ورائي"(٣٨). مع أن المعاني المصاحبة للوراء عديدة، لعل أقربها إلى الاستحضار ماله علاقة بالشأو والمكانة والظفر بالمقام العالي، مما يجعل صاحبه أبدًا لا ينقاد لمن هو دونه، فالتبعيّة تبعيّة اجتماعيّة ومقاميّة، وليست تبعيّة المسافة المكانيّة .

ويقول البعيث بن حريث (الطويل):

وإنَّ مَسِيري في البِلاد ومَنْزِلي

لَبِالمنزِلِ الأقصى إذا لم أُقرَّبِ

وكعادته في تناول وحدات المعجم ذهب ابن فارس إلى أن المعنى: "إذا لم يقربني عشيرتي، فارقتهم، ونزلت المنزل الأقصى منهم"(٣٩)، دون توقف عند معنى القرب الذي قد يكون مما عناه الشاعر وقصد إليه، استجابة لما يمليه عليه مجاله التصوري، مما جعل الشارح يفهم مراد الشاعر على ضوء علاقتي القرب والبعد الماديين، مع أن الشاعر يتحدث عن

جهاز القراءة عند ابن فارس من خلال تلقيه لديوان الحماسة

القرب بمعنى "أُكرَم وأدنى على طريق الإعظام، وليس يريد تقريب المسافة به"(٤٠).

بل إن هذا المعنى الثاني ينفتح بالمتلقي على معاني مصاحبة له، من شأنها أن تقلب علاقة القرب والبعد.

- فالشاعر قريب من أهله بعيد عن حقيقة الأمر حال عدم تكريمه.
- والشاعر بعيد من أهله قريب منهم حقيقة في حال تكريمه. وهو ما لم يفت المرزوقي، فجوّز أن يكون المعنى: "إذا لم أقرب، كنت بمنزلة المطرود المنفي، وإن كنت مقيمًا دانيًا"(٤١).

ويقول الشاعر (الطويل):

مَكانَكِ حتى تنظُري عمَّ تنجلي

عَمَايةُ هذا العارضِ المتألِّقِ

بالعودة إلى شرح ابن فارس نلاحظ أنه فسّر معنى البيت بتحديد البعد المرجعي لوحداته، وهكذا، فقد فسّر العماية بالسحابة، والعارض بالسحاب المطر، ومع أن الشاعر نقل هذه المفردات إلى مجاله التصوري، وشكّل منها عناصر كنائية تستوعب الدلالة التخيلية، التي يهدف إلى إنجازها عبر علامات لغوية يتقبلها المتلقي ويتفاعل معها في الاتجاه المرغوب فيه، فليس مقصوده من وراء ذلك أن يشير إلى السحاب أو ما يلازمه، وإنما يريد أن يبرز الهول المصاحب لهجوم الجيش وانتشاره، فهو في شدّته وهوله كالعارض، أما السيوف التي تلوح هنا وهناك، فهي التي تشبه، داخل البيت، البرقَ الذي يشقق العارض. يقول المرزوقي: العارض أصله في السحاب، وها هنا أراد به الجيش، وجعل التألق منه للمعان الأسلحة"(٤٢).

وكان على ابن فارس؛ ليدرك هذا المعنى المتخيل، ألا يقتصر على حدود شرح الوحدات المعجمية شرحًا يربطها بما تشير إليه في واقع الحياة؛ لأن ذلك من شأنه أن يخنق الفعل الإبداعي التخيلي داخل حدود تمثيليّة أو معان قريبة، ليست من خصائص اللغة الشعريّة، حتى ولو كانت مما يكتنف اللغة الطبيعية.

إن ابن فارس يقف مع الوحدة المعجمية في حدود ما ترمي إليه بحسب استعمالها في المحتويات المباشرة؛ أي إنّه يقف بها في حدود مستواها الإدراكي، ولا يرقى بها إلى المعنى التصوريّ المصاحب لمحتواها، والمرتبط بها وفق ما يقصد إليه الشاعر، وهو الأمر الذي يضاعف من جماليّة النص، ويكسبه فعاليّة قويّة تتجدد بتجدد القراءة عبر التاريخ.

وفي بعض الأحيان، يتحول الفعل الكنائي لدى الشاعر إلى دلالته المباشرة عند الشارح، فتضيع الفعاليّة التخيلية بين ثنايا الشروح المعجميّة، يقول موسى بن جابر (الطويل):

وما نفرتْ جِنّي ولا فُلَّ مِبْرَدي

ولا أصبحتْ طيري من الخوفِ وُقَّعا

فمما جاء في شرح ابن فارس للبيت: "ولا فل مبردي: أي ليس بمبردي فلول، وهو الكسر في حدّه، والمبرد الذي يبرد به الحديد"(٤٣). مع أن الشاعر لا يقصد المبرد الذي تحيل إليه الكلمة في واقع الاستعمال وفي لغة الإدراك، وإنما يكني به على صلاحه ونشاطه، وهو ما أدركه المرزوقي حين قال: "وإن ذكره المبرد مثل لصلاحه"(٤٤).

وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن خطاب ابن فارس المتلقي الشارح خطاب دون مستوى نظام الإنتاج لدى الشاعر، نظرًا لقصوره عن إدراك المعاني المصاحبة التي تكون هي الأصل في المجال التصوريّ للشاعر. ففي تصور الشاعر أنه يريد إبراز صلاحه ونشاطه الذي لا حدّ له، فاستعان على ذلك بوحدات معجميّة على الشكل الآتي :

مجال	معجمي
عبارة	محتوى
المبرد	الآلـة التي يبـرد بهـا الحديد

عبارة	المحتوى
.... ←	الصلاح

ونجد ابن فارس، في بعض المناسبات، يعمد إلى عادات القوم في أمثالهم وحكمهم، فيجعلها أصلاً يفسر على ضوئها بعض الوحدات المعجمية، حتى يستقيم له فهمه السليم لها؛ لأنها، بدون هذه العملية، تبقى عنده مثيرة لشتى أنواع الغموض والاضطراب.

ففي شرحه لقول الشاعر بشامة بن حزن النهشلي (البسيط):

بِيضٌ مَفَارِقُنا، تَغْلِي مَراجِلُنا
نأسُو بأموالنا آثارَ أيدينا

استوقفته وحدة "مفارقنا"، ومادام الشاعر ينظم أبياته في سياق الفخر بنسبه وكرمه، من الصعب أن تسند صفة البياض إلى مفارقهم دلالة على الشيخوخة والعجز، فكان لا بد من اللجوء إلى ما يقوله الناس في أمثالهم وعاداتهم، وهو: "أن العبد أول ما يشيب قفاه، وأن السيد يشيب من مفرقه"(٤٥). وبهذا يستقيم معنى الإسناد، ويكون مؤديًا لدلالة السيادة والشرف، وهو ما لا يتناقض مع واقع الحياة كما يروى من خلال أقوال الناس.

والغريب أن ابن فارس، الحريص على إثبات الروايات المختلفة التي تروى للبيت الواحد، نراه هنا يعرض عن رواية من شأنها أن تقرّب المتلقي من المراد التخيلي، الذي لا يبعد أن يكون مما قصد إليه الشاعر في أصل تصوره لمعنى البياض في المفارق. وهي رواية "بيض معارفنا"، أي وجوهنا.

ومع أن البيت يستقيم معناه بهذه الرواية، إلا أن المرزوقي عدّ الرواية الأولى أجود وأحسن، لكنه فتح باب التأويل والجواز فتحًا يدلّ على أن جهاز قراءته قادر على أن يجاوز نظام الإنتاج عبر الإحالة على المعاني المصاحبة، التي تدل على تفاعل إيجابي مع النص، وشحذ قوي لمؤهلات الذوق قصد تمثّل المعنى التخيلي، الذي يشكّل مجال التصور لدى الشاعر. وقدم، تبعًا لذلك، أربعة شروح لقوله: "بيض مفارقنا":

- ابيضت مفارقنا من كثرة ما نقاسي من الشدائد، وهذا كما قيل: "أمر يشيب الذوائب"، ومنه قوله تعالى: ﴿**يومًا يجعل الولدان شيبًا**﴾(٤٦)، وبهذا يكون معنى: "تغلي مراجلنا" أي حروبنا.
- ابيضت مفارقنا لانحسار الشعر عنها باعتيادنا لبس المغافر والبيض وإدماننا عليه، وعلى هذا تكون المراجل كناية عن الحروب.
- ابيضت مفارقنا من كثرة استعمالنا للطيب، وهذا المعنى يوجه "تغلي مراجلنا" في اتجاه الدلالة على قدور الضيافة.
- مشيبنا مشيب الكرام لا مشيب اللئام، وهذا يناسبه حمل المراجل، على أن المراد بها قدور الضيافة(٤٧).

ولا نملك إزاء هذا الغنى الدلالي الذي عبر عنه المرزوقي في أثناء شرحه للبيت إلا أن نشير إلى ظاهرة تضييق الدلالة وخنقها في حدود الإحالة المباشرة على جزئيات الواقع ومظاهره، وهو إجراء لا يمكن أن يحقق الفعالية المرجوة من الشعر، ولا يستطيع إيجاد الفرق الدقيق بين لغة التصور ولغة

الإدراك، بين اللغة الشعرية واللغة الطبيعية. يقول الأستاذ بلمليح: "إن أفق انتظار القارئ يظل منفتحًا بإزاء المعاني الثواني التي تتضمّنها وحدات الدلالة الشعرية، وهو ما لا تستطيع أيّ قراءة مرجعية للنص الفني أن تخنقه، أو تحدّ من طاقته الجماليّة، ولذلك، تظلّ دلالة هذه المعاني كامنة متخفية، لا يمكن لرد الفعل المرجعي أن يستوعبها؛ لأنه رد فعل يقصد إلى بلورة مستوى المحاكاة والتمثيل، دون مستوى التخيل الذي يتصور الواقع أكثر مما يعكسه"(٤٨).

ثالثا - التأطير التغريضي:

من خلال قراءتنا لشرح ابن فارس نتبيّن أنه يتعامل مع المقطعات، ويشرحها على ضوء الأغراض التي قد يكون الشعراء قاصدين لها، وهي أغراض اكتسبت حضورها التاريخي بفعل وظيفة الشاعر في المجتمع العربي من جهة، وبالنقد المصاحب للأشعار من جهة ثانية، وهو نقد افترض نقاء الأغراض الشعرية، وعدّ القصائد علامات تنظيمية دالة على أغراضها من خلال سياقها وتراكيبها، والمعجم الوارد فيها.

وقد تحكمت هذه النظرة في شرح ابن فارس تحكمًا يمكن التمثيل له بالمستويات الآتية:

- كان يبدأ المقطعة بما يوحي بغرضها، وهذه بعض الأمثلة نسوقها للاستشهاد :

«وقال سبرة بن عمرو الفقعسي وعيّره ضمرة النهشلي بكثرة إبله»(٤٩)، مما يوحي بأن القصيدة ستسير في اتجاهين متكاملين، الافتخار من جهة، وهجاء الخصم من جهة ثانية.

- وكان في بعض السياقات يذكر مناسبة القصيدة، كما في شرحه لمقطعة قريط بن أنيف (البسيط):

لو كنتُ من مازنٍ لم تَستبح إبلي

بنو اللقيطةِ من ذُهلِ بن شيبانا

قال أبو عبيدة: "أغار ناس من بني شيبان على هذا الشاعر، فأخذوا له ثلاثين بعيرًا، فاستنجد قومَه فلم ينجدوه، فأتى بني مازن، فركب معه نفر فاطردوا لبني شيبان مائة بعير، فدفعوها إليه، وخرجوا معه حتى صار إلى قومه، فقال هذا الشاعر هذه القصيدة يمدحهم ويهجو قومه"(٥٠).

فالإضاءة الخارجية للنص عملت على توجيه الإطار التغريضي في القصيدة جهة الهجاء المحض لقومه الذين خذلوه.

وفي شرحه لمقطعة تأبط شرًّا التي يقول في مطلعها (الطويل):

وقالوا لها لا تَنكِحِيه فإنّه

لأوَّلِ نَصلٍ أن يلاقي مُجْمَعا

فقد بدأه بقوله: "خطب تأبط شرًّا امرأة، فلما أنعمت، قالت نساء الحي: ولم تنكحيه، وإنما هو رجل مغوار محرب، فهو إن يلق حربًا قتل، فامتنعت المرأة أن تنكحه، فقال هذه الأبيات"(٥١)، مما يعني أن قوله إنما للفخر بشخصيّته.

وهو، في كل أحواله، يتعامل مع الغرض الشعري على أساس أنه تامّ ومنجز داخل القصيدة، ولا يحتاج من الشارح إلا إلى إبراز له وتجلية. ومن شأن هذه النظرة أن تلغي المظهر التواصلي للإبداع الشعري، وتجعل القارئ في وضع سلبيّ يستهلك القصيدة في حدود الاتجاه الذي توحي به العلامات التنظيميّة، مع أن الشاعر قد يكون عنى ذلك الغرض، وقد يكون عنى غيره.

وهذا يعني أن الغرض جزء من المعنى، ومادام المعنى يمتاز بالانفتاح والتعدد، يحتاج الغرض، هو الآخر في فهمه واستيعابه، إلى النظر إليه تلك النظرة المنفتحة والمؤولة والمعددة للدلالات. ونكتفي، هنا، بمثال واحد من شرح ابن فارس نجلي به صنيعه في هذا المجال:

ففي معرض شرحه لمقطعة قريط بن أنف التي أشرنا إليها سابقًا، عدّ الأبيات هجاء من الشاعر لقومه، يعيّرهم فيها بخذلانه، معتمدًا في ذلك على السياق الخارجي للنص، مع أن السياق النصي يشجع على عدّ الأبيات علامات دالة على غرض آخر، وهو ما أدركه المرزوقي؛ إذ رفض عدّ المقطعة هجاء، ووجه العلامة التنظيمية، التي أوحت لابن فارس بغرض الهجاء توجيهًا دلاليًّا يعني عنده غرضًا آخر، لا يصرم حبل العلاقة بين الشاعر وقومه، ونظرًا لتلاحم كلامه، نضطر إلى سوقه على الرغم من طوله النسبي. يقول: "وقصد الشاعر في هذه الأبيات عندي إلى بعث قومه على الانتقام له من أعدائه ومهتضميه، وتهييجهم وهزهم، لاذمهم، وكيف يذمهم ووبال الذم راجع إليه؟ ..

وإذا كان الأمر على هذا، فمن الظاهر بطلان قول من يذهب إلى أن هذا الشاعر هجا قومه، ومدح بني مازن، يؤكد ما قلته قوله (البسيط):

يجزُون مِنْ ظُلم أهلِ الظُّلم مغفرةً

ومن إساءة أهلِ السوءِ إحساناً

لأنه لا يقال لمن يمسك عجزًا عن الانتصار إنه غفر، ولا لمن يقدر على جزاء الإساءة إنه اختار الإحسان ..

ومما يشهد للطريقة التي سلكتها ويؤيّدها أن في جملة أبياته التي وصف فيها قومه (البسيط):

يُخبون نيرانَهم حتى إذا خَمَدت

شبّوا لموقد نار الحربِ نيرانا[٥٢]

وكأنّ المرزوقي يرد مباشرةً على ابن فارس، ويستدلّ بالسياق الكلي للقصيدة على مشروعيّة إفساح المجال أمام العلامة التنظيميّة لتملأ بهذا الغرض دون ذاك، مع ملاحظة أن ابن فارس لم يشر إلى رواية هذا البيت في شرحه.

إن ما صنعه المرزوقي في هذه المناسبة، وهو ما قام به أبو تمام نفسه في قراءته الغريضية للشعر العربي[٥٣]، يتجاوز النظرة الأحادية التي تبنّاها ابن فارس وكثير من الشراح، التي ترى في الغرض الشعري بناءً مكتملاً تدلّ عليه مناسبته الخارجيّة، وتوحي به العلامات التنظيميّة المختلفة الدالة في القصيدة، مما يعني إلغاء جهود المتلقّي في توجيه العلامة التغريضية، وملء الفراغ بما يراه مناسبًا وفق تفاعله الخاص.

لقد ظلت تلك النظرة مرافقة للنقد العربي، بل لا نبالغ إذا ذهبنا إلى أنها هي المهيمنة في الحقل الدراسي سواء في مستوى الثانوي أو الجامعي، مما يعني أن القراءة التغريضية التي بسطها الأستاذ بلمليح في أطروحته تحتاج إلى جهود جماعية وصراع متواصل من أجل تأصيلها في بنية الخطاب النقدي المعاصر.

وما صنعه أبو تمام والمرزوقي، بتجاوزهما لتلك النظرة الأحادية، إنما هو عمل سعى إلى أن يظلّ أفق انتظار المتلقّي مفتوحًا إزاء الذخيرة التغريضية؛ فليس الغرض أمرًا محددًا سلفًا في بنية النص وعلاماته التنظيمية، وإنما هو كامن في النص من جهة، وحاضر لدى المتلقي من جهة ثانية عبر عملية ردّ الفعل المتوخاة من كل نشاط فني، وهو ما يؤكد مقولة المظهر التواصلي للإبداع الشعري، مظهر لا يتمّ في عملية الإلقاء والتلقي، ولكنه يحضر في ملء فراغات الدلالة وتوجيه العلامات التنظيميّة والأطر التغريضية. وفي هذا السياق يكون المتلقي قد أخذ مكانته اللائقة به في موضوع التغريض الشعري، وهو ما أراده أبو تمام، وبخاصة في اقتراحه لأبواب أغراض جديدة، وفي تصنيفه لتلك الأغراض والتمثيل لها بمختاره الشعري.

إن تأكيد المظهر التواصلي للتغريض، وإفساح المجال أمام المتلقي لتوجيه العلامة التنظيمية داخل القصيدة هو الذي دفع بالأستاذ إدريس بلمليح إلى

إثارة الأسئلة / الإشكالات الآتية في معرض حديثه عن رد الفعل التغريضي عند أبي تمام.

يقول الأستاذ: "هل يستطيع الواحد منا أن يثبت أن الفخر ذخيرة غرضية، وأن الحماسة ليست كذلك؟ وأين نصنف الأخلاق الدمثة والعشرة الحسنة، والوفاء للصاحب ضمن التصور الشائع للأغراض النظرية؟ ثم لماذا لا نقابل، مثلاً، بين التغزل ومذمة النساء؟ وهل نستطيع أن ننكر أن المُلح والنوادر باب من أبواب الشعر نتواصل عبره من خلال ما نقف عليه في حياتنا اليومية من مشاهد مضحكة، ومفارقات مثيرة للسخرية والاشمئزاز، أو الإعجاب والدهشة؟(٥٤).

ونلفت النظر إلى أن هذه الأسئلة آيلة، من حيث الفهم والإدراك، إلى أغراض الشعر المقترحة من قبل أبي تمام، وهي الحماسة والأدب ومذمة النساء.

ومن المنطق السليم أن نخلص، بعد هذه التساؤلات، إلى المعادلة الآتية: بما أن العلامة التغريضية في الشعر العربي القديم متنوعة إلى الحد الذي يصعب معه حصرها ضمن أطر تامة ونهائية، لابد أن يتنوع رد الفعل بإزائها أيضًا، فلا ينحصر ضمن أغراض نظرية تغيب ذخيرة القراءة وسنن التلقي.

وبالرجوع إلى ما قام به ابن فارس نلاحظ أنه اقتصر على التغريض النظري، وكان عليه أن يستمع إلى النص الذي يكشف عن تأويلات منفتحة وتأطير تغريضي متعدد.

رابعًا - حضور المكون البلاغي في شرح ابن فارس:

لم يكن شرح ابن فارس للحماسة غفلاً من أي إشارة بلاغية، مما يعني تسلّحه بجهاز له عناصره وأدواته، إلا أن استدعاءه للتحليل البلاغي ظل نادرًا، وكثيرًا ما كان يشار فيه إلى الوجه البلاغي دون تأمل أو تأول، يتيحان إمكان الاقتراب من المجال التصوري، الذي تخيل الشاعر على ضوئه معانيه، وصاغ الوجه البلاغي لكشفه لدى المتلقي.

ونقدم أمثلة تدل على اعتماده النادر والموجز لبعض الظواهر البلاغية:

١ - المثل الكنائي:

استطاع ابن فارس أن يدرك إلى أي حد يستطيع الشاعر أن يستعين بالمثل قصد تبليغ مراده إلى المتلقي، والكشف عن مخزونه التخييلي، لكن هذا الإدراك كثيرًا ما كان يميل به إلى مجالات لغوية وإدراكية، تبعد عن الصورة حمولتها الفنية، وطاقتها التخيلية.

يقول أُبي بن حمام المري (الطويل):

إذا المرء لم يُحببْك إلا تكرُّهَا

عِراضَ العلوق لم يكنْ ذاك باقيًا

شرحه ابن فارس بقوله: "إذا كانت مودته ليست على أصل لم تبق، وقوله: عراض العلوق، يريد مثلاً، وذلك أن الناقة لا يؤتى بها إلى الفحل ليضربها، ولكن تعرض عليه عرضًا، فإن احتاجت إليه تنوخها الفحل، وإلا تركها، فهذا عراض العلوق"(٥٥).

لقد كان منطق ابن فارس في بداية التفسير موفقًا؛ لأنه أشار إلى أن العبارة مثل محض، لكن سرعان ما عاد إلى اختزال المجال التصوري للشاعر ضمن مجال لغوي محدد، والنظر إليه ضمن حقل معجمي، من المفترض أن يكون له ارتباط بالبعد المرجعي والمادي المحسوس.

إن الشاعر، بعد تعامله مع مجاله التصوري، لاحظ أن تركيب (عراض العلوق) هو الأقرب إلى تمثّل حالة النفعية والعلاقة المصلحيّة التي ترمي بميثاق الصداقة والصحبة بعيدًا، فنقل هذا المعنى الأصلي لديه إلى لغة تعتمد على وحدات إخبارية لها، معجميًا،

علاقة بالواقع؛ لأن الشاعر مضطر إلى التعامل بتلك اللغة، ولم يكن هدفه الحديث عن هذه الناقة التي تتعرض للجمل؛ لتنوّخها أو تركها، لقد انصرف ابن فارس عن الاشتغال بذلك المعنى الأصلي لدى الشاعر إلى الاهتمام بتحديد الدلالة المرجعية لعراض العلوق.

ويقول الشاعر (الطويل):

أقولُ لنفسي حين خَوَّدَ رألُها
مكانَكِ لمّا تُشفقي حين مُشفق

يقول ابن فارس: "الرأل: فرخ النعامة، وخوّد من التخويد وهو الإسراع، وهذا مثل، يقال للرجل الذي جبن: قد سالت نعامته، وخوّد رأله"(٥٦).

ففي هذا الموقف إضمار للصورة التي أرادها الشاعر باستعانته بهذا المثل، إنه يرى من نفسه اهتزازًا واضطرابًا وتخوفًا تجاه إقبال الحرب وحضورها عيانًا، ولا ينبغي لهاته المعاني أن تضيع في ظل الشرح المعجمي للرأل والتخويد، فليس ثمة رأل، وإنما هو تصوير لمعاني نفسيّة يجليها سياق الكلام.

ولا نملك إزاء هذا النوع من التواصل مع الشعر إلا أن نستنتج مع أستاذنا د. بلمليح أنه "إذا نظرنا إلى القراءة المرجعية في تفاعلها مع الوحدات الإيجابية داخل النص الشعري، وجدنا أنها قراءة سعت، فيما يتعلق بالشعر العربي القديم، إلى خنق هذه الوحدات وتضييق مجالها التصوري، وذلك عن طريق ربطها بالوحدات المعجميّة، حتى يتسنّى ربطها بجزئيات الحياة اليومية، ويسهل فهمها على ضوء العادات اللغوية، ووفق شروط التواصل اليومي"(٥٧) مع أن الأصل هو الارتفاع بوحدات الخطاب عن أصولها الواقعيّة، وإفساح المجال أمام تطويق دلالاتها التخيليّة المصاحبة تطويقًا يدل على تفاعل فني وجمالي.

بل ما يلاحظ على ابن فارس أنه، في أحيان كثيرة، لا يهتم بالمستوى الكنائي في البيت، وإنما تستهويه الدلالة اللغوية المباشرة، فيفيض في شرحها، مهملاً إثارة انتباه قارئه إلى البعد التخيلي في ذلك التركيب الكنائي.

يقول الشاعر (الطويل):

ولَلقارح اليَعبُوب خيرُ عُلالةٍ
من الجَذَعِ المُرخي وأبعدُ مَنزِعًا

فقد شرح ابن فارس وحداته على الشكل الآتي: "إن الفرس إذا قرح وانتهى سنّه، فهو أقوى وأجرى من الجذع، وهو الذي قد أجذع الأول سنته، واليَعبوب: الفرس الذي يمتدّ في جريه امتداد النهر، والعلالة: بقية الجري، والمرخي: الذي يرخي في عدْوه. يقول: القارح أجود عدوًا وأكثر بلوغًا إلى الغاية التي نصبت له"(٥٨).

ثم توقف عند هذه الحدود، مع أن الشاعر لا يريد إخبارنا بفرس له تلك الخصائص القويّة في واقع الحياة، وكأنه بصدد وصف له، وإنما هو منهمك في الحديث عن فضائله ومكانته وبُعد شأوه بين الناس.

والنتيجة أن ابن فارس قدّم لنا معنى للبيت ليس هو من مراد الشاعر، وهذا يعني أنه أسهم في فصلنا عن الذات المتخيلة لدى الشاعر؛ أي إن ما أراده الشاعر بقي كامنًا في البيت، ولم يزده شرح ابن فارس إلا تخفيًا لا نستطيع إبرازه إلا عبر قراءة مغايرة تهدف، بالأساس، إلى أن تقرّبنا من الذات المتخيّلة لباثّ الشعر.. وقد وجدنا هذه القراءة عند المرزوقي في قوله: "هذا مثل ضربه في تفضيل نفسه، على شيخوخته، وقد أدبه الكبر، ونازع الدهر وأبناءه وأطراف الخطوب ومرائر السيادة والعلو على الأحداث الذين لم يجربوا الأمور، والأغمار الذين لم يجاذبوا الشدائد"(٥٩).

إن الطريقة التي قرأ بها ابن فارس التراكيب البلاغية تفيد في مجال اللغة ومعرفة معانيها

المعجمية، وهو جهد كبير بذله العلماء والشراح، مما يدل على مكانتهم العلميّة واللغوية[٦٠]. لكن هذا الجهد لم يوازه جهد آخر لتمثل المجالات التصورية، والفضاءات التخيلية في الشعر العربي القديم، فكان أن تسرب الضعف والقصور إلى أجهزتهم بشكل واضح ومكشوف.

٢ - الاستعارة:

توقف ابن فارس عند بعض الاستعارات، لكن تعامله معها يوحي بأن مفهومه لها لا يخرج عن التحديد الذي قدمته لها البلاغة في صورتها المدرسية.

يقول تأبّط شرًّا (الطويل):

إذا هزّه في عظْمِ قرنٍ تهلّلت

نواجذُ أفواهِ المنايا الضّواحِك

شرحها ابن فارس بقوله: "تهللت: ضحكت، واستعار للمنايا أفواهًا ونواجذ"[٦١]، مما يعني لديه أن الاستعارة نقل لفظ من استعمال إلى آخر، دون علم بأن "المسألة ليست بهذه البساطة التي يستطيع معها اللغوي أن يدّعي بأنه فسّر تقنية أساسيّة من تقنيات التواصل الفني حين عرّف الاستعارة بأنها استعمال اللفظ في غير ما وضع له في أصل اللغة"[٦٢].

إن معنى الاستعارة، عندابن فارس، يتلخص في إسناد النواجذ والأفواه إلى الموت، مما يجعل الاستعارة إنجازًا لغويًّا، في حين أن نظام الفعل الاستعاري يفرض علينا النظر إليها على ضوء التصوّر الأصلي لدى الشاعر؛ أي "إن الاستعارة ليست مجرد استعمال اللفظ في غير ما وضع له في أصل اللغة، وإنما هي في الأصل تصور قائم في النفس"[٦٣].

ونقول لتوضيح هذا المفهوم: إن المعنى الأول في البيت السابق يتحدد في كون الموت كالحيوان، أما المعنى الثاني فيتعلق بأن جعل للموت نواجذ وأفواهًا من شدة إهلاكها للمرء. فالنظرة الأولى للاستعارة تنطلق من المعنى الأول لتصل إلى المعنى الثاني، في حين أن الصحيح أن ننظر إليها نظرة معاكسة، وذلك أن المعنى الثاني في الشرح هو المعنى الأول المقصود لدى الشاعر، وهو الخاضع لمجاله التصوريّ، وهو ما سعى إلى نقله للمتلقي عبر المعنى الأول.

وقد أمكن للأستاذ بلمليح أن يلمح هذا المنحى الجديد في تحليل الاستعارة لدى عبدالقاهر الجرجاني، وبخاصة في سياق حديث هذا البلاغي عن المعاني الثواني. يقول الأستاذ: "إن عبدالقاهر الجرجاني، حين أكد على معنى اللفظ الذي يشار به إلى معنى ثان جعل المتكلم بهذا التأكيد بإزاء حقول تصورية متعددة، يعدّ محتوى اللغة الطبيعية، لا عبارتها، طريقًا إلى التعبير عنها"[٦٤].

إلا أنّ ابن فارس لا يعتمد هذا المنظور، فيلح على أن الاستعارة إنجاز لغوي محض يتم بموجبه نقل لفظ من استعمال إلى آخر .

يقول في شرحه لبيت قطري بن فجاءة (الكامل):

ثمّ انصرفتُ وقد أصبتُ ولم أُصب

جَذعَ البصيرَةِ قارحَ الإقدامِ

«الجذع: المهر الذي دخل في ثالثة سنيه، والقارح: الذي بلغ نهاية قوته، فاستعار ذلك لقوته؛ أي بصيرتي بمنزلة الجذع وإقدامي كالقارح"[٦٥].

بل إننا نلاحظ كيف أنه يرجع الفعل الاستعاري إلى فعل تشبيهي، ثم يضيع الفعل التخيلي في ثنايا ذلك، وهو الفعل الذي تصوّره قطري، فعل يحتوي معاني الفتوة ورجاحة العقل،مما يُعدّ سمة للشباب والشيوخ.

خاتمة:

بعد هذه الوقفة مع الجهود التي بذلها ابن فارس في سبيل توثيق العديد من الروايات الشعرية في مختارات أبي تمام، والبحث عن الدلالات الممكنة للوحدات المعجمية عبر حفر لغوي دؤوب. وبعد أن بيّنا حدود وعيه بالأطر التغريضية التامّة بحسب علاماتها التنظيمية، ثم حدود ما توافر لديه من وقفات إزاء بعض التراكيب البلاغية، بعد هذا كله، نستطيع إجمال خصائص جهاز القراءة عند ابن فارس في المحددات التالية:

- لقد أبان جهازه على إلمام كبير بالروايات المختلفة التي تروى للبيت الواحد .
- تحكم في تفسيره للوحدات المعجمية تصور واضح، يرى أن الشاعر يستعمل مفردات اللغة الطبيعية استعمالاً لا يتمتع بأيّ خصوصيّة، مما يجعل كلامه محاكاة محضة، ونقلاً لجزئيات الحياة وتفاصيلها.
- يرى أن المناسبات الخارجية للنص، وكذا الإشارات الواردة فيها، علامات تؤشر على الغرض الشعري لدى صاحب القصيدة بشكل مكتمل ونهائي لا يحتاج إلا إلى التوجيه والتفسير.
- شاب نظرته إلى الأساليب البلاغية الكثير من الاقتضاب والاختزال؛ إذ عدّ الاستعارة نقلاً لغويًّا، ولم ينظر إليها بوصفها أصل التصور لدى الشاعر.

وبناء على هذه المحدّدات النظرية، وتجلياتها التطبيقية، لا نجاوز حدود الحكم العلمي إذا وصفنا طريقة قراءة ابن فارس للمختارات الشعرية بأنها قراءة مرجعية، تسعى إلى استحضار الواقع المادي المعيش بجزئياته المختلفة وعناصره، انطلاقًا من أصغر الوحدات في الشعر إلى المستوى التركيبي والدلالي، شأنه في ذلك شأن الأصمعي والأنباري والتبريزي من أئمة شراح الشعر العربي القديم.

وبهذا نستطيع أن نضع شرحه في المكان المناسب ضمن السلسلة الطويلة لشروح الحماسة بخاصة، وللشروح الشعرية بصفة عامة. ●

●●●

الحواشي

(١) د. إدريس بلمليح، من مواليد فاس بالمغرب، أستاذ الأدب القديم والنقد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، من مؤلفاته: "الرؤية البيانية عند الجاحظ" (البيضاء ١٩٨٤م)، و"المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام" (البيضاء ١٩٩٥م)، و"قراءة القصيدة التقليدية" (البيضاء ١٩٩٩م)، ومن أعماله الروائية "القصبة"، و"خط الفزع" (البيضاء ١٩٩٨م). وقد حصل على جائزة البابطين في الدراسات النقدية لموسم ١٩٩٨/٩٧م. يشتغل إدريس بلمليح على نظرية التلقي، ويشرف على رسائل وأطروحات جامعية في هذا المجال، ينجزها باحثون مغاربة وعرب وأجانب.

(٢) من ذلك استحسانه للاستعارة الواردة في قول أبي تمام (الكامل):

لا تَسقِني ماءَ المَلامِ فإنَّني … صَبٌّ قد استَعذَبتُ ماءَ بُكائي

يقول الآمدي: "فقد عيب، وليس بعيب عندي؛ لأنه لما أراد أن يقول: قد استعذبت ماء بكائي، جعل للملامة ماء، ليقابل ماءً بماء، وإن لم يكن للملام ماء على الحقيقة". الموازنة: ٢٤٤.

(٣) كتاب الحماسة: ٣٨ – ٣٩

(٤) المرجع السابق نفسه: ٣٧

(٥) المرجع السابق نفسه: ١٢٤

(٦) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ١/ ٣٧٣

(7) L'acte de lecture: theorie de l'effet esthetique, p: 47

(8) A propos du texte littera ire et de f. Kafka. Vol. 10. p:34

(9) Pour une esthetique de la reception, p: 47

(10) L' Acte de lecture, p: 48

(١١) الخبرة الجمالية، دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية: ٣٤٠.

(١٢) نظرية التلقي، إشكالات وتطبيقات: ١١

(١٣) المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام: ٢٧٩

(14) L' Acte de lecture, p: 49
(15) L' Acte de lecture, p: 48
(١٦) المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب: ٢٩٣
(١٧) كتاب الحماسة شرح ابن فارس: ٤٤
(١٨) قراءة في المعاني الشعرية، رؤية حديثة لقضية قديمة في ضوء شرح مشكلات ديوان أبي تمام للمرزوقي: ٥٤
(١٩) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ١/ ٣٦
(٢٠) المختارات الشعرية: ٢٩٦
(٢١) قراءة في المعنى الشعري: ١٥
(٢٢) كتاب الحماسة شرح ابن فارس: ٣٧
(٢٣) المرجع السابق نفسه: ٨٠
(٢٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٣٣٩/١
(٢٥) المرجع السابق نفسه .
(٢٦) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ٢٤٩/١
(٢٧) كتاب الحماسة شرح ابن فارس: ١٤٤
(٢٨) المرجع السابق نفسه: ١٢٢
(٢٩) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٣٦٦/١
(٣٠) كتاب الحماسة شرح ابن فارس: ١١٩
(٣١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٣٥٧/١
(٣٢) المختارات الشعرية: ٣٢٢
(٣٣) كتاب الحماسة شرح ابن فارس: ١٦٣ - ١٦٤
(٣٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٥١٦/١
(٣٥) تأويل مشكل القرآن: ١٣
(٣٦) مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية: ع٧/ ١٠
(37) Pour une hermeneutique Litteraire; p:364.
(٣٨) كتاب الحماسة شرح ابن فارس: ١٣٥
(٣٩) المرجع السابق نفسه: ١٢٥
(٤٠) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٣٧٩/١
(٤١) المرجع السابق نفسه: ٣٧٩
(٤٢) المرجع السابق نفسه: ٣٦٦
(٤٣) كتاب الحماسة شرح ابن فارس: ١٢٤
(٤٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٣٧٤/١
(٤٥) كتاب الحماسة شرح ابن فارس: ٥٤
(٤٦) سورة المزمل: ١٧
(٤٧) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ١٠٦/١
(٤٨) المختارات الشعرية: ٣٣٢ - ٣٣٣
(٤٩) كتاب الحماسة شرح ابن فارس: ٧٩
(٥٠) المرجع السابق نفسه: ٤٣
(٥١) المرجع السابق نفسه: ١٥٦
(٥٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٢٤/١
(٥٣) المختارات الشعرية: ٣٨٥-٤٣٩
(٥٤) المرجع السابق نفسه: ٤١٥
(٥٥) كتاب الحماسة شرح ابن فارس: ١٣٦
(٥٦) المرجع السابق نفسه: ١٢٢
(٥٧) المختارات الشعرية: ٣٤١
(٥٨) كتاب الحماسة شرح ابن فارس: ١٠٨
(٥٩) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٢٢٢/١ - ٢٢٣
(٦٠) المختارات الشعرية: ٣٦٧
(٦١) كتاب الحماسة شرح ابن فارس: ٥٣
(٦٢) نظرية التلقي، إشكالات وتطبيقات: ١١٤
(٦٣) المختارات الشعرية: ٣٣٩
(٦٤) المرجع السابق نفسه: ٣٣٦
(٦٥) كتاب الحماسة شرح ابن فارس: ١٣٨

المصادر والمراجع

أولاً باللغة العربية :

الآمدي: الحسن بن بشر.
الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تح. محمد محيي الدين عبدالحميد، ب. ط، ت .

إيزر: فولفغانغ.
التفاعل بين النص والقارئ، ترجمة الجيلالي الكدية، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، المغرب، ع٧/ ١٩٩٢م .
فعل القراءة، ترجمة حميد لحميداني والجيلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، ط١، فاس، ١٩٩٥م.

بلمليح: إدريس .
المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط١، الرباط، ١٩٩٥م .

توفيق: سعيد .
الخبرة الجمالية، دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ١٩٩٢م .

ابن رشيق: الحسن بن رشيق .
العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح. محمد قرقزان، دار المعرفة، ط١، بيروت، ١٩٨٨م .

السعدني: مصطفى .
قراءة المعنى الشعري، رؤية حديثة لقضية قديمة في ضوء شرح مشكلات ديوان ابي تمام للمرزوقي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٤م .

الطرابلسي: أمجد .

مقالات

نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس الهجري، ترجمة إدريس بلمليح، دار توبقال، ط١، المغرب، ١٩٩٣م .

ابن فارس: أحمد بن زكريا .

كتاب الحماسة، تح. هادي حسن حمودي، عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٩٩٥م .

ابن قتيبة :

تأويل مشكل القرآن، تح. أحمد صقر، دار المكتبة العلمية، ط٣، بيروت، ١٩٨١م .

المرزوقي :

شرح ديوان الحماسة، تح. أحمد أمين وعبدالسلام هارون، دار الجيل، ط١، بيروت، ١٩٩١م .

ابن منظور :

لسان العرب، دار الفكر، ١٩٩١م .

مؤلف جماعي :

من قضايا التلقي والتأويل، منشورات كلية الآداب، ط١، الرباط، ١٩٩٤م .

ثانيًا – باللغة الفرنسية :

H.R. Jauss:

- Pour une esthetique de la reception: tradiuit de l'allemand parclaude Maillard, ed Gallimard, 1978.
- Pour une esthetique de la reception: traduit de l'aatlemand par Maurice Jacob, ed Gallimard, 1988.

Wolfgang Iser:

- L'Acte de lecture:theorie de l/effet esthetique: traduit de l'allemand par Evolune SZnycer, 2eme ed, Mardaga, 1997.

Y.GILLI:

(theories et pratique): Apropos du texte Litteraire et de F. Kafka
Centre de recherche linguistique etrangere. Vol: 10.



الخدمات الإلكترونية في المكتبة المعاصرة : مدخل إلى المعلوماتية

الأستاذ / الأخضر إيدروج
باحث في المعلومات والاتصال
الكويت

مقدمة

تُبرز الأدبيات المتخصّصة في ميدان المعلومات بإلحاحٍ شديد محاور جديدة واهتماماتٍ متعددة الأبعاد نتيجة تأثيرات الحاسوب العميقة والحادّة في وسائل معالجة المعلومات وتوزيعها ، ومن ثمَّ يظهر مداها على الأنشطة المكتبية والتوثيقية القائمة في المؤسسات المتخصصة ، وذلك منذ منتصف عقد السبعينات. ولقد استحوذت أنظمة المعلومات والشبكات(١) والنشر الإلكتروني(٢) على أكبر حجم من هذه الأدبيات ؛ لهيمنتها على النشاط المكتبي بعامّة ، ومنهجية أدائها في نطاق تلبية حاجات الفئات المستفيدة من خدماتها. كما اهتمت الأطروحات المتخصّصة بمفهوم البنية التحتية المعلوماتية الشاملة(٣) مبرزةً أهم القواعد والمبادىء ، التي ترتكز عليها المؤسسات التوثيقية لاستقبال المكتبة الإلكترونية الرقمية ، التي أصبحت بمنزلة المحور الذي تدور حوله القرارات السيادية للبلدان المتطورة(٤).

فالتدخل المباشر في بناء البنية التحتية المعلوماتية الشاملة Global Information Infrastructure يفيد بصفةٍ واضحة الحجم الضخم للاستثمارات التي يجب توافرها وطبيعة التخطيط الدقيق التي ترتكز عليها عملية بناء المكتبة الرقمية الحديثة. وتوضح من جهةٍ أخرى نوع البحوث والتطبيقات التي تستوجب ممارسة أوليّة وحتميّة معلوماتيّة وبخاصّة في شقّي الإعلام الآلي والاتصالات، وتكنولوجية معالجة المعلومات وتصنيعها.

وتعتمد الخدمات المكتبية الحديثة على نجاعة السياسات الوطنية وفعاليتها، التي تهتم بأنظمة المعلومات، وقدرة مخطّطي البرامج المعلوماتية ومصمّميها على تنفيذ التصوّرات والتطبيقات التكنولوجية، إضافةً إلى تأهيل العاملين في حقل التوثيق؛ لتذليل الصعوبات وتجاوز العراقيل، التي قد تكون عائقًا للفئات المستفيدة. وتعدّ البنية التحتية المعلوماتية العمود الفقري الذي تدور حوله الأنشطة المكتبية والتوثيقية المعاصرة، وبخاصّة في عهد الانتشار المتنامي للنشر الإلكتروني والاستغلال الذاتيّ للشبكات المعلوماتية المحلية والعالمية؛ بهدف الوصول إلى تفاعل المهارات مع آخر التطورات التقانية والتكنولوجية؛ لتطويع الفيض الهائل من الإنتاج الفكريّ. ويهدف التفاعل القائم بين أطراف

الاتصال إلى مجموعة متميّزة من الأهداف، التي سنقوم بالتفصيل فيها فيما بعد.

الحتمية المعلوماتيّة

إذا كان رواج التأليف من ضمن قائمة الأسباب التي ساهمت في بروز سوق الفِكَر والمعارف، فإنّ أسباب الاهتمام ببناء الأنظمة المعلوماتية تشمل مجموعة من الحقائق التي يتميّز بها المجتمع الحديث. وتعود أهمية دراسة هذا الموضوع إلى النقاط الآتية:

أولاً : أنّ الثورة العالمية للمعلومات أفرزت حتميّة تجاوز الخصائص الصناعية التقليدية للمجتمع البشري، وأسهمت بقسطٍ كبير في توفير أساليب مستحدثة للتعامل مع المادة الفكريّة والمعرفيّة. كما تؤثر الثورة المعلوماتية في مكوّنات السياسة الوطنية للمعلومات في أبعادها العلميّة والثقافيّة والاقتصاديّة.

ثانيًا : لقد بات من المؤكد أن التدخّل المباشر يشكّل جزءًا حيويًّا لإنجاح السياسات الوطنية للمعلومات National Information Policies بسبب الترسبات الاستراتيجية التي تفرزها المادة العلمية والفكرية، وبخاصّة في ظروفٍ عالميّة معروفة بالعولمة. ويعود ذلك إلى حجم الاستثمارات اللازمة لتفعيل البحوث العلميّة والتكنولوجيّة وتمويل أقطاب المعرفة في بعض الميادين، وبخاصّة الاتصالات السلكية واللاسلكية والإعلام الآلي.

ثالثًا : أن مكننة الخدمات المكتبية وإتمامها والإجراءات التنفيذية للأنشطة التوثيقية تطرح بإلحاحٍ شديد حتميّة تأهيل العاملين في حقل المكتبات والمعلومات؛ لتجاوز توقّعات الفئات المستفيدة من خدماتها، بكون الأخيرة محور أنظمة المعلومات الحديثة.

وبالنظر إلى التطورات المتعدّدة الجوانب، التي يعيشها هذا القطاع، يضع تجديد المهارات والخبرات والممارسات والعادات التوثيقية داخل الهياكل المعلوماتية ضمن أوليّات مخطّطي الأنظمة الوطنية بندَ التدريب والتكوين على قمة الهرم الوطني للمعلومات بهدف:

- الحصول على توازنٍ مهنيّ بين التطورات التكنولوجية والقدرات الفنيّة للعاملين في حقل المكتبات.
- الوصول إلى درجةٍ من الدقة لمسايرة المتطلبات المعقدة من أنواع الخدمات المستحدثة جرّاء التطوّر التكنولوجي.
- التحكّم في «سلسلة القيمة»(٥) Value Chain للوثائق وأوعية المعلومات التي تتوافق مع الخصائص والأدوار للمكتبات، والتي أوجدتها هذه التطورات.
- التحكّم الشامل في سلسلة تطويع الإنتاج الفكري والمتابعة الإجرائية والميدانية لمدلول رواج التأليف والابتكار والنشر، الذي يمثّل قطب مجموع العمليّات القائمة في نظام المعلومات.
- توحيد البرامج والمقاييس؛ لإنجاز سلسلة العمل التوثيقية بهدف تجنّب المفارقات والازدواجية الوظيفية لخدمات المكتبات، وتحقيق نسق وطنيّ للسياسة الشاملة لنظام المعلومات. وتساعد هذه المقاييس أيضًا في إرساء قواعد التعاون ومبادئه بين الجهات المختلفة المساهمة في النظام الوطني للمعلومات. ومن الممكن أن نستدل بنظام International Nuclear Information System (INIS) ونظام Computer Library Center (OCLC)On Line حيث أصبحا من النماذج العالمية.

محاور الحتمية المعلوماتية

لقد أصبحت حقيقة الثورة الإلكترونية واقعًا عالميًّا، امتزجت فيه عدة محاور، وولدت بدورها ضرورة مراجعة التنظيمات المكتبية والمهارات التوثيقية بما يمكن أن يساير وتيرة التغيّرات

الجوهرية على أدوات المعلومات وأوعيتها. وتتعدّد هذه المحاور لتشمل جميع قضايا المكتبات وشؤون العاملين بها وخصائص الفئات المستفيدة من خدماتها ومقاييس التعامل الفنّي والتكنولوجي لأنظمة المعلومات. وسيكون التركيز بصفةٍ أساسية على ثلاث نقاط، علمًا أنّ بنود البنية المعلوماتية الشاملة تعني في هذه الدراسة مجموعة من الهياكل العامة – بالمفهوم الحكومي – والهياكل الخاصة التي تسخر بوساطة آليات تكنولوجية قد تكون في غاية التعقيد. وبعباراتٍ أخرى تعني أساسًا توافقًا بين الهياكل المكتبية والتوثيقية المستخدمة؛ لتلبية احتياجات المستفيدين مع المستوى التطوري للنظام المعلوماتي في جميع هذه الهياكل.

ويشير كرايج Graige في هذا الصدد إلى «أنّ البنية المعلوماتية الشاملة ما هي إلاّ مصطلح يركّز اهتمامه على نسقٍ من المصادر، تكون انعكاساتها ذات قيمةٍ على المجتمع. وترتبط فعاليتها [القيمة] بمؤشرات المحاورة الإلكترونية وسهولة الوصول إلى المصادر والوظائف التي نؤدّيها لتحقيق أهداف مختلفة»(٦).

وهناك اتجاهٌ أكاديميّ يدرج مفهوم البنية التحتية المعلوماتية الشاملة في مصطلح المكتبة الرقمية التي تعني: «مجموع البُنى النظامية التي تتيح للإنسان فرص الاطلاع الفكريّ والماديّ على الشبكات الكبيرة عبر العالم المزودة بوسائل متعددة الوسائط في أشكال رقمية»(٧).

إنّ تحديد المحاور التي ساهمت في عملية البناء الإلكتروني للمكتبات وخدماتها هي عملية الترقيم الذي أتاحته التحوّلات الحاسوبيّة، بعد أن عاصر الإنسان مدة أزمة خاصة بقطاع الإنتاج الفكريّ في أنشطة التجميع والمعالجة والتوزيع. وتتطلّب عملية البناء المعلوماتيّ، حسب بعض المصادر، مجموعة من الشروط، ساهمت خصائص المعلومات في تبسيطها وتذليلها. ويمكن أن نذكر مجموعة من الخصائص:

– المعلومات مرنة: بمعنى أنها تحتوي على أنواعَ متعدّدة من المعارف.

– المعلومات مضغوطة، وقد تكون مركّزة ومدمجة وملخّصة ومصغرّة بهدف التداول الواسع.

– المعلومات تعويضية : بمعنى إتاحة فرصة كبيرة لتعويض قوة العمل ورأس المال والوسائل الإنتاجية الماديّة.

– المعلومات محمولة : يمكن نقلها بسرعة الضوء وتحويلها إلى جميع الأماكن التي تستهدف تحصيلها.

– المعلومات توزيعية : تحمل خاصيّة الشراكة بين عدة أطراف دون فقدان قيمتها الاستخدامية.

المعلومات مملوكة : في حال بيعها يبقى الطرف الأول (البائع) حائزًا على المعلومات والفِكَر نفسها التي طرحها في السوق(٨).

١ – البرامج المعلوماتية : يعدّ هذا المحور منطلق نشأة أنظمة المعلومات الحديثة وبخاصّة أنه يقوم بدور الضاغط Compression Role على جميع أنواع المعلومات. ولقد تنبأت الدراسات بهذه المواصفة الهادفة إلى منح فرص كبيرة لتطويع المعلومات واسترجاعها في ضوء الاستخدامات الحثيثة للإعلام الآلي(٩). فعندما انطلقت مثل هذه التنبؤات حول الوسائل التي تتيحها التطبيقات الآلية شرعت البحوث العلمية في التركيز على بنود استراتيجية؛ لتطوير قواعد أنظمة المعلومات فتوافر:

– أجهزة حاسوب ذات نقاوةٍ عالية High Resolution Desktop Displays.

– أجهزة اتصال سريعة Higher Data Communication Speed.

- أدوات لإنشاء علاقة بين الموزّع والمستفيد Client/ Server Architecture.
- أجهزة ذات قدرةٍ كبيرة على التخزين[١٠] Large Capacity Storage.

ولا تخلو عملية تطوير هذه المعدات الثقيلة والبرمجيات الخاصّة بها من مضاعفات حيوية بالنسبة للهيئات التوثيقية والفئات المستفيدة على حدٍّ سواء. فإذا كان الهدف الأساسيّ من طرح هذه المنتجات المعلوماتية الوصول إلى أنجع الوسائل تجاوز توقّعات عملاء المعلومات، فإنّ ذلك لم يمنع من تحقيق مضاعفات لا تقلّ أهميّة عن نظيرتها السابقة الذكر على المستوى الاقتصادي والثقافي والاجتماعي[١١].

وتكمن دوافع هذا الاتجاه العلمي والتكنولوجي في مجموعة من النقاط، نركّز على ما يأتي:

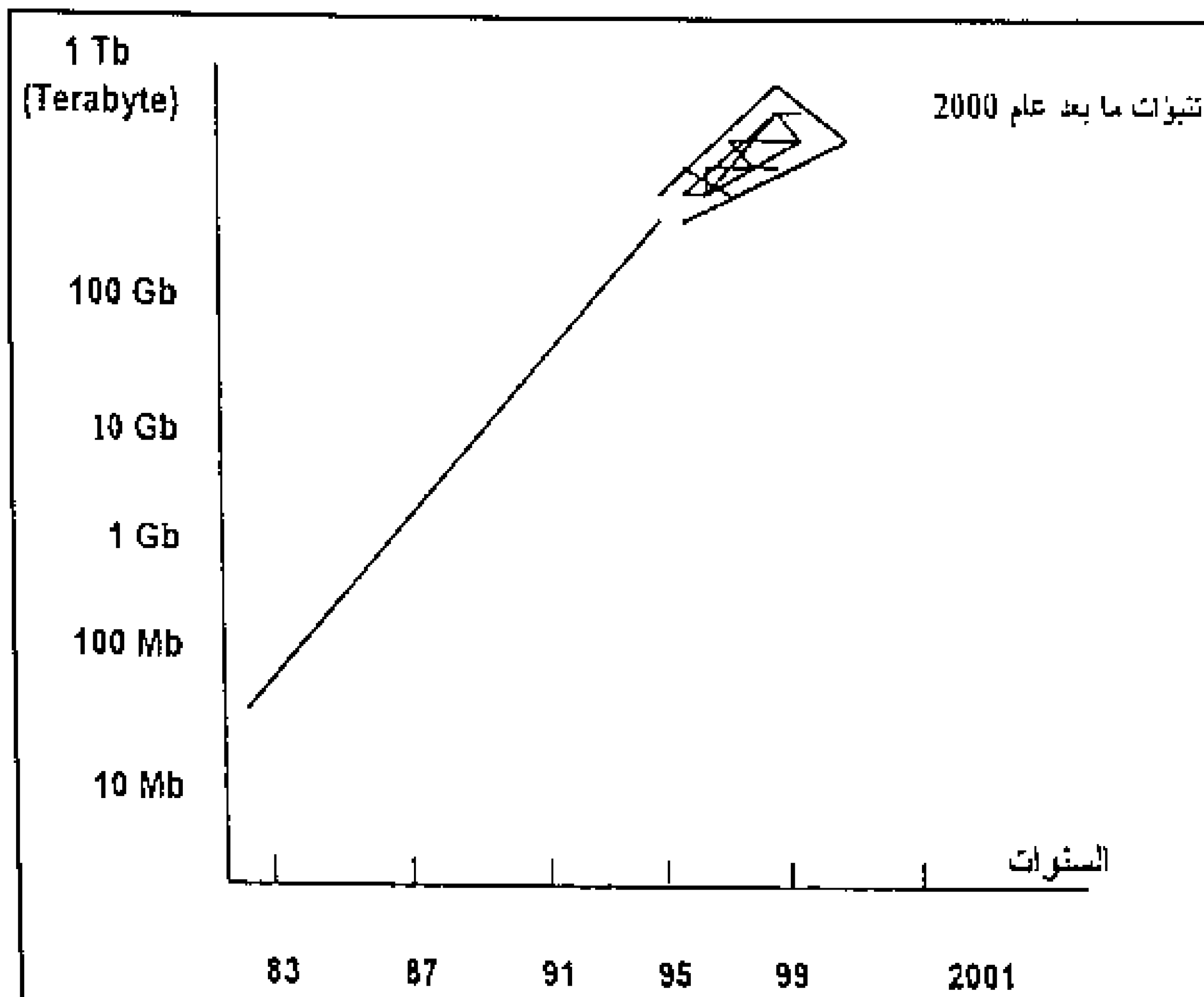
- القدرة على تحسيس الفئات المستفيدة بديمومة الاتصال Permanent Connexion ووجود متابعة مكتبية من أجل تبسيط نظام التحاور وزيادة فرص التجوّل الإلكتروني في قاعدة البيانات المتاحة، إضافةً إلى الاستفادة من الخدمات الإلكترونية الأخرى (شحن المعلومات والبريد الإلكتروني وتفريغهما...).
- إيجاد سبل لربط المستفيدين بعدة نقاطٍ في وقتٍ واحد؛ لتلبية احتياجاتهم من أنواع المعلومات المختلفة والمطلوبة.
- إتاحة الفرصة للمستفيدين من استغلال جميع أرصدة المعلومات في شكل الوسائط المتعددة Multi Media Data Banks.

لا تهتم هذه بجرد جميع الأسباب التي حفزت المؤسسات العلمية والهيئات المتخصصة على تطوير أنظمة معلوماتية مركّزة، بقدر ما تركّز على الانعكاسات العميقة على المحيط التوثيقي والخدمات المكتبية التي أصبحت تتميّز بتعدّد التشغيل (Inter-operable System) لتوزيع واسع لأنماط المعلومات دون الحاجة إلى إعادة تعليب وسيلة البثّ، التي تسمح للفئات المستفيدة الاتصال أيضًا فيما بينهم بوساطة المقاييس المشتركة.

وبسبب التحوّلات التكنولوجية سيكون بإمكان المكتبات ومراكز المعلومات استخدام أدوات من شأنها أن تستوعب جميع الأرصدة الفكرية والمعرفية وإعارتها إلى عددٍ كبير من المستفيدين حسب ما تسمح به مفاتيح استنطاق نظام المعلومات. وإذا كانت التكنولوجيا الحالية قد سمحت للمكتبات بتخزين كتابٍ واحد بحجم ٣٠ ميغابايت، فإن القرص المتاح في الأسواق بسعة ٢ جيغابايت يسع ما يعادل ٦٦ كتابًا في شكل خام، وسوف تتمكّن هذه التكنولوجيا من احتواء ٣٣٠٠ كتاب في مساحة لا تتعدّى ١٪ من المساحة المطلوبة حاليًّا في الأدوات المستخدمة في الوقت الحالي[١٢].

ويشير سالتزر Saltzer إلى قدرة التكنولوجيا المستقبلية في معالجة المعلومات وتخزينها واسترجاعها في جدول يوضّح فيه الإمكانات التي ستوفرها الأقراص الحديثة.

شكل رقم ١ : واقع سعة الأقراص لتخزين المعلومات[١٣]



ويمكن القول إنّ المادة المعلوماتية قد تحوّلت إلى قطاع صناعيّ مستقل، يتم التحكم فيه حسب المبادىء التسويقية الحديثة؛ لتشكّل في آخر المطاف ميدانًا متكاملاً للاقتصاديات الحديثة بالنسبة للبلدان السائرة في طريق النموّ الإلكتروني خاصّة. ومن المتوقّع أن يصل حجم رقم أعمال هذا الميدان إلى ألف مليار دولار بحلول الألفية الثالثة؛ ليكون أول قطاع يحقّق هذه الأرقام.

٢ - السياسات المكتبية :

لقد تمكّنت المكتبات والهيئات التوثيقية ومراكز البحوث من التجاوب مع السرعة التي فرضتها هذه التكنولوجيات، وذلك عن طريق إعادة الهيكلة الوظيفية لسلسلة العمل وتأهيل العاملين في هذا القطاع، إضافةً إلى توطين الأدوات الحديثة في المحيط العلمي والثقافي.

فإذا كانت الوظيفة التقليدية للمكتبات هي إرشاد روّادها إلى أماكن وجود الوثائق المتاحة في مخازنها في شكلها المطبوع، فإنّ الخدمات التي يجب توافرها في العصر الحالي ترتكز أساسًا على سحب الأرصدة إلى الطرف المستفيد وتوجيهه إلكترونيًّا إلى المكتبات ومراكز المعلومات المحلية والإقليمية والعالمية في ظلّ التطورات الحثيثة للشبكات والمكتبات الإلكترونية الرقمية.

وتعدّ البيئة التكنولوجية الجديدة تحدّيًا للوظائف المكتبية والتوثيقية من حيث إدارة الأرصدة المتوافرة لديها خاصّة. ويطرح بوشمان Bushman هذه التحديات في ثلاث نقاطٍ رئيسة:

أ - «صيانة المجموعات: إذا كانت المكتبات - في مفهومها التقليدي - تقوم بجمع الوثائق المطبوعة ومعالجتها، فإن الوثائق الإلكترونية بسبب انتشارها تستوجب توّجها شاملاً نحو الصيانة والإطلاع والأمن.

ب - التحدي الاقتصادي: إنّ إتاحة المعلومات الإلكترونية في الساحة الفكرية لدى النظام المكتبي الحديث يجعل النتائج غير عادلة في التوزيع؛ لأن النظام الاقتصادي السائد يحتم فرض رسوم الاستغلال المعلوماتي، ومن ثمّ تكون النتيجة «عدم توازن» اجتماعيّ في الوصول إلى الوثائق.

ت - التحدّي المعرفي : إنّ الاختلافات بين الوثيقة المطبوعة ونظيرتها الإلكترونية تغيّر من إدراك الأفراد لمفهوم المعرفة والفكر، وبهذا من الممكن جدًّا أن تتأثّر طريقة تقديم المعلومات والترويج لها لإيصالها إلى جميع الفئات»(١٤).

ويشير أكرمان وفيلدينغ Akerman & Fielding إلى أنّ «المكتبات تقوم بإدارة مجموعاتها واختيارها وتغيير مواضعها على الرفوف، وهذه هي الوظيفة الحيوية التي وجدت من أجلها، وأنّ أساليب الإدارة المكتبية ترتبط بنوعية المجموعات وطبيعتها (...) ويجب تأكيدُ أنّ نماذج المجموعات الجديدة في المكتبة الرقمية تعير نفسها، وتدار حسب أنواع الصيانة المسطّرة في النظام»(١٥).

وبناءً على هذه الفوارق الموجودة بين المكتبة التقليدية والنموذج الرقمي الحديث يقيم الباحثان الفوارق الموجودة في تركيبة كل نوعٍ من أنواع المكتبات.

البيـــان	المكتبة التقليدية	المكتبة الرقمية
نوع المطبوعات	كتب ومطبوعات دورية ومجموعات خاصة.	ملفات ووثائق.
مصادر التوزيع	المؤلف والناشر.	أعضاء الهيئة وأفراد معتمدون يتطلب تعيينهم موافقة رسمية
مراقبة المجموعات	يتم الانتقاء من طرف أعضاء الهيئة (مثل مراقب بيبليوغرافيا..).	أعضاء الهيئة وأفراد معتمدون يتطلب تعيينهم موافقة رسمية.

جدول ١ : جدول مقارن للنشاط المكتبي التقليدي والرقمي(١٦)

إن القصد من طرح قضية السياسات المكتبية الإحاطة الشاملة بالمحيط الجديد، الذي يتم التعامل فيه مع أوعية المعلومات. وتشير الدراسات المتخصصة إلى النشاط المميّز للمكتبات ومراكز المعلومات بما في ذلك فعاليّة الاتصال بين المستفيد وهيئته المكتبية ومنهجية تلبية احتياجاته المتنوعة من المعلومات بما في ذلك فعاليّة الاتصال بين المستفيد وهيئته المكتبية، ومنهجية تلبية احتياجاته المتنوعة من المعلومات. كما تشير البحوث إلى التدريب بصفته عنصرًا حيويًّا يعمل على توافق الخبرات مع البيئة الحاسوبية التي أنشأتها التكنولوجيات الحديثة للمعلومات وأدوات الاتصال، ويعمل على إزالة العوائق النفسية أيضًا، التي كان يعاني منها أمناء المكتبات ومختصّو المعلومات(١٧).

ومن هذا المنطلق الجديد للأدوار الوظيفية للمكتبة الرقمية ينصبُّ الاهتمام على إدراك طريقة الأداء التي تنفذ بها الأنشطة التوثيقية باستخدام الأدوات الحديثة؛ لأن الحاجة إلى المعلومات لم تتغير، وأنّ الشيء الذي تأثر هو كيفيّة تزويد المستفيد بها للوصول إلى أحسن الأشكال التي تلبي احتياجات هذا الأخير. وعلى حدّ تعبير ساراسيفش «المعلومات جزء عضويّ من عملية التطوّر، على غرار العوامل الإنسانية والماديّة والماليّة، ومن الممكن أن تتغير الأدوات، ولكن المعلومات والمستفيد باقيان»(١٨).

إن الشيء المؤكد بروز تحدّيات تكنولوجية جديدة تواجهها المكتبات وهيئات المعلومات، ما لم تؤخذ جميع المبادرات للحيلولة دون تقادم الوظائف المكتبية على ضوء سرعة التحولات، التي يمكن أن تجعل من المكتبات هياكل محضة تقوم بامتصاص العمالة الفائضة عن القطاعات الاقتصادية الأخرى.

وتجرّنا تفاصيل السياسات المكتبية إلى المحور الثالث المؤثر في الخدمات المكتبية الذي يرتبط بالعنصر البشري العامل بها. وبعباراتٍ أخرى تستلزم الحتمية التكنولوجية للتقانة الرقمية في أنشطة المكتبات ومراكز المعلومات الاعتناء بتأهيل العاملين في هذا القطاع وتدريبهم؛ لمواكبة مفهوم الشموليّة والعالميّة لتحصيل مكان في الجغرافية الدولية المعلوماتيّة.

٣ - **سرعة التحوّلات والتدريب الوظيفي**: يعدّ قطاع المعلومات من القطاعات التي تشهد تقادم المهارات الوظيفية بسرعةٍ مذهلة، مما يستوجب اعتمادًا مستمرًّا لسياسات تأهيلية و[تدريبات] متواصلة للخبرات والمهارات؛ ذلك أن هذه البدائل بمنزلة نقطة التقاء بين التطوّر التكنولوجي ومحيط العاملين بها والخدمات التي يمكن أن تتطلبها الأجواء التوثيقية الحديثة. وتشمل قائمة الأوليّات الخاصّة بالسياسة المكتبية عدّة بنود تركّز على ما يأتي:

- إعادة هيكلة تنظيميّة للمؤسسات المكتبية ومراكز المعلومات.
- تجنّب المفارقات التكنولوجية بين المستوى المهني للعاملين ومستوى التطورات والتغييرات الحاصلة على أدوات العمل التوثيقية والمكتبية.
- إيجاد توازن حقيقي وفعّال بين تطلّعات المستفيدين والأنشطة الحديثة للمكتبات عن طريق تطوير المهارات للفرق العاملة بها.
- تطوير الأجواء الملائمة وبخاصّة الأبعاد النفسيّة لفئة الموظفين؛ لتقبّل التطورات الجارية والمستقبليّة للبيئة التكنولوجيّة الجديدة بهدف التحكّم التامّ في محيط العمل وفق المقاييس الدوليّة المستحدثة.

وقد قامت الفيدرالية العالمية للتوثيق والمعلومات Federation for Information & Documentation بمناسبة الذكرى المئوية لنشأتها بتبنّي «قرار طوكيو» Tokyo Resolution الذي انضمت إليه ٥٠ دولة بهدف إيجاد سبل تبادل الخبرات المهنيّة وخلق تحالف استراتيجي بين المؤسسات النشيطة في هذا القطاع. إن الهدف الأساسي لقرار طوكيو هو البحث عن «الاتجاه السليم في اتخاذ القرارات على جميع مستويات المجتمع؛ لحلّ مشكلات الإنسانية في عصرٍ يتميّز بالوعي المتزايد لدور المعلومات (...). كما أنّ قرار طوكيو خطوة أولى موجهة إلى تقوية أواصر التعاون في ميدان المعلومات على المستويين الوطني والدولي، وخلق جوّ ملائم لمناقشة القضايا التي ترتبط بقطاعي المعلومات والمعرفة»(١٩).

ويقترح أحد الخبراء أن يكون التدريب المستهدف برنامجًا «متعدّد الوظائف» Multifunctional ؛ لأنّ البرامج التعليمية والدورات التدريبية التي يعمل بموجبها أمناء المكتبات ومتخصّصو المعلومات أصبحت ضيّقة» ومتقادمة لا تحتمل مواكبة التطور التكنولوجي والازدهار التقني، ولا تسمح «بمواجهة التحديات الجديدة للوظيفة، ومن ثمّ لا يكون بوسعها تزويد المجتمع بخريجين جيّدين بوسعهم إدارة المعلومات وتصميم نظم معلومات وخدمات ومنتجات وتحليل احتياجات المعلوماتية من هذه المادة في محيطهم المباشر. لذلك الحاجة ماسّة إلى توسيع التدريب وإعادة التعليم والتعلّم المتواصل من منطق التفاعل المتعدّد التخصّصات»(٢٠).

ويشترك ليندكويست في هذا الرأي مؤكدًا ضرورة تزويد أمناء المكتبات ومتخصصي المعلومات بالمهارات الجديدة التي تفرضها التكنولوجية المتنامية، مشيرًا إلى «أنّ المكتبة الحديثة ستتحوّل إلى منظمة تعليمية تلقّن المستفيد طرق النظام الرقمي للتعامل مع أوعية المعلومات، وأنّ هذا سيتم في أسرع وقت؛ لأنّ الضغط التكنولوجي يتضاعف باستمرار في المحيط المكتبي»(٢١).

إنّ المضاعفات التي تفرضها - وبقوة - تكنولوجية مكتبة المستقبل الرقمية على برامج التكوين والتدريب متنوعة وعميقة في الوقت نفسه إلى درجة أنّ محتويات التدريب تكون مرتبة حسب أوليّات النشاط. وإذا كانت هذه التأثيرات تشمل جميع مكوّنات المكتبة بما فيها البند المتعلّق بالتنظيم والإدارة، فإن عمق هذه المضاعفات قد بلغ درجة من الحدّة التي تُملي على الهيئات المكتبية «توفير مهارات التحكّم في تكنولوجيات الاتصال اللا سلكي، والإحاطة بمفهوم الاتصال الاجتماعي والجماهيري والتسويق والصحافة»(٢٢).

ونستعين بإحدى فقرات دراسة ورمال Wormell التي تركّز على حتمية الاهتمام برأس المال البشري؛ لما يقوم به من أدوار حيوية في المحيط المكتبي المعاصر حيث كتبت تقول: «إنّ التحرّك الشمولي والإدارة الجيّدة [للمكتبة]، بهدف توفير معلومات تستخدم بسرعة، ومساعدة المستفيد في اتخاذ

مقالات

القرار، يتطلب مهاراتٍ جيّدة في الاتصال، وقدراتٍ عالية في معالجة أوعية المعلومات واسترجاعها وتحليلها وتعليبها وتوزيعها بطريقةٍ فعّالة ومجدية وهادفة». وتحصر الباحثة مناطق حيوية أيضًا من أجل وضع تصورات البرامج التدريبية ذات الأوليّة وبخاصّة تلك المرتبطة بطريقة مباشرة بإنماء درجة الوعي لدى أفراد المجتمع بأهمية المعلومات. وتشمل هذه الأوليّات حسب الدراسة «القدرة على تحديد الحاجة الفعلية إلى المعلومات والبحث عنها وإيجادها، وتقييم المعلومات التي يحتاج إليها المستفيد، واستخدامها وإعادة تنظيمها، وتحويلها إلى معرفة في العملية التعليمية البعيدة الأمد»[٢٣].

إنّ مراجعة أنماط العمل المكتبيّ في عصر ترقيم المعلومات لا تعني إلغاء الدور الذي يقوم به الإنسان في هذه الأجواء البيئية الحديثة، بقدر ما يفيد على ضرورة مراجعة أنماط الاتصال المستخدمة في هيئات المعلومات ومراكزها لتأصيل سبل تنظيم الفكر والمعرفة، وسبل توزيع أوعيتها، حسب ما تفرضه الظروف التقنية المتجدّدة. وتهدف عملية إعادة التنظيم الداخليّ لمراكز المعلومات، وعملية صياغة الأدوار الوظيفية المكتبية، وتصميم برامج تدريبية إلى تحقيق عدّة أهداف ندرج بعضًا منها فيما يأتي:

- تطوير الأداء الوظيفي - الاقتصادي وتفعيل الأدوار العلمية والتكنولوجية للمعلومات في المنظومة التربويّة والتعليميّة وذلك لكلّ المستويات.
- زيادة الوعي الجماعي بحتمية الاستفادة من المعلومات كمصدر وقوة ووسيلة عمل في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.
- الاستفادة من التجارب العلمية العالمية في جميع ميادين المعرفة الإنسانية، وتجنّب ازدواجية البحوث العلميّة والتكنولوجية.
- إعادة تنظيم العمل وأدواته بهدف تهيئة الأجواء المناسبة لأمين المكتبة والمستفيد في الوقت نفسه.
- إيجاد بنية معلوماتية تحتية متطورة لتعميم الاستفادة على جميع الشرائح الاجتماعية، وتحقيق مبدأ المساواة؛ للوصول إلى مصادر الفكر والمعرفة.

البيئة المكتبية الحديثة

لم يقتصر المفهوم الجديد للبيئة التكنولوجية الحديثة على التغيّرات التي طرأت على آلات العمل ومعدّاته، بل بلغت إلى حدّ التأثير في نوعيّة الخدمات التي تقوم بها أو تتطلّع إلى القيام بها بسبب التحوّل الجذري في المحيط العام للمكتبة، حيث أصبح الحاسب الآلي والقمر الصناعي والشبكة أهمّ مميّزات الحداثة المكتبية. وبهذا تغيّرت مواقف المستفيدين من أنشطة المكتبة، ولم تعد مخزنًا لحفظ الوثائق والمطبوعات بأشكالها المختلفة؛ لتصبح أداة فعّالة في توصيل الفكر والمعرفة. وبذلك أصبح من الممكن القول إنّ التغيير في المفهوم الهيكلي والمؤسّسي Institutional Notion of Information للمعلومات قد أصبح ساري المفعول وتمكّنت المكتبة بالتوازي مع التأقلم الجديد الحفاظ على الوظائف التقليدية، التي أنشئت من أجلها. فدخول المكتبة إلى العهد الإلكتروني يتطلب منها التحكّم في تقنيّات تعبيد الطرقات السريعة المؤدية إلى الأوعية الفكرية، الشبكات وقواعد المعلومات خاصّة، بعد أن كان الإنجاز الرئيس لها تعليب الوثائق المطبوعة، وإمداد روّادها بما يحتاجون إليه.

كما أنّ التأثيرات التكنولوجية لم تقتصر على الهيئة المكتبية فقط، بل شملت سلوك المستفيدين من الخدمات الحديثة أيضًا التي أتاحتها الأدوات التكنولوجية. ونخصّ بالذكر الجانب السلوكي وإدراك نوعيّة الوظائف التي يجب أن تقوم بها المكتبة. واتسع صدى التأثيرات التكنولوجية إلى سلوك أمناء

المكتبات الذين تأقلموا بسرعة فائقة حسب ما ورد في نتائج إحدى الدراسات. ففي ما يتعلّق بأثر التكنولوجية في المفهوم السائد في أوساط المستفيدين يمكن الإشارة إلى استقصاء قلوب Gallup Survey، الذي أجري على عيّنةٍ في الولايات الأمريكية، والذي توصّل إلى أنّ آراء الجمهور حول المكتبة قد تحوّل بصفةٍ جذرية حيث إنّ نظرته ركّزت على الزوايا الوظيفية الاستراتيجية الآتية:

مركز لتدعيم التربية والتعليم	(٩٠٪)
مركز تعليمي وتربوي مستقل	(٨٣٪)
مركز مرحلة للتعلّم	(٨٢٪)
مركز بحث	(٦٧٪)
مركز معلومات جماهيري	(٦٣٪)
مرجع معلوماتي للأنشطة المتعددة	(٥٤٪)
مركز للأدوات المكتبية الشعبية	(٥٠٪)
مكان هادىء للاطلاع والقراءة	(٤٩٪)

جدول ٢: نتائج دراسة حول خدمات المكتبات الحديثة(٢٤).

توضح نتائج الاستقصاء أنّ المنظور التقليدي لمفهوم المكتبة قد ولّى لدى الفئات المستفيدة من الخدمات المكتبية، وأنّ الأنشطة التقليدية للمكتبة ستصبح روتينًا داخليًّا محضًا يقام به، وأنّ أروقتها الإلكترونية ستبقى رهن الإشارة التي يرمز إليها المستفيد. ويعلّل أحد التقارير الصادرة عن اللجنة الأمريكية للمكتبات وعلوم المعلومات هذه الأدوار الحديثة بقوله: «إنّ وجود المكتبة في الوسط الجماهيري من الأمور المهمة بهدف توفير خدمات المعلومات للمستفيدين، الذين لا يمكنهم اقتناء أدوات اتصال خاصّة، أو لا يستطيعون الاتصال بالشبكة. ويتيح المحيط المعلوماتي للمكتبة فرصة جيّدة لهؤلاء لتحقيق مآربهم بصفة تحوّل المكتبة إلى وسيط معلومات بالدرجة الأولى، أو بتوفيرها لهم خبيرَ معلومات لترجمة الأرصدة المتاحة والمتوافرة عبر الشبكة»(٢٥).

ويشير باحثٌ آخر إلى نقطةٍ مفادها أن مساهمة المكتبة الحديثة في بناء أسس الشبكات وبخاصّة الشبكة العنكبوتية العالمية يؤكد الدور التكنولوجي لهذه الهيئة العلميّة في إثبات المحيط الشبكي، وهو «ضمان لوصول جميع الفئات إلى شبكة الانترنت واتّساع دور المكتبة إلى المبحر الإلكتروني، والوسيط المعلوماتي، ومنسّق التوزيع الإلكتروني للمعلومات، وأرصدة الفكر والمعرفة، ومحطة متعدّدة الخدمات الإلكترونية»(٢٦).

وتتفق هذه الدراسة مع الأطروحات التي تؤكد أنّ المكتبة الحديثة تساهم بقسطٍ كبير في بناء أسس المجتمع المعلوماتي والإلكتروني ومعالمه، الذي يتجه نحو الشكل النهائي بحلول الألفية الثالثة، والذي يمكن أن يكون غير ورقيّ Paperless.

أما بخصوص النقطة الثانية التي طرحت سابقًا، والمتعلقة بتأثير التكنولوجيا المعلوماتية في مهمة أمناء المكتبات، واستعدادهم لاستقبال هذه المرحلة الجديدة، فإنّ السبب الرئيس يعود إلى الضغط المتواصل على هؤلاء للتعامل مع أحدث الوسائل التي تتيحها تكنولوجيا الاتصالات الحديثة أولاً، ثمّ استقبال احتياجات الفئات المستفيدة من المعلومات وتلبيتها وتقديم الخدمات المرغوب فيها. وقد توصلّت إحدى الدراسات الميدانية إلى نتائج تشير إلى أن تأقلم أمناء المكتبات كان سريعًا مع التأثيرات التكنولوجية المركبة والعميقة إلى درجة أنهم تحوّلوا من وسطاء معلومات إلى موظفين مكتبيين متعدّدي التخصّصات؛ للاقتراب أكثر من الفئات العلمية والتكنولوجية، التي تبحث عن أرصدة معلومات تخدم تخصّصهم. وساهمت عملية إعادة هيكلة الوظائف المكتبية المدعومة ببرامج تدريبية لائقة بقسطٍ كبير في

مساعدة أمناء المكتبات على تقبّل التغييرات ورسم نموذج العمل المكتبي حسب المواصفات التي فرضتها الأدوات الحديثة للاتصال ومعالجة المعلومات.

وقد عبّر دراي Drye عن هذا بقوله: «إنّ دخول التكنولوجيا إلى البيئة المكتبية يحمل في طيّاته التغيير والردود الإيجابيّة والسلبيّة، ولكنها ستنعكس سلبًا على التطبيقات، ما لم تؤخذ الحيطة والحذر من البداية. ونعبّر عن الحيطة بضرورة إعادة صياغة الوظائف وتصميمها على أن تكون في مرحلة مبكرة من الشروع في التنفيذ مع تجنّب الضغط على منفّذي المشروع(٢٧).

وتمكّنت فئة المكتبيين ومتخصّصي المعلومات من المساهمة في تسريع استيعاب التكنولوجيا الحديثة في المكتبات لأسباب متعدّدة، نختصر بعضًا منها في النقاط الآتية:

- إعادة النظر في البرامج التعليمية وترتيبها بما يتوافق مع العهد الإلكتروني لتكوين مهاراتٍ وخبراتٍ جيّدة.
- إدراج تخصّصات جديدة، وتكوين فئات وظيفية، تمزج بين التخصّص التوثيقيّ والمكتبي وتخصّصات أخرى، منها الإعلام الآليّ والاتصال والتسويق وغيرها.
- التدرّج التطبيقي في الاستخدامات التكنولوجية الجديدة لتطويع المعلومات.
- إدراك أهمية المقاييس في إنجاز أنشطة المكتبات ومهام التوثيق.
- الانعكاس الإيجابي لدور المكتبات ومراكز المعلومات في المحيط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ومكانتها.

لقد سبق أن أشرنا إلى أن التأثير التكنولوجي لم يتوقف على الهياكل التوثيقية، بل بلغ فئة العاملين بها، وأنهم تمكّنوا من التعامل معها بطريقةٍ إيجابيّة، كما تدل على ذلك نتائج إحدى الدراسات، التي نوردها في الجدول الآتي:

الاستخدام	النسبة*
أعمال اتصالات وبريد إلكتروني	٩٣٪
مؤتمرات إلكترونية وقوائم موزعين آليين (Servers)	٦١٪
البحث الآلي عن قواعد معلومات (Telnet)	٣٩٪
تحويل ملفات (.F.T.P) وتبادل المعلومات	٣٧٪
البحث والنشر	٢٢٪
اتصالات شخصية وترفيهية	١١٪

جدول ٣: نتائج دراسة حول خدمات المكتبات الحديثة(٢٨).

(* الإجابة اختيارية)

تبيّن نتائج الاستقصاء أنّ أمناء المكتبات تعاملوا مع البريد الإلكتروني والأعمال المرتبطة بالاتصالات Work Related Communication بنسبةٍ كبيرة، وأن العوائق النفسية التي كانت تهيمن على أنشطتهم بدأت تتلاشى بسبب الاستعدادات التدريبية التي اعتمدت من قبل الهيئات المتخصصة. ويؤكد الاستقصاء أنّ استخدام الشبكات يساعد المكتبيين على تخطّي حواجز الحدود الجغرافية وتحقيق احتياجات الفئات المستفيدة في أوقاتٍ قياسية، وبخاصّة ما يتعلّق بحقوق النشر، وإرسال طلبات الملفات، والحصول على مراجع إلكترونية من مكتباتٍ أخرى، وتحصيل أعداد مجلات كاملة، وتسهيل أنشطة الجمعيات المهنية للمكتبيين. وبلغت النسبة الإجمالية من المكتبيين الذين نفذوا هذه الخدمات لروّاد مكتباتهم ٩٣٪ من إجماليّ العيّنة(٢٩).

وتقترن الحكمة المعلوماتية في هذا العصر بقضية إتاحة جميع السبل للوصول إلى أوعية المعلومات ومصادرها Access Issue، وتبسيط ظروف التجوّل الإلكتروني في الأروقة الإلكترونية للمكتبة الرقمية التي تتحوّل تدريجيًّا إلى بنكٍ مصرفيّ للمعلومات، والفكر والمعرفة لإدارة حسابات عملائها وروّادها باختلاف تخصصاتهم العلمية.

خاتمة

إنّ الحتميّة المعلوماتية المفروضة على الهياكل المكتبية، ومراكز المعلومات تجعل من إدارة الفكر والمعرفة السبيل الوحيد لتحقيق أوليّات النشاط التوثيقي الحديث؛ لأن التأثير التكنولوجي لم يقتصر على نماذج تنظيم هذه الهياكل، بل وصل إلى حدّ تغيير وسائل النشر الفكريّ والمعرفيّ.

وتقتضي عملية التحوّل من الشكل التقليديّ لإدارة الهيئات المكتبية التحكّم في تصميم أدوات العمل وإعادة ترتيب البرامج التدريبية، بما يخدم مهمة تطويع الفيض الكبير من التأليف والنشر، والاستجابة السريعة لمتطلبات الفئات المستفيدة.

ويبقى التركيز العالمي منصب في اتجاه تأسيس المكتبة المستقبلية في شكلٍ إلكتروني(٣٠)، مما يدعم الدور الرياديّ الذي تقوم به في التطوّر العلمي والتكنولوجي، وسوف تبلغ درجة المؤسسة التربوية والتعليمية التي تخزن جميع أشكال الفكر الإنساني.

وعلى ضوء كل ما سبق من تطوراتٍ في النظام المكتبي تحت وطأة التأثيرات التكنولوجية، يمكن القول إنّ المكتبة المعاصرة ستتحوّل إلى مصرف معلومات تكون أولياتها إدارة حسابات المستفيدين وتزويدهم بالمعلومات المتخصّصة، التي يحتاجون إليها، دون أن تستأذنهم للقيام بذلك، على غرار ما كان يحدث في مهمة البثّ الانتقائي للمعلومات. وسوف تكون هذه المهمة عبارة عن أحدث الأنشطة التي يمكن أن تقوم بها المكتبة بصفةٍ دوريّة وفرديّة لكل مستفيد.

إنّ التحولات الوظيفية التي تعيشها المكتبة المعاصرة لا تعني إطلاقًا انقضاء العمل التوثيقي التقليدي بقدر ما هو القاعدة الأولية لقيام المكتبة الحديثة الرقمية؛ لأن تحليل المحتويات والاستخلاص والتصنيف من الأنشطة المبدئية للعمل التوثيقي مهما بلغت درجة التطور التكنولوجي لمعالجة المعلومات. ●



الحواشي

١ – Public libraries and national electronic networks: The to act is now": 2 - 5.
Into the future: The foundation of library and information services in the post industrial era.

٢ – Electronic publishing and the future of the book.

٣ – The unpredictable certainty, Information infrastructure through 2000.

٤ – توضيحًا لأهمية المعلومات في تخطيط مستقبل المجتمع المعاصر يمكن الرجوع إلى بعض الخطب والمواثيق الرسمية التي اعتمدتها بعض الدول الخاصة:

Clinton (Bill), Al Gore (Jr. Albert): Background Framework, Http://ww.Whitehouse.gov/wh/new/commerce/read.html.

وهي الوثيقة الرسمية التي اعتمدتها الإدارة الأمريكية لتطوير السبل السريعة للمعلومات، والتي تشمل المحاور العريضة لما بعد المجتمع المعلوماتي والمضاعفات الاستراتيجية للتطور في مختلف الأنشطة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المختلفة.

Preparer l'entrée de la France dans la societé d'information, Liberation 25 St. August, 1997

وهو خطاب رسمي ألقي أمام طلبة معهد المعلومات بإحدى الجامعات الفرنسية، ويشمل التحديات التي تواجهها فرنسا للدخول في المجتمع المعلوماتي في القرن المقبل. وقد حدّد رئيس وزراء فرنسا المحاور التي تستوجب العناية المركّزة والتي تتطلّب تدخّلاً مباشرًا من الحكومة للوصول إلى توزيع اجتماعي متوازن للفكر والمعرفة وأدوات حيازتها. أما فيما يخص التنسيق الأوربي في هذا الميدان، فيمكن الرجوع إلى:

Http./www. Capmedia.fr.com: ..La strategie Europenne pour l'information societé

وقد قامت كندا بإنشاء أمانة عامة (وزارة حكومية) للاعتناء بالقضايا المعلوماتية بخاصّة بناء السبل السريعة للمعلومات وشبكات مدرسية بعد أن قطعت أشواطًا طويلة في تقنيات

الاتصال في الجامعات ومراكز البحوث والدراسات. راجع:

Secretariat de l'autoroute de l'information: "Pour une école branche; coordination: Sai (T. Vincent): Http:// www. Sai.gouv/doc_sai/planifi.html.

٥ – Digital libraries work: Meeting User needs:1.

٦– The unpredictable: 1 - 2.

٧– Digital libraries: New initiatives with world implications.
"Technology, networks and the library of the year 2000".

٨– Information needs and new technologies.

٩– L'informatisation de la societé.
Information Retrieval as a network application: 57-72.
Libraries and the wired campus; The future role of the library in academic information handling.

١٠– Technology...: 13.

١١– L'economie de l'information dans le contexte des nouvelles technologies.

١٢– Technology...: 14.

١٣– المرجع السابق نفسه: ١٣.

١٤– Journal of Information Law and Technology: 1.

إنّ المقصود بالصيانة في دراسة أكرمان وفيلدين هو مفهوم الإدارة الإلكترونية للمجموعات المكتبية على الشبكات. كما يشمل المصطلح مفهوم البرمجيات للوصول إلى مصادر المعلومات، انظر:

Collection maintenance in digital library: 2.

١٥ – المرجع السابق نفسه: ٥.

١٦ – المرجع السابق نفسه.

١٧ – للمزيد من التفصيلات حول البيئة الحاسوبية الجديدة يمكن الرجوع إلى:
البيئة التكنولوجية للحوسبة في المكتبات ومراكز المعلومات في العراق: ٥ – ٣٣.

١٨– Perception of the needs for scientific and technical information in less developed countries: 218.

١٩– Multifunctional information work: New demands for training.

٢٠ – المرجع السابق نفسه: ٢.

٢١ – Digital...: 5.

٢٢ – Multifunctional...: 4.

٢٣ – المرجع السابق نفسه: ٢.

٢٤– The role of public libraries in porviding public access to the Intenet: 1.

٢٥– U. S. National Commission on Libraries and Information Science: Roles in the national Research and Education Network: 2.

٢٦ – Libraries and the Internet/NREN: New challenges: 78

كما يمكن مراجعة:

Public... "Community networks in Libraries: 91 - 99

٢٧ – Teaching library automation an update. Vol.17.
البيئة...: ٧.

٢٨– How special librarians really use the Internet: Summary of findings and implications for the library of the future: 4.

٢٩ – المرجع نفسه: ٤.

٣٠ – من الممكن أن نذكر بعض المشاريع الجارية في هذا الاتجاه:

Research & development in Advanced Communications Technologies in Europe.

ويهدف هذا المشروع إلى تطوير وسائط نقل المعلومات بين البلدان الأوربية، وهو مشروع مشترك للتجمّع الأوربي منذ ١٩٨٥.

– مشروع ITPOINT الذي تموله المكتبة البريطانية، الهادف إلى تزويد مجموعة من المكتبات لنقل المعلومات وتفريغها وتوصيلها بأحدث الشبكات العالمية.

– مشروع (EARL) Resources Libraries Electronic Access to تساهم فيه جميع المكتبات البريطانية: ليصبح وسيلة وطنية للوصول إلى الشبكات العالمية.

– مشروع (CLIP) Croydon Libraries Internet Project الذي يهدف إلى تعاونٍ مكتبيّ بريطاني، الهادف إلى توجيه المستفيدين للتجوّل في الشبكات العالمية، وعلى رأسها الإنترنيت بوساطة المكتبات المحلية.

ولمزيدٍ من المعلومات حول المشاريع العالمية لتأسيس المكتبة الرقمية يمكن الرجوع إلى:

Digital...: 4 - 9.

المصادر والمراجع

Akerman : S. Mark.

- Collection maintenance in digital library, digital library, 1995.

Brindley : J. Lynne.

- Libraries and the wired campus; The future role of the library in academic information handing, British library Research & development Report, No 5980, August, 1988.

Bushman : John.

- Notes on critical and skeptical overview of electronic publishing and librarianship from the United States, Journal of information Law and Technology, 1997.

Cf. Clifford : Lynch.

- Information Retrieval as a network application, Library Hi-Tech, Vol. 32, N4, 1990.

Charles : Mc Clure.

- Libraries and the Internet/NREN: New challenges, Syracuse, New-York Syracuse University, School of Information Studies, 1992.

Drye.

- Teaching library automation an update, ASLIB Information, Vol. 17, No.9, 1989.

Henderson : Carol.

- The role of public libraries in providing public access to the Intenet, Paper delivered at Public access to the Intenet, Cambridge-Massachusetts, May 1993.

J. Sharyn : Ladner.

- How special librarians really use the Internet: Summary of findings and implications for the library of the future.

Laura : J.

- Community networks in Libraries: A case study Freenet P.A.T.H., Public libraries, March-April, 1993.

Le Crosnier : Herve.

- L'economie de l'information dans le contexte des nouvelles technologies; Paper delivered in the ADBS seminar: L'information du domaine public a l'heure d'internet et du numérique, Paris, ADBS, June 1997.

Lindquist : G. Mats.

- Digital libraries work: Meeting User needs, Paper delivered at: The impact of electronic publishing on academic community, Academia, Stockholm, 16 - 20 April 1997.

Minc : Nora.

- L'informatisation de la societé, Paris, La documentation française, 1978.

Saracevic : Tefko.

- Perception of the needs for scientific and technical information in less developed countries, Journal of Documentation, Vol. 36, No.3, 1980.

Saltzer : H. Jerome.

- Technology, networks and the library of the year 2000.

Wormell : Irene.

- Multifunctional information work: New demands for training, 61 st IFLA conférence, Conférence Proceedings, August 20 - 25, 1995.



التوثيق العلمي للمسكوكات التاريخية باستخدام نظم المعلومات المحوسبة

الأستاذ/ يسري صادق جلال
المعهد الفني - المنصور
هيئة المعاهد الفنية ـ العراق

المقدمة :

تهتم دول العالم بآثارها ومتاحفها، وذلك لما تتميز به من القيمة المعنوية والمادية، حيث تدعم الحضارات السابقة المجتمعات المعاصرة. وفي عصر المعلومات وتقدّم نظم الاتصالات (SATELLITE TECHNOLOGY) صار للمتاحف العالميّة المعروفة شبكات معلومات توثّق آثارها، وتفصّل كلّ شيء عنها، حتى احتلّ بعضها مواقع معلومة على الشبكة العالميّة (THE INTERNATIONAL GATEWAY (INTER NET الانترنيت.

إن حضارة العراق تمتد إلى سبعة آلاف سنة عبر التاريخ، حيث تعاقبت على وادي الرافدين حضارات متطورة عبر الحقب، وكانت موجودات المتحف العراقي انعكاسًا إلى حضاراته الثرة.

ويملك المتحف العراقي مجموعة ضخمة من المسكوكات التاريخية، تعدّ وثائق تاريخية لا يمكن الطعن في صحتها، إضافة إلى قيمتها الفنيّة والتاريخية.

إن ضخامة المجموعة الموجودة في المتحف العراقي وأهميتها التاريخية والفنية تقتضي التفكير في المحافظة عليها، وتوثيقها توثيقًا علميًا، كجزء من نظام معلومات المتحف العراقي وموجوداته؛ لذا كان اختيارنا لهذا البحث.

حدود البحث:

تحدد البحث بمجموعة المسكوكات الموجودة في المتحف العراقي، وهي قديمة ومتنوعة، حتى نهاية العصر العباسي وسقوط دولة بني العباس، وقد اكتفيت بدراسة مسكوكات هذه المدة، بسبب تعاقب الكثير من الحكومات على العراق، ولطولها قياسًا بما سبقها بعد سقوط دولة بني العباس سنة ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م.

إن توثيق المسكوكات يحقق هدفًا علميًا، حيث يقدم المعلومات عن كل مسكوكة للباحثين والمنظمة (دائرة الآثار والتراث)، كما يحقق هدفًا تطبيقيًا للمتحف لإدارة المجموعة وما تحتاج إليه من فعاليات لإدارتها، كالتقويم، والشراء، والمضاهاة (المطابقة)، والتصوير الفوتوغرافي، و[السلايدات]، والتبادل، والتنظيم، والعروض الدوليّة الخارجيّة، وما إلى ذلك، إضافة إلى تجانسها من حيث الشكل والحجم والمادة.

وقد اخترنا المتحف العراقي في بغداد؛ لاحتوائه على أضخم مجموعة من المسكوكات في القطر، وسيكون المتحف العراقي والمتاحف الأخرى في العراق والمتاحف العربية الجهة المستفيدة من هذا

البحث، وغيرها من المتاحف التي تحتوي على المسكوكات.

فرضيات البحث:

ومن هنا لا بدّ لنا من وضع فرضيات لهذا البحث، وهذه الفرضيات يتحدد فيها ضعف نظام المعلومات اليدوي المستعمل حاليًّا في توثيق المسكوكات التاريخية، وعدم استجابته لمتطلبات العمل والبحث العلمي، بسبب ضخامة المجموعة وتنوعها .

أهداف البحث:

وقد وضعنا نصب أعيننا أهدافًا، نريد أن نحققها، وتركزت فيما يأتي:

١ – تقويم نظام المعلومات للمسكوكات التاريخية في المتحف العراقي التي يتعامل بها المركز حاليًا.

٢ – تصميم قاعدة بيانات آليّة، توثق المسكوكات بصفته نظام معلومات متفرع من نظام المعلومات الفني والإداريّ المتكامل للمتحف العراقي.

منهج البحث:

وقد اتبعنا في بحثنا هذا النهج الوصفي من خلال دراسة الحالة CASE STUDY وهو المتحف العراقي، وقد استعمل المقابلات INTERVIEWS والملاحظات OBSERVATIONS بصفتهما أداتين لجمع المعلومات والتحقق منها.

واستفدنا من أدبيّات المسكوكات لدراستها، ومن مفاهيم نظم المعلومات وأدبيّاتها، ومن قواعد البيانات في تصميم القاعدة.

التعريفات الإجرائية:

نظام المعلومات:

يعني «العلم الحديث الذي يبحث شكل المعلومات العلميّة وخصائصها بما في ذلك المعلومات الإدارية، كما يهدف إلى تهيئة وجمع ومعالجة وترتيب تخزين واسترجاع وتوثيق المعلومات»(١).

النظم الفرعية SUBSYSTEM:

تعني أن النظام الواحد يقسم إلى عناصر مختلفة، تعامل هذه العناصر كنظم فرعية، ثم نقسم هذه النظم إلى نظم فرعية، ثم النظم إلى نظم فرعية أصغر.. وهكذا كل عنصر من عناصر أي نظام كيانٌ قائم بذاته، إنه يمثل نظامًا بحد ذاته، له عناصره المرتبطة ومداخلاته، وبارتباطه بنظام أشمل يصبح نظامًا فرعيًّا، ويكون النظام الأشمل بمنزلة البيئة للنظم الفرعية(٢).

قواعد البيانات:

"مجموعة كبيرة من البيانات DATA موضوعة بطريقة منظمة، حيث يمكن الوصول إليها بسهولة وإجراء العمليات المختلفة عليها"(٣). أو "إنها مجموعة متنوعة وواسعة من البيانات، تعالجها الحاسبة الإلكترونية، مرتبة ومهيكلة بطريقة علائقية ومنطقية، الغرض منها الخزن، وسرعة ودقة استرجاعها"(٤).

شكبات الحاسوب المحليّة LOCAL AREA NETWORKS (LANS):

إنها مجموعة حواسيب على شبكة تستفيد من قاعدة بيانات ضخمة على مخزن الملفات، وكذلك ملحقات غالية الثمن، أدّت الحاجة للاتصال ومشاركة البيانات وزيادة الإمكانات إلى نشوء LANS (٥).

الإطار النظري:

تمتد حضارات وادي الرافدين إلى سبعة آلاف سنة في عمق التاريخ، وكانت موجودات المتحف العراقي انعكاسًا لهذه الحضارات، ويملك المتحف العراقي مجموعة متنوعة وضخمة من المسكوكات التاريخية(٦).

وتأتي كلمة المسكوكات من السَّك، وهي عبارة عن صنج حديدي، تنقش عليه الصور والكلمات مقلوبة، يضربون عليها بمطرقة ثقيلة على الدنانير والدراهم، فتخرج رسوم تلك النقوش ظاهرة عليها مستقيمة،

مقالات

وكلمة السكة كانت اسمًا للمطابع الحديدية المتخذة لذلك، ثم نقلت إلى الفعاليات الأخرى المتعلقة بها كضبط الوزن والمعدن وتمييز الخالص منها من المغشوش[٧]، ولها دار ضرب خاصة بها. ويسمى حديثًا بعلم النميّات NUMISMATICS.

وللسكة وزن محدد بالمثقال[٨]، تحوي المعلومات الآتية:

اسم الخليفة، الأمير، أو الوالي على سكة الإقليم، تاريخ الضرب ومكانه، عبارات دينية وسياسية تعبر عن المذهب الديني أو السياسي للحاكم. أما أجزاؤها فهي: وجه المركز، والطوق، والنطاق، وأضيف إليها الحلق.

عرف سكان العراق القديم النقود وتعاملوا بها[٩]، وكان اليونانيون أول من أحدث السكة قبل أكثر من ستمائة وألفي سنة، وكانوا قبل ذلك يتبادلون الأموال بالسبائك المصنوعة من الذهب والفضة، وكانت مسكوكاتهم تنقش برسم الآلهة والأبنية والقلاع، وبيوت الأنعام، والجبال، والنبات، والشجر، وصور حكامهم، واسم بلدة الضرب[١٠]. كذلك فعل الروم والفرس الساسانيون، وأضافوا صورة النار على الوجه الثاني.

وقد استعمل العرب في الجاهلية الدنانير الهرقليّة أو الروميّة، وكانت من الذهب، ضربوا بها المثل في جمالها وزهوها وحسن صنعها، واستعملوا الدراهم الفضيّة الكسرويّة، وتسمى الدراهم البغلية، وهناك الدانق، وهي عملة نحاسية صغيرة أصغر من الدرهم، ويبدو أن الروم قد اختصوا بسك الدنانير الذهبية لتوافر هذا المعدن في بلادهم، وفي مصر التي كانت خاضعة لهم، بينما تفتقر فارس للذهب، والفضة متوافرة عندها؛ فاختصت بالدراهم الفضية[١١]، وقد اتفقت الدولتان العظميان آنذاك على أن تسك الإمبراطورية الرومانية دنانير الذهب، وأن تسك إمبراطورية الأكاسرة دراهم الفضة[١٢].

وقد استُعملت هاتان العملتان في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي عصر صدر الإسلام، في المعاملات الاقتصادية، كالزكاة والخراج والجزية وما إليها[١٣].

وكذلك فعل الخلفاء الراشدون. ذكر المقريزي أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب على دراهم نقش الكسروية عبارة: "**الحمد لله**"، "**لا إله إلا الله**" سنة ١٨ هـ، وكذلك فعل عثمان رضي الله عنه نقش عليها: "**الله أكبر**". وقد وجدت قطعة ضربها خالد بن الوليد سنة ١٥هـ، دنانير رومية نقش عليها «**خالد**» بالأحرف اليونانية، وكنيته «**أبو سليمان**»[١٤].

وقد ذكر البيهقي أن أول من أمر بضرب السكة الإسلامية على الفضة هو الخليفة علي رضي الله عنه بالبصرة سنة ٤٠هـ؛ أي سنة ٦٦٠م، ثم أكمل الأمر عبدالملك بن مروان ٧٦هـ؛ أي سنة ٦٩٧م، وقد كتب على دائرة السكة: "**ولي الله**"[١٥].

وقد ذكر المقريزي أن الخليفة الأموي معاوية (٤١ – ٦٠هـ) أول من ضرب تمثاله "**صورته**" على الدنانير، متقلّدًا سيفه، كما ضرب على الدراهم الساسانية نصوصًا فارسية: "**معاوية أمير أورشنكان**"؛ أي أمير المؤمنين إعلانًا لبدء مدة حكمه[١٦]. وقد أثار جدلاً لكراهية المسلمين للصور.

إن أول من عرَّب السكة عبدالملك بن مروان سنة ٧٤هـ = ٦٩٣م[١٧]، وحصر ضربها في الخلافة، دوّن اسمه عليها، وقد كتب على صفحة الدينار: "**ق ل هو الله أحد**"، وعلى صفحته الأخرى "**لا إله إلا الله**"، وأضاف اسم مدينة الضرب والتاريخ، وكتب بدائرة صفحة الدينار: «**محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق**»[١٨]، كما نقش صورته.

وينقل البيهقي سببًا للتعريب في كتابه (المحاسن والمساوئ)، وكانت تطرز بالرومية: "**أبًا وابنًا**

وروحًا''، وقد ترجم لعبدالملك ذلك فأنكره، وكانت تحمل من مصر ثياب وقراطيس كتب عليها ذلك، فكتب إلى عامله في مصر لإبطال ذلك.

والتعريب خطوة كبيرة نحو تحرير العملة العربية من الارتباط الخارجي، مما يؤمّن لها الاستقرار الاقتصادي[19].

وينقل البيهقي أن محمد بن علي بن الحسين قد أشار عليه بأن تضرب بين يديه، وأن تنقش عليها سورة التوحيد، وذكر رسول الله ﷺ على الوجه الأول، وعلى الوجه الثاني ذكر البلد وسنة الضرب، كما أشار عليه بتحديد وزنها[20].

أعلنت الدعوة العباسيّة رسميًّا سنة ١٢٩هـ = ٧٤٧م إلا أن دعاتها قاموا بسكّ شعار دعوتهم على الدراهم عام ١٢٧هـ = ٧٤٥م، حيث أضافوا طوقًا جديدًا على الوجه، الآية الآتية: "**لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى**"، انظر الشكل رقم (١)، حيث سكت في جي بفارس، كما سكت دراهم أخرى في المدن التي سقطت تحت سيطرتهم: مرو، سابور، بلخ، همدان، الكوفة[21]. وقد أدّت هذه الدراهم دورًا إعلاميًّا للدعوة العباسية.

وعندما قامت دولة بني العباس على أنقاض الحكم الأموي أبدلت سورة التوحيد بعبارة: ''**محمد رسول الله**''[22]، حيث كانت المسكوكات وثائق مهمة، أرّخت لهذه المدة بين الهاشمية والأنبار ومدينة السلام وسامراء. والخليفة المهدي أول من نقش لقبه واسمه عليها: "**الخليفة المهدي**"، وأصبحت من مستلزمات الخلافة على الرغم من قصر مدة حكمه[23].

وكانت تضرب بعض المسكوكات في المناسبات، وتسمى دراهم "الصلة"[24]، كالتي ضربها المهدي عند إقامته في قصر السلام في الرقة سنة ١٦٩هـ، تحمل نصوصًا دعائية: ''**باليمن والسلامة والسعادة**''، وضرب أخرى سنة ١٦٨هـ: ''**لله الحمد**'' تخليدًا لنصره على الزنادقة[25].

والهادي أول من وضع اسم وزيره مع اسمه ''**إبراهيم**''[26]، كما نقش اسم ولي عهده «جعفر»؛ لإعلام الناس أنه ولي عهده. وضرب هارون الرشيد عبارة: ''**مما أمر به عبدالله هارون أمير المؤمنين**''[27]، وضع اسمه ولقبه لتأكيد السلطة الشرعية، وإعلام الناس بهذا. وقد ضرب عليه اسم ولي عهده الأمين عام ١٧٩هـ عندما كان عمر ابنه محمد تسع سنوات[28].

وعندما ضعفت الخلافة أخذ البويهيون يسكّون كل عشرة أيام نوعًا من الدراهم منذ سنة ٤٤٧هـ = ١٠٥٥م، استعرضوا قوتهم على الخلافة: ''**السلطان الأعظم شاهنشاه سيف الله وملك الإسلام معز الدين ركن الإسلام ملكشاه ملك العرب والعجم**''[29].

وقد أرّخت المسكوكات للتاريخ العباسي حتى سقوط مدينة بغداد ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م على يد المغول وضياع الحضارة. وكانت تسمى دور الضرب دور السك أو دور العيار.

وقد تناول المؤرخون العرب تاريخ سك النقود وتطوره، ولعل من أقدم الكتب التي تتناول ذلك كتاب (الخراج) لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ)، ثم توالت التآليف، فمنهم من كتب فصولاً من كتب، كقدامة بن جعفر في كتابه (الخراج)، والبلاذري في (فتوح البلدان)، والماوردي في (الأحكام السلطانية)، وابن خلدون في (المقدمة) ج١، والدميري في (حياة الحيوان) ج١، والمقريزي في (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، والقلقشندي في (صبح الأعشى) ج٣.

وهناك كتب مستقلة ككتاب (الخراج) لأبي يوسف، وكتاب (النقود العربية وعلم النميات) للبلاذري (ت

٢٧٩هـ) مستل من كتاب (فتوح البلدان)[٣٠]، وكتاب المقريزي (ت ٨٤١هـ) (شذور العقود في ذكر النقود)، وكتاب (كشف الأسرار العلميّة بدار الضرب المصرية) لمنصور الذهبي.

لقد استفاد البحث كثيرًا من مجلة (المسكوكات) التي أصدرتها دائرة الآثار والتراث من المراجع الحديثة، إلا أننا لم نجد دراسات سابقة تتحدث عن توثيقها بالحاسوب.

الجانب التطبيقي:

قلنا فيما سبق يمتلك المتحف العراقي مجموعة ضخمة من المسكوكات التاريخية لدول عدة، امتازت بالتنوع، من حيث المدد الزمنية وتنوع أشكالها، إضافة إلى ضخامتها، وفي المتحف قسم خاص بها، وقد تأسس هذا القسم عام ١٩٤٢م.

ولا يمكن حصر عدد المسكوكات؛ لأن هناك ثلاث سجلات مختلفة الترقيم، السجل الأول للمسكوكات المنفردة، ويصل الرقم فيه إلى ٦٢١٤٦/ م س، والثاني للمكررات، ويصل الرقم فيه إلى ٣٤٣٥٠/ م س م، يعطي مجموعة المكررات رقمًا واحدًا، والأخير للمشوهات ويصل الرقم فيه إلى ١٠٤٨٣/ م س ش، كذلك ترقيم مجموعة مشوهات يعطي لها رقمًا واحدًا ونظنها جميعًا بحدود ١٧٠٠٠٠ مسكوكة.

ويستعمل القسم نظام البطاقات والسجل في توثيق المسكوكات، أما السجل فتدون فيه المعلومات الآتية:

رقم المسكوكة	العدد	المادة	الدولة	الملك	الضرب
السنة	الوزارة	القطر ملم	تاريخ التسجيل	المصدر	الملاحظات

أما البطاقة فتحوي على المعلومات التالية:

الدولة	الرقم	المعدن
الملك	أرقامها الأخرى	
الأمير	المصدر	
الضرب التاريخ	الوزن	القطر
الوصف		
		الوجه
المراجع		القفا
		اللوح

النصوص

الوجه	القفا
المركز	المركز
الطوق	الطوق
النطاق	النطاق
الحلقات	الحلقات
رقم	رقم

والبطاقات مرتبة حسب الأرقام أيضًا.

ويقوم المتحف العراقي بتوثيقها بالصور الفوتوغرافية و[السلايدات] أيضًا .

نتائج البحث:

١ - إن المسكوكات الإسلامية وثائق صحيحة وقديمة، لا يمكن الطعن في قيمتها؛ لأنها وثائق رسمية، وأداة من أدوات البحث التاريخي، كانت ولاتزال إحدى مستلزمات السيادة للدولة، وأدّت دورًا إعلاميًا لنظام الحكم، بإشعار الخاصة والعامة ببدء الخلافة، وقد حصر ضرب النقود بشخصية الخليفة نفسه[٣١]، إضافة إلى وظيفتها الاقتصادية والتشريعية[٣٢].

٢ - استعملتها المعارضة وسائل دعاية ضد خصومها من نظم الحكم، فكتب الثوار نصوصًا دينية أو شعارات أخرى.

ضرب قطري بن الفجاءة شعار الخوارج على دراهمه ٦٩ – ٧٨هـ: "**لا حكم إلا لله**".

وضرب حطة بن الأسود ٧٢ – ٨٠هـ الخارجي: «**بسم الله ولي الأمر**».

وضرب عبدالله بن الزبير من ٦٥ – ٦٩هـ في الحجاز، وأخوه مصعب في العراق: "**بسم الله**" و"**عبدالله أمير المؤمنين**". ودرهم الدعوة العباسية المضروب في جي[٣٣].

وضرب أبو السرايا السري بن منصور الشيباني الذي خرج في الكوفة ١٩٩هـ: "**إن الله يحب الذين ي ق ا تلون في سبيله كأنهم بنيان مرصوص**"[٣٤].

ودينار صاحب الزنج علي بن محمد المهدي في البصرة ٢٦١هـ على الوجه: "**لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد بن أمير المؤمنين**"، وعلى الطوق: "**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ي ق اتلون بسبيل الله**" (هكذا)، وعلى الطوق الخلفي: "**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ألا لا حكم إلا لله ولا طاعة لمن (عدا) الله**"[٣٥].

وضرب يحيى بن القاسم العلوي ٢٩٨ هـ بصعدة في اليمن ديناره: "**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا**" و"**تنزل من ال ق ر آن ما فيه شفاء للناس**"[٣٦].

٣ - حسم الكثير من المعلومات التي كانت مثار الجدل، كتأسيس مدينة واسط. إن أقدم درهم وصل مضروبًا بواسط عام ٨٣هـ، كذلك تأسيس مدينة السلام [٣٧]، وسن تولي محمد الأمين ولاية عهد الرشيد[٣٨]، بما حملته من نصوص وتواريخ وأماكن.

٤ - مسكوكات المناسبات، وتضرب للمناسبات،، وتسمى دراهم (الصلة) كدراهم المهدي في القضاء على الزنادقة[٣٩].

٥ - تبرز ميول الحكام وسياستهم بما حوته من نصوص، أو صور، أو رموز. وتشير إلى قوة الخلافة وضعفها إذا ضربت مسكوكات بأسماء الأمراء والوزراء والولاة والحكام وميولهم وموالاتهم للخلافة أو عدمها، مثلما فعل البويهيون، كدرهم المستكفي بالله الذي ضرب على مركز وجهه اسم معز الدولة ٣٣٤هـ: "**لا إله إلا الله وحده لا شريك له أبو الحسن محمد بن أمير المؤمنين معز الدولة أبو الحسين**"، وعلى مركز الظهر: "**لله محمد رسول الله ﷺ إمام الحق المستكفي بالله عماد الدولة أبو الحسن**"، وعلى وجه النطاق: "**لله الأمر من ق بل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله**"[٤٠]. وكانت السكة تسوء إذا ضعف الحكم، كأن يسوء الضرب، أو ينقص وزنه، أو يسري المغشوش فيه، وكانوا يتقون الغش بختم السلطان عليها، وتسمى بالسكة الخبيثة[٤١].

٦ - قيمتها الفنية لما فيها من مجسمات Relief منحوتة بأشكال معمارية، أو صور بشرية أو حيوانية، انظر الشكلين (٢ و ٣)، أو نباتية، إضافة إلى الأشكال الهندسية كالمثلث والمربع والدائرة والأشكال الخماسية والإطارات التي يحددها (النطاق والطوق) والزخارف الهندسية والشجرية.

٧ - دورها في تطوير الخط العربي بأنواعه وبخاصة الكوفي منه.

٨ - عدم جدوى الترقيم الحالي؛ لأنه يضع رقمًا واحدًا للنسخ المكررة، وبهذا لا يستجيب نظام الترقيم لأعمال الجرد، حيث لا يضمن أمن المجموعة.

٩ - ضعف استجابة نظام المعلومات اليدوي (السجل والبطاقات) لمتطلبات العمل والبحث التاريخي؛ لأنه نظام جامد، لا يسترجع إلا من خلال الأرقام، على الرغم من تنظيمه، بسبب ضخامة المجموعة وتنوعها، ولأنه لا يسترجع إلا من وجه واحد (حسب طريقة ترتيب البطاقات، وهو رقم التسلسل)، ولا يعطي المعلومات الفرعية الموضوعية كالنقش، والنصوص، كما أن نظام البطاقات والسجل لا يضمنان أمن

المجموعة، فقد يتعرض السجل لفقدان بعض أوراقه أو بطاقاته.

التوصيات:

١ - ترقيم المسكوكات بالأرقام التسلسلية التصاعدية برقم منفرد لكل نسخة، مع تأشير المكرر والمشوه منها مع رقم التسلسل (استعمال الرقم المركب) مثل: ١٠٠٠٠/ ك للمكرر ١٠١٠١/ش للمشوه، وهو مفيد لأعمال الجرد ولأمن المجموعة .

٢ - إنشاء نظام معلومات فرعي آلي خاص بالمسكوكات، وهو جزء من نظام متكامل لمعلومات دائرة الآثار والتراث، يستفيد من تقنية شبكات الحاسوب المحلية LANs ، ويضم نظم معلومات فرعية تتفاعل مع بعضها، وتغطي أعمال المنظمة.

٣ - استعمال قاعدة بيانات Data Base لخزن معلومات المسكوكات واسترجاعها تلبي حاجة العمل على نظام الحزمة البرمجية Fox 3.0 Micro soft Visual أو Fox Pro 2.6 وتحت مظلة التشغيل MS DOS أو Under Windows Dos وباستعمال الحاسوب المايكروي.

خصائص نظام Visual Fox 3.0[٤٢]:

من نظم إدارة قواعد البيانات .D.B.M.S طور برنامج Fox Pro متخصص في الخزن والاسترجاع الكفء للبيانات المهيكلة، احتوى على قدرات إضافية ومناسبة للمعالجة المعقدة للبيانات الواردة بشكل مجدول ومترابط داخل هرمية، ومن فعالياته:

- تكوين قواعد بيانات تحتوي على حقول مختارة مع تسهيلات في التصميم والإنشاء.
- تعديل البيانات السابقة أو إلغائها، وتحديث كل الملفات المترابطة بها آليًا.
- الاسترجاع الآلي للقيود بوساطة محتواها، كل البيانات أو جزء منها عن طريق فهرس الملفات.
- معالجة البيانات المزدوجة اللغة على محتويات القاعدة كافة(القيد Record والحقل Field).
- عرض القيود على الشاشة تبعًا لحاجة المستفيد أو التعديل عليها.
- عرض البيانات عن طريق إدخال الرسوم التحليلية Charts والقدرة الفعالة على اختصار البيانات وتفصيلها ومقارنتها.
- طبع القيود أو بعض منها في أي نسق يريده المستفيد.
- إمكان التفاعل مع جميع قواعد البيانات الأخرى الموجودة على الحاسبة المايكروية، وذلك بنقل المعلومات من قواعد بيانات أخرى، أو دمج المعلومات من أكثر من قاعدة؛ لإعداد تقرير أو تطبيق خاص بالعمل.
- إمكان تفاعله مع برنامج نوافذ المايكروسوفت Windows.
- القيام بالفعاليات المختلفة مما يجعل منه قاعدة ضخمة تستوعب البيانات النصيّة في خدمة النظام لتجميع البيانات واستردادها وتمثيلها.

مستلزمات النظام:

أ - مجموعة متدربة قادرة على فتح الملفات والقيود وتحديثها على الحاسب المايكروي، بالاعتماد على بيانات السجل والبطاقات معًا، ويكون الإدخال شهريًّا أو كل أسبوعين.

ب - حاسب مايكروي بمعالج مركزي 386 فما فوق، وبذاكرة رئيسة kb 640 فما فوق، نوع IBM PC/AT/PS2 وأي المايكرويات المتوافقة.

- مع قرص صلب MG-b 20 فما فوق.

- وحدة أقراص مرنة حجم HD 3.5.
- طابعة نوع LQ size 132 CH
- جهاز التصفح Scanner لنقل صورة المسكوكات إلى الحاسبة.
- نظام التشغيل MS DOS 2.0 أو الإصدار أو الأحدث منه.
- قابلو خاص للاتصال بـ LANs

مزايا هيكل قاعدة (السَكّة):

إضافة إلى ما تقدم روعي في تصميم القاعدة من سعة استيعاب البيانات وإمكان استرجاعها وترتيبها بسرعة، ما يأتي:

١ - الاعتماد على بيانات البطاقات والسجل في بناء هيكل القاعدة، والأخذ بعين الاهتمام المعلومات الفرعية المتعلقة بها.

٢ - حاجة العمل والمستفيدين إلى المعلومات التاريخية والإدارية.

٣ - أهمية المعلومات التاريخية.

٤ - منطقية ترتيب البيانات الرئيسة والفرعية والشمول.

٥ - المرونة في الاسترجاع وإمكان المطابقة بين الحقول (البيانات) الرئيسة والفرعية.

٦ - عزل المسكوكات النادرة والمتميزة والمسكوكات المكررة المشوهة.

٧ - إمكان تفاعلها مع برامج عالميّة وإمكان ربطها بـ (Internet) كجزء من موقع الآثار العراقية والمتحف العراقي على الشبكة العالمية مستقبلاً.

مخرجات القاعدة (السَكّة)

أولاً: مخرجات موضوعية متنوعة Historical Data Variable تعمل كأداة تعليمية Learning Instrument بعد استعمال الواصفات Descriptors لأغراض: المبحث التاريخي Historical Research من خلال:

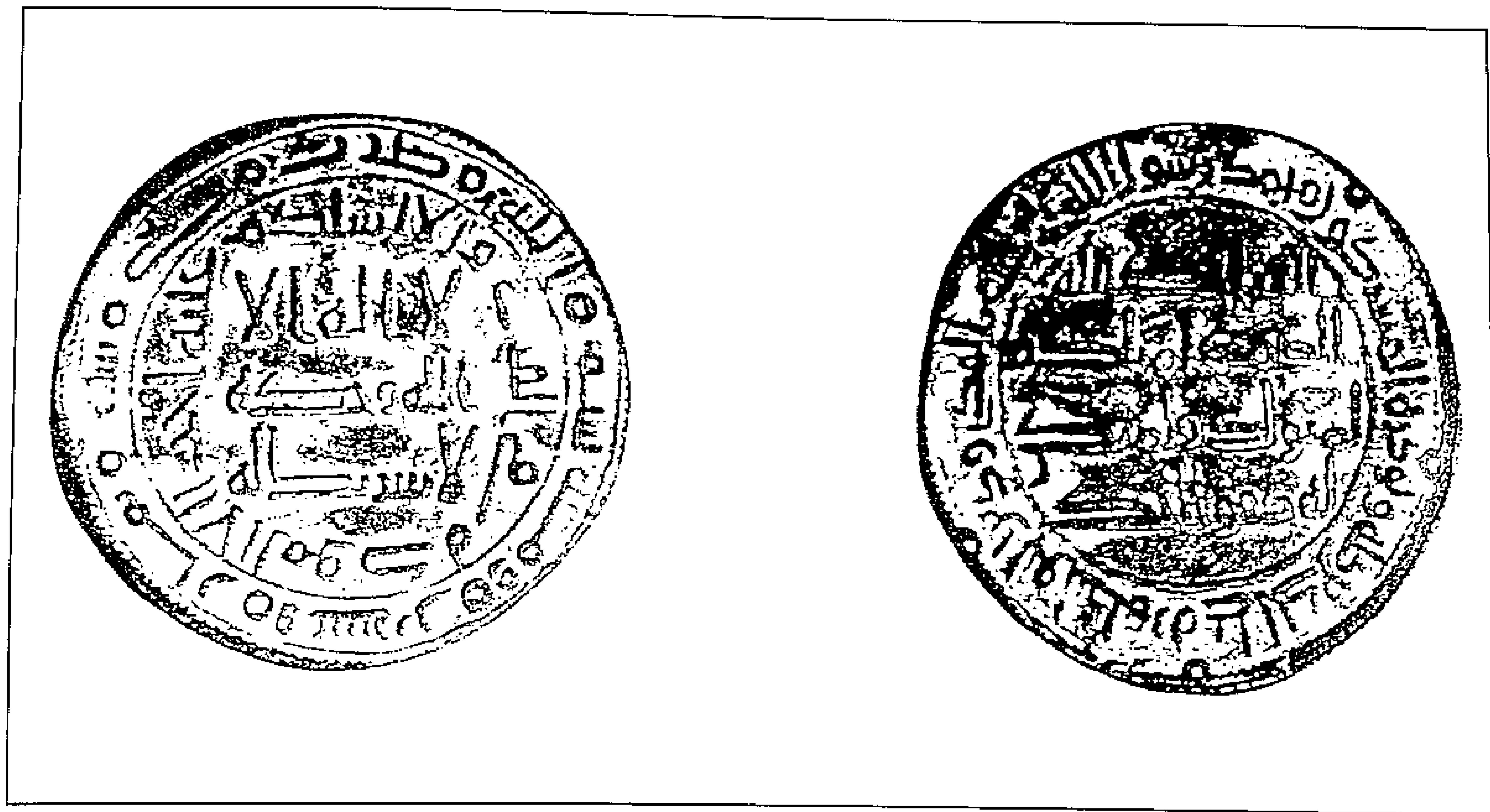
- إمكان المقارنة Copmarative Purposes مثل: مطابقة نصوص المسكوكات مع بعضها، الزخارف، الخطوط، مكان الضرب وتاريخه، الخليفة أو الأمير.. مكان العثور.
- إمكان مطابقة الأشكال Graphic Matching أي نقش الوجه أو الظهر مع بعضه.
- فهارس موضوعية للنصوص والخطوط، والزخارف، وتواريخ الضرب، والخلفاء أو الأمراء.
- الاستفادة من الأشكال التي تكونها الحاسبة Data Graphs بوصفها أداة سريعة من أدوات التعلم Learning Tools مثل الأشكال الموضوعية والإحصائية.
- تأشير المكررات من المسكوكات وتثمينها، وإمكان التبادل مع مكررات من متاحف أخرى؛ لسد النقص من المجموعة العراقية.
- تأشير المسكوكات النادرة والثمينة.

ثانيًا: بيانات إدارية وإحصائية متنوعة Variable Administrative and Statistical Data تستعمل لـ:

- أغراض الجرد.
- مشاركتها في معارض محلية وخارجية.
- إجراءاات الصيانة.
- ضمان أمن المجموعة.
- إحصائيات بتثمينها، مصادر الحيازة.
- تقويم أداء الفرق التنقيبية.●

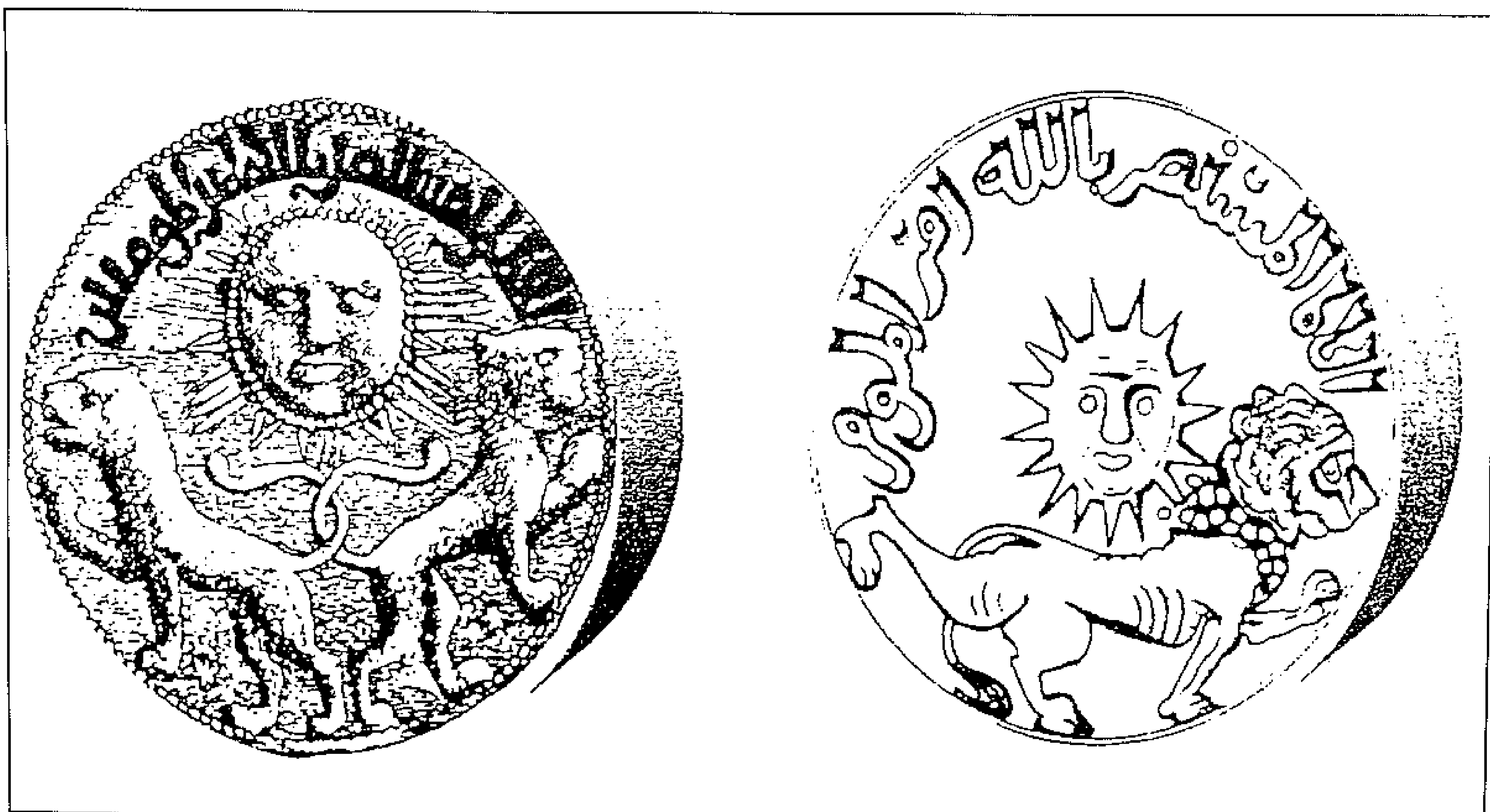
Field	Arabic Term	Fild Name	Type	Width
1.	رقم المسكوكة	Cion no.	Characte	8
2.	نوعها	Coin Type	r	8
3.	الدولة	Cn State	C	15
4.	الخليفة	Cn Caliph	C	20
5.	الأمير أو الوالي ...	Cn Prince	C	20
6.	مدينة الضرب	Cionage City	C	15
7.	تاريخ الضرب الهجري	Cn Daten A.H.	C	8
8.	تاريخ الضرب الميلادي	Cn Date A.D.	Date	8
	Material Descriptions		D	
9.	المعدن	Cn Metal		15
10.	الوزن	Cn Weight	C	6
11.	الشكل	Cn Shape	Numeric	8
12.	القطر ملم	Cn Diameter	C	3
13.	مكان العثور	Cn Discovery Plc	N	20
14.	مصدر الحيازة	Cn Owning Source	N	20
15.	تاريخ التسجيل	Cn Register Date	C	8
	Formal Descriptions		D	
	وجه العملة			
16.	المركز / النص	Cn Av Center Text	C	50
17.	نوع الخط	Cn Av Center Font	C	10
18.	الزخارف	Cn Av Center Ornament	Logic	1
19.	نوعها	Cn Av Cent Orn. Type	C	15
20.	الطوق / النص	Cn Av Arch Text	C	50
21.	نوع الخط	Cn Av Arch Font	C	10
22.	الزخارف	Cn Av Arch Ornament	L	1
23.	نوعها	Cn Av Arch Orn. Type	C	15
24.	النطاق / النص	Cn Av Belt Text	C	50
25.	نوع الخط	Cn Av Belt Font	C	10
26.	الزخارف	Cn Av Belt Ornament	L	1
27.	نوعها	Cn Av Belt Orn. Type	C	15
28.	الحلق / النص	Cn Av Ring Text	C	50

29.	نوع الخط	Cn Av Ring Font	C	10
30.	الزخارف	Cn Av Ring Ornament	L	1
31.	نوعها	Cn Av Ring Orn. Type	C	15
	Coin Reverse ظهر العملة			
32.	المركز / النص	Cn Rv Center Text	C	50
33.	نوع الخط	Cn Rv Center Font	C	10
34.	الزخارف	Cn Rv Center Ornament	L	1
35.	نوعها	Cn Rv Cent Orn. Type	C	15
36.	الطوق / النص	Cn Rv Arch Text	C	50
37.	نوع الخط	Cn Rv Arch Font	C	10
38.	الزخارف	Cn Rv Arch Ornament	L	1
39.	نوعها	Cn Rv Arch Orn. Type	C	15
40.	النطاق / النص	Cn Rv Belt Text	C	50
41.	نوع الخط	Cn Rv Belt Font	C	10
42.	الزخارف	Cn Rv Belt Ornament	L	1
43.	نوعها	Cn Rv Belt Orn. Type	C	15
44.	الحلق / النص	Cn Rv Ring Text	C	50
45.	نوع الخط	Cn Rv Ring Font	C	10
46.	الزخارف	Cn Rv Ring Ornament	L	1
47.	نوعها	Cn Rv Ring Orn. Type	C	15
48.	التصوير	Cn Photographs	L	1
49.	السلايدات	Cn Slides	L	1
50.	سعرها	Cn Price	C	8
51.	المكررات	Cn Duplicates	N	6
52.	النادر	Cn Rare	L	1
53.	معارض محلية	Cn Local Gallaries	C	10
54.	معارض خارجية	Cn Abroad Gallar	C	20
55.	تاريخ الجرد	Cn Inventory Date	D	8
56.	ملاحظات الجرد	Cn Inventory Note	C	15
57.	ملاحظات أخرى	Cn Other Notes	C	200
			Total	**1060**



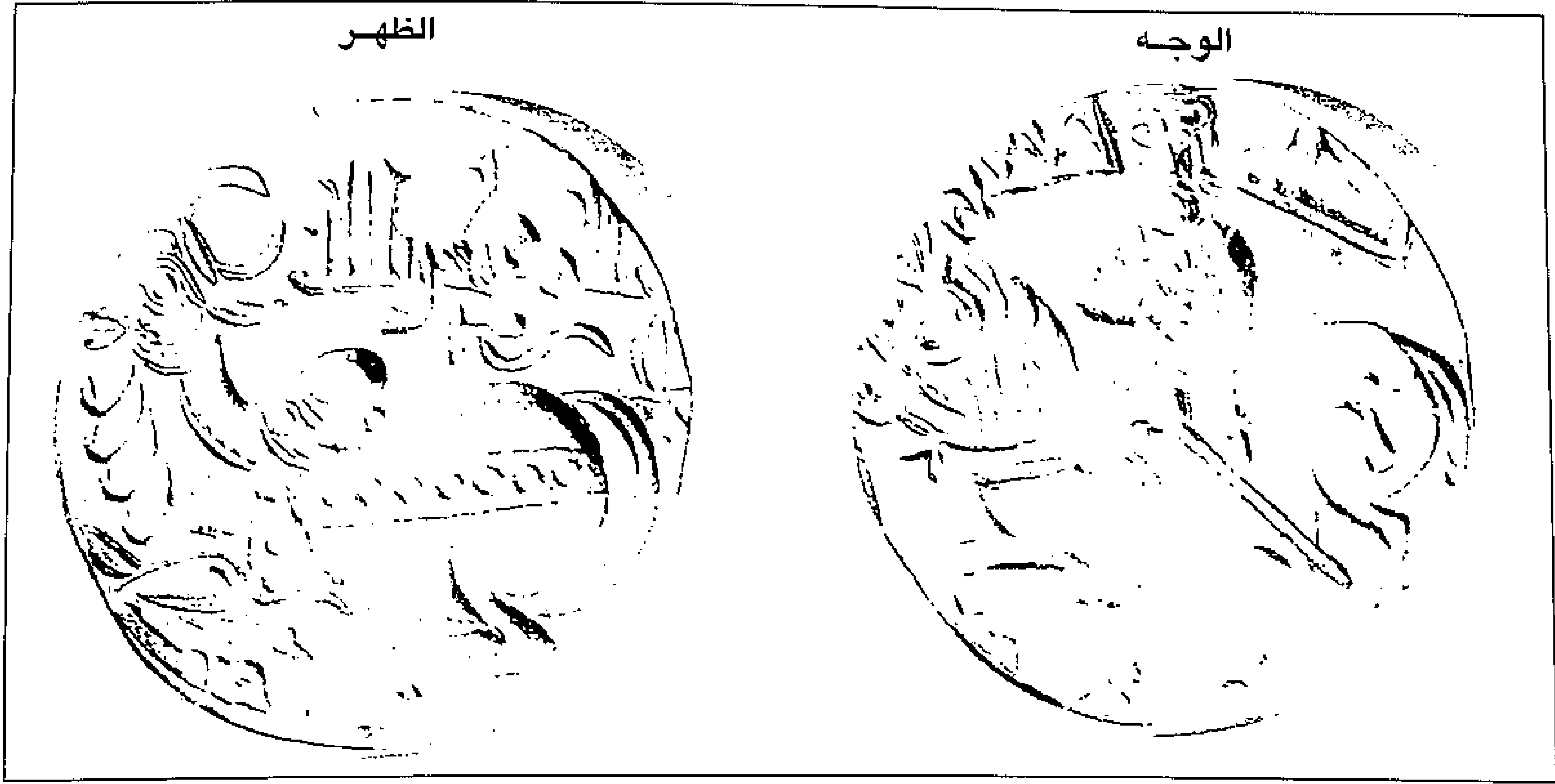
الشكل رقم (1)

درهم الدعوة العباسية المضروب في جي ١٢٧هـ أيام أبي مسلم الخرساني



الشكل رقم (2)

زخارف حيوانية وخطوط



الشكل رقم (3)

مسكوكة فضية عليها صورة المقتدر بالله العباسي ممتطياً جواده

مخرجات موضوعية متنوعة

* البحث التاريخي
* امكانية المقارنة الموضوعية
* امكانية المطابقة الشكلية
* فهارس موضوعية بالنصوص والخطوط
* أشكال الحاسبة التعليمية
* تأشير النادر والثمين منها

مخرجات إدارية وإحصائية

* أغراض الجرد
* التبادل بالمكررات
* مشاركتها بالمعارض المحلية والخارجية
* مصادر الحيازة
* مبالغ الصرف
* تقويم أداء الفرق التنقيبية
* أماكن العثور عليها

الشكل رقم (4)

مخرجات قاعدة بيانات السَكّة

الحواشي

(١) نظم المعلومات على الحاسبة الإلكترونية: ٢٣

(٢) مقدمة في تحليل نظم المعلومات باستخدام الكمبيوتر: ٢٠ ؟ ٢١.

(٣) استخدام قاعدة البيانات ٤ ونتج تطبيقاتها.

(٤) نظام إدارة قواعد البيانات: ٩.

(٥) شبكات الحاسوب: ٢٠ – ٢٥.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية: ٣٢٧/١٤.

(٧) الأحكام السلطانية، والمواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار: ٢٥٠/٢، وفجر السكة العربية: ٢٣/١ و٢٧.

(٨) العقد المنير في تحقيق ما يتعلق بالدراهم والدنانير: ٦ – ٧ – ١٠ – ١١.

(٩) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ق٤٣٧/١.

(١٠) فجر السكة العربية: ٢٢ – ٣٤ –٣٦.

(١١) المصدر السابق نفسه.

(١٢) المصدر السابق نفسه.

(١٣) مسكوكات مدينة السلام، مجلة المسكوكات، ع ١٢ – ١٣: ٥٦.

(١٤) العقد المنير: ١٢٨.

(١٥) المصدر السابق نفسه.

(١٦) المسكوكات وإعادة تقويم التاريخ ، مجلة المسكوكات: ١٢ – ١٣/ ١٢٨.

(١٧) ظهر نقد مؤرخ بهذا التاريخ، وهو ما ذكره البلاذري، وابن خلدون، بينما ذكر المقريزي أنها ضربت سنة ٧٦، ينظر النقود العربية ودورها الإعلامي في حضارة العراق: ٢٢٨/٩.

(١٨) تعريب النقود والدواوين والعصر الأموي: ٢٧، والنظام النقدي في العراق: ٤٧ – ٥١.

(١٩) النظام النقدي في العراق : ٤٧ – ٥١.

(٢٠) فجر السكة العربية: ٤٠/١ و٤٣، العقد المنير في تحقيق ما يتعلق بالدراهم والدنانير: ١٨ – ١٩.

(٢١) Numismatic History of Rayys: 16

(٢٢) مجلة المسكوكات: ٨٢ و١٣٠.

(٢٣) المصدر السابق نفسه

(٢٤) نقود الصلة والهدايا، في مجلة المسكوكات، ع ٣/٧، و نقود الصلة والهدايا، في مجلة المسكوكات، ع ١٢٨/٧.

(٢٥) Numismatic Historey of Rayys: 16.

(٢٦) هو: إبراهيم بن ذكوان الحراني.

(٢٧) مجلة المسكوكات: ع١٢ – ١٣/ ٨٢ ، ١٣٠.

(٢٨) المصدر السابق نفسه.

(٢٩) مجلة المسكوكات: ع٥ /٨٠، ع٦ /٤٩.

(٣٠) نشره الأب إنستاس الكرملي البغدادي.

(٣١) راجع الإطار النظري.

(٣٢) راجع الإطار النظري.

(٣٣) راجع الإطار النظري.

(٣٤) مجلة المسكوكات: ع٦ /١٠٢.

(٣٥) المصدر نفسه: ع٥ /٤٩.

(٣٦) دراسة إحصائية، مجلة المسكوكات: ع ١٠٢/٦.

(٣٧) راجع الإطار النظري.

(٣٨) راجع الإطار النظري.

(٣٩) راجع الإطار النظري.

(٤٠) مسكوكات مدينة السلام: مجلة المسكوكات، ع٥/٨٠.

(٤١) فجر السكة العربية: ١٦ ، ٢٧

(٤٢) تسليم برنامج Visual Fox Pro 3.0، وأساسيات استخدام قاعدة البيانات، ينظر:

Mastering Fox Pro 2.6:XXVII

المصادر البحث:

بستاني: فؤاد افرام.

– دائرة المعارف، بيروت، ج ١٤.

بهلول:علي محمد.

–استخدام قاعدة البيانات ٤ ومنتج تطبيقاتها، القاهرة، ط٢، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م (سلسلة الكتب العلمية في علوم الحاسبات).

ثامر: موسى يونس:

– شبكات الحاسوب، دار الراتب الجامعية، بيروت، ١٩٩٤ م

الجليلي: عبدالرحمن.

– النظام النقدي في العراق، القاهرة، ١٩٤٦م

الحسيني: محمد باقر.

– دراسات وتحقيقات إسلامية عن نقود الثوار، الدعاية والشعارات، في مجلة المسكوكات، ع٥، دائرة الآثار والتراث، بغداد، ١٩٧٤م

– دراسة إحصائية للشعارات على نقود في العصر الإسلامي، في مجلة المسكوكات، ع٦، دائرة الآثار والتراث، بغداد، ١٩٧٥م.

– النقود العربية ودورها الإعلامي والتاريخي، في حضارة العراق. ج٩، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٥

الحلاق: حسان علي.

– تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، بيروت، ١٩٧٨م.

دفتر: ناهض عبدالرزاق:

– ثلاث مسكوكات توضح علاقة البويهيين بالخلافة العباسية "خلال أربعين يومًا"، في مجلة المسكوكات، ع ٥، دائرة الآثار والتراث، بغداد، ١٩٧٤م.

– دراسة تحليلية لنوادر المسكوكات البديهية في المتحف العراقي، في مجلة المسكوكات، ع ٦، دائرة الآثار والتراث، بغداد، ١٩٧٥م.

– مسكوكات مدينة السلام، المصدر نفسه، في مجلة المسكوكات، ع ١٢، – ١٣ ، دائرة الآثار والتراث، بغداد، ١٩٨١م.

– المسكوكات وإعادة تقويم التاريخ العربي الإسلامي، في مجلة المسكوكات، ع ١٢، – ١٣ ، دائرة الآثار والتراث، بغداد، ١٩٨١م.

الديوجي: سعيد.

– نقود الصلة والهدايا، في مجلة المسكوكات، ع٧، دائرة الآثار والتراث، بغداد، ١٩٧٦م.

ريبر: سوزان، وروبرت كوليك.

– تعليم برنامج Visual Fox Pro 3.0 ، ترجمة مركز التعريب والترجمة، الدار العربية للعلوم، بيروت، ١٩٩٥م

طه باقر:

– مقدمة في تاريخ الحضارة القديمة، بغداد، ط ٢، ١٩٥٥م.

طه:سلوى أنور.

– نظام إدارة قواعد البيانات، المركز القومي للحاسبات الإلكترونية، بغداد، ١٩٩٢م

العلي عبدالستار:

– نظم المعلومات على الحاسبة الإلكترونية، جامعة البصرة، ١٩٨٥م

عوض: منصور، ومحمد أبو النور:

– مقدمة في نظم المعلومات باستخدام الكومبيوتر، (سلسلة الحاسبات الإلكترونية) دار الفرقان، بيروت، ١٩٨٩م. .

قبيعة: محمد جمال.

– أساسيات استخدام قاعدة البيانات فوكس برو، دار الراتب الجامعية، بيروت، ١٩٩٣م.

المازندراني: موسى.

– العقد المنير في تحقيق ما يتعلق بالدراهم والدنانير، المطبعة العلمية، النجف، ١٣٦١هـ.

المصادر والمراجع

الماوردي:

– الأحكام السلطانية، القاهرة، ١٩٠٩م.

محفوظ: ناجي علي.

– النقود في المصادر العربية، دائرة الآثار والتراث، بغداد، ١٩٨٢م.

محمد : عبدالرحمن فهمي:

– فجر السكة العربية، مجموعة النقود العربية وعلم النميات، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٥م.

المقريزي :

– المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار، القاهرة، ١٣٢٤هـ.

النقشبندي: ناصر.

– نقود الصلة والدعاية، في مجلة المسكوكات، ع ١٢، – ١٣ ، دائرة الآثار والتراث، بغداد، ١٩٨١م.

- Siegal, Charles.
Mastering Fox Pro 2.6, 2nd ed. Singapore: Tech- Publications, 1991.

- Miles, Adler
Miles, Adler Numismatic History of Rayys. London (n.p., n.d.).

جمعية التراث بالقرارة ومشروعها الطموح لحماية المخطوطات في منطقة وادي ميزاب (الجزائر)

الأستاذ الدكتور/ عبد الكريم عوفي
معهد اللغة العربية
جامعة باتنة - الجزائر

توطئة

الحمد لله حمدًا كثيرًا، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد، خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه الطاهرين، وبعد ..

فبمناسبة إقامة الاحتفال بالألفية الأولى لإنشاء مدينة (العطف)، إحدى المدن السبع في وادي ميزاب بولاية غرداية في الجنوب الجزائري، يسعدني أن أشارك إخواني المحتفلين بتقديم هذه المقالة لقرّاء العربية حول ثلاثة أدلة من أدلة المخطوطات التي أنجزتها جمعية التراث في مدينة القرارة، وهي أدلة نادرة في الجزائر، وذلك قصد التعريف بالتراث الفكري الذي أنتجه علماء الأمة الإسلامية عبر الأعصر المختلفة، التراث الذي تحتفظ به مكتباتنا الوطنية : الخاصة والعامة. ولا سيّما التراث الإباضي، هذا التراث الذي بقي مجهولاً لدى الدارسين ومحجوبًا عنهم طيلة عقود من الزمن[1].

وإذا كان التراث العربي والإسلامي قد لقي الاهتمام الكافي والعناية العلمية المركزة في كثير من البلدان، ولا سيّما التراث المخطوط، الذي يشكّل دعامته الأساسية، فإنه في الجزائر لا يزال يفتقد العناية نفسها؛ إذ إن المحاولات التي قام بها بعض الأفراد قليلة جدًّا، ولم ترقَ إلى مستوى الكنوز المعرفية التي تحتفظ بها المراكز الرسمية وغير الرسمية.

فمن أراد الوقوف على واقع المخطوطات التي تنتشر في نواحي البلاد المختلفة سيصاب بالدهشة والعجب لما آلت إليه من جرّاء عوامل عدة؛ إذ أصابها ما أصاب التراث العربي والإسلامي عامة، ولكن في الجزائر بدرجةٍ أكثر حدّة. فتراثنا المخطوط أحاطته عوامل شديدة التأثير، جعلته يكاد يكون في طيّ النسيان والعدم؛ فالاستعمار عمل على محوه من الوجود؛ حرقًا وتهريبًا وطعنًا في قيمته وإلجامًا للسان مستعمليه، والطبيعة فعلت فعلها، البلى والرطوبة والأرضة، والإنسان المالك له، يحتفظ به تبركًا وتيمّنًا، ولا يسمح لأحد بالاقتراب منه، مهما كانت درجته الفكرية إلا فيما ندر، وأخيرًا انصراف الجهات الرسمية عنه.

إن هذه العوامل[2] وغيرها جعلت تراثنا المخطوط في حكم العدم - كما قلت - ولا يختلف واقع التراث

المخطوط في منطقة وادي ميزاب عمّا هو عليه في المراكز الأخرى المنتشرة في أرجاء الوطن.

ولعل من آكد الأمور التي يحسن الحديث عنها قبل عرض نماذج من الإنتاج الفكري الذي تحتفظ به مكتبات وادي ميزاب وخزائنها تعريفَ القارئ بالمنطقة، من حيث موقعها وسكانها، ودور جمعية التراث في مدينة القرارة في الحفاظ على التراث عامة والمخطوطات خاصة، وكذا منهجها في إعداد أدلّة مكتبات المنطقة وخزاناتها؛ لأن ذلك مما يساعد على التقرّب من مخطوطات المنطقة والوقوف عليها.

وادي ميزاب (٣):

تقع مدن وادي ميزاب في الصحراء الجزائرية جنوب العاصمة، على بعد ست مائة (٦٠٠ كم)، على الطريق الرابط بين العاصمة وتمنراست. وتشمل المدن السبع المشهورة (بريان، وغرداية، ومليكة، وبني يزقن، وبنورة، والعطف، والقرارة)(٤). وقد عمّرت القرارة وبريان في القرن الحادي عشر الهجري بعد أن ضاق الوادي بالسكان(٥)، وعاصمة الميزابيين مدينة غرداية(٦).

كانت هذه المنطقة قبل تعميرها من قبل الميزابيين منتجعًا لأهل البوادي الذين ينزحون إليها طلبًا للكلأ واحتماءً من قسوة الطبيعة(٧)؛ إذ سكنها ناسٌ من سدراتة، وتيهرت، ووادي ريغ، وورجلة، وجربة، وجبل نفوسة، وغيرها من المدن.

والمدن الميزابية المذكورة نشأت في بداية القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي، عندما انتقلت جماعة إباضية إثر سقوط الدولة الرستمية(٨) واشتداد قوة العبيديين المناهضين للإباضية(٩). وقبل تعمير الميزابيين المنطقة كان السكان المحليّون بعد الفتح الإسلامي على مذهب المعتزلة(١٠)، ثم انتشر المذهب الإباضي بفضل الشيخ أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الفرسطائي (ت ٤٤٠هـ).

ويذكر بعض المؤرخين كدبوز والميلي أن سكان المنطقة من بربر زناتة، سكنوا الصحراء في بيوتٍ من الشعر، وقد استقر بهم المقام في وادي ميزاب بعد منافسة القبائل لهم، وقد نُكبوا على يد بلكين بن زيري سنة ٣٦٩هـ(١١).

والمؤكد أن الميزابيين وجدوا في الوادي الذي استوطنوه مكانًا صحيًّا وملجأ يقيهم شرّ القبائل المنافسة لهم، وأنهم لم يستقروا دفعةً واحدة في المنطقة؛ إذ إن هجرتهم قامت على مراحل ومن مناطق مختلفة؛ فقد وفدوا من ورقلة، وسدراتة، ووادي ريغ، وجربة، والساقية الحمراء، وتفيلالت بالمغرب، وجبل نفوسة بليبيا، وذلك على مدى ثلاثة قرون من الزمن تقريبًا(١٢).

يقول أحمد توفيق المدني في تاريخه عن الميزابيين: «وبلاد ميزاب، التي عاصمتها غرداية، من أغرب بلاد الدنيا وأعجبها، سكنها قومٌ من أكثر أمم الأرض جدًّا وعملاً ونشاطًا، وحسبك أنهم استوطنوا تلك الأرض قاعًا صفصفًا، فما زالوا بها عملاً وجدّا حتى أوجدوا بها حضارة ومدنًا... وكوّنوا بتلك البلاد واحات بديعة وحدائق وبساتين وسط أرض جرداء صخرية موحشة»(١٣).

ويعدّ المجتمع الإباضي في منطقة وادي ميزاب في ولاية غرداية مجتمعًا متميّزًا من حيث الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية؛ إذ تحكمه قيمٌ وعادات وتقاليد مستمدة من الشريعة الإسلامية، وهو مجتمعٌ شديد التماسك قويّ العقيدة، فالمذهب الإباضي المتّبع لا يختلف عن المذاهب الإسلامية الأخرى، فهو يعتمد على الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهو في مجموعه ثروة علمية تدل على سماحة الإسلام وسعة مبادئه، وليس صحيحًا ما يُذاع عنه(١٤)، فالفكر الإباضي الذي أنتجه الأقطاب عبر الحقب التاريخية المتعاقبة، وسيرهم، مما ذاع بين الناس (وهو قليل)، ومما لم يُذع في شتى مجالات العلم والمعرفة (لم ينشر)، يحتاج إلى قراءة متأنية

منصفة حتى تصحح بعض المقولات التي علقت بتاريخ الأمة الإسلامية.

مصادر ومراجع الإنتاج الفكري عند الإباضيين[١٥]:

يمتاز المجتمع الإباضي منذ قديم الزمان بجملة من القواعد التي تضبط نظام الحياة الاجتماعية والعقدية، وهي مستمدّة من النظام الإسلامي في عمومها. وقد انعكس ذلك على الحياة الثقافية والفكرية عامة، ولذلك نجد إنتاجهم الفكري الذي صوّر تلك الحياة غنيًّا ومتنوّعًا. فما طبيعة المصادر التي تعرّفنا الحياة الاجتماعية والثقافية والتاريخية والدينية والاقتصادية والفكرية، التي تمتاز بها الجماعات الإباضية؟

يُسمي فريق العمل في جمعية التراث بالقرارة هذه المصادر والمراجع (المداخل)، وهي مجموعة من الكتب؛ مطبوعة ومخطوطة، تيسّر سبل البحث في الإنتاج الفكري الإباضي، يمكن إجمالها تحت العناوين الرئيسة الآتية:

١ - **المصادر القديمة التي ألفها الأقطاب الإباضية:** كالسِّير لأبي زكريا (٤٧٤هـ)، والوسياني (٥٥٧هـ)، والدرجيني (٦٧٠هـ)، والشماخي (٩٢٨هـ). ومن أهم القوائم التي أعدت حول مخطوطات الإباضية ومؤلفيها قائمة أبي الفضل أبي القاسم بن إبراهيم البرادي (ق ٩هـ)، التي ألحقت بكتاب (الجواهر المنتقاة لما أخلّ به كتاب الطبقات)، وقائمته التي تحمل عنوان (رسالة في تقييد كتب أصحابنا). وهي التي ترجمها البولوني موتيلانسكي بعنوان (بيبليوغرافيا ميزاب).

٢ - **المراجع الحديثة** : منها قائمة الشيخ نور الدين السالمي (ت ١٩١٤م) ضمن كتاب (اللمعة المرضية في أشعة الإباضية)، و(ملحق السِّير) للعلامة أبي اليقظان إبراهيم (ت ١٩٧٣م) وهو مخطوط، وكتاب (الإباضية في موكب التاريخ) للشيخ علي يحيى معمر (ت ١٩٨٠م).

٣ - **ومن المداخل الحديثة فهارس بعض الدراسات والرسائل العلمية التي تناولت الفكر الإباضي بالدرس والتحليل والنقد:** وقد قدمت في جامعات داخل الجزائر وخارجها. منها على سبيل المثال لا الحصر: تطور الفكر الإباضي، لعمرو النامي، والبرادي: حياته وآثاره، لسالم العدالي، والدولة الرستمية، لإبراهيم بحّاز، والبعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية، للجعبيري.

٤ - **الدراسات البيبليوغرافيا التي أعدها المستشرقون مثل:** المكتبات والمخطوطات الإباضية، لشاخت ١٩٥٦م، والمخطوطات الإباضية، لفون هاس ١٩٧٤م، والعقيدة الإباضية، لبيار كوبرلي (دكتوراه) ١٩٨٢م.

٥ - **الموسوعات والمعاجم الحديثة:** كدائرة المعارف الإسلامية، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، ومعجم المفسرين، لنويهض، ومعجم أعلام الإباضية في المشرق والمغرب، الذي أنجزته جمعية التراث بالقرارة[١٦].

٦ - **القوائم البيبليوغرافيا الحديثة والفهارس العلمية:** التي أنجزها أبناء المنطقة لمخطوطات بعض المكتبات، بما فيها مذكرات التخرج لنيل شهادة الماجستير في علم المكتبات.

إن هذه المداخل تعدّ مفاتيح رئيسة للدخول إلى عالم الفكر الإباضي وغيره من الإنتاج الفكري الذي احتفظ به الإباضيون لعلماء آخرين من العالم العربي والإسلامي، ولا سيّما المخطوطات اليدوية التي تعدّ بالآلاف في مكتبات الأقطاب وخزائنهم.

جمعية التراث بالقرارة ودورها في حماية تراث المنطقة

في بداية الثمانينات فكّر جمعٌ من الشباب المثقفين في وادي ميزاب، وبعض الأساتذة الجامعيين، في

تأسيس جمعية علميّة ثقافية، تتكفّل بتراث المنطقة على اختلاف أنواعه[17]، وقد أعدّ أعضاء الجمعية برنامجًا طموحًا، يشمل كل المدن الميزابية، وحددوا لبرنامجهم جملةً من الأهداف ينبغي تحقيقها، وكان من جملة ما عزم فريق العمل على تحقيقه جمع التراث المكتوب، وترميمه، وصيانته، وتنظيمه، والعمل على تسجيله وتصويره بوساطة الوسائل العلمية الحديثة، كاستعمال الحاسوب، والأقراص المليزرة، و[السكانير]، والميكروفيلم، ثم العمل على تحقيقه ونشره؛ ليكون في متناول الباحثين والدارسين[18].

ونظرًا لفقدان الكثير من المداخل التي أشرنا إلى بعضها فيما سبق، ولعدم توافر ما بقي منها على جملةٍ من الشروط العلمية والفنيّة، التي تسهل مهمة الباحثين، ولأجل إبراز الدور الحضاري الذي قام به الإباضيون عبر العصور الماضية في مناحي الحياة المختلفة، أقدمت جمعية التراث برجالاتها الغيورين على إخراج تراثهم الفكري إلى الوجود ضمن مشروعٍ ضخم طموح، أسمته (دليل مخطوطات وادي ميزاب من الفكرة إلى الإنجاز)، يهدف إلى إعداد جملة من الفهارس، تغطي جلّ مكتبات المنطقة على اختلاف أنواعها؛ عامةً أو خاصةً؛ فهرسةً وتعريفًا وصيانة وتحقيقًا ودراسة ونشرًا.

وقد ظهرت فكرة الاهتمام بالمخطوطات في منطقة وادي ميزاب خلال منتصف عام ١٩٩٢م، وكانت البداية محتشمة لجدّة الفكرة على أهل المنطقة، ولا سيّما أصحاب المكتبات والخزانات، لكن - بالصبر والعزيمة وتعريف الناس الدور الخطير الذي يؤديه التراث في نقل العلم والحضارة - سرعان ما أدرك الناس القيمة العلمية والحضارية لهذا التراث الذي يتعرّض للتلف بسببٍ من الأسباب التي سبق ذكرها؛ إذ استساغ الناس الفكرة، فشجعوا على تنفيذها، وقدّموا الدعم المادي والمعنوي لفريق العمل الذي كونته الجمعية بعد أن شرحوا الأهداف والغايات التي يرمون إليها، فبعد الإحجام ومحاولة صدّ الفكرة صار الإقدام عليها كبيرًا، وما إن حلّ شهر ديسمبر حتى غدا المشروع واقعًا ملموسًا.

فما خطوات العمل التي قام بها فريق العمل في الجمعية؛ لتحقيق مشروعها الطموح؟

شرع فريق العمل في تنفيذ المشروع المعدّ وفق منهجية علميّة مدروسة، اتسمت بالمراحل الآتية:

١ - تنظيف المخطوط ونفض الغبار عنه.

٢ - ترتيب الأوراق المختلطة في المخطوط باتباع نظام التعقيبة إن وجد.

٣ - إعادة ترقيم المخطوط بقلم الرصاص.

٤ - قراءة المخطوط وإعداد بطاقة فنيّة له تشمل كل المواصفات المتعارف عليها.

٥ - تصنيفه وترقيمه في المكتبة.

٦ - تصوير المخطوطات النادرة على الميكروفيلم، وكذلك التي يخشى تلفها.

٧ - ترتيب البطاقات بحسب الموضوعات.

٨ - تخزين المعلومات في جهاز الحاسب الآلي.

٩ - توثيق العناوين وأسماء المؤلفين، واستخراج المجاهيل منها، باستعمال المصادر المتخصصة، ككشف الظنون، ومعجم أعلام الإباضية، وغيرهما.

١٠ - إنجاز الكشافات والمداخل المساعدة.

١١ - طبع الفهارس.

وقد تمّ إنجاز الخطوات الخمس الأولى لعددٍ كبير من المكتبات، وينتظر استكمال بقية المراحل والمكتبات[19].

وقبل ذكر الأدلة المختارة وما تحتفظ به من مخطوطات أشير إلى أنّ مراكز المخطوطات في وادي ميزاب كثيرة ومتنوعة، إذ تربو على المائة، فالمستشرق الألماني (جوزيف فون هاس) في دراسته (أبحاث في بعض المخطوطات الإباضية) أحصى مائة مكتبة (١٠٠)، منها في الجزائر (٨٧) مكتبة بوادي

ميزاب، و(٥) في جربة بتونس، و(٧) في ليبيا. أما الباحث الحاج سعيد فقد عدّد منها (١١٤) مكتبة موزعة على مدن ميزاب في الجزائر، وثمة مكتباتٍ أخرى لم يشملها الإحصاء، ولعل ما تقوم به جمعية التراث من عمل في الميدان سيساعد على تقديم الإحصاء الشامل لمكتبات المنطقة قريبًا.

وللمكتبات عند الإباضيين تسمياتٌ حسب من يملكها، أو من يشرف عليها، فجمعية التراث مثلاً توزعها على النحو الآتي:

١ - مكتبات عامة، كمكتبة القطب ببني يزقن.

٢ - مكتبات تابعة للعشائر، كمكتبة آل يدّر.

٣ - مكتبات تابعة للمعاهد والمدارس الحرّة، كمكتبة الإصلاح والحياة بغرداية والقرارة.

٤ - مكتبات تابعة للمساجد، كمكتبة (إروان).

٥ - مكتبات تابعة للجمعيات الثقافية، كمكتبة جمعية التراث.

٦ - مكتبات خاصة، كمكتبة الحاج سعيد بغرداية، ومكتبة الشيخ المطهري بمليكة.

وهناك من يقسمها إلى:

١ - مكتبات المساجد والمعاهد العلمية.

٢ - مكتبات الهيئات الاجتماعية والثقافية.

٣ - مكتبات الباحثين والمهتمين بالثقافة والمخطوطات[٢٠].

ومن المكتبات التي أنجزت فهارسها وطبعت[٢١]:

١ - مكتبة آل يدّر.

٢ - مكتبة البكري، بالعطف.

٣ - مكتبة الشيخ عمي سعيد، بغرداية.

٤ - مكتبة بو عيس الحاج عيسى، ببني يسجن.

٥ - مكتبة عشيرة آل فضل، ببني يسجن.

٦ - مكتبة الحاج سعيد محمد، بغرداية، وهذه المكتبات أنجزت جميع مراحلها، ولم يبقَ منها إلا الطبع والنشر.

ومن المكتبات التي أنجزت مراحلها الخمس الأولى، التي أشرنا إليها أذكر الآتي:

١ - مكتبة عشيرة آل خالد، ببني يسجن، التي تشمل (مكتبة الشيخ ازبار، والشيخ محفوظ).

٢ - مكتبة الشيخ بابا موسى، بغرداية.

٣ - مكتبة القطب اطفيش، ببني يسجن.

٤ - مكتبة الشيخ إبراهيم متياز، ببني يسجن.

٥ - مكتبة الحاج صالح بن ادريسو، ببني يسجن.

٦ - مكتبة الحاج عمر بن ادريسو، ببني يسجن.

٧ - مكتبة الإصلاح، بغرداية.

٨ - مكتبة الشيخ باسه، بوارجلان.

وقد ذكر مُعِدُّو هذه الفهارس أن عدد البطاقات المنجزة للمخطوطات في مشروع (دليل مخطوطات وادي ميزاب) بلغ (٤٥٠٠) بطاقة[٢٢].

وفيما يأتي كشّاف لأهم المخطوطات التي تحتفظ بها ثلاث مكتبات من مكتبات المنطقة، تمّ استخراجها من الأدلة الثلاثة التي أنجزتها جمعية التراث بالقرارة[٢٣]:

أولاً - المخطوطات التي تحتفظ بها مكتبة آل يدّر

ترجع الملكية الأصلية للمكتبة إلى (باحمد بن حمو ابن يحيى يدّر «حي ١٣٥٢هـ»، و«محمد بن باحمد بن يحيى الشريف «حي ١٣٥١ هـ»).

تمتاز مخطوطات المكتبة بقلة تأثرها بعاديات الزمن، مقابلة مع المخطوطات في بعض مكتبات المنطقة، وقد بذلت محاولات جادّة من قبل بعض الطلبة لفهرستها، وأقدم مخطوط تحتفظ به المكتبة هو (الترتيب من الجامع الصحيح) المنسوخ عام ٨١٥هـ. ويحظى روّادها بالاستقبال الحسن وتقديم التسهيلات العلميّة المطلوبة.

أما فهرس المكتبة فقد أنجزه عددٌ من الأساتذة بإشراف الدكتور محمد ناصر، واستشارة

الأستاذين: محمد عيسى موسى مدير المكتبة الوطنية، ومحمد الحاج سعيد المتخصص في جمع التراث الإباضي.

يقع الفهرس المنجز في (٢٧٤) صفحة، صُدِّر بمقدمة تناولت المخطوطات في وادي ميزاب وأهميتها (أ - ب)، أما الصفحات (١ - ١٩٥) فقد اشتملت وصف البطاقات الفنيّة لمخطوطات المكتبة، وهي مبوّبة حسب المعارف التي تتناولها المخطوطات.

أما الصفحات (١٩٦ - ٢٥٩) فخاصة لكشافات العناوين والمؤلفين والنسّاخ والملاّك والأماكن.

وأذكر فيما يأتي المجالات المعرفية التي تمثّلها المخطوطات المفهرسة مع ذكر العدد الإجمالي لكل مجالٍ معرفيٍّ وأسماء بعض المخطوطات، لإعطاء فكرة عامة للقرّاء، وذلك على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً - التفسير

ومنه عشرون مخطوطة، منها على سبيل المثال:

١ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل: عبدالله بن عمر ابن علي الشيرازي البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد (ت ٦٨٥هـ).

٢ - الجواهر في تفسير القرآن: عبد الرحمن بن محمد الثعالبي (ت ٨٧٥هـ).

٣ - السراج المنير في الإعانة على معرفة كلام ربنا الحكيم: محمد بن أحمد الشربيني الخطيب الشافعي (ت ٩٧٧هـ).

٤ - هميان الزاد إلى دار المعاد: محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح بن عبد الرحمن بن عيسى اطفيش، قطب الأئمة (ت ١٣٣٢هـ).

٥ - مخطوط يتضمن «رسائل في الأحرف المقطعة»: محمد بن صالح ملوكة التونسي (ت ١٢٧٦هـ).

٦ - المسترضى في تفسير قوله تعالى: ﴿**ولسوف يعطيك ربُّك فترضى**﴾: منصور سبط الطبلاوي (- ١٠١٤هـ)[٢٤].

ثانيًا - علوم القرآن: (القراءات، والتجويد، والرسم، والفضائل، والتهليلات، والتقسيمات).

وعدتها عشر مخطوطات. منها على سبيل المثال:

١ - البرق اللامع والغيث الهامع في فضائل السور وخواصّها: أحمد بن محمد الفنالي الوادآشي، أبو بكر بن أبي جعفر (؟).

٢ - ذكر أنصاف القرآن وأثلاثه... وأصناف أسباعه: لمجهول.

٣ - شرح الدرر اللوامع: محمد بن شعيب بن عبد الواحد بن الحاج المجاصي، أبو عبدالله (١٠٢١هـ).

٤ - عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل: أحمد بن محمد الأزدي المعروف بالبوني، أبو العباس (؟).

٥ - اللوامع والأسرار في منافع القرآن والأخبار: عيسى بن سلامة (؟).

٦ - مختصر في قراءات نافع: محمد بن جعفر... بن جزّي، أبو القاسم (٧٤١هـ).

٧ - التبيان في شرح مورد الظمآن: عبدالله بن عمر الصنهاجي (؟).

ثالثًا - علوم الحديث: (المصطلح، الصحاح، المتون، الشروح).

وعدتها ثلاثون مخطوطة. منها على سبيل المثال:

١ - أحاديث محذوفة الأسانيد على حروف المعجم: عبدالله بن محمد بن نجم بن شاش المصري، أبو محمد (٦١٦هـ).

٢ - شرح الأحاديث الأربعين: عبد العزيز بن موسى اليسجني الفضلي (ق ١٢هـ).

٣ - مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار: عبد اللطيف بن عبد العزيز... المعروف بابن مالك (ت ٨٠١هـ).

٤ - وفاء الضمانة بأداء الأمانة: محمد بن يوسف اطفيش القطب (ت ١٣٣٢هـ).

مقالات

٥ - شرح الشهاب: يوسف بن إبراهيم الوراق النايلي، أبو القاسم (؟).

رابعًا - أصول الدين: (العقيدة وعلم الكلام).

وهي ثمانية وثلاثون مخطوطة.. منها على سبيل المثال:

١ - تقييدات على شرح أم البراهين: محمد بن أحمد ابن عرفة الدسوقي (ت ١٢٣٠هـ).

٢ - توحيد الشيخ إسماعيل: إسماعيل بن موسى الجيطالي، أبو طاهر (ت ٧٥٠هـ).

٣ - جواب محمد بن داود النفوسي الأبدِلاني: يوسف ابن إبراهيم الوارجلاني، أبو يعقوب (٥٧٠هـ).

٤ - حاشية على متن الديانات: عبدالله بن سعيد السّدويكشي، أبو محمد (ت ١٠٦٨هـ).

٥ - السؤالات: عثمان بن خليفة السوفي المرغني(ق ٦هـ).

٦ - شرح اللؤلؤة في التوحيد وأصول الديانات: قاسم بن سليمان بن محمد الشماخي (ت ١٢٦٥هـ).

٧ - متن الديانات: عامر بن علي الشماخي، أبو ساكن (ت ٧٩٢هـ).

٨ - نتيجة الأفكار في تعليق عقيدة الأبرار: عمر بن رمضان الجربي التلاتي (ت ١١٨٧هـ).

خامسًا - أصول الفقه:

ومنه أربع مخطوطات، هي:

١ - الضياء اللامع في شرح جمع الجوامع: أحمد بن عبد الرحمن بن موسى بن عبد الحق اليزليتي... جلولو المالكي (بعد ٨٩٥هـ).

٢ - قرة العين في شرح ورقات إمام الحرمين: محمد ابن محمد بن عبد الرحمن الرعيني، أبو عبدالله (ت ٩٥٤هـ).

٣ - المحلّى على جمع الجوامع في الأصول: عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، ابن السبكي، أبو نصر (ت ٧٧١هـ).

٤ - مختصر أصول الفقه: أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي، أبو العباس (ت ٩٢٨هـ).

سادسًا - الفقه: (فقه العبادات، وفقه المعاملات، وفتاوى).

وعدتها مائة وأربعون مخطوطة. منها على سبيل المثال:

١ - أجوبة فقهية: تسعة من مشايخ الإباضية.

٢ - اختصار المواريث والفرائض: عبد الكافي بن أبي يعقوب بن إسماعيل التناوتي، أبو عمّار (قبل ٥٧٠هـ).

٣ - بغية المبتدي وغنية المنتهي: علي بن محمد بن علي القرشي المشهور بالقلصادي الأندلسي، أبو الحسن (ت ٨٩١هـ).

٤ - تاج المنظوم من درر المنهاج المعلوم: عبد العزيز ابن الحاج إبراهيم... الثميني، ضياء الدين (ت ١٢٢٣هـ).

٥ - التكميل لبعض ما أخلّ به كتاب النيل: للمؤلف السابق.

٦ - جوابات ابن خلفون: يوسف بن خلفون المزاتي الوارجلاني، أبو يعقوب (ق ٦).

٧ - الدلائل والحجج: إبراهيم بن قيس الحضرمي، أبو قيس (حوالي ٤٧٥هـ).

٨ - شرح مختصر على المقدمة الرحبيّة في الفرائض: محمد بن محمد بن أحمد الغزّال المارديني (ت ٩٠٧هـ).

٩ - الورد البسّام في رياض الأحكام: عبد العزيز الحاج الثميني (ت ١٢٢٣هـ).

١٠ – ترتيب مسائل كتاب اللقط: يوسف بن حمو بن عدون اليسجني (بعد ١٢٢٣هـ).

سابعًا – التاريخ : (السيرة النبوية، وقصص الأنبياء، والسلف، والملوك، والتراجم، والسير).

وعدتها أربع وعشرون مخطوطة، منها على سبيل المثال:

١ – كتاب الأسماء : يوسف بن إبراهيم السدراتي الوارجلاني، أبو يعقوب (ت ٥٧٠هـ).

٢ – رسالة فيها تقييد أصحابنا : أبو القاسم بن إبراهيم البرادي، أبو الفضل (ق ٩هـ).

٣ – كتاب السير : أحمد بن أبي عثمان سعيد بن عبد الواحد الشماخي (ت ٩٢٨هـ).

٤ – سير المشايخ : سليمان بن عبد السلام بن حسان ابن عبدالله الوسياني، أبو الربيع (حي في ٥٥٧هـ).

٥ – كنز الأخبار : لمجهول.

٦ – قصة المولد : أحمد بن محمد بن علي، ابن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين، أبو العباس (٩٧٤هـ).

٧ – مخطوط يتضمن (سير عزّابة غرداية ونظامهم مما اتفقوا عليه): أبو القاسم بن يحيى (ق ١٠هـ).

ثامنًا – علوم اللغة : (النحو والصرف، والبلاغة، والعروض): وعدتها خمس وخمسون مخطوطة، منها:

١ – بلوغ الأرب بشرح شذور الذهب: زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٩٢٦هـ).

٢ – تعليق الدرة الشنوانية على شرح الآجرومية في علم العربية: أحمد بن محمد محنلي (؟).

٣ – رسالة في معاني الاستعارات: أبو القاسم بن أبي بكر الليثي السمرقندي (ت بعد ٨٨٨هـ).

٤ – شرح الآجرومية : خالد بن عبدالله بن أبي بكر الأزهري (ت ٩٠٥هـ).

٥ – شرح الأجرومية: داود بن إبراهيم التلاتي، أبو سليمان (ت ٩٦٧هـ).

٦ – شرح الآجرومية: أبو القاسم بن يحيى بن أبي القاسم (ق ١٠هـ).

٧ – شرح الأجرومية: محمد بن أحمد بن يعلى الحسني (؟).

٨ – شرح ألفية ابن مالك: عبد الرحمن بن صالح بن علي المكودي، أبو زيد (ت ٨٠٧هـ).

٩ – شرح شواهد شذور الذهب: أبو القاسم بن محمد البجائي (ت ١٠٢٩هـ).

١٠ – الفتوح القيومية في شرح الجرومية: أحمد بن قاد [كذا] محمد بن أحمد بن أحمد (– ١٠٣٢هـ).

١١ – قيد الشوارد في شرح الشواهد: بركات بن باديس (١٠٢٨هـ).

١٢ – مجيب الندا إلى شرح قطر الندى: عبدالله بن أحمد بن عبدالله بن علي الفاكهي (ت ٩٧٢هـ).

١٣ – المسائل التحقيقية في بيان التحفة الآجرومية: محمد بن يوسف اطفيش القطب (ت ١٢٣٢هـ).

١٤ – مشكل إعراب الدعائم: أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي، أبو العباس (ت ٩٢٨هـ).

تاسعًا – المنظومات الشعرية :

وعددها مائة وثلاثون مخطوطة، وهي لا تخصّ مجالاً معرفيًّا معيّنًا؛ إذ إن موضوعاتها تشمل المعارف الآتية:

أ – **علوم القرآن** : ومنه تسع مخطوطات، منها:

١ – الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع: علي بن محمد بن علي التونسي اللنتي أبو الحسن (؟).

٢ – منظومة في رسم المصاحف: عبيد الله بن محمد ابن إبراهيم... الشرشي (؟).

ب – **أصول الدين** : ومنه اثنتا عشرة مخطوطة، منها:

١ – أنوار العقول: عبدالله بن حميد نور الدين السالمي، أبو محمد (ت ١٣٣٢هـ).

مقالات

٢ – قصيدة في إشكال في القضاء والقدر وحلّه: لمجهول.

٣ – النونية : فتح بن نوح الملوشائي النفوسي، أبو نصر (ق ٧هـ). ومنه نسخٌ كثيرة.

ج - **الفقه وأصول الفقه** : وعددها ثمانٍ وعشرون مخطوطة، منها:

١ – خلاصة المراقي إلى مبادىء طاعة الخلاق: صالح ابن عمر بن داود [لعلي] (١٣٤٧هـ).

٢ – الدعائم : أحمد بن النظر العماني، أبو بكر (ق ٦).

٣ – شمس الأصول: عبدالله بن حميد السالمي، أبو محمد (ت ١٣٣٢هـ).

٤ – مسلك الذهب في الجوهر ودرر الذهب: امحمد ابن سليمان بن صالح الميزابي اليسجني (ت ١٣١٣هـ).

د - **السير والتراجم والمدائح والتراجم:** وعددها خمس وعشرون مخطوطة، منها:

١ – البردة : إبراهيم بن بيحمان بن محمد الثميني (ت ١٢٣٢هـ).

٢ – قصيدة في إغاثة ميزاب لورجلان عند هجوم ابن جلاّب: أبو القاسم بن يحيى (ق١٠).

٣ – قصيدة في طبقات مشايخ الإباضية: سليمان بن أحمد، تلميذ أبي النجاة (؟).

٤ – قصيدة في مدح العمانيين ونسبة الدين: أبو القاسم يحيى (ق١٠هـ).

٥ – قصيدة في مدح المشايخ: أبو القاسم بن عمر بن صالح الباروني (؟).

هـ - **علوم اللغة** : وعدّتها تسع مخطوطات، منها:

١ – ذخر المعاد على عروض بانت سعاد: النواجي، محمد بن حسن بن علي بن عثمان شمس الدين (ت ٨٥٩هـ).

٢ – قصيدة في الجملة وأقسامها: المجرادي.

٣ – لامية الأفعال: ابن مالك، محمد بن عبدالله الطائي الجياني، جمال الدين، أبو عبدالله (– ٦٧٢هـ).

٤ – نظم الأجرومية : لمجهول (لعله محمد بن سليمان ابن ادريسو)، (١٣١٣هـ).

و - **الحكم، والوصايا، والمواعظ، والزهد، والتصوف:** وعددها تسع وثلاثون مخطوطة، منها:

١ – رسالة المسترشد وكفاية المسترشد: فتح بن نوح الملوشاني، أبو نصر (ق٧هـ).

٢ – قصائد في فضل العلم والفقه: سعيد بن خلفان الخليلي (؟).

٣ – قصائد في المواعظ والأمثال: فتح بن نوح الملوشاني، أبو نصر (ق ٧هـ).

٤ – قصيدة في أدب العالم والمتعلم: أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي (ت ٢٥٨هـ).

٥ – قصيدة في الاقتداء بالأئمة: إسماعيل بن موسى الجيطالي، أبو طاهر (ت ٧٥٠هـ).

٦ – قصيدة في التحريض على طلب العلم: سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف الدرجيني (ق٧هـ).

ز - **علوم طبيعية ورياضية وفلك:** وهي ثمان مخطوطات، منها:

١ – قصيدة في الحساب والهندسة: محمد بن علي بن كاسب النجدي الدلقاني شمس الدين (حي في ٩٧٨هـ).

٢ – المقنع في علم أبي مقرع: محمد بن سعيد بن محمد بن يحيى المرغتي السوسي، أبو عبدالله (ت ١٠٨٩هـ).

٣ – منظومة في العلوم الطبيعية والطب: الحسين بن عبدالله بن سينا، ابن سينا، أبو علي (ت ٤٢٨هـ).

عاشرًا – الحكم :

وعددها تسعٌ وخمسون مخطوطة، منها:

١ – إثمد البصائر في معرفة المظاهر: محمد بن

عبدالله بن عزوز السوسي، أبو عبدالله (حي في ١١٦٥هـ).

٢ – أجور الشهور على مرور الدهور: اطفيش القطب (ت ١٣٣٢هـ).

٣ – بيان ما عليه اليهود من الضلال: ناصر الدين بن المؤيد، أبو محمد عبد الحق الإسكافي (؟).

٤ – الجهات في علم التوجيهات: علي بن رافع رأسه الأندلسي المغربي، أبو الحسن (؟).

٥ – خطبة يوم العيد: سعيد بن علي بن حميدة بن عبد الرزاق الحبري، الشهير بعمي السعيد (ت ٨٩٨هـ).

٦ – كتاب السير: سليمان بن يخلف المزاتي القابسي، أبو الربيع (ت ٤٧١هـ).

٧ – منهاج العابدين ومدارج القاصدين: محمد بن محمد العربي بن أحمد (حي في ١١٩٢هـ).

٨ – الطبقات الكبرى: عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (ت ٩٧٣هـ).

٩ – هدية الإخوان على منظومة وصية معشر الشبان: لمجهول إباضي.

١٠ – عنوان مجهول، يتضمن وصايا إلى عزّابة القصور السبعة ووارجلان: صالح بن عمر بن داود لعلي (ت ١٣٤٧هـ).

حادي عشر – علوم طبيعية ورياضية: (الطب، والكيمياء، والحساب، والفلك، والتنجيم).

وعددها اثنتان وستون مخطوطة، منها:

١ – إيقش الأبراج أو شرح الأبراج أو البروج: سليمان بن عبد الحق المغربي (؟).

٢ – بهجة الآفاق وإيضاح اللبس والأغلاق في علم الحروف والأوفاق تحفة لمدى المودة والاشتياق: محمد بن محمد الفلاني الكشناوي السوداني، أبو عبدالله (ت ١١٥٤هـ).

٣ – الجوهر المنثور في معرفة السنين والشهور: علي ابن نصيب الكافي (حي في محرم ١٣١٥هـ).

٤ – دليل الأوقات في البسائط والمنحرفات: المولود ابن الصديق الحافقي اليعلاوي (حي في ١٣٣٥هـ).

٥ – شرح قصيدة أبي علي الحسن بن الحسين الهاشمي البغدادي: أبو عبدالله محمد بن هشام اللخمي (ت ٥٧٧هـ).

٦ – شرح مقامات كوشيار: أبو عبدالله ابن عبد الكريم الدكالي (حي في رمضان ١٣١٠هـ).

٧ – كشف الأستار على حروف الغبار: علي بن محمد بن علي البسطي، الشهير بالقلصادي (ت ٨٩١هـ).

٨ – المطلع على مسائل المقنع: محمد بن سعيد بن محمد بن يحيى المرغتي السوسي، أبو عبدالله (ت ١٠٨٩هـ).

٩ – مفيد المصباح في شرح السراج: سحنون بن عثمان بن سليمان بن أحمد بن أبي بكر (بعد ٩٣٩هـ).

ثاني عشر – موضوعات مختلفة: (تفسير الأحلام، والآداب، والرسائل العامة، وآداب البحث):

وعدتها عشرون مخطوطة، منها على سبيل المثال:

١ – الإشارة في تفسير العبارة: محمد بن سيرين البصري، أبو بكر (ت ١١٠هـ).

٢ – تحفة العروس: محمد بن أحمد التجاني، البجائي، أبو عبدالله (ت بعد ٧١١هـ).

٣ – جواب لبعض الطاعنين في مدينة الجزائر: محمد ابن الحاج أبي القاسم المصعبي، أبو عبدالله (ق١٢).

٤ – الروض العاطر في نزهة الخواطر: محمد بن محمد النفزاوي (؟).

٥ – سراج الملوك: محمد بن الوليد الفهري الطرطوسي (؟).

٦ - شرح رسالة في آداب البحث وطرق المناظرة: مسعود الزومي (؟).

٧ - مقدمة في الكلام على البسملة والحمدلة والمدح والشكر: زكريا بن محمد، القاضي الأنصاري (ت ٩٢٦هـ).

٨ - منتخب الكلام في تفسير الأحلام: محمد بن سيرين، أبو بكر (ت ١١٠هـ).

٩ - ألغاز: وهي الغاز شرحبيل بن شرحبيل النصراني وحلّها لعلي بن أبي طالب.

ثانيا: المخطوطات التي تحتفظ بها مكتبة الشيخ البكري

البكري هو عبد الرحمن بن عمر بن عيسى بن حمو بن باحمد بن عيسى بن بكلي، ولد بالعطف، إحدى مدن وادي ميزاب، سنة (١٩٠١م). والبكري لقبه الذي كان يمضي به مقالاته في جرائد العالِم المصلح أبي اليقظان، كان عضوًا نشطًا في جمعية العلماء المسلمين، درّس علوم الشريعة، وعمل على ترجمة المقالات الفرنسية لجرائد أبي اليقظان، ويعدّ من أبرز رجال التربية في غرداية، كان عضوًا في هيئاتٍ علميّة ودينيّة كثيرة، كما كان يقيم ندوة فكرية في منزله كل أسبوع، يؤمّها جمعٌ من العلماء وطالبي العلم، ومن آثاره: تحقيق كتاب النيل وشفاء العليل، للثميني، وتحقيق كتاب قواعد الإسلام، للجيطالي، وفتاوى البكري في جزأين. وقد توفي عام ١٩٨٦م.

تحتفظ مكتبة الشيخ بـ(٢٣٩٥) كتابًا، منها (١٣٥) مخطوطة في علومٍ مختلفة، كما أنها تمتاز باحتفاظها بمخطوطاتٍ نادرة، ككتاب (الأزكوي في فقه الإباضية)، الذي يرقى إلى القرون الأولى للهجرة النبويّة، وكتاب (مسائل أبي عبيدة)، وغير ذلك مما سيقف عليه القارىء في المسرد الآتي لمخطوطات مكتبة الشيخ. والمجالات المعرفيّة التي تمثلها هذه المخطوطات في علوم: التفسير، والحديث، وأصول الدين، وأصول الفقه، والفقه، والتاريخ والسير، واللغة، والشعر، والحكم والوصايا، والطبيعة والحياة، ومجالاتٍ أخرى.

وفيما يلي قائمة المخطوطات التي تحتفظ بها مكتبة الشيخ، مستخرجة من الفهرس الذي أعدّته جمعية التراث بالقرارة:

أولاً: التفسير وعلوم القرآن

١ - هميان الزاد إلى دار المعاد: للحاج امحمد بن يوسف اطفيش اليسجني الإباضي (ت ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م).

٢ - تفسير النصف الثاني من القرآن الكريم: لمجهول.

٣ - تفسير جزء من سورة يوسف: لمجهول.

٤ - رسم في تعليم الخط «كيف يكتب الحرف وحده أو مع أخر: للحاج اطفيش السابق.

٥ - شرح الدرر اللوامع الموضوع في أصل حرف نافع: محمد بن شعيب بن عبد الواحد بن الحجاج الشعبي الأحمدي الأبشيهي الشافعي المجاصي اليصلتي، أبو عبدالله (بعد ١٠٢١هـ = ١٦١٢م).

ثانيًا: علوم الحديث

١ - الأحاديث الأربعون المروية عن النبي ﷺ وشرحها: لمجهول.

٢ - كتاب في الحديث: لمجهول.

٣ - شرح الترتيب: محمد بن عمرو بن أبي ستة السدويكشي، أبو عبدالله (ت ١٠٨٨هـ = ١٦٧٩م).

٤ - نسخة أخرى منه.

٥ - الصحيح في حديث الرسول ﷺ، رواية الربيع ابن حبيب (١٧٠هـ) عن أبي عبيدة مسلم (١٤٥هـ): ترتيب: أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني (ت ٥٧٠هـ).

٦ - كتاب فضل الصلوات: لمجهول.

٧ - كنز الأخبار في أحاديث النبي المختار: لمجهول.

جمعية التراث بالقرارة ومشروعها الطموح لحماية المخطوطات في منطقة وادي ميزاب (الجزائر)

٨ – مخطوط مجهول العنوان؛ يتضمن (مجموعة أحاديث في موضوعات مختلفة): لمجهول.

ثالثًا : أصول الدين

١ – أصول الدينونة الصافية: عمروس بن فتح (ت ٢٨٣هـ).

٢ – ترتيب المعلقات: للحاج اطفيش السابق.

٣ – الحل والإصابة «شرح دعائم ابن النظر العماني»: محمد بن وصاف النزوي البزار (النصف الثاني ق ٦هـ).

٤ – شرح عقيدة التوحيد: داود بن إبراهيم الثلاثي، أبو سليمان (ت ٩٦٧هـ = ١٥٦٠م).

٥ – عقيدة التوحيد: عمرو بن جميع، أبو حفص (ق ٧هـ).

٦ – فوائد من شرح عقيدة التوحيد: عمرو بن رمضان الجربي الثلاثي (ت ١١٨٧هـ = ١٧٧٣م).

٧ – مسائل مختلطة في العقيدة: لمجهول.

٨ – نخبة المتين من أصول تبغورين: عمرو بن رمضان الجربي الثلاثي (ت ١١٨٧هـ = ١٧٧٣م).

٩ – مخطوط مجهول العنوان: محمد بن يوسف بن عمر السنوسي، أبو عبدالله (ت ٨٩٥هـ).

رابعًا : أصول الفقه

١ – اختصار كتاب العدل: أحمد بن سعيد الشماخي، أبو العباس (٩٢٨هـ = ١٥٢٢م).

٢ – أصولٌ فقهية: لعله لاطفيش السابق.

٣ – توحيد الله عزّ وجلّ: لمجهول.

٤ – شرح مختصر العدل: أحمد بن سعيد الشماخي السابق.

٥ – مخطوط مجهول العنوان والمؤلف.

خامسًا : الفقه (فقه العبادات، وفقه المعاملات، وفتاوى).

١ – كتاب أبي مسألة: أحمد بن محمد بن بكر، أبو العباس (ت ٥٠٤هـ = ١١١٠م).

٢ – نسخة أخرى منه.

٣ – كتاب الأحكام : يحيى بن أبي الخير الجناوني (ق ٥هـ – ١١م).

٤ – الأزهار الرياضية على المنظومة الرائية: عمرو بن رمضان الجربي السابق.

٥ – كتاب الإيضاح: عامر بن علي الشماخي، أبو ساكن (ت ٧٩٢هـ = ١٣٨٩م).

٦ – نسخة أخرى منه، تتضمن (كتاب البيوع).

٧ – كتاب بيان الشرع: محمد بن إبراهيم بن سليمان ابن محمد بن عبدالله بن المقداد السمدي النزوي الكندي (أوائل ق٦ – ١٢).

٨ – ترتيب لقط عمنا موسى بن عامر: للحاج اطفيش السابق.

٩ – التقاليد الفقهية: عبد الرحمن بكلّي (ت ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م).

١٠ – تعاليق على قواعد الإسلام: للمؤلف السابق.

١١ – تعاليق على كتاب النيل: للمؤلف السابق أيضًا.

١٢ – كتاب الجامع: محمد بن جعفر الأزكوي العماني، أبو جابر (ق ٣هـ – ٩م).

١٣ – جامع الأديان : ابن جعفر بن محمد بن جعفر (؟).

١٤ – جامع ابن بركة: عبدالله بن محمد بن بركة العماني، أبو محمد (ق ٤ – ١٠م).

١٥ – نسخة أخرى منه، تتضمن (باب النسب).

١٦ – نسخة أخرى منه، تتضمن (باب الأخبار).

١٧ – حاشية على كتاب البيوع : محمد بن عمر بن أبي ستة القصبي، أبو عبدالله (ت ١٠٨٨هـ = ١٦٧٩م).

١٨ – حاشية أبي ستة على كتاب الوضع: للمؤلف السابق.

١٩ – كتاب الحجج والدلائل: إبراهيم بن عبدالله بن

إبراهيم بن محمد بن سليمان بن قيس الحضرمي، أبو إسحاق (حوالي ٤٧٥هـ = ١٠٨٢م).

٢٠ – حساب قياس الجروح وما مست إليه الحاجة من حساب: لمجهول.

٢١ – الدلائل على اللوازم والوسائل: درويش بن جمعة بن عمر الأدهي العماني (؟).

٢٢ – شرح الدعائم: أبو القاسم بن إبراهيم البرّادي، أبو الفضل (ق٩ هـ = ١٥م).

٢٣ – شرح قواعد الإسلام: إسماعيل بن موسى الجيطالي، أبو طاهر (٧٥٠هـ = ١٣٥٠م).

٢٤ – شرح المقدمة الرحبية في الفرائض: محمد بن محمد بن أحمد الغزّال، بدر الدين الدمشقي، الشهير بسبط الماريدني (٩٠٧هـ = ١٥٠١م).

٢٥ – كتاب الضمانات: لمجهول.

٢٦ – كتاب الضياء: سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري (ق ٤هـ).

٢٧ – ديوان الأشياخ «كتاب الطهارة»: الأشياخ (ق ٥هـ – ١١م).

٢٨ – العمل بالتلفون في رؤية الهلال: محفوظ الحاج إبراهيم بن الحاج موسى بن بلحاج (؟).

٢٩ – سجل الفتاوى: عبد الرحمن بكلّي البكري السابق.

٣٠ – فتاوى البكري: للمؤلف السابق.

٣١ – الفوائد الشنشورية في شرح المنظومة الرحبية: عبدالله الشنشوري الشافعي الفرضي الخطيب (؟).

٣٢ – قناطر الخيرات: إسماعيل بن موسى الجيطالي، أبو طاهر السابق.

٣٣ – القنوان الدانية في بيان المسألة العانية: الحاج محمد بن يوسف اطفيش السابق.

٣٤ – كتاب اللمع، المعروف بكتاب الوضع: يحيى الجنّاوي، أبو زكريا (ق ٥هـ – ١١م).

٣٥ – متن في الفقه «الطهارات، وشيء من الصلاة والحدود»: لمؤلف إباضيّ مجهول.

٣٦ – كتاب مختصر الخصال: إبراهيم بن قيس الحضرمي، أبو إسحاق السابق.

٣٧ – نسخة أخرى منه.

٣٨ – مختصر مناسك الحج للجيطالي: لمؤلفٍ إباضيّ؟ (ق ١٢هـ = ١٨م).

٣٩ – مختصر المناسك ومهذّب المسالك: عمر بن علي الويرّاني (ق ١١هـ – ١٧م).

٤٠ – مسائل أبي عبيدة: مسلم بن أبي كريمة، أبو عبيدة (نحو ١٤٥هـ).

٤١ – مسائل سلامة النفوسي: سلامة النفوسي (نحو ق ١٠هـ – ١٦م).

٤٢ – نسخة أخرى منه.

٤٣ – مسائل مختلطة: مؤلف إباضيّ.

٤٤ – مسائل في الفقه مختلفة: جاعد بن خميس الخروصي، أبو نبهان (؟).

٤٥ – المصنف : محمد بن عبدالله الكندي (ت ٥٥٧هـ).

٤٦ – المناسخات والميراث: أحمد بن محمد بن علي ابن الهايم (٨١٥هـ = ١٤١٢م).

٤٧ – منهج الطالبين وبلاغ الراغبين: خميس بن سعيد بن علي بن مسعود الشقصي الرستاقي (ق ١١هـ ١٧م).

٤٨ – نسخة أخرى منه.

٤٩ – النيل: عبد العزيز بن ح (إبراهيم بن عبدالله بن عبدالعزيز الثميني الإسجني (١٢٢٣هـ ١٨٠٨م).

٥٠ – الورد البسّام في رياض الأحكام: للمؤلف السابق.

٥١ – مخطوط مجهول العنوان: مؤلف إباضي.

٥٢ – مخطوط مجهول العنوان والمؤلف.

٥٣ – مخطوط مجهول العنوان: مؤلف عماني إباضي.

٥٤ – مخطوط مجهول العنوان والمؤلف.

سادسًا – التاريخ (السيرة النبوية، وقصص الأنبياء، والسلف، والملوك، والتراجم، والسير).

١ – كتاب حديث الإسراء والمعراج: مجهول.

٢ – صفات سيد الأولين والآخرين حين حضرته الوفاة: مجهول المؤلف.

٣ – فضل عاشوراء: لعله: امحمد بن يوسف اطفيش السابق.

٤ – أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ = ١٥٠٥م).

٥ – مخطوط مجهول العنوان والمؤلف.

سابعًا – علوم اللغة

١ – شرح الأجرومية: أبو القاسم بن يحيى بن أبي القاسم بن محمد (ق ١١هـ – ١٧م).

٢ – شرح أرجوزة أبي زكريا بن أفلح الصّدغياني: موسى بن عامر بن يحيى بن زكريا النفوسي (؟).

٣ – مختار الصحاح في اللغة العربية: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦هـ).

٤ – مخطوط مجهول العنوان: الرازي.

٥ – مخطوط مجهول العنوان والمؤلف.

ثامنًا – الشعر والنظم

أ – أصول الدين

١ – قصيدة كشف الغمة في الولاية والبراءة: أحمد ابن النظر العماني (ق ٦هـ – ١٢م).

٢ – النونية: فتح بن نوح الملوشائي النفوسي، أبو نصر (ق ٧هـ = ١٣م).

ب – الفقه وأصوله

١ – الدعائم: محمد بن النضر العماني، أبو بكر (ق ٦هـ – ١٢م).

٢ – نسخة أخرى منه.

٣ – نسخة أخرى منه.

٤ – قصيدة في الفرائض: زكريا بن أبي أفلح الصدغياني، أبو يحيى الجربي (ت ٩٠٣هـ).

ج – التاريخ والسير والمدائح

١ – البردة والهمزية: محمد بن سعيد بن حماد بن عبدالله الصنهاجي المصري، شرف الدين، أبو عبدالله، البوصيري (ت ٦٩٦هـ = ١٢٩٦م).

٢ – قصيدة في التشوق إلى وطن مصعب ومدح أهله: مجهول.

٣ – قصيدة في رثاء الشيخ عبد العزيز «لعله الثميني»: إبراهيم بن محمد بِحْمان الثميني (١٢٣٢هـ = ١٨١٧م).

٤ – قصيدة في رثاء القطب: يوسف بن باي أحمد، باش عادل في المحكمة الإباضية بالجزائر (؟).

٥ – قصيدة في رثاء القطب حمو بن أحمد بن صالح (؟).

٦ – قصيدة في مدح الرسول ﷺ: محمد بن يوسف اطفيش القطب.

٧ – قصيدة في مدح أهل المغرب: سالم بن غسان بن محمد العماني (؟).

٨ – قصيدة في مدح أبي عثمان سعيد الباروني الجربي: مجهول.

٩ – قصيدة في مدح علماء عمان: مجهول.

١٠ – قصيدة في مدح المشايخ وذكر مناقبهم: أبو القاسم بن يحيى المصعبي (ق ١١هـ – ١٧م).

١١ – قصيدة في مدح القطب: عيسى بن القاضي صالح بن عامر الطيواني (؟).

١٢ – قصيدة في مدح القطب: مجهول.

١٣ – قصيدة في مدح القطب: مجهول.

١٤ – قصيدة في مدح يوسف المصعبي: مجهول.

د – علوم اللغة

١ – ألفية ابن مالك: محمد بن عبدالله بن مالك الطائي، أبو عبدالله (٧٦٢هـ = ١٣٦٠م).

٢ - لامية الأفعال: محمد بن عبدالله بن مالك الطائي، أبو عبدالله (٧٦٢هـ = ١٣٦٠م).

٣ - الجوهر المكنون: عبد الرحمن بن مغير بن عامر الأخضري، أبو زيد (ق ١٠هـ = ١٦م).

هـ - حكم، وصايا، مواعظ، زهد، تصوف:

١ - قصيدة في التحريض على طلب العلم: عبدالله بن يحيى الباروني النفوسي (ت ١٣٣٢هـ).

٢ - قصائد في الرثاء والوعظ: إبراهيم بن بكر القراري [حفّار] (ت ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤م).

٣ - قصيدة في الزهد: فتح بن نوح الملوشائي النفوسي، أبو نصر (ق ٧هـ - ١٣م).

٤ - قصيدة في الزهد: جنون بن يمريان الورجلاني، أبو صالح (ق ٤هـ - ١٠م).

٥ - نسخة أخرى منه.

٦ - منهاج العارف المنتقي ومعراج السالك المرتقي: علي بن عطية بن الحسن بن محمد بن الحداد الهيتي الحموي، الشهير بعلوان (- ٩٣٦هـ).

٧ - قصيدة في النصح والحكم: مجهول.

٨ - قصيدة في النصح والاعتبار: عمر بن مظفر بن عمر بن أبي الفوارس المعرّي الكندي، أبو حفص، زين الدين، ابن الوردي (ت ٧٤٩هـ = ١٣٤٩م).

و - موضوعات مختلفة:

١ - قصيدة في الغزل: عمر بن سليمان اليسجني (؟).

٢ - قصيدة في الهجاء: الحاج بلقاسم الغرداوي(؟).

تاسعًا - حكم، وصايا، مواعظ، فلسفة، تصوف، زهد، ترغيب وترهيب:

١ - كتاب الجامع لجمل من المنافع والفوائد: أحمد بن امحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي(؟).

٢ - من كتاب الرسائل للغزالي [كذا]: مجهول.

٣ - محجّت [كذا] السعادة: عبد الرحمن بن السليماني (؟).

٤ - وصايا في التصوف: علي بن عطية بن الحسن بن محمد بن الحداد الهيتي الحموي، الشهير بعلوان (- ٩٣٦هـ).

عاشرًا - علوم طبيعية ورياضية (طب، كيمياء، حساب، فلك، تنجيم):

١ - شرح أرجوزة السلم المرونق في علم المنطق: عبد الرحمن الأخضري، أبو زيد السابق.

٢ - علم الحساب: أحمد بن محمد بن علي بن عماد، شهاب الدين، الشهير والده بابن الهايم (ت ٨١٥هـ/ ١٤١٢م).

٣ - الممتع في شرح المقنع: عبد الحق بن علي البيطوي [كذا]، أبو محمد، أبو مقرع (؟).

حادي عشر - موضوعات مختلفة: (تفسير الأحلام الآداب، الرسائل العامة، آداب البحث والمناظرة):

١ - خطب جمعة: عبد الرحمن بكلّي الشهير بالبكري.

٢ - مجموعة من علوم مختلفة: عبد الرحمن بكلّي الشهير بالبكري.

٣ - أجزاء من مخطوطات مخرومة (خمس عشرة مجموعة).

ثالثًا: المخطوطات التي تحتفظ بها مكتبة الشيخ عمي سعيد

هو سعيد بن علي بن أحمد بن يحيى بن يدّر بن سليمان بن عثمان، أبو صالح، الشهير بعمّي سعيد (ت ٨٩٨هـ = ١٤٩٢م)، ولد بجربة، أخذ العلم الغزير عن جمهرة من العلماء، ولما تفشّى الجهل بين الناس استقدمه أهل ميزاب لنشر العلم في المنطقة، فكوّن نهضة رائدة في مجالات الحياة الفكرية والدينية والإصلاحية، وله عدة رسائل في معارف مختلفة.

تحتفظ مكتبة الشيخ عمي سعيد ب (٥٥) مجموعة

و(٩١) عنوانًا في المجالات المعرفية المختلفة، وللمكتبة أهمية من حيث احتفاظها بمخطوطات نفيسة، نُسخت بخط يد الشيخ نفسه، ببلدة إجْريجَن في جبل نفوسة، وذلك بين سنتي (٨٨٤ - ٨٨٥هـ). ومنها على سبيل المثال:

١ - كتاب التحف، المعروف بالتحف المخزونة، للشيخ سليمان بن يخلف المزاتي (ت ٤٩١هـ = ١٠٧٨م)، وموضوع الكتاب العقيدة وعلم الكلام، وهذه النسخة وحيدة في وادي ميزاب.

٢ - رسالة الربيع بن حبيب ومخلد بن المعرّد ووائل إلى أهل المغرب. وهذه النسخة أيضًا من النوادر.

٣ - جزء من أصول الأرضين، لأبي العباس أحمد بن محمد بن بكر (ت ٥٠٤هـ = ١١١٠م). والكتاب طبعته جمعية التراث بتحقيق الدكتور محمد ناصر والشيخ بالحاج بكير.

٤ - مغني اللبيب: لابن هشام الأنصاري. تاريخ نسخه في صفر سنة ٨٨٤هـ ببلدة إجريجن، في جبل نفوسة بتونس[٢٥].

وتعود الملكية الأصلية إلى الشيخ وأحفاده الذين عملوا على الحفاظ عليها وتنميتها؛ لتكون عونًا لهم ولمريدي مكتبتهم في طلب العلم. وكغيرها من الخزانات في بلادنا تعرضت هذه المكتبة لعوامل الأرضة والرطوبة وغير ذلك من الحالات التي تصيب المخطوطات، ولكن الأسرة التي رعت هذه المكتبة عبر السنين الطويلة تسعى للحفاظ على كنوز المكتبة، وما السماح بإنجاز فهرسٍ لها إلا دليل صادق على حرصها على أداء المكتبة لدورها من خلال هذه المقتنيات التي تحتفظ بها منذ قرون من الزمن، والزائر للمكتبة يلقى كلّ الترحاب، ولا يُردّ خائبًا.

وفيما يأتي قائمة بأسماء المخطوطات التي تحتفظ بها مرتبة في مجموعاتٍ حسب العلوم التي تمثلها:

أولاً - التفسير وعلوم القرآن (التفسير، القراءات، الرسم، الفضائل، التهليلات، التقسيمات):

١ - لباب التأويل في معاني التنزيل: الخازن، علي ابن محمد بن إبراهيم الشيحي، البغدادي، علاء الدين، أبو الحسن (- ٧٤١هـ).

٢ - مسائل الناسخ والمنسوخ من القرآن الكريم: ابن حزم، أبو عبدالله (؟).

ثانيًا - علوم الحديث (المصطلح، الصحاح، المتون، الشروح):

١ - الأحاديث الأربعون: يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام النووي الشافعي (ت ٦٧٦هـ).

٢ - نسخة أخرى منه.

ثالثًا : أصول الدين (العقيدة، وعلم الكلام):

١ - كتاب التحف في إجماع الأصول الشرعية ومعانيها: سليمان بن يخلف المزّاتي، أبو الربيع (٤٧١هـ - ١٠٧٨م).

٢ - شرح عقيدة التوحيد: داود بن سليمان الثلاثي، أبو سليمان (٩٦٧هـ = ١٥٦٠م).

٣ - شرح عقيدة التوحيد: محمد بن يوسف اطفيش القطب (١٣٣٢هـ = ١٩١٤م).

٤ - عقيدة التوحيد: عمر بن جميع، أبو حفص (النصف الأول من القرن ٧هـ = ١٣م).

رابعًا - أصول الفقه

١ - تنقيح الفصول في علم الكلام: القرافي.

خامسًا - الفقه (فقه العبادات، وفقه المعاملات، وفتاوى):

١ - الأحكام: [يحيى بن أبي الخير] الجناوني، أبو زكريا (ق ٥هـ = ١١م).

٢ - كتاب الأصول [أصول الأرضين]: أحمد بن محمد بن بكر، أبو العباس (٥٠٤هـ = ١١١٠م).

٣ - الإيضاح: عامر بن علي الشماخي، أبو ساكن (٧٩٢هـ = ١٣٨٩م).

٤ - ديوان الأشياخ «كتاب الطهارات»: الأشياخ (ق ٥هـ = ١١م).

٥ – ديوان العزابة «كتاب الوصايا»: العزّابة (ق ٥هـ = ١١م).

٦ – ديوان العزابة: «باب الضمانات»: العزّابة (ق ٥هـ = ١١م).

٧ – شرح على كتاب المجموع في علم الفرائض: محمد بن محمد بن أحمد الغزّال، الشهير بسبط الماردينى الشافعي، أبو عبدالله (٩٠٧هـ = ١٥٠١م).

٨ – شرح مختصر خليل: محمد الخرشي (؟).

٩ – صفة صلاة الميت وجملة حقوقها: مؤلف إباضي.

١٠ – القرة التونسية في شرح التلمسانية: علي بن محمد بن علي القرشي القلصادي (٨٩١هـ = ١٤٨٦م).

١١ – قواعد الإسلام: إسماعيل بن موسى الجيطالي، أبو طاهر (٧٥٠هـ = ١٣٤٩م).

١٢ – نسخة أخرى منه.

١٣ – مسائل الغرناطي: الغرناطي (؟).

١٤ – كتاب النكاح: يحيى بن أبي الخير الجناوني، أبو زكريا (ق ٥هـ – ١١م).

١٥ – مخطوط مجهول العنوان: يتضمن «روايات عن يحيى الليثي».

١٦ – مخطوط مجهول العنوان: مؤلف إباضي عماني.

١٧ – مخطوط مجهول العنوان: مؤلف مجهول (لعله مالكي المذهب).

١٨ – مخطوط مجهول العنوان: مؤلف مالكي مجهول.

سادسًا – التاريخ (السيرة النبوية، وقصص الأنبياء، والسلف، والملوك، والتراجم، والسير).

١ – رسالة الربيع بن حبيب، ومخلد بن العمرّد، ووائل، وجماعة المسلمين: الربيع بن حبيب وغيره (١٧٠هـ = ٧٨٦م).

٢ – سجلّ أقضية، ترجع إلى المحكمة الشرعية الإباضية بغرداية: مجهول (بين ١٨٨٩م – ١٩١٣م).

٣ – دفتر تمليكات وحبوس وأوقاف عراجين بغابات غرداية لمقبرة عمى سعيد: الموثق عمر بن الحاج، والكاتب كاسي بن بابه صالح (؟).

٤ – خير المناجاة والإسراء: مجهول المؤلف.

٥ – الصحائف الأربعون المنزلة على داوود عليه السلام.

٦ – طبقات المشايخ بالمغرب: أحمد بن سعيد الدرجيني (٦٧٠هـ = ١٢٧١م).

٧ – نسخة أخرى منه.

٨ – كتاب السبعيات في مواعظ خير البريات: مجهول المؤلف.

٩ – كتاب كشف الغمة فيما تشاجرت به الأمة، أو كشف الغمة وبيان فرق الأمة: مؤلف إباضي عماني.

١٠ – فتوح الشام: محمد بن عمر بن واقد السهمي، الواقدي، أبو عبدالله (ت ٢٠٧هـ).

١١ – كتاب فيه قصة داود وسليمان عليهما السلام: مجهول المؤلف.

١٢ – حديث... في قصة متعبد من بني إسرائيل: مجهول المؤلف.

١٣ – من كلام أبي الحرّ علي بن الحصين إلى الإمام عبدالله بن يحيى الكندي رحمه الله إذ كان باليمن: علي بن الحصين بن مالك الخشخاش، أبو الحرّ (ت ١٣٠هـ).

سابعًا – علوم اللغة (النحو، والصرف، والبلاغة، والعروض):

١ – أبواب في النحو: علي بن محمد الهروي النحوي، أبو الحسن (حي قبل ٣٧٠هـ).

٢ – الآجرومية: محمد بن داود بن أجروم (ت٧٢٣هـ = ١٣٢٣م).

جمعية التراث بالقرارة ومشروعها الطموح لحماية المخطوطات في منطقة وادي ميزاب (الجزائر)

٣ – أسرار العربية: عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنباري، أبو البركات (ت ٥٧٧هـ).

٤ – الإعراب عن قواعد الإعراب: عبدالله بن يوسف ابن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري، جمال الدين، أبو محمد (٧٦٢هـ = ١٣٦٠م).

٥ – شرح الآجرومية في أصول علم العربية: خالد بن عبدالله بن أبي بكر الأزهري (٩٠٥هـ = ١٤٩٩م).

٦ – شرح الآجرومية: مجهول المؤلف.

٧ – شرح الآجرومية: مجهول المؤلف.

٨ – شرح الأزهرية في علم العربية: خالد بن عبدالله الأزهري (٩٠٥هـ = ١٤٩٩م).

٩ – شرح قصيدة في العروض: مجهول المؤلف.

١٠ – شرح في النحو: مجهول المؤلف.

١١ – مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري (٧٦٢هـ = ١٣٦٠م).

١٢ – نسخة أخرى منه.

١٣ – كتاب في النحو: مجهول المؤلف.

ثامنًا – الشعر والنظم

أ – علوم القرآن:

١ – جامع حرف ورش: ح محمد بن ح يوسف اطفيش (١٣٣٢هـ ١٩١٤م).

ب – أصول العقيدة:

١ – قصيدة في الفخر بالمذهب، وذكر شيء من عقائد الإباضية: مجهول.

٢ – النونية: فتح بن نوح الملوشائي، أبو نصر (ق ٧هـ – ١٣م).

٣ – نونية في التوحيد: مجهول المؤلف.

ج – الفقه وأصوله:

١ – تحفة الأحكام: محمد بن عاصم، أبو بكر (؟).

٢ – الدعائم: أحمد بن النظر العماني، أبو بكر (ق ٦هـ – ١٢م).

٣ – رائية الصلاة: فتح بن نوح الملوشائي السابق.

د – التاريخ والسير والمدائح والتراجم:

١ – قصيدة في إغاثة بني مصعب لورجلان حين هجوم بني جلّاب: أبو القاسم بن يحيى (ق ١١هـ = ١٧م).

٢ – البردة: إبراهيم بن بيحمان بن محمد الثميني (١٢٣٢هـ = ١٨١٧م).

٣ – نسخة أخرى منه.

٤ – بعض الأوراق في مدح صاحب البراق: مجهول المؤلف.

٥ – قصيدة في مدح برهان من كتاب النبهان: المؤلف مجهول.

٦ – قصيدة قبضة النور في مدح خير الأنوار: المؤلف مجهول.

٧ – قصيدة في مدح خير الدول من نبهاني الأول: المؤلف مجهول.

٨ – قصيدة في مدح العمانيين ونسبة الدين: أبو القاسم بن يحيى (ق ١١هـ – ١٧م).

٩ – قصيدة في ذكر نسب الدين والنعي على من يتنكر لمذهب الإباضية: محمد بن مدّاد بن محمد النزوي العماني (؟).

١٠ – قصيدة في مدح الرسول ﷺ: النعمان بن ثابت التيمي بالولاء الكوفي، أبو حنيفة (١٥٠هـ = ٧٦٧م).

١١ – نسخة أخرى منه.

١٢ – الهمزية: محمد بن سعيد بن حماد بن عبدالله الصنهاجي المصري البوصيري، شرف الدين، أبو عبدالله (٦٩٦هـ = ١٢٩٦م).

١٣ – قصيدة (في مدح النبي ﷺ): المؤلف مجهول.

هـ – حكم، وصايا، مواعظ، زهد، تصوف:

١ – قصيدة في الاستغفار: سعد بن محمد بن رفيعة البهلوي العماني (؟).

٢ – قصيدة في الاعتبار بأصحاب القبور: مجهول.

٣ – قصيدة بائية في الحكمة: فتح بن نوح الملوشائي السابق.

٤ – نسخة أخرى منه.

٥ – قصيدة حائية في المواعظ: للمؤلف السابق.

٦ – الخمسية: للمؤلف السابق أيضًا.

٧ – قصيدة وصية معشر الشباب: عيسى بن إسماعيل بن أبي مهدي (٩٧١هـ = ١٥٦٤م).

٨ – قصيدة في المواعظ: جنُّون بن يمريان الورجلاني، أبو صالح (ق ٤هـ = ١٠م).

٩ – قصيدة في الموعظة والحكمة: مجهول.

١٠ – قصيدة فيها مواعظ لابن آدم: مجهول.

١١ – قصيدة فيها دعاء مبارك: مجهول.

و – موضوعات مختلفة:

١ – قصيدة في مدح زوجة عمر بن سليمان: عمر بن سليمان (؟).

٢ – قصيدة من بحر الهزج. في مدح صاحب الفرج: مجهول.

ز – حكم (وصايا، ومواعظ، وفلسفة، وتصوف، وزهد، وترغيب وترهيب):

١ – ترغيب الراهب وترهيب الراهب: حمو بن باحمد بابا وموسى (١٩٥٧م).

٢ – كتاب في التصوف: أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي، رواية عن شيخه عبد العزيز بن مسعود الرباغ الأوريسي الحسني (؟).

٣ – مجموعة أدعية: مجهول.

٤ – [مراسلة لإمام مسجد غرداية ح. محمد بابه وموسى، فيه جواب على تعزية إثر وفاة القاضي بابكر بن ح. مسعود]: ح. محمد بن أحمد صالح بابا وموسى (ت ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م).

تاسعًا – علوم طبيعية ورياضيات: (الطب، والكيمياء، والحساب، والفلك، والتنجيم):

١ – حاشية على كتاب المقنع في علم أبي مقرع: محمد ابن عبدالعزيز بن أبي بكر بن أحمد بن يعقوب الجزولي الرسموكي اليعقوبي (؟).

٢ – نسخة أخرى منه.

٣ – كتاب في الطب: مجهول. ●

●●●

الحواشي

١ – أنجز هذا البحث في إطار مشروع البحث الذي أرأسه في معهد اللغة العربية وآدابها بجامعة باتنة، بعنوان (إحياء التراث).

٢ – انظر تفاصيل أخرى عن هذه العوامل في مقالنا «مراكز المخطوطات في الجزائر: أماكنها ومحتوياتها»، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٣٩، ١/ ٨، ٩، يوليو ١٩٩٥.

٣ – المدن السبع في وادي ميزاب: ٦، وميزاب بلد كفاح: ١٣، وكتاب الجزائر: ٢٢٦.

٤ – تقع مدينة القرارة شرق وادي ميزاب، على بعد مائة وعشرين (١٢٠) كم. المدن السبع في وادي ميزاب: ٦.

٥ – ميزاب بلد كفاح: ١٩.

٦ – كتاب الجزائر: ٢٢٦.

٧ – المدن السبع في وادي ميزاب: ٦.

٨ – عن نشأة الدولة الرستمية وتاريخها، ينظر: تاريخ الجزائر في القديم والحديث: ٢/ ٦٣. وما بعدها. و: كتاب الجزائر: ٢٠.

٩ – ميزاب بلد كفاح: ١٧. المدن السبع: ٦.

١٠ – ميزاب بلد كفاح: ١٥.

١١ – ميزاب بلد كفاح: ١٥، ١٦.

١٢ – ميزاب بلد كفاح: ١٨، ١٩.

١٣ – كتاب الجزائر: ٢٢٦.

١٤ – ميزاب بلد كفاح: ٤٦.

١٥ – ينظر: مخطوطات مكتبة آل يدّر، جمعية التراث، ص: ز – ح.

١٦ – يشرف على المعجم د/ محمد ناصر، وقد تمّ إنجاز القسم الخاص بأعلام المغرب (٢٠٠٠) ترجمة، وينتظر استكمال أعلام المشرق. ينظر: جمعية التراث: ٩.

١٧ – يرجع الفضل في بلورة فكرة إنشاء الجمعية وتدعيمها حتى خرجت إلى حيّز الوجود إلى الدكتور محمد ناصر.

١٨ – من أهداف الجمعية الأخرى:

– المحافظة على التراث المكتوب والمروي والمعماري.

– تنشيط الصناعات التقليدية.

– إنشاء مكتبات.

– إنشاء مجلة ومطبعة خاصة بالجمعية.

– مساعدة الباحثين والدارسين وتشجيعهم؛ أساتذة وطلبة.

– تنظيم أيام دراسية وندوات وملتقيات للتعريف بتراث المنطقة.

– التعريف بالشخصيات العلمية ودراسة أفكارها.

– تكوين متاحف تُعنى بحضارة المنطقة.

ينظر: جمعية التراث: ٨ وما بعدها، وفهرس مخطوطات مكتبة آل يدّر، ص: ج وما بعدها.

١٩ – ينظر: الفهرس الشامل لمخطوطات مكتبة آل يدّر، ص: ط، ي.

٢٠ – ينظر: تقرير حول المخطوطات في الجزائر، بحث ألقي في اجتماع الهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي – معهد المخطوطات العربية المنعقد في ١٨ – ١٩ ديسمبر ١٩٩٦م بالقاهرة، ١٣، ١٤.

٢١ – ينظر: فهرس مخطوطات مكتبة إروان ٣ دار التلاميذ بالعطف»، ص: ك، ل.

٢٢ – فهرس مخطوطات إروان، ص: ل.

٢٣ – سنعمل على تقديم قراءات في الأدلة الأخرى حال حصولنا عليها تعميمًا للفائدة.

٢٤ – ذكرت عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها كما وردت في الأدلة المذكورة، وقد لوحظ عدم ذكر تاريخ ولادة بعض الأعلام أو وفاتهم.

٢٥ – لمعرفة المزيد من المخطوطات التي استنسخها الشيخ عمي سعيد يُنظر: الملحق الثالث في آخر فهرس المكتبة: ٤٢.

المصادر والمراجع

أعوشت : بكير بن سعيد.

– وادي ميزاب في ظلّ الحضارة الإسلامية «دينيًّا، تاريخيًّا، اجتماعيًّا»: المطبعة العربية، غرداية – الجزائر، ١٩٩٣م.

– ميزاب يتكلم «تاريخيًّا، عقائديًّا، اجتماعيًّا»: المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ١٩٩٣م.

جمعية التراث :

– مخطوطات مكتبة آل يدّر، القرارة، غرداية – الجزائر، ١٩٩٤م.

– «ادّكار، اعتبار، استفسار»، القرارة، غرداية – الجزائر، ١٩٩٢م.

– فهرس مخطوطات مكتبة إروان، دار التلاميد بالعطف، القرارة، غرداية – الجزائر، ١٩٩٦م.

– فهرس مخطوطات مكتبة الشيخ عمي سعيد، القرارة، غرداية – الجزائر، ١٩٩٤م.

– مخطوطات مكتبة البكري (الشيخ عبد الرحمن بكلّي)، القرارة، غرداية – الجزائر، ١٩٩٤م.

الطلاي : إبراهيم:

– المدن السبع في وادي ميزاب، لبني يزقن، غرداية – الجزائر، د.ت.

– مزاب بلد كفاح «دراسة تاريخية اجتماعية»، دار البعث، قسنطينة – الجزائر، ١٩٧٠م.

عوفي : عبد الكريم:

– تقرير حول المخطوطات في الجزائر، مخطوط.

– مراكز المخطوطات في الجزائر «أماكنها ومحتوياتها»: مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٣٩/ ج١/ ١٩٩٥م.

المدني : أحمد توفيق.

– كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م.

الميلي : مبارك بن محمد.

– تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر، دار الغرب الإسلامي – بيروت. د.ت.

ملامح ثقافية من علماء ليبيا وأدبائها في العصور الإسلامية

الدكتور/ الطيب علي الشريف

جامعة السابع من أبريل

الزاوية - ليبيا

لم تخل ليبيا، على مرّ العصور من علماء وأدباء ليبيين، كما زارها كثير من العلماء الرُحّل، واستوطنها علماء من المشرق والمغرب، فكان لهؤلاء وأولئك أثر واضح في إنعاش مسيرة الحياة الثقافية واستمرارها حية نشطة عبر العصور الإسلامية، وليس أدلّ على ذلك من أن الطلاب الليبيين، الذين لم تمكنهم ظروفهم من الهجرة لأجل طلب العلم، قد وجدوا في هؤلاء الأساتذة غنى عن الهجرة، حيث أفادوا منهم بما أهلهم للتصدي للفتوى وتصدُّر مجالس العلم، والتأليف في علوم العصر كلّها، وكانوا في هذه المجالات وما شابهها محل تقدير واحتياج من مشايخهم وتلاميذهم وغيرهم، كما مرَّ في بعض المصادر أن عددًا من العلماء الليبيين، ممن كانت لهم شهرة واسعة، لم يغادروا ليبيا لطلب العلم[1].

أما من ساعدتهم ظروفهم على طلب العلم في الخارج: في تونس، ومصر، أو الحجاز والشام، وسواها، فقد كانت أمامهم الفرص أرحب للقاء العلماء، والاطلاع على المكتبات، والتنافس في ميادين الثقافة المختلفة، وقد نبغ منهم الكثيرون، فشاركوا في ميادين المعرفة المختلفة، وكانوا في مستوى نُظرائهم: مقدرة، وكفاءة، ومنزلة رفيعة محترمة، كما سيأتي توضيحه تباعًا، في هذا البحث إن شاء الله.

وهؤلاء العلماء والأدباء، الليبيون والزائرون، من الكثرة حيث يصعب استقصاؤهم وحصرهم في هذا البحث المختصر، ولكن ذلك لا يمنع من إلقاء الضوء على بعضٍ منهم، ومتابعة نتف من أخبارهم، والدلالة على مصادرها، استيضاحًا لمكانتهم العلمية وأثرهم في المحافظة على مسيرة الحياة الثقافية وتواصلها عبر العصور الإسلامية، والقصد من وراء ذلك لفت أنظار الباحثين إلى هذا الميدان الخصب المغمور المُغشّى بتراكم غبار السنين، والمحاط بمجاهل الإهمال والنسيان، علّهم يستطيعون اقتحام المصاعب إليه، فيجدون فيه ما يُغري بالانتفاع فَيَفِيدون، ويُفيدون.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا البحث مقسّم إلى مباحث فرعيّة، تبدأ بمتابعة أخبار بعض العلماء والأدباء الليبيين ممن كانت لهم شهرة واسعة في الداخل والخارج، ولهم مؤلفات ومشاركات علمية وأدبية تُذكر، ثم عرض لأخبار بعض العلماء الزائرين من المشرق والمغرب، ممن كانت لهم رحلات لطلب

العلم، أو التجارة، أو الحج، أو غيرها من الأغراض، فمروا بليبيا مُشرّقين ومغرّبين، وشاركوا بما تيسر لهم في بناء نهضتها الثقافية، ثم تعريف بعض الشخصيات العلمية والأدبية المشهورة من الليبيين، ممن اقتصر تعليمهم على ليبيا وحدها، ولم تكن لهم رحلات علمية للخارج، وتعريف ببعض العلماء الليبيين الذين كانت لهم مشاركات علمية وأدبية خارج ليبيا، كالذين كانوا يُستدعون من قبل بعض حكام البلدان العربية شرقًا وغربًا، أو علمائها؛ لشغل مناصب القضاء أو الفتيا أو الخطابة، أو للمناظرة والمجادلة، أو لغيرها من المهام، وما لذلك من دلالة واضحة على مدى غنى ليبيا بالعلماء والأدباء وأهميتهم ومكانتهم بين نظرائهم من العلماء والأدباء خارج ليبيا.

والمُراعى في هذا البحث عمومًا الاختصار في التعريف بالشخصيات، والاكتفاء بنماذج موزعة على العصور المختلفة، ثم الإحالة على المصادر لمن أراد الاستزادة، وذلك لوفرة العلماء في غالب فروع العلوم المنتشرة آنذاك، وضيق المقام عن الحصر والاستقصاء؛ إذ الغاية التدليل على أن ليبيا لم تكن، في عصر من العصور، قفرًا من المعرفة، ولا خلوًا من العلماء والمثقفين، كما يتراءى لبعضهم، ممن عنّ لهم القدح فيها، واتهامها بالجهل دون استثناء ودون تروٍّ أو تثبت(٣).

علماء ليبيون وأدباء:

نورد تحت هذا العنوان تراجم مختصرة لعدد من العلماء الليبيين والأدباء، ممن كانت لهم شهرة، ومشاركات علمية أو أدبية تذكر، على وجه من الوجوه :

ابن مغطير النقوسي(٣):

هو محمد بن عبدالحميد بن مغطير، النقوسي، الجناوني(٤)، من علماء جبل نقوسة، كان فقيهًا، فاضلاً، مفتيًا، له هيبة ووقار، وهو أول من جمع القرآن كله في جبل نقوسه، وحفظه، وعلّمه للناس، كان موجودًا عام ١٣٥هـ(٥)

ابن زياد:

هو أبو الحسن علي بن زياد، من علماء القرن الثاني الهجري، نشأ في طرابلس، وتعلم بها، ثم سكن تونس، واشتُهر بين علمائها.

كان فقيهًا ثقة، سمع عن مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وابن لهيعة، وغيرهم، وسمع عنه سحنون، وابن الفرات، وسواهم من مشاهير العلماء. تذكر المصادر أنه لم يكن بإفريقيّة في عصره مثله، ولم يكن سحنون يقدّم عليه أحدًا من أهل إفريقيّة، ولم يكن فيها أحد أعرف منه بضبط العلم ومنازل العلماء (ت ١٨٣هـ)(٦).

محمد البرقي(٧):

هو محمد بن عبدالله بن عبدالرحيم بن أبي زرعة، البرقي، نسبة إلى برقة، كان فقيهًا عالمًا، سكن مصر، وبيته فيها بيت علم مشهور، له تآليف كثيرة، منها: مؤلف في مختصر ابن عبدالحكم، وكتاب في التاريخ، وآخر في الطبقات، وله كتابات في رجال الموطأ، وفي غريبه، توفي في منتصف القرن الثالث الهجري (٢٤٩هـ)(٨).

عبدالجبار السّرتي(٩):

هو عبدالجبار بن خالد بن عمران السّرتي، نسبة إلى سرت، المنطقة الوسطى من ليبيا، من مشايخه سحنون وغيره من مشاهير عصره. بلغ في العلم درجة عالية، حتى عُدّ من أكابر العلماء، وهو في محل الرضا والإعجاب من أساتذته، وليس أدلّ على ذلك من أن سحنونًا كان لا يبدأ في درسه إلا بعد حضور عبدالجبار مجلسه، ويسأل عنه إذا تأخر أو غاب، وكان السرتي في العلم من طبقة سحنون، وبه يضرب المثل في الفضل، والتديّن، في إفريقيّة، وكان

طلابه يتسابقون إلى مجلسه، حتى يغص بهم المجلس، (ت ٢٨١هـ)[١٠].

ابن زكرون:

هو علي بن أحمد بن زكرياء بن الخطيب بن زكرون، الطرابلسي، الهاشمي، فقيه، محدث، ناسك، زاهد، أخذ العلم عن أبي عبدالله الجيزي، وابن المنذر وابن شعبان، وابن الأعرابي، وابن الجارود، وغيرهم، ومن تلاميذه: أبو الحسن القابسي، وأبو علي الحسن، قاضي طرابلس الغرب، وعيدوس الطليطلي، والوليد بن بكر الأندلسي، وسواهم من العلماء.

"انتفع به أهل طرابلس، وتعلموا منه الفقه، والحديث، والنسك .. وقد صحب جماعة من النسّاك"[١١].

كان رجلاً صالحاً، متعبّدًا، له تواليف كثيرة في الفقه، والفرائض، وغيرها من العلوم الشرعية (ت ٣٧٠هـ)[١٢].

ابن المنمّر الطرابلسي:

هو علي بن محمد المنتصر بن المنمّر الطرابلسي، ولد بطرابلس، وبها نشأ، وحفظ القرآن الكريم، وأخذ مبادئ العلوم عن بعض أساتذتها، ثم رحل إلى المشرق فحج، وأخذ العلم عن عدد من أكابر العلماء، مثل: ابن زريق البغدادي، والقاسم الجوهري، وأمثالهم، وعاد إلى طرابلس، فانتفع به طلاب العلم المقيمون والزائرون، مثل: يوسف بن عبدالرحمن بن حماد المجريطي[١٣]، الذي لازمه مدة، لما مرَّ بطرابلس في رحلته إلى المشرق، وقرأ عليه كتابه في الفرائض.

كان ابن المنمّر من أعيان العلماء المبرزين، عارفًا بالنحو، واللغة، والأدب، بارعًا في الحديث، والفقه، والأصول، وغيرها من العلوم، مثل علوم: الفرائض، والفلك، والحساب، له تآليف كثيرة في العلوم الشرعية، والأزمنة، والحساب، مقدّمًا لدى العلماء والوجهاء.

شُهر ابن المنمّر بقوة إرادته، وشدته في مناصرة الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، ومن ذلك أنه كان من أشدّ خصوم العبيديين[١٤]، وأكبر معارضيهم، لمّا نشروا بدعهم في الدين في الشمال الإفريقيّ مثل منعهم لصلاة التراويح، وصلاة الضحى، وزيادتهم عبارة: "حي على خير العمل" في الأذان، وأذّن أذان السنّة بنفسه، وأمر الناس بصلاة ركعتي الضحى، وكان العبيديون يقتلون من صلاهما، وصلى بالناس صلاة التراويح في طرابلس، وأعاد ما كانوا أبطلوه من معالم السنة.

ولما تغلّب ابن خزرون[١٥] على طرابلس، عمل على إرضاء العبيديين؛ لأنه من أنصارهم، فافتتح عهده بالقبض على ابن المنمّر، وجرّعه كؤوس الذل والإهانة، حيث شرّد عنه تلاميذه وأتباعه، ومنعه من التدريس، وصادر ممتلكاته، وضيّق عليه في رزقه، ثم نفاه إلى بلدة غنيمة[١٦] فبقي بها إلى آخر حياته (ت ٤٣٢هـ)، ودفن بمنفاه، وقبره لا يزال معروفًا هناك[١٧].

محمد الأجدابي[١٨]:

هو محمد بن أبي سعيد بن شرف الأجدابي، نسبة إلى أجدابيا، عالم كبير وأديب بارع، ورد في نعته: "نظم قلائد الأدب، وجمع أشتات الصواب، وتلاعب بالمنثور والمنظوم تلاعب الريح بأعطاف الغصون"[١٩].

له عدة تواليف، منها: أعلام الكلام، وأبكار الأفكار. عاصر ابن رشيق القيرواني، وبينهما مطارحات شعرية، منها: لما سمع قول ابن رشيق، متذمرًا من أهل زمانه، باثًّا شكواه منهم:

ممّا يُبَغِّضُني في أرضِ أندلُسٍ

سَماعُ مقتدرٍ فيها ومعتضِدِ

ألـقـابُ مملـكـةٍ في غيرِ مَـوضِـعـهـا

كـالهرّ يـحكي انتفاخًا صولَةَ الأسدِ[٢٠]

والأبيات مشهورة، جرت بها الألسن، وصارت مضرب المثل، ، ردّ عليه الأجدابي بقوله:

إن تَـرمِـك الـغُـربـةُ في مـعشَـــرٍ

قـد جُـبـلَ الـطـبـعُ عـلـى بُـغـضِـهـم

فـدارِهِــمْ مــادمتَ في دارِهـم

وارْضِـهـم مــادمتَ في أرضِـهـم[٢١]

وأبيات الأجدابي هنا، لا تقل شهرة عن أبيات ابن رشيق هناك، وشعره، بشكل عام، جيد راق، منه قوله :

كسـيتُ قِـنـاعَ الشّـيبِ قـبـلَ أوانـه

وجسـمِـي عـلـيـه لـلشَّـبابِ وشَـــاح

ويـاربَّ وجـهٍ فـيـه لـلـعينِ نُـزهــةٌ

أُمـانـع عـيـنـي مـنـه وهْـوَ مُـبــاحُ

وأهـجـرُهُ وهْـوَ اقتراحـي مِنَ الـوَرى

وقـد تُـهـجَـرُ الأمـواهُ وَهْـي قِـداحُ[٢٢]

وصف بالعلم، والذكاء، والعقل، والحزم، كان موجودًا عام ٤٤٧هـ[٢٣].

ابن البرقي:

هو علي بن محمد، المعروف بابن البرقي، نسبة إلى برقة، الجزء الشرقي من ليبيا، كان أديبًا، شاعرًا، بينه وبين أدباء عصره مكاتبات، وردود، ومودة، وتقارب.. ومن شعره قوله:

رمـانـي الـدهــرُ مــنــه بـكـلّ سَـهـم

وفـرّقَ بـين أحـبـابـي وَبَـيـنـي

فَـفـي قَـلْـبـي حـرارةُ كـلّ قـلـبٍ

وَفي عـيـنـي مَـدامِـعُ كـلّ عينِ[٢٤]

وقوله:

ولي سَـنـةٌ لم أدرِ مـا سـنـةُ الـكَـرى

كـأن حـقـوتـي مَـسمَـعُ والكَرى عذلُ[٢٥]

الأبيات تنبئ عن شاعرية جيدة، وحس مرهف، وذوق أدبي رفيع، لم تورد له المصادر إلا نتفًا يسيرة (ت ٥٢٢هـ)[٢٦].

أبو الحسن الهواري[٢٧]:

هو أبو الحسن بن موسى بن عمران الهواري، الطرابلسي، أخذ علومه الأولى من علماء طرابلس، ثم رحل إلى تونس، فأكمل علومه، وتفقّه عن علمائها، من أبرز أساتذته أبو موسى زكريا البوتي. كان خطيبًا، أديبًا، فقيهًا، عالمًا، له شعر رقيق جيد، منه قوله في معاندة الزمان، ومعاكسة الظروف له:

آهًـا تُـرَدد لـو تَـشـفِـي لـنـا كـربـا

وبـالـتـعـلات نـحـيـا لـو قَـضَـتْ أربـا

وبـالأمـانـي يـنـالُ الـقـلبُ بُـغـيـتـهُ

وقـد تحـقـقَ مـن مُـعـتـادِهـا كَـذبـا

يـرتـاحُ إنْ لاحَ بـرق مـن جَـهـامـتِـهـا

ومـا تَـراءى لـه إلا وَقَـد ذَهَـبـا

يُـسَـرُّ إن مُـدَّ يـومًـا حـبـلُ مُـنْـيـتـه

ومـا تـطـاولَ إلا جُـذَّ وانـقـبـضـا[٢٨]

الأبيات معبرة عن مدى تحسره وكمده، فهو لا يملك إلا الآهات، وتعليل النفس بالأماني، وهي لا تشفي غليلاً، ولا تفيد قليلاً ولا كثيرًا.

ومما زاد في شقائه وتعاسته فضول لسانه،

الذي امتُحن من أجله عدة مرات، وتعرض للإهانة، والسجن[٢٩]، ومن شعره في الرد على صديق له شاعر كان مسجونًا معه[٣٠]، فكتب له أبياتًا يهنئه بالعفو عنه، قوله:

لـئـن سـرَّني فكّ الأسـارَى مـن الحبس
فـقـد سـاءني فَـقـدي لما فـيـه مـن أنسـي

ولـو أنــنـي خُـيرت فـيـمـا أريـــده
لآثـرتُ تـقـديمي سَـراحكَ عـن نـفسي[٣١]

وله مقطوعات في الإخوانيات، ولد بطرابلس عام ٦٠٦هـ[٣٢].

الجيطالي[٣٣] النقوسي:

هو أبو طاهر إسماعيل بن موسى، الجيطالي، النقوسي، أخذ العلم عن أئمة الجبل، وفي مقدمتهم: أبو موسى الطّرميسي[٣٤]، وأمضى سنوات طويلة متنقلاً بين مدن الجبل مدرسًا ومربيًا، ثم ذهب إلى طرابلس[٣٥]، وبعدها قصد مدينة جربة بالجنوب التونسي، فتلقاه علماؤها بالترحاب، واجتمع إليه الطلبة، وكان يقرئ ويصنف في المجلس الواحد.

ترك الجيطالي وراءه مصنفات كثيرة، أغلبها في الدراسات الإسلامية، منها على سبيل المثال: كتاب الحج والمناسك، وكتاب في الفرائض، وقواعد الإسلام، وقناطر الخيرات، وغيرها، وله كتاب في الأدب يضم مجموعة قصائد. ولكثرة مصنفاته، وتركه مكتبة كبيرة لا تقل عما تركه الفيلسوف أبو حامد الغزالي، لقب بفيلسوف الإسلام.

طبعت له بعض الكتب حديثًا، مثل كتابه: قناطر الخيرات، الذي تم طبعه عام ١٣٠٧هـ في ثلاثة أجزاء، ثم أعيد طبعه عام ١٣٨٥هـ. (ت ٧٥٠هـ) بتونس[٣٦].

أبو يوسف اليفرني[٣٧]:

هو أبو يوسف يعقوب بن أحمد بن موسى، اليفرني، نشأ ببلدة يفرن بجبل نقوسة، وتعلم في كتّابها، وأخذ بها مبادئ العلوم المتداولة في عصره، ثم رحل إلى تونس فأكمل تعليمه، ونال شهرة واسعة في علوم اللغة، أثنى عليه كثير من أساتذة تونس، وقالوا: ما في تونس أنحى منه، ويؤيد ذلك أنه اختلف مع بعض أهل اللغة في مسألة نحوية، فاستشهد بما يقرب من عشرين شاهدًا من أشعار العرب؛ لإثباتها. قيل عنه: كان لا يلحن في إعراب، ولا تصريف. وورد في التعبير عن مكانته العلمية: "أما النحو، فعشّه الذي يعرف كيف يدخل فيه ويخرج، وأما اللغة والتصريف فيا للعجب!! وأما التفسير فلو ادعى أحد أنه ما شذّ عليه[٣٨] شيء من التفسير لما كذب .."[٣٩]. على الرغم من تبحره في العلم، إلا أنه لم يترك تآليفا (ت ٨٩٤هـ)[٤٠].

الحطّاب الصغير[٤١]:

هو محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن حسين الحطاب، عالم كبير، متنوع الثقافة، مكثر من كل فن، من أساتذته: ابن حجر، والسيوطي، والسخاوي، والبرهان، والقلقشندي، والصاغاني وغيرهم من جلة العلماء، أخذ عنه: عبدالرحمن التاجوري، ومحمد القيش، ومحمد القلاني وسواهم.

تبحّر في علوم الشريعة، وعلوم اللغة، والرياضيات، وأحاط بفنون عصره، عُدّ من كبار أئمة المالكية بالحجاز وآخرهم[٤٢]. تدل على إمامته كثرةُ تآليفه في العلوم المختلفة، فمن تآليفه في العلوم الشرعية مثلاً: شرح مختصر خليل في الفقه، وشرح قرة العين في الأصول، لإمام الحرمين، وتحرير الكلام في مسائل الالتزام[٤٣]، وهداية السالك، وغيرها كثير.. ومن تآليفه في علوم اللغة: مختصر إعراب خالد الأزهري للألفية، وحاشية على توضيح النحو، والمواضع التي غلط فيها القاموس والصحاح، وسواها[٤٤].

كان مقدمًا لدى العلماء، محبوبًا من تلاميذه،

ملامح ثقافية من علماء ليبيا وأدبائها في العصور الإسلامية

توفي في طرابلس عام ٩٥٤هـ، ودفن داخل المدينة(٤٥).

وغيرهم من العلماء، والأدباء، والأعلام، المشاهير في كل العصور، أمثال: الخروبي، وابن أبي الدنيا، والبرقي، والزنزوري، والأجدابي اللغوي، ومن على شاكلتهم، وهم كثر.

وإنما وقع الاختيار على من سبقت الترجمة لهم، موزّعين على العصور المختلفة، من القرن الثاني الهجري إلى القرن العاشر؛ لإعطاء أمثلة توضيحية للمسيرة العلمية والثقافية في ليبيا خلال العصور الإسلامية، مع ملاحظة أنهم يمثلون التخصصات المتداولة آنذاك كافة، من إسلاميات، ولغويات، وأدبيات، وفلسفة، وفلك، وتصوف، وما شابهها، وأنهم من مشاهير العلماء، وأكثرهم لهم مصنّفات منوعة، ومما لا شك فيه أنه يوجد العشرات من أمثالهم، وأكثر من ذلك يوجد العشرات من العلماء الذين لم يصلوا إلى شهرتهم، ولم تكن لهم تواليف، وللإلمام ببعض هؤلاء وأولئك يمكن الرجوع إلى كتب التراجم(٤٦).

الأساتذة الزائرون والطلاب:

مرّ بليبيا كثير من العلماء وطالبي العلم، فأفادوا واستفادوا، وأحدثوا بزياراتهم تلك نشاطات علميّة في الميادين المختلفة على مرِّ العصور، ولا يخفى أن ذلك راجع إلى الموقع الجغرافي للبلد، الذي يحتم على كل من يريد العبور من المشرق إلى المغرب، أو العكس، أو الدخول إلى أواسط إفريقيّة أن يمر به، ونظرًا لوقوعه على البحر، واعتدال هوائه، فقد يُغري بعضهم بالإقامة والاستقرار، أو إطالة مدة الزيارة .

وبعض أولئك الأساتذة كانوا يأتون إلى ليبيا لتولّي مناصب القضاء أو الفُتيا أو لإدارة بعض الوظائف الرسمية في الدولة، وقد كثُر الأساتذة الزائرون، حتى إنهم شاركوا في إغناء بعض الطلاب الليبيين عن الرحلة إلى الخارج لطلب العلم، مثل: ابن الأجدابي، العالم المشهور، الذي سئل: أنى لك هذا العلم ولم ترتحل؟ فقال: "اكتسبته من بابي: هوارة، وزنانة"(٤٧)، يشير إلى أنه أفاد من الأساتذة الزائرين، الذين كانوا يدخلون إلى مدينة طرابلس من هذين البابين(٤٨).

وقد يكون بعضهم بالغ في تقدير هؤلاء الأساتذة الزائرين لمّا قال: "إن طرابلس كانت تعتمد في ثقافتها على من يفد إليها من الحجاج وطلاب العلم، مشرّقين ومغرّبين، وعلى من يَستصحبهم أمراء إفريقيّة في طريقهم إلى الحج من أهل العلم والفضل"(٤٩)؛ إذ يبدو واضحًا من النص تجاهل علماء ليبيا، وهو مخالف للواقع، فليبيا لها علماؤها على مرِّ العصور، وقد أفادوا، واستفادوا كما يتضح من هذا البحث.

ومن أولئك الأساتذة الزائرين والطلاب، على سبيل المثال:

سحنون:

هو عبدالسلام بن سعيد بن حبيب، التّنوخي(٥٠)، الملقب بسحنون، صاحب مالك بن أنس رضي الله عنه، ولقب بالإمام؛ لسعة علمه. انتشر مذهب الإمام مالك بالمغرب العربي على يديه. ومن مآثره: أنه ولي قضاء إفريقيّة دون أن يتقاضى عليه أجرًا .

كان قدومه إلى ليبيا عام ١٩١هـ، ويبدو أنه أول ما نزل بمدينة أجدابيا، فقد ذكر حمديس القطان: أنه سمع سحنونًا يقول: "سمع مني العلم سنة إحدى وتسعين ومائة أهل أجدابيا"(٥١)، ثم انتقل إلى طرابلس، فاتّخذها مقامًا له مدة من الزمن، فأفاد كثيرًا من الطلاب، وكان شديد الإعجاب بتلاميذه، فخورًا بهم، كثير الثناء عليهم(٥٢)، (ت ٢٤٠هـ)(٥٣).

محمد الأندلسي:

هو محمد بن وضاح بن بزيغ، الأندلسي، رحل من

مقالات

الأندلس إلى المشرق، عام ٢١٨هـ، فمر بطرابلس، وأفاد من عالمها إبراهيم بن حسان الطرابلسي[٥٤].

ابن فُطيس :

هو محمد بن فُطيس بن واصل، الغافقي، أندلسي الأصل، من أهل إلبيرة غرب غرناطة، رحل إلى المشرق عام ٢٥٧هـ، ثم عاد إلى إلبيرة. أخذ العلم عن بعض علماء ليبيا عند مروره بها في أثناء رحلته[٥٥].

أبو الحسن العجلي[٥٦]:

هو أحمد بن عبدالله بن صالح العجلي، كوفي الأصل، نشأ ببغداد، ثم انتقل إلى المغرب العربي، فسكن طرابلس، وانتشر حديثه فيها، كان يُشبّه بأحمد بن حنبل في سعة علمه وشهرته، وكان خروجه إلى المغرب أيام محنة ابن حنبل، (ت ٢٦١هـ)[٥٧].

ابن عيسى البياني[٥٨]:

هو محمد بن عيسى البياني، عالم أندلسي، مرّ بليبيا في أثناء رحلته إلى المشرق، فأخذ عنه العلم بعض الطلاب الليبيين، منهم: أحمد بن الحسين بن محمد الطرابلسي، بطرابلس عام ٣٣٢هـ، وحماد بن شقران ببرقة، عام ٣٣٨هـ، وحدث عنه[٥٩].

البَطَلْيوسي[٦٠]:

هو هاشم بن يحيى بن حجاج، البطليوسي، الأندلسي، قام برحلة إلى المشرق، فمر بطرابلس، وسمع من عالمها أبي بكر بن دحمان المصيصي[٦١] الطرابلسي، عام ٣٣٨هـ[٦٢].

أبو محمد الغماري[٦٣]:

هو أبو محمد عبدالله بن عبدالكريم، الغماري، مغربي الأصل، فقيه، محدث، أديب، شاعر، اجتاز بطرابلس قاصدًا المشرق، عام ٦٥٤هـ، فطاب له المقام بها، وطالت إقامته، فدرس عليه طلاب كثيرون، منهم: أبو فارس ابن عُبيدة، العالم المشهور، وقد أخذ عنه علومًا عدة[٦٤].

أبو الحسن البَسْطي[٦٥]:

هو أبو الحسن محمد بن إبراهيم، الأندلسي، البسطي، مرّ بطرابلس عائدًا من الحج في طريقه إلى الأندلس، مع منتصف القرن السابع الهجري تقريبًا.

كان عالمًا علمًا، أديبًا، شاعرًا، كاتبًا، ناقدًا، تصدّى للتدريس في طرابلس مدة من الزمن، تتلمذ عليه طلاب كثيرون، منهم ابن عُبيدة، السابق ذكره[٦٦].

أبو العباس الأعجمي:

أستاذ كبير، قدم من المشرق قاصدًا بلاد المغرب، مرّ بليبيا عام ٦٦٢هـ، ومكث بطرابلس زمنًا، أفاد منه كثير من الطلاب الليبيين والزائرين أيضًا، ومما درّسَه من الكتب كتاب (المعالم) لابن الخطيب[٦٧].

أبو العباس الغماري:

هو أبو العباس أحمد بن عيسى، الغماري، شيخ تونسي جليل القدر، عالم، فقيه، أديب، تولى قضاء طرابلس، وتصدّر مجالس الدرس، فأفاد منه طلاب كثيرون، كان موجودًا عام ٧٠٧هـ[٦٨].

أبو الحسن الأندلسي:

هو الفقيه أبو الحسن محمد بن إبراهيم الأندلسي، اجتاز طرابلس قافلاً من الحج، فقرأ عليه الطلبة بعض تواليفه في العربية، وسمعوا منه شيئًا من شعره[٦٩].

أبو عبدالله القابسي[٧٠]:

هو أبو عبدالله ابن إبراهيم، أبو مسلم القابسي، نسبة إلى قابس، من بلاد تونس، فقيه، محدّث، عالم، تولّى قضاء طرابلس، وقد سبقته شهرته العلميّة، وخبرته الواسعة بالحياة والناس، لم يقتصر في طرابلس على وظيفة القضاء، بل تصدّر مجالس الدرس والمناظرة، فأفاد إفادة واسعة[٧١].

اللّقاني[٧٢] وأخوه:

هما: شمس الدين اللّقاني، وأخوه الناصر، نسبة إلى لقّانة، من بلاد مصر، كانا يدرّسان بزاوية الشيخ أحمد الزروق بمصراتة مع أوائل القرن العاشر الهجري، أخذ عنهما العالم الليبي سالم بن طاهر في مصراتة، ورحل معهما إلى مصر، ثم عاد إلى طرابلس، فتصدى للتدريس بها، وكان مشاركًا في جميع علوم عصره، فانتفع بعلمه أناس كثيرون من الليبيين وغيرهم[٧٣].

وعلى هذا النحو، زار ليبيا كثير من العلماء والطلاب، فأفادوا واستفادوا.

علماء ليبيون مقيمون:

من اللافت للانتباه أن ليبيا لم تخلُ، على مرِّ العصور، من وجود علماء أعلام، لهم صيت ذائع، وشهرة واسعة، ولم تكن لهم رحلات علميّة إلى الخارج، بل منهم من لم يخرج من ليبيا أصلاً، وإنما أخذوا العلم عن علماء ليبيين، وأفادوا من العلماء الزائرين، وذلك يعطي بدون شك صورة واضحة على مدى مشاركة ليبيا في مسيرة الثقافة العالميّة؛ لأنها لم تخل من علماء، وأدباء، ومشاركات علميّة، تقل، أو تكثر، طيلة المدة المعنية بالبحث.

ومن العلماء الليبيين الذين كوّنوا شخصياتهم العلمية في الداخل، ولم تكن لهم رحلات خارجية لطلب العلم:

أبو إسحاق الأجدابي:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد، اللواتي[٧٤]، المعروف بابن الأجدابي، نسبة إلى أجدابيا، وُلد بطرابلس وبها نشأ، وحضر مجالس العلم، وصحب مشايخ عصره، وهو يُعدّ من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم، كلامًا[٧٥]، وفقهًا، ونحوًا، ولغةً، وعروضًا، ونظمًا، ونثرًا.. ولم تكن له رحلة عن طرابلس لطلب العلم[٧٦].

صنّف كتبًا كثيرة مفيدة، منها: كفاية المتحفّظ في اللغة، وكتابان في العروض؛ كبير وصغير، وكتاب في الرد على ما جاء في تثقيف اللسان، وشرح ما آخره ياء من الأسماء، وغيرها كثير[٧٧]، أشهرها وأهمها: كفاية المتحفظ؛ إذ كان مثار اهتمام كثير من العلماء، حيث نقلوا عنه واعتمدوه مصدرًا رئيسًا في اللغة، مثل: أحمد الفيومي في المصباح المنير، وكمال الدين الدّميري في حياة الحيوان، ونظمه الأديب جمال الدين الطبري في نحو ثلاثمائة وألف بيت، ومدحه العالم الأديب جمال الدين العدوي، فأجاد، حيث قال:

مَن كان يَطلبُ في الغَريبِ وَسيلَةً
مِن شاعرٍ أو كاتبٍ مُتلفِّظِ
أو كانَ يبْغِي في الكلام بَلاغةً
فليحفظنَّ كفايةَ المُتحفِّظِ[٧٨]

أثنى على ابن الأجدابي كثير من العلماء؛ منهم: محمد بن الطيب الشرقي، في تجديد الرواية والمجد اللغوي في بعض تصانيفه، والجلال السيوطي في البغية، وغيرهم.

سُئل عن علمه من أين أفاده، ولم يرتحل؟. فأجاب: أنه أخذه عن العلماء الذين كانوا يزورون ليبيا في أثناء رحلاتهم وتنقلاتهم، مشرّقين ومغرّبين، وعن علماء ليبيا أيضًا.

كان ابن الأجدابي موجودًا في القرن الخامس الهجري، فيما بين سنتي: ٤٤٤ - ٤٧٦هـ[٧٩].

ابن عُبيدة:

هو عبدالعزيز بن عبدالعظيم بن عبدالسلام بن عُبيدة، أبو فارس، الطرابلسي، ليبي الأصل، عالم فاضل جليل القدر، قال التجاني: "ناهيك من رجل قد نال من المعارف ما اشتهى، وحاز فيما حاز من العلوم الأصولية والفرعية الغاية والمنتهى، حضرتُ درسه

مقالات

بمسجد مجاور لداره، فرأيت رجلاً متضلّعًا من العلم، حسن العبارة، مشاركًا في علوم جمة، وليس له رحلة عن بلده إلا إلى الحج في عام ثلاثة وسبعمائة"[٨٠].

أخذ أكثر علومه من علماء بلده، وفي مقدمتهم: أبو موسى عمران بن موسى، الطرابلسي، وأفاد كثيرًا من الأساتذة الزائرين، كان موجودًا عام ٧٠٧هـ[٨١].

عبدالرحمن الأبشاتي:

هو عبدالرحمن بن محمد بن إبراهيم، الشهير بيربوع بن مالك السّناني، السّليمي، من علماء الزاوية الغربية وفضلائها، تلقى العلم عن علماء ليبيين، منهم: الشيخ أبو جعفر الجنزوري، ولم تذكر له المصادر، التي أمكن الاطلاع عليها، رحلته إلى الخارج لطلب العلم.

كان مبرزًا في الفضل، والوجاهة، والعلم، والولاية (ت ٨٩٩هـ)، ودفن بمسجده بقرية الأبشات[٨٢].

عبدالعزيز الأنصاري:

هو عبدالعزيز بن محمد، الطرابلسي، الأنصاري، كان تاجرًا وفقيهًا، له حظ من العلم وباع متسع في الأدب، لم تُذكر له رحلة لطلب العلم، كان موجودًا عام ٩١٦هـ[٨٣].

علي العُوسجي[٨٤]:

هو علي بن عبدالحميد العوسجي، من بلدة الحرشا[٨٥]، بالزاوية، كان شيخًا وقورًا، وعالمًا جليلاً، حفظ القرآن بالروايات السبع، وعلّمه أبناء المسلمين في بلدته، حتى إنه اشتهر بـ: "مؤدّب الصبيان"، شارك في علوم كثيرة، ورد في ترجمة ابنه عبدالحميد الآتي ذكره، أنه أخذ عن والده اثني عشر علمًا.

يقال له: أبو حمّيرة، نسبة إلى حمارة كثر ركوبه لها لقضاء حوائجه لمّا تقدمت به السن، لم تذكر له المصادر، التي بين أيدينا، رحلة إلى الخارج لطلب العلم، ت ٩٢٥هـ)[٨٦]. عاش خمسين ومائة سنة، ودفن بداره الملتصقة بمسجده، وقبره الآن[٨٧] صار داخل سور المسجد.

ابن أبي عُمَيلة:

هو علي بن أبي عُمَيلة بن محمد، من علماء العميلات[٨٨]، قضاء الزاوية الغربية، عالم، ناسك، رفيع القدر، تفقه في علوم كثيرة، منها: المنطق، والنحو، والفقه، والتوحيد وسواها. صحب الشيخ عبدالسلام الأسمر عام ٩٢٧هـ، وأفاد منه. لم تُذكر له رحلة لطلب العلم خارج ليبيا (ت ٩٨٩هـ)[٨٩].

يوسف المليلي[٩٠]:

هو يوسف بن علي بن محمد بن حسين، المليلي، عرف بالمحفوظي[٩١]، من علماء الطويبية[٩٢]، من قضاء الزاوية الغربية، فقيه، عالم، حفظ القرآن الكريم في صغره، وأخذ النحو، والمنطق عن أكابر علماء طرابلس، له معرفة بعلوم عصره، تتلمذ للشيخ عبدالسلام الأسمر عام ٩٥٣هـ، لم تُذكر له رحلة لطلب العلم خارج ليبيا، (ت ٩٨٩هـ)[٩٢].

عبدالحميد العوسجي:

هو عبدالحميد بن علي بن عبدالحميد العوسجي، حفظ القرآن الكريم عن والده واشتُهر بحفظه وتجويده بالقراءات السبع، كان عالمًا، ورعًا، تفقه في علوم كثيرة، ونُقل عن اليرموتي[٩٣]: أنه أخذ عن والده (١٢) اثني عشر علمًا، وأخذ عن الشيخ عبدالسلام الأسمر عام ٩٥٨هـ، لم تُذكر له رحلة إلى الخارج لطلب العلم، (ت ٩٩٩هـ)[٩٥].

وغيرهم كثير من العلماء الليبيين، ممن لم تساعدهم ظروفهم على الهجرة لطلب العلم في الخارج، فكوّنوا أنفسهم داخليًا؛ إذ وجدوا في العلماء الليبيين والزائرين ما يسد حاجتهم ويغنيهم عن

السفر، وقد نال بعضهم شهرة علميّة واسعة، مثل: ابن الأجدابي، وابن عبيدة.

علماء ليبيون في الخارج:

لعله من تمام البحث هنا الإجابة عن سؤال قد يدور في الذهن، حول مدى أهمية الأساتذة الليبيين، وتمكّنهم من العلم، وشهرتهم خارج بلادهم، فهل وُجد أساتذة ليبيون بلغوا درجة عالية من العلم أهلتهم لمنافسة غيرهم من كبار العلماء خارج ليبيا؟ وإن وُجدوا، فهل أثبتوا جدارتهم؟ وطاولوا نظراءهم؟

ذلك ما سنعرفه من خلال متابعة أجزاء من سير بعض الشخصيات الليبية: العلميّة والأدبيّة خارج بلادهم .

محمد الدّسبي :

هو محمد بن الحسن، ابن أبي الدّسبي، الطرابلسي، نسبة إلى طرابلس ليبيا، كان عالمًا رفيع القدر، تولى قضاء طرابلس، ثم استدعاه الوزير يعقوب بن كَلّس[٩٦] إلى مصر، فأمره بالنظر في الأحكام، وفوّض إليه قضاء دمياط، وبلبيس، والغرفا، وغيرها، عوضًا عن محمد بن النعمان[٩٧]، كان موجودًا عام ٣٦٩هـ[٩٨].

إبراهيم البرقي:

هو إبراهيم بن أحمد بن جعفر الأزدي، الطرابلسي مولدًا، البرقي نشأةً وسكنًا، قدم الأندلس، وصحب منصور بن عياش، وعمره إذ ذاك إحدى وأربعون سنة، أخذ عنه أبو إسحاق ابن شنظير، كان موجودًا سنة ٣٧١هـ[٩٩].

عبدالرحمن الطرابلسي:

هو عبدالرحمن بن مكي بن عبدالرحمن، الطرابلسي، ثم الإسكندراني، عالم كبير، ذو شهرة واسعة، "انتهى إليه عُلُوّ الإسناد بالديار المصرية"[١٠٠]، توفي بمصر عام ٦٥١هـ[١٠١].

عمران الطرابلسي:

هو عمران بن موسى بن معمر، الطرابلسي، إمام عَلَم، وفقيه بصير بالأحكام، وُلّي قضاء طرابلس، والإمامة، والخطابة، بجامعها الأعظم[١٠٢]، ثم نُقل إلى تونس، فتولّى قضاءها، وتوفي بها عام ٦٦٠هـ، وهو لا يزال في منصب القضاء[١٠٣].

أبو علي الطرابلسي:

هو أبو علي ابن موسى الطرابلسي، فقيه، عالم، كاتب بارع، أديب ماهر، أخذ عن أبي زكرياء البرقي ولازمه، والتحق معه بالاستدعاء إلى تونس، ثم وُلِّي القضاء في مواضع من إفريقيَّة، وأُسند إليه الإشراف على خزانة الكتب العامة بتونس، وكانت تضم ثلاثين ألف مجلد، (ت ٦٨٣هـ)[١٠٤].

ابن أبي الدنيا :

هو عبدالحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا، الطرابلسي، عالم جليل، رفيع القدر، ذائع الصيت، وأديب بارع، له شعر جيد، رحل في طلب العلم إلى مصر وتونس، ثم عاد إلى طرابلس، وما كاد يستقر به المقام، حتى استدعاه المير أبو زكرياء ابن حفص[١٠٥] إلى تونس عام ٦٧١هـ، وولاه القضاء، وأسند إليه، إضافة إلى ذلك، الخطابة في الجامع الأعظم[١٠٦]، وكان هذا المركز بعد الخلافة والإمارة مباشرة، "كان مركزًا عظيمًا ومنصبًا خطيرًا، وكان له دخل في تصريف الأمور وسياسة الدولة"[١٠٧] (ت ٦٨٤هـ)[١٠٨].

إبراهيم المصراتي[١٠٩]:

هو إبراهيم بن عبدالسلام بن عبدالغالب، المصراتي، نسبة إلى مصراتة، كان صاحب أدب، وفصاحة، وشجاعة أدبية منقطعة النظير، أهّلته لأن يصبح خطيبًا لمسجد القيروان بتونس، "والخطابة في القيروان لم تكن بالأمر السّهل، فلا يقدر عليها، ولا يُرشّح لها، ولا يقوم بأعبائها، إلا العالم المتضلّع،

والفقيه المقتدر، فقد كانت مدينة القيروان مزدحمة برجال الفقه، والشريعة، وفيها مدارس، ومساجد، ازدهرت بالحركة العلميّة والثقافيّة"[١١٠].

وهكذا استطاع هذا العالم الليبي أن يشقّ طريقه، ويثبت وجوده بين نظرائه من علماء عصره (ت ٧٠٤هـ)[١١١].

ابن منظور[١١٢]:

هو محمد بن مكرم بن علي بن أحمد .. ابن منظور، العلامة الجهبذ، الأديب، الشاعر، النحوي، اللغوي، المؤرخ، المحقق، صاحب معجم لسان العرب، بلغت آثاره بخطه خمسمائة مجلد.

تولّى قضاء طرابلس سنين طويلة، ثم رحل إلى مصر، فوُلّي فيها رئاسة ديوان الإنشاء، وبقي في هذه الوظيفة حتى آخر حياته (ت ٧١١هـ)[١١٣].

أبو موسى الطرابلسي:

هو أبو موسى ابن عمران الهواري[١١٤]، الطرابلسي، عالم فقيه، تولّى قضاء طرابلس، نيّفًا وثلاثين سنة، كان فيها مثال العدل، وحسن السيرة والأخلاق، ثم أرسل إليه الخليفة إبراهيم بن المنتصر الحفصي[١١٥]، عام ٧٥٨هـ، فولاه القضاء بتونس، فبقي قاضيًا نيفًا وعشرين شهرًا[١١٦]، نال شهرة واسعة (ت ٧٦٠هـ)[١١٧].

محمد الزليطني[١١٨]:

هو محمد بن أحمد الزليطني، كان عالمًا ورعًا، حريصًا على نفع الناس، ذا جاه ومكانة عند الأمراء، رحل إلى تونس لطلب العلم، كان خطيبًا، وإمامًا بجامع الزيتونة غير منازع (ت ٨٠٨هـ)[١١٩].

حلولو الوامح:

هو أحمد بن عبدالرحمن بن موسى بن عبدالحق، الزليطني، عالم، فقيه، أصولي، له مؤلفات كثيرة، تولّى القضاء في طرابلس، ثم عُزِل عنه، فذهب إلى تونس، فأسندت إليه مشيخة المدارس، كان موجودًا عام ٨٩٥هـ[١٢٠].

الحطاب الكبير:

هو محمد بن عبدالرحمن بن حسين بن محمد الحطاب، الرُّعَيني[١٢١]، المعروف بالطرابلسي، ولد بطرابلس، وبها نشأ، وأخذ علومه الأولى، ثم تكررت رحلاته إلى مكة ومصر للحج وطلب العلم، وأخيرًا استقرّ بمكة، وأكمل علومه فيها، وتصدّر مجالس الدرس، وتولّى رئاسة المذهب المالكي بالحجاز، ثم عاد إلى ليبيا، وتوفي بها عام ٩٤٥هـ[١٢٢]، ودفن بزاويته الكائنة بالقرب من تاجوراء[١٢٣].

أبو عبدالله الخروبي:

هو محمد بن علي الخروبي، أبو عبدالله، وُلد بقرية (قرقارش)، إحدى ضواحي مدينة طرابلس في بيت علم مشهور، أخذ علومه الأولى عن مشايخ طرابلس، كان فقيهًا، محدّثًا، مفسّرًا، عالمًا، واسع المعرفة، له تآليف كثيرة، ارتحل إلى الجزائر، وأقام بها، وكان ذا مكانة عالية، ومنزلة رفيعة عند الأمراء والحكام، سافر إلى المغرب الأقصى مرّتين، في وساطة بين ملوك المغرب الأوسط، والمغرب الأقصى، بقصد إصلاح ذات البين، تصدّر مجالس الدرس في المغرب الأقصى، والجزائر، وأفادَ منه كثير من الطلاب هناك (ت ٩٦٣هـ)[١٢٤].

وغيرهم كثير من علماء ليبيا، ممن كانوا يولّون مناصب دينية، وإدارية، خارج بلادهم، وفي ذلك دليل واضح على رفعة مكانة العلماء الليبيين، وأهليتهم لتولّي أعلى المناصب في الخارج، فالعالِم لا تحده حدود، ولا تعرقله قيود، فعالَمه أوسع من كل العوالم، وبمقدار ما له من العلم والأدب وحُسن السِّيرة يكون جاهه وتكون منزلته، داخل بلده وخارجها، لا فرق في ذلك.

الخاتمــة:

خلاصة القول هنا: أننا أوضحنا أن ليبيا لم تكن بمعزل عن ميادين العلم والثقافة، وأنه كان بها علماء أعلام في ميادين المعرفة المختلفة على مرِّ العصور الإسلامية، وإن كان ما أوردته المصادر من معلومات عنهم وعن بيئاتهم العلمية وأجوائهم الثقافية أقل بكثير مما أوردته عن أمثالهم في بعض البلدان العربية الأخرى كمصر، والمغرب العربي بعامة، والأندلس.

وما جاء في هذا البحث، إنما هو أمثلة محضة للأسس التي قامت عليها الحياة العلمية والثقافية في ليبيا، خلال العصور الإسلامية، لعل الباحثين يجدون فيها علامات دالة ينطلقون منها إلى الدراسة والكشف عن حياة علمية وثقافية أوسع مدى، وأعمق جذورًا، سترها عنا طول الزمن، وإهمال الدارسين قديمًا وحديثًا.

●●●

الحواشي

(١) سيأتي توضيح ذلك في القسم الأخير من هذا المبحث.

(٢) مثل: العيدري، الذي تحامل عليها، وعلى علمائها دون تمييز، ينظر رحلة العيدري: ٧٦ وما بعدها .

(٣) النَّفُوسي: نسبة إلى جبل نفوسة، ويُسمى الجبل الغربي أيضًا، وهو جزء من سلسلة جبال أطلس المارة بالجزائر وتونس، ونفوسة التي ارتبط اسمها بالجبل: قبيلة من أشهر قبائل البربر، منسوبة إلى نفوس بن رحيك الأبتر، وقد استوطنت هذه القبيلة الجبل المذكور فسمي باسمها، ولم يخل جبل نفوسة من وجود مدارس وعلماء في العلوم المختلفة، منذ الفتح الإسلامي إلى الآن ١٩٩٩م. ينظر معجم البلدان الليبية: ٩٧ وما بعدها.

(٤) الجناوني: نسبة إلى بلدة صغيرة بجبل نفوسة، اسمها (جنَّاون) .

(٥) النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي: ١٣٣ – ١٣٤ .

(٦) المرجع السابق نفسه: ١٣٢.

(٧) البرقي: نسبة إلى بَرْقة، المنطقة الواقعة بين حدود مصر شرقًا، وحدود طرابلس غربًا، وهي تسمية تطلق على مدن ليبيا الشرقية، معجم البلدان الليبية: ٥٦ وما بعدها.

(٨) النشاط الثقافي في ليبيا: ٢٨٢.

(٩) السِّرتي: نِسْبة إلى سُرْت، المنطقة الوسطى من ليبيا، الواقعة بين مصراتة غربًا، وأجدابيا شرقًا، معجم البلدان الليبية: ١٨٨ وما بعدها .

(١٠) أعلام ليبيا: ١٤٩ – ١٥٠.

(١١) المرجع السابق نفسه: ٢٠٥.

(١٢) المرجع السابق نفسه.

(١٣) المَجْرِيطي: نسبة إلى مَجْرِيط، بلدة بالأندلس، ينظر معجم البلدان: ٥/٥٨.

(١٤) العُبيديون: نسبة إلى عُبَيدالله المهدي، استمر حكمهم للمغرب العربي من (٢٩٦ – ٥٦٥هـ) المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب: ١ : ٨١.

(١٥) هو المنتصر بن خزرون، وقد قام على خزرون بن خليفة، واحتل منه طرابلس عام ٤٣٠هـ، أعلام ليبيا: ٢١٦ وما بعدها. وتاريخ طرابلس الغرب: ١٣٩ وما بعدها.

(١٦) غنيمة: بلدة صغيرة من بلدان مسلاته، تقع شرقي طرابلس بنحو خمس وعشرين ومائة كيلو متر، معجم البلدان الليبية: ٢٤٥.

(١٧) أعلام ليبيا: ٢١٦، أعلام من طرابلس: ٢٨.

(١٨) نسبة إلى أجدابيا: هي مدينة قديمة مشهورة، تقع جنوب مدينة بنغازي بنحو ستين ومائة كيلو مترًا، معجم البلدان الليبية: ٢٠ وما بعدها.

(١٩) أعلام ليبيا: ٢٦٠.

(٢٠) المرجع السابق نفسه.

(٢١) المرجع السابق نفسه.

(٢٢) المرجع السابق نفسه.

(٢٣) المرجع السابق نفسه.

(٢٤) أعلام ليبيا: ٢١٤.

(٢٥) المرجع السابق نفسه.

(٢٦) المرجع السابق نفسه.

(٢٧) الهواري، لعله من النسبة إلى قبيلة (هَوَّارة) البربرية، وهي واحدة من أكبر القبائل في ليبيا وأشهرها، تاريخ طرابلس الغرب: ١٤. والهواري أيضًا: اسم واحة من واحات الكفرة، معجم البلدان الليبية: ٣٣٤.

(٢٨) أعلام ليبيا: ٢٤ – ٢٥.

(٢٩) سجنه الخليفة المستنصر في المهدية عام ٦٦٧هـ، وبقي في

سجنه سنة كاملة. أعلام من طرابلس: ٧٩ وما بعدها. وأعلام ليبيا: ٢٣ وما بعدها .

(٣٠) هو أبو عبدالله محمد بن يحيى الفضلي. أعلام من طرابلس: ٨٢. وأعلام ليبيا: ٢٤.

(٣١) أعلام ليبيا: ٢٤.

(٣٢) أعلام ليبيا: ٢٣ وما بعدها، وأعلام من طرابلس: ٧٩ وما بعدها .

(٣٣) الجيطالي: نسبة إلى (جيطال)، مدينة فسيحة بجبل نقوسة، تحيط بها الأشجار من جميع الجهات، النشاط الثقافي في ليبيا: ١٥٥.

(٣٤) الطَّرْميسي: نسبة إلى (طَرْمِيس) قرية من قرى دمشق، معجم البلدان: ٣٢/٤.

(٣٥) لم يهنأ في إقامته بطرابلس، حيث سجنه حاكمها بسبب وشاية حاسدٍ، ثم أُطلق سراحه فقصد تونس، النشاط الثقافي في ليبيا: ١٥٥.

(٣٦) المرجع السابق نفسه: ١٥٥ وما بعدها.

(٣٧) اليَفَرني: نسبة إلى (يَفْرنه) مدينة كبيرة في جبل نقوسة، تبعد عن طرابلس واحدًا وسبعين ومائة كيلو متر. معجم البلدان الليبية: ٣٥٩

(٣٨) صوابها: عنه.

(٣٩) النشاط الثقافي في ليبيا: ٢٨٢

(٤٠) المرجع السابق نفسه.

(٤١) وصف بـ (الصَّغير)، تمييزًا له عن الحطّاب (الكبير)، وهو أبوه، واسمه محمد أيضًا، وكان عالمًا كبيرًا. أعلام ليبيا: ٣٠٩.

(٤٢) المنهل العذب: ١٩٤ - ١٩٥.

(٤٣) أي: إلزام الرجل نفسه.

(٤٤) المرجع السابق نفسه: ١٩٥ وما بعدها. وأعلام ليبيا: ٣١٢ وما بعدها.

(٤٥) أعلام ليبيا: ٣١١ وما بعدها .

(٤٦) لمزيد اطلاع، ينظر على سبيل المثال: المنهل العذب، أعلام ليبيا، أعلام من طرابلس، النشاط الثقافي في ليبيا، وغيرها من المصادر.

(٤٧) باب هوارة: فتحة في سور طرابلس القديم من الجهة الجنوبية، توصل إلى مضارب قبيلة هوارة البربرية، خارج السور شرقي المدينة وجنوبيها، وباب زنانة هو الباب المؤدي إلى مضارب قبيلة زنانة البربرية، غربي المدينة وجنوبها، وهذه التسميات كانت زمن الفتح الإسلامي، ثم جلت القبيلتان عن تلك المناطق، ولم يعد للتسمية وجود الآن (١٩٩٩م)، حيث استبدل بباب هوارة باب سوق المشير، المؤدي إلى السّاحة الخضراء (ميدان الشهداء)، وبباب زناتة الباب الجديد، المؤدي إلى محطة الركوب العامة، وجامع أبو رقيبة. معجم البلدان الليبية: ٤٢ وما بعدها، والواقع المشاهد.

(٤٨) رحلة التجاني: ٢٦٤.

(٤٩) النشاط الثقافي في ليبيا: ١١٨

(٥٠) التَّنُوخي: نسبة إلى تَنُوخ: قبيلة عربية مسيحية من الحيرة، انتقلت إلى بلاد حلب، واعتنقت الإسلام في عهد المهدي العباسي، ينسب إليها علماء كثر، المنجد في اللغة والأعلام: ١٨١.

(٥١) النشاط الثقافي في ليبيا: ١٣٠

(٥٢) ورد عن سحنون قوله: "كان بإفريقية رجال عدول، بعضهم بالقيروان وتونس وطرابلس، ... لو قرنوا إلى مالك بن دينار لساووه"، ومما نقل عنه أيضًا قوله: "رأيت بطرابلس رجالا ما الفضيل بن عياض بأفضل منهم". النشاط الثقافي في ليبيا: ١٣٠ - ١٣١.

(٥٣) الأعلام: ١٢٩/٤.

(٥٤) أعلام ليبيا: ٥.

(٥٥) المرجع السابق نفسه: ٣٩.

(٥٦) العِجْلي، نسبة إلى (عِجْلَة) بكسر العين، موضع قرب الأنبار، معجم البلدان: ٨٧/٤ .

(٥٧) النشاط الثقافي في ليبيا: ١٣٦

(٥٨) البَيَّاني: لعله من النسبة إلى (بيَّان) بباء موحدة وياء مشدَّدة، إقليم من أعمال بطليُوس، أو من النسبة إلى (بيَّانة) بالأندلس أيضًا، بالقرب من قرطبة، معجم البلدان: ٥١٨/١.

(٥٩) أعلام ليبيا: ٣١.

(٦٠) البَطَلْيُوسي: نسبة إلى بَطَلْيُوس (بفتحتين وسكون اللام وياء مضمومة) مدينة كبيرة بالأندلس تقع غربي قرطبة، معجم البلدان: ٤٤٧/١.

(٦١) المَصِّيصي: نسبة إلى مَصِّيصَة (بميم مفتوحة وصاد مشددة مكسورة ثم ياء ساكنة بعدها صاد مفتوحة) وهما مَصِّيصتان، كلتاهما بالشام، الأولى مدينة على شاطئ جيحان قريبة من طرسوس، والثانية قرية من قرى دمشق، ينظر معجم البلدان: ١٤٤/٥ - ١٤٥.

(٦٢) أعلام ليبيا: ١٨.

(٦٣) الغِمَاري: نسبة إلى غِمَار (بغين معجمة مكسورة، وميم مفتوحة، وآخره راء مهملة) اسم واد بنجد، وذو الغِمَار اسم موضع، ينظر معجم البلدان: ٢٠٩/٤.

(٦٤) أعلام من طرابلس: ١١٠.

(٦٥) البَسْطي: نسبة إلى بَسْطَة (بباء مفتوحة وسين ساكنة وطاء) مدينة بالأندلس، معجم البلدان: ٤٢٢/١

(٦٦) أعلام من طرابلس: ١٠٩

(٦٧) المرجع السابق نفسه: ١١٢

(٦٨) المرجع السابق نفسه: ١١٠ - ١١١.

(٦٩) النشاط الثقافي في ليبيا: ١١٧

(٧٠) القابسي: نسبة إلى قَابِس (بفتح القاف، وكسر الباء

الموحدة) مدينة مشهورة بتونس، معجم البلدان: ٢٨٩/٤ وما بعدها.

(٧١) أعلام من طرابلس: ١١٢.

(٧٢) اللَّقَاني: نسبة إلى لَقَانَة (بلام مفتوحة، وقاف مخففة معدودة، بعدها نون وتاء مربوطة) بلد بمركز شبراخيت بمحافظة البحيرة، مصر، الأعلام: ٢١/١، وروجع في الضبط هنا أحد أبناء لقانة نفسها.

(٧٣) أعلام ليبيا: ١٢٠.

(٧٤) اللَّوَاتي: نسبة إلى قبيلة لَوَاتَة البربرية التي كانت تسكن أجدابيا، أعلام ليبيا: ٤.

(٧٥) صوابه: كلام بالجر هي وما بعدها، على البدلية من العلوم، وهو أوضح للمعنى.

(٧٦) أعلام ليبيا.

(٧٧) المرجع السابق نفسه.

(٧٨) أعلام من طرابلس: ١١٩، والنشاط الثقافي في ليبيا: ٢٧٣.

(٧٩) أعلام ليبيا: ٤-٥، وأعلام من طرابلس: ١١٦ وما بعدها .

(٨٠) رحلة التجاني: ٢٥٤ - ٢٥٥

(٨١) أعلام ليبيا: ١٧٩، وأعلام من طرابلس: ٩٥ وما بعدها .

(٨٢) أعلام ليبيا: ١٦١.

(٨٣) المرجع السابق نفسه: ١٧٩.

(٨٤) العَوْسَجي: نسبة إلى قبيلة العَواسِج، من قبائل حِمْيَر، كانت تسكن بلاد اليمن، ويرجح الزاوي أن للشيخ علي العَوْسجي صلة نسب بهذه القبيلة من أحد أجداد الشيخ نبيل، الذي هو من أجداد الشيخ علي، ويفنِّد ما يُقال: من أن يوسف بن نبيل، جَدّ العواسج، وضعته أمه في شجرة عوسج، خوفًا عليه من العدو، ويقول إن هذه الرواية ليس لها سند تاريخي، ولا تثبت أمام النقد العلمي، وهو الرأي الذي يقبله العقل والمنطق، إلا إذا أثبتت بسند صحيح رواية العوسجة هذه.. أعلام ليبيا: ٢٠٨ هامش.

(٨٥) الحَرْشا: قرية من قرى الزاوية، تقع غربيها بنحو ثلاثة كيلو مترات، والزاوية مدينة كبيرة تقع إلى الغرب من مدينة طرابلس بنحو ثلاثة وأربعين كيلو مترًا، ينظر معجم البلدان الليبية: ١١٢، ١٥٠.

(٨٦) أعلام ليبيا: ٢٠٨.

(٨٧) ١٩٩٩م.

(٨٨) العميْلات: مدينة من مدن قضاء الزاوية الغربية، تبعد عنها إلى الغرب بحوالي خمسة وثلاثين كيلو متر.

(٨٩) أعلام ليبيا: ٢٠٤

(٩٠) المليلي: نسبة إلى (مَلِيلَة) (بميم مفتوحة ولام مكسورة وياء ساكنة فلام مفتوحة) مدينة بالمغرب قريبة من سبتة، على ساحل البحر، معجم البلدان: ١٩٧/٥.

(٩١) المحفوظي: لعلها نسبة إلى جده محفوظ بن عباس المليلي، كما تشير سلسلة النسب، أعلام ليبيا: ٣٦٣.

(٩٢) الطُوَيْبِة: بلدة من قضاء الزاوية الغربية، تقع إلى الجنوب الشرقي منها بنحو خمسة عشر كيلو مترًا .

(٩٣) أعلام ليبيا: ٣٦٣.

(٩٤) هو: كريم الدين اليرموني، المصراتي، مؤرخ ليبي، كان موجودًا عام ٩٩٨هـ، معاصر للشيخ عبدالحميد العوسجي، والشيخ عبدالسلام الأسمر، أعلام ليبيا: ٢٥٥ وما بعدها .

(٩٥) المرجع السابق نفسه: ١٥٧.

(٩٦) هو: يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن كلس، تقلب في مناصب الدولة في عهد كافور الاخشيدي، والمعز الفاطمي، وابنه العزيز، عالمًا فقيهًا (ت ٣٨٠هـ). ينظر الأعلام: ٢٦٧/٩.

(٩٧) هو: محمد بن النعمان بن محمد القيرواني الإفريقي المعروف بابن حَيُّون، أديب فقيه مؤرِّخ، كان مهيب الجانب وقورًا، وُلّي قضاء مصر،، نال حُظوة عالية عند العزيز الفاطمي وابنه من بعده، وبقي في منصب القضاء إلى آخر حياته (ت ٣٨٩هـ) المرجع السابق نفسه: ٣٤٨/٧.

(٩٨) أعلام ليبيا: ٢٧٠.

(٩٩) المرجع السابق نفسه: ٣.

(١٠٠) المرجع السابق نفسه:١٦٠.

(١٠١) المرجع السابق نفسه.

(١٠٢) جامع طرابلس الأعظم: يقع في وسط مدينة طرابلس، بدأ بناءه بنو عُبيد، وأتمه خليل بن إسحاق عام ٣٠٠هـ، لا وجود له الآن (١٩٩٩م)، معجم البلدان الليبية: ٩١ - ٩٢، ويشير المصراتي إلى أنه أقيم مكانه مسجد أحمد باشا، الموجود حاليًا بسوق المشير، أعلام من طرابلس: ١٢٤.

(١٠٣) أعلام ليبيا: ٢٤٠.

(١٠٤) المرجع السابق نفسه: ٢٢ - ٢٣.

(١٠٥) هو أبو زكرياء يحيى الثاني الحفصي، الذي آلت إليه الخلافة، موسوعة التاريخ الإسلامي: ٣٣٥/٤-٣٤٠، مع ملاحظة أن استدعاء أبي زكرياء لابن أبي الدنيا للمرة الثانية كان عام ٦٧٩هـ، أما التاريخ المذكور في الترجمة ٦٧١هـ فلعله تاريخ الزيارة الأولى؛ لأن المترجم له زار تونس مرتين، جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي: ٥٨.

(١٠٦) الجامع الأعظم: هو جامع الزيتونة، أعلام من طرابلس: ٩١، وجامع الزيتونة ومدارس العلم: ٤٩ وما بعدها .

(١٠٧) المرجع السابق نفسه.

(١٠٨) المرجع السابق نفسه: ٨٥ وما بعدها، وأعلام ليبيا: ١٥٤ - ١٥٥

(١٠٩) المصراتي: نسبة إلى مصراتة، مدينة ساحلية كبيرة، تقع شرق مدينة طرابلس بنحو خمسة عشر ومائتي كيلو متر، اشتهرت منذ القدم بالنشاط التجاري، معجم البلدان الليبية: ٣١٦ وما بعدها .

(١١٠) أعلام من طرابلس: ١٣٤ - ١٣٥.

(١١١) المرجع السابق نفسه: ١٣٤ وما بعدها، وأعلام ليبيا: ٨.

مقالات

(١١٢) ذكر المؤرخ الليبي أحمد النائب، في كتابه (المنهل العذب) أن ابن منظور ليبي صميم، فهو ينتمي إلى أسرة (ابن مكَرَّم)، وهذه الأسرة ترجع في نسبها إلى (رُوَيفع الأنصاري) ورويفع هذا كان أميرًا على طرابلس ليبيا، ولاه عليها معاوية ابن أبي سفيان عام ٤٦هـ وتوفي وهو أمير عليها، وقبره مشهور إلى اليوم ببرقة (مدينة البيضاء). ينظر المنهل العذب: ١٥٦ وما بعدها، وللزاوي رأي واضح في الموضوع، أعلام ليبيا: ٢٩٩ وما بعدها.

(١١٣) أعلام ليبيا: ٢٩٩ وما بعدها .

(١١٤) الهواري: نسبة إلى قبيلة هوارة المشهورة.

(١١٥) هو الخليفة إبراهيم بن أبي بكر بن يحيى الحفصي، أبو إسحاق، تولى الخلافة عام ٧٥١هـ (ت ٧٧٠هـ) الأعلام: ١/٢٦.

(١١٦) في أعلام طرابلس: ٩٥: "نيفًا وعشرين عامًا.. وتوفي الهواري ٧٥٨هـ". والصواب ما ورد في أعلام ليبيا: ٢٨ "نيفًا وعشرين شهرًا" يؤيد ذلك ما جاء في المنهل العذب: ١٨٨، والمنهل أصل لهما معًا، ولعل في الأول خطأ مطبعيًا لم ينتبه إليه المؤلف.

(١١٧) ينظر أعلام ليبيا: ٢٨

(١١٨) الزليطني: نسبة إلى زليطن مدينة ساحلية كبيرة، بها مقام الشيخ العالم عبدالسلام الأسمر، تقع شرقي مدينة طرابلس بنحو سبعة وخمسين ومائة كيلو متر، معجم البلدان الليبية: ١٧٠ وما بعدها .

(١١٩) أعلام ليبيا: ٢٦٤.

(١٢٠) أعلام ليبيا: ٣٧ – ٣٨.

(١٢١) الرعيني: لعله من النسبة إلى (رُعَيْن) اسم موضع باليمن، أو من النسبة إلى (الرَّعْناء) اسم من أسماء البصرة، سميت به لتقلب هوائها بين الحرارة والبرودة، في اليوم الواحد، إلى درجة أن سكانها يضطرون إلى التقلب مع الجو في لباسهم وشرابهم، أو من النسبة إلى (الرَّعَن) وهو الأنف العظيم المتقدم من الجبل، ينظر معجم البلدان: ٥٢/٣، فربما يكون أحد أجداد المترجم له من اليمن، أو من العراق، أو يكون نُسِب إلى (الرَّعن) لتقدمه في العلم وتبحره فيه. والأخير أقرب إلى الصواب؛ لأنه ورد في ترجمته في الضوء اللامع: أنه الرعين الأندلسي الأصل المالكي، نزيل مكة، أعلام ليبيا: ٣٠٩ وما بعدها.

(١٢٢) المرجع السابق نفسه.

(١٢٣) تاجوراء وتاجورة: ضاحية من ضواحي طرابلس، تقع إلى الشرق منها بنحو خمسة عشر كيلو مترًا، ينظر معجم البلدان الليبية: ٧٥ وما بعدها.

(١٢٤) أعلام ليبيا: ٢٨٦ وما بعدها.

التجاني: عبدالله بن محمد.

– رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م.

الحموي: ياقوت بن عبدالله.

– معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م .

الزاوي: الطاهر أحمد .

– أعلام ليبيا، ط١، مكتبة الفرجاني، طرابلس ليبيا، ١٩٦١م.

– معجم البلدان الليبية، ط١، دار مكتبة النور، طرابلس ليبيا، ١٩٦٨م.

الزركلي: خير الدين.

– الأعلام، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩م.

الشلبي: أحمد.

– موسوعة التاريخ الإسلامي، ط١٥.، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م.

العبدري: محمد بن محمد.

– رحلة العبدري، تح. محمد الفاسي، ط١، وزارة الدولة، الرباط المغرب، ١٩٦٨م.

عمر: أحمد مختار.

– النشاط الثقافي في ليبيا منذ الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، ط١، منشورات كلية التربية، الجامعة الليبية، ١٩٧١م.

المصراتي: علي مصطفى.

– أعلام من طرابلس، ط٢، دار مكتبة الفكر، طرابلس، ١٩٧٢م .

المعموري: الطاهر.

– جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي، ط١، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠م.

ناجي: محمود .

– تاريخ طرابلس الغرب، ترجمة عبدالسلام أدهم، ومحمد الأسطى، ط١، كلية الآداب، الجامعة الليبية، ١٩٧٠م.

النائب: أحمد.

– المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط١، مكتبة الفرجاني، طرابلس ليبيا، د.ت .

جوانب مجهولة من حياة

عبد العزيز الميمني الراجكوتي

الأستاذ الدكتور/ ظهور أحمد أظهر
باكستان

إنَّ رحلتي الأخيرة إلى الإمارات العربية المتحدة، التي قمت بها في بداية شهر نوفمبر الماضي (١٩٩٩م)، واستغرقت أسبوعين تقريبًا، قد كانت رحلة مفيدة ومثمرة جدًّا. فإضافة إلى المحاضرات والكلمات التي ألقيتها بجامعة الشارقة الفتية وكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، واللقاءات المتكررة المتجدّدة مع الإخوان والأصدقاء، تلك التي تركت ذكرياتٍ جميلةً عاطرةً لن أنساها أبدًا، وسوف تظلُّ عالقةً بذاكرتي مدى الحياة، فقد أتيح لي أن أزور (مركز جمعة الماجد بدبي)، ذلك الصَّرْح الشَّامخ لثقافة العرب وتراثهم، بفضل نشاطاته المتنوعة ومرافقه العديدة المفيدة.. كما أتيح لي أن أتشرَّفَ بلقاء الإنسان العربي النَّبيل والتَّاجر العملاق والإداري الخبير الفذّ الشيخ جمعة الماجد أبي خالد، حفظه الله ورعاه، الذي سمعتُ منه، خلال حديثي معه، كلمة لا تزال تَرِنُّ في أذني، وأحبُّ أن يسمعها ويطبقها على نفسه كلُّ عربي ومسلم، لا بل كلَّ إنسانٍ نبيل، يريد الخير لنفسه ولأبناء جنسه من بني آدم، هي قوله الذي رَدَّ به على سؤالٍ كان قد وُجّه إليه من قبل السّفير البريطاني عن المبادىء التي اتبعها والأسرار التي ساعدته على إنشاء الإمبراطورية التّجارية العملاقة في الإمارات وتطويرها، فقد ردَّ عليه بقوله: «قد التزمت في حياتي بمبدأين هما: «الأمانة والعمل الجادُّ !!». ومن المعلوم أنَّ ذلك مما ورثه المسلمون من سيرة رسولهم الصَّادق الأمين محمد ﷺ الَّذي قال، وهو يأمر بذلك أمته: (إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً فَلْيُتْقِنْهُ)(١).

وأمَّا لقائي الشّابَّ العربي النبيل الأستاذ الدكتور نجيب عبد الوهاب، الأمين العام للمركز، والأستاذ الفاضل الدكتور حاتم صالح الضامن، فقد كان حديثًا ذا شجون، وعن شتى الشؤون، ومنها الحديث عن اللغة العربية وآدابها في شبه القارَّة، وعن كتبها القيّمة النَّادرة ومؤلفيها الأعلام من تلك البلاد إضافة إلى كتب التراث الأخرى، مخطوطها ومطبوعها، ومظانِّ وجودها، فجرى ذكر شيخي وأستاذي الأديب اللغوي العلامة عبد العزيز الميمني، غفر الله له ورحمه وأجزل مثوبته، وكلُّنا أبدى إعجابه بما قام به شيخنا وأستاذنا الميمني من خدماتٍ جبّارة للغة العربية وآدابها، وفي مجال إحياء التُّراث العربيِّ الغالي خاصَّةً، فقد حقَّقَ الأستاذ الميمني أكثر من ثلاثين كتابًا من أغلى كنوز التراث العربي، ومنها (سمط اللآلي شرح النّوادر والأمالي) لأبي علي القالي، رحمه الله، وخلال حديثنا عن الميمني جرى

ذكر ما اتَّهَمَهُ به بعضهم بالبخل والشحّ، ليس بماله فحسب بل بعلمه.. وما كان يمتلكه من الكتب، فدافعت عن الميمني، وتحدثت لهما عن أشياءَ لم يكونا يعرفانها، بل كانت لحظاتٍ مجهولةً وجوانبَ خافيةً، لم يعرفها إلا من وثق به الميمني من أخصّ تلاميذه، فاقترح الدكتور حاتم، وألحّ عليَّ في الاقتراح، أن أسجل معلوماتي عنه في مقالة؛ ليعرفها قرّاءُ العربية المحبّونَ للميمني، المعجبون بما قام به من خدماتٍ جبّارة للغة الضّاد.

والواقع أنني كنت أنوي أن أعدَّ مقالة مفصّلة عن حياة الأستاذ الميمني بمدينة لاهور، حيث قضى بها أيّامًا طالبًا منتسبًا لجامعة بنجاب بلاهور، ثم عُيّن فيها أستاذًا مرّتين: مرة قبل توظيفه بجامعة عليكرة الإسلامية في الهند في سنة ١٩٢٥م، ومرة ثانية بعد التقاعد، وفي أخريات حياته (من ١٩٦٤م إلى ١٩٦٦م)، وهي مدد غير قصيرة، وحافلة بالأحداث والذكريات، لا بدّ من إبرازها وتسجيلها والإحاطة بها، إلا أنني لم أتمكن من ذلك على الرّغم من محاولاتي، وحالت دونها الأشغال الإدارية والأعمال الطارئة والأسفار النائية المتكررة، وما دام الموضوع واسعَ المجال، ويحتاج إلى وقتٍ كثير وجهدٍ كبير، نلقي الضوء على بعض اللحظات والجوانب المهمة المجهولة من حياة الأستاذ الميمني، وأتحف بها «آفاق الثقافة والتراث»، مجلة مركز جمعة الماجد.

ولكن لا بدَّ، قبل كلِّ شيء، أن نُلِمَّ إلمامًا بترجمة الميمني، لكي نأخذ عن شخصيته صورة وفكرة، ويسهل علينا فهم ما سَيَمُرُّ بنا من لحظاتٍ وجوانبَ من حياته، فقد ولد الأستاذ العلامة الشيخ عبد العزيز ابن الحاج عبد الكريم بن عبدالله في سنة ١٨٨٨م بمدينة (راجكوت) في إقليم (كاتياوار) على السّاحل الغربي للهند، وفي أسرة التجار العريقة (إذ قبيلة مَيْمَن تُعرَف بمهنة التّجارة في شبه القارّة كُلّها)، إلاّ أنّ والد الشّيخ كان قد نذر ابنه للدّراسات العربيّة والإسلاميّة، فأسلمه إلى الكُتّاب حيث تعلّم القراءة والكتابة، كما تَعَرَّفَهُ الأطفالُ المسلمون من أبناء زمانه في وقته، وأحبَّ الصبيُّ العلم وألِفَهُ، مما جعل أباه يشجعه على ذلك، ويسمح له بأَنْ يخرج في طلب العلم، فاتجه الميمني قاصدًا مدينة دلهي العاصمة الهندية أوّلاً، ثم العواصم الثقافية الهندية الأخرى، التي كان آخرها مدينة لاهور، عاصمة باكستان الثقافيّة وقلبها الخفّاق، حيث نال شهادة (فاضل اللغة العربية) من جامعة بنجاب بلاهور، فكان الأوّل في التّرتيب، وحقّق رقمًا قياسيًّا في الامتحان. والجدير بالذكر أنَّ شهادة «فاضل اللغة العربية» هي الشّهادة الأولى والأخيرة التي حصل عليها الأستاذ الميمني، ولم يحصل على أيّ شهادة أخرى غيرها، ولم يدخل أيَّ امتحان غير ذلك الامتحان الوحيد!، ومن أشهر أساتذته الشيخ نذير أحمد الدهلوي، والشيخ محمد طيب المكي، وحسين بن محسن الأنصاري اليماني، رحمهم الله.

واختار الميمني مهنة التدريس، فعُيّن مدرِّسًا للُغتين: العربية والفارسية بكلية بشاور الإسلامية، ثم مدرسًا للُغة العربية بالكليَّة الشّرقية لجامعة بنجاب بلاهور، ثمَّ محاضرًا فأستاذًا مشاركًا بقسم اللغة العربية لجامعة عليكرة الإسلامية في ١٩٢٥م حتى نال بها وظيفة الأستاذية ورياسة القسم، حيث استمرَّ في خدمة العربية وآدابها بالجامعة إلى أن بلغ سنَّ التّقاعد، فهاجر إلى باكستان في ١٩٥٣م، ليصبحَ الرئيسَ المؤسِّسَ لقسم اللغة العربية بجامعة كراتشي، والمدير المؤسس لمعهد البحوث الإسلامية فيما بعد، وأخيرًا عُرِضَت عليه الأستاذية والرياسة لقسم اللغة العربية بالكلية الشرقية لجامعة بنجاب بلاهور في ١٩٦٤م، ثم عاد إلى كراتشي في ١٩٦٦م، حيث قضى بها ما تبقّى من حياته ووافته منيته في يوم الجمعة في السّادس والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣٩٨هـ (٢٧ أكتوبر ١٩٧٨م)، وقد تجاوز التسعين من عمره.

وقد حقّقَ الأستاذُ الميمنيُّ أكثرَ من ثلاثين كتابًا من التُّراثِ العربيِّ، كما ذكرنا، ومنها (سمط اللآلي)، وكان عضوًا مراسلاً بمجمعي دمشق والقاهرة، وله رحلات ثلاث إلى البلاد العربية والإسلامية، زار خلالها عددًا من العواصم الثقافية، واطّلع على خزائن كتبها، واتّصل برجالها الكثيرين، وكان صديقًا حميمًا للأستاذ العلاّمة أحمد تيمور باشا، والأستاذ محبّ الدين الخطيب، والشيخ أحمد شاكر، رحمهم الله، وقد ذكره الأستاذ الدكتور شاكر الفحام بقوله: «كان الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي، رحمه الله، وأغدق عليه صَوبَ رضوانه، من أفذاذ العلماء الأعلام في التمكّن من العربية وآدابها وعلومها، أحبَّهَا حُبًّا ملك عليه نفسه، وتغلغل في السواد من قلبه، ونبغ فيها نبوغ عابد مُتألّه قد تبتّلَ في محاريبها، وأراح في جنباتها، فتعرف بيانها، وتذوّقَ سحرها وإعجازها، ووقف على أسرارها ودقائقها، وأحاط خُبْرًا بأدبائها وشعرائها وعلمائها ورجالها، وقضى حياته يَدرُس تراثها العظيم ويُدرِّسه، ويسعى لتحقيقه ونشره السَّعيَ الحثيثَ، ويرشد من يتوسم فيه الخير إلى نفائسه وذخائره، ويذود عن حماه بالكلمة الصَّادقة الخالصة تخرّصات ذوي الأهواء والأغراض، دائب العمل فيما نصب نفسه له، يبذل أقصى ما في وسعه، ويوالي نصحه، لا يني ولا يفتر، وبلغ به حبّ العربية والهيام بها أنه كان يحسّ نفسه غريبًا بين أهله، إذ قال: «والله المسؤول أن يجعل سعيي مشكورًا بين أدباء البلاد العربية، فهم غرضي من إنشائها في العربية، أنا بين أهلي ووطني كأجنبيٍّ عنهم!»[٢].

وأمّا صلتي بالأستاذ عبد العزيز الميمني، رحمه الله، فإنّها ترجع، فيما أتذكره، إلى خمسينات الميلادية، وذلك في سنة ١٩٥٦م حين انتهيتُ أو كدْتُ أنتهي من دراساتي الثانوية، وأنقطع إلى دراسة اللغة العربية وإتقانها، وأطّلع على الوسائل المعينة المتوافرة لها، فبدأت أبحث عن طرق فعّالة مؤدية إلى ذلك من الإذاعات العربية والكتب المفيدة، فصادفت كتابًا صغيرًا عند بعض باعة الكتب العربية في بلدي، هو كتاب (لغات جديدة)[٣] للشيخ الشَّريف سليمان الندوي[٤]، رحمه الله، من كبار علماء (ندوة العلماء) في الهند، والكتاب يضمُّ قدرًا كبيرًا من المفردات والتراكيب اللغوية الجديدة باللغة العربية، كانت متداولة بين الأدباء والشعراء والكتّاب والصحفيين العرب المعاصرين في ذلك الوقت إضافة إلى مقالة مفيدة باللغة الأردية بقلم الأستاذ الجليل الشيخ (مسعود عالم) الندوي، رحمه الله، جاءت مقدمة أو تمهيدًا للكتاب، وعنوانها: «مفردات اللغة العربية وتراكيبها المعاصرة»، وقد تناول فيها الكاتب تطوُّرَ اللغة العربية ومكانتها بين لغات العالم ووَضْعَهَا الراهنَ في العالم العربي آنذاك، إضافة إلى تعريف بعض الكتّاب والأدباء المعاصرين، فقسّمهم إلى ثلاث طبقات تبعًا لثقافتهم الأصيلة ومكانتهم الأدبية، فعدَّ الأستاذ الميمني من الطبقة الثانية للكتّاب العرب، على الرّغم من كونه أعجميًّا غيرَ عربيٍّ، فقال: «ومن الجائز لنا أن نعدّ من هذه الطبقة الثّانية لكتاب العرب الشيخ عبد العزيز الميمني، من علماء العربية وأساتيذها في بلدنا، فعلى الرغم من أنه من أصل أعجميّ غير عربي، إلاّ أنه، بحكم كونه لغويًّا كبيرًا وأديبًا بارزًا وعالمًا متبحرًا، يحتلُّ مكانةً عالية بين كتّاب العربية وأدبائها، ويمتاز بينهم بأسلوبه اللغويِّ والأدبيِّ!»[٥].

فقد كانت هذه هي الوهلة الأولى التي عرفت فيها الأستاذ الميمني، وأعجبتني مكانته المرموقة بين فطاحل العروبة وبلغائها من أمثال الأستاذ أحمد الإسكندري، والأستاذ محبِّ الدِّين الخطيب، والأستاذ أحمد حسن الزيات، رحمهم الله، ولم أكن أتوقع، في تلك الأونة، أنني سوف أراه يومًا فضلاً عن التتلمذ عليه، أو الاستفادة منه، وربما ذهب بي الظنُّ إلى أنَّ الرجل قد توفاه الله إلى رحمته.

ثم مرت الأيام، وتقادم بي العهد، وتدرجت في

مراحل التعليم المختلفة، كلها بالانتساب، مركِّزًا على اللغة العربية، ونسيت، أو قل تناسيت، الميمني والكتاب الذي عرَّفني به، حتى إنني أنهيت دراساتي الجامعية، وحصلت على شهادة الماجستير، وعُيِّنتُ محاضرًا للغة العربية في جامعة البنجاب بقسمها العربي في غضون سنة ١٩٦٣م!

وفي سنة ١٩٦٤م كان الدكتور (سيد عبدالله) عميد كليِّة الدِّراسات الشَّرقية آنذاك يحتل أيضًا منصب رئيس القسم العربي، وهو من تلاميذ الأستاذ الميمني البارزين الأفاضل، وله أثرٌ فعّال وخدمات جبَّارة في مجال التربية والتعليم للبلد، وأراد الدكتور سيِّد أن يقوم بدوره للنهوض باللغة العربية (لغة القرآن الكريم ولغة الحديث النبوي والمعارف الإسلامية ولغة الشعب العربي الشقيق) في باكستان، التي أنشئت من أجل الإسلام وباسم الإسلام، فاعتزم على عقد مؤتمر اللغة العربية على المستوى الدولي تحت إشراف القسم العربي بالتعاون مع الحكومة والشعب الباكستاني، ووجه الدعوة إلى السفارات العربية بكراتشي راجيًا منها أن ترفع القضية إلى حكوماتها، أو ترشح من يُمَثِّلُ بلادها في المؤتمر.. كما وجه الدَّعوة إلى أعيان الدولة وعلماء العربية في باكستان، وكان اسم الأستاذ عبد العزيز الميمني على رأس قائمة المدعوين! فلا تسأل عن فرحتي وسروري بهذا النبأ المفاجيء المدهش! أهذا هو الميمني نفسه الذي عاش في أحلامي منذ قرأت عنه في مقدمة ذلك الكتاب قبل عشر سنوات تقريبًا، فأعجبت به، وظننت أنه قد أصبح من الماضين الغابرين؟ هل سأراه على أرض لاهور بعيني رأسي؟ هل سأرى إمام العربية في شبه القارة وألتقيه وأتحدث إليه؟ ذلك الرجل العظيم الذي أعجبت به، وأحببته قبل أن أراه أو ألتقيه وأتحدث إليه!

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى
فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا!

ولقد كانت هذه مفاجأة غريبة مدهشة بالنسبة إليَّ، وذلك لأنني لم أعرف شيئًا عن المراحل التي مرّ بها الأستاذ الميمني خلال السَّنوات العشر من إحالته إلى المعاش، وهجرته من الهند إلى باكستان، وتعيينه أستاذًا ورئيسًا للقسم العربي بجامعة كراتشي أو مديرًا مؤسسًا لمعهد البحوث الإسلامية بمدينة كراتشي، التي تبعد أكثر من ألف ميل من مدينة لاهور، وكانت وسائل الإعلام في العالم الإسلامي ولا تزال تَضِنُّ بصفحاتها على العلم والعلماء! فيا للفضيحة!

على كلّ حالٍ، لم أعرف شيئًا عن الميمني، وعن وجوده في باكستان؛ إذ كنت حديث العهد بالجامعة، غريبًا عن مصلحة التربية والتعليم وعن رجالها الأفاضل، وقد أكون مُقَصِّرًا في ذلك، ولكنني صادقٌ فيما أقول!

وقد كنت أَحدَ أعضاء لجنة الاستقبال للمؤتمر، وكان من مهمتها أن تستقبل الضيوف الكرام والمندوبين الأفاضل المتوافدين من خارج لاهور بالقطار أو بالطائرة للمشاركة في مؤتمر اللغة العربية الدولي، وانقسمت اللجنة إلى قسمين: أحدهما لاستقبال القادمين بالقطار، والثاني لاستقبال من يأتي بالطائرة، ولم يسعفني حظي لأن أكون في اللجنة التي سوف تستقبل الأستاذ الميمني، وأردت أن أغيِّر عضويتي إلا أنني امتنعت عن ذلك، ورضيت بما قدّر لي من المهمة، علمًا بأن الأستاذ الميمني سيبقى في لاهور أكثر من أسبوع، ومن ثَمَّ ستتاح لي فرصة لقائه غير مرَّة، وفوق ذلك كلّه، فإنه لا يعرفني ولا أعرفه، إذًا لا فائدة من تغيير العضوية، وغاية ما في الأمر أنني سأحرم من استقبال الأستاذ في المطار، ولن يحول بيني وبينه من الوقت إلا لحظاتٌ قصيرةٌ قليلة تمضي وتمرّ بين المطار والحرم الجامعي، فذلك ما منعني عن فكرة التغيير والتحوّل من قسمٍ إلى آخر للجنة الاستقبال، وقنعت بما قدّر الله لي، وأخذت أنتظر

جوانب مجهولة من حياة عبد العزيز الميمني الراجكوتي

اللحظة التي سوف تُقَرِّبُنِي من الميمني، وتتيح لي فرصة النظر إليه والتقائه والحديث إليه.

وها هي ذي اللحظة قد حانت أو كادت تحين، ولحظات الانتظار قد انقضت أو كادت تنقضي، فقد أُبلغنا أنَّ الأستاذ عبد العزيز الميمني وصل إلى لاهور، وقد تحركت به السَّيارة من المطار، وأنه في طريقه إلى الكلية الشرقية، ونحن وقوفٌ على بابها الغربي، ننتظر الضيف الكريم، فإذا هو ينزل من السيارة! رجلٌ عجوز، طويل القامة، قصير اللحية، أبيضها، قد بلغ الثمانين أو كاد، وقد ارتدى الزي الوطني الباكستاني من القميص والسِّروال، وعلى رأسه قلنسوة جناح (وهي قلنسوة رسمية لكلّ مواطن في باكستان، قد عرفت باسم محمد علي جناح القائد المؤسس لباكستان وحاكمها العام الأول!) وفي يده عُكَّاز العجائز! وإذا عميدُ الكلية وتلميذ الميمني البارز يستبق نحوه ليستقبله فيرحب به، فيعانقه، ويصافحه، ثم يبدأ المشوار التقليدي من الترحيب والمعانقة والمصافحة معًا أو المصافحة فقط، وكان حظي المصافحة فقط، دون أنْ يعرّفني به أحد أو أُعَرِّفُهُ أنا نفسي! وأوّل كلمة سمعتها من الميمني وهو يردُّ على سائل سأله، وقد رأى في يده العصا أو العكاز قائلاً: قد اتخذت العصا يا أستاذ؟ «فقال الميمني: نعم! العصا لمن عصى!»، ويعني بذلك أنه لم يتخذ العصا؛ لأنه عجوز ويحتاج إليها، وإنما هي علاجُ العصاة والمتمرِّدين! ثم دخل الجمع المحتشد على الباب، إلى الكلية ثم إلى قاعة الأساتذة حيث جرى الحديث التقليديّ من أسئلة عاديَّة وأجوبة عنها، تداولها الضيف والمستضيفون بينهم من الحديث عن وعثاء السَّفر، وما واجهه المسافر من مشقة وعناء وتعب، ومن قلق الانتظار وشدَّته التي مرَّ بها المستضيفون المستقبلون إلى حديث عن طقس كراتشي ومناخ لاهور، ثم كان دور الشاي والقهوة، ثم تفرق الجمع، وخَلَّوا الضيف يتحول إلى سكنه ليستريح!

وأتيح لي في اليوم التَّالي أن أستمع، أوّلَ مرة، إلى الأستاذ الميمني، وهو يتحدَّث في معرض المخطوطات العربية النَّادرة والمطبوعات القيّمة التي تحتفظ بها مكتبة جامعة بنجاب المركزية إضافة إلى ما تقدّم به بعض المواطنين أصحاب المكتبات من المخطوطات والمطبوعات العربية النَّادرة عندهم؛ ليشاركوا بها في هذا المعرض الذي أقيم بمناسبة المؤتمر، وألقى الأستاذ المشرف على المعرض كلمته، وحاول فيها جاهدًا أن يُعَرِّفَ بالكتاب العربيِّ، مخطوطه ومطبوعه، تاريخه وتَطَوُّره، وورقه ومداده، ولكنه لم يُوَفَّقْ فيما أراد، ولم يعجب النَّاسَ كلامُهُ، ولم يُرْضِ حاجتهم، ولم يَشْفِ غليلهم، مِمَّا أثار حفيظةَ الأستاذ الميمني، وهو الخبير الثقة وفارس الحلبة، وصاحب الاطلاع الواسع على المخطوطات العربيَّةِ ومظانِّها في أنحاء العالم، وهو الذي عَرَفَ منها ما لم يعرفه أحدٌ غيره في عصره، فإذا به ينهض من مكانه آليًّا وتلقائيًّا دون أن يدعى إلى منصة المعرض، وكان من حقِّه أَنْ يُدْعَى إليها، فصعدها، فوقف أمام الجمع، فرفع عَقِيْرَتَهُ في شيء من المرارة والشَّكوى، وسمعته يقول ويصول بادئًا حديثه بقول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(٦) ثم جاء بالعجائب من المعلومات القيِّمة المرضية، عن الخطِّ والخطاطين والمخطوطات، وعن التَّأليف والمؤلِّفين والمؤلفات، وعن الورق والوراقين والمكتبات مما لم يخطر ببال أحدٍ منّا، وأعجب القوم بالخطيب، وبما جاء به من المعلومات القيّمة النَّادرة، واستمعوا إليه صامتين ساكتين كَأَنَّ على رؤوسهم الطير! فهذه كانت هي القطرة الأولى من بحر الميمني العلمي، أفاض بها علينا فأفادنا، ومتَّعنا، وأرضانا جميعًا!

وقد استمَرَّ المؤتمر ثلاثة أيامٍ متتالية، وكان نصيب الأسد من إجراءاته للأستاذ الميمني، فقد ترأس عددًا من جلساته، كما ألقى العديد من الكلمات بهذه المناسبات كلّها باللغة الأردية، وكنت حريصًا على أن أستمع إليه وهو يتحدَّث بالعربيَّة أو يلقي بها

كلمة من كلماته العديدة المتكررة، ولكنني لم أسمع منه شيئًا بالعربية غير الآية القرآنية التي تلاها في المعرض أو الجملة التي نطق بها في الوهلة الأولى وهو ينزل من مركبه عند وصوله إلى حرم الكليَّة الشَّرقية.

وعندما حانت نهاية المؤتمر، وكاد الجمع يتفرق؛ ليعودوا إلى أهليهم وديارهم، سمعنا خبرًا غريبًا لم يخطر ببال أحدٍ قطُّ، أو قل: إنه لم يخطر ببالي أنا قطّ! سمعنا الخبرَ الغريبَ، فأدهشنا وسرّنا في الوقت نفسه، ذلكم الخبر أنَّ الأستاذ عبد العزيز الميمني سيسافر إلى كراتشي لكي يعود إلى لاهور بعد أيامٍ قليلة، وسيقضي بها مُدَّة من عمره، ما شاء الله له أن يقضيها، أستاذًا للغة العربية، ورئيسًا لقسمها بالكلية الشرقية، كما قضى بها عددًا من السنوات قبل أن يبلغ الأربعين من عمره محاضرًا للغة العربية بالكليَّة الشَّرقية نفسها، حيث ألّف كتابه الخالد عن أبي العلاء المعري، بعد أن اطَّلع على كتب الدكتور طه حسين الأربعة عن المعري، وعلى ما كتبه عنه أستاذه ومرشده المستشرق البريطاني اليهودي (مرجليوث). نعم! قد بلغنا هذا الخبر، وسمعنا به، وشكرنا رئيس جامعة بنجاب آنذاك الأستاذ حميد أحمد خان (– ١٩٧٤م) على ما اتَّخذه من قرارٍ تاريخيٍّ، فعرض على الميمني وظيفة الأستاذية ومنصب الرِّياسة للقسم العربي، وكان الأستاذ حميد كثير الإعجاب بالأستاذ الميمني، فأحبَّ أن يبقى مدّة بالجامعة لكي يشرِّفها، ويفيد طلاب العربية بها!

كان هذا الخبر الغريب بشرى سارَّة بالنسبة إلى أمثالي من طلاب العربيَّة والقائمين بخدمتها في لاهور، كما كان صاعقة نازلة فاجأت بعض النَّاس الذين كانوا يتطلعون إلى وظيفة الأستاذية ومنصب الرياسة للقسم العربي، فلم يكن من الممكن أن يعجبهم وجود أستاذٍ فاضل من علماء العربية المعروفين دوليًّا، من أمثال الأستاذ عبد العزيز الميمني، وقد هَزَّتْ هذه الصَّاعقةُ النَّازلةُ أوساطَ الكليَّة الشَّرقية، وأوساط قسمها العربي خاصَّةً، كما أثارت ضجَّة في أوساط لاهور العلمية والأدبية، وأقامت الكثيرين وأقعدتهم! فأمَّا الرجل الذي كان يتطلَّع إلى وظيفة الأستاذية والرِّياسة، وكان يَعُدُّها حَقَّهُ الموروثَ دون منازع، فقد أصيب بشيءٍ من المرارة والغضب يشبه الجنون، بل كاد يموت غيظًا وكمدًا! فذهب إلى منزله، ولم يخرج منه، ولم يحضر إلى الكليَّة أيَّامًا، يعلم الله عِدَّتَها، وعندما حضر أخذ يهذي، ويسبُّ المسؤولين الذين سدّوا عليه طريق التَّرقية في زعمه، وقد استمرت حاله هذه طوال المدة التي قضاها الميمني بالقسم أستاذًا للغة العربية ورئيسًا لقسمها بالكليّة!

ومن الغريب المؤسف جدًّا أن تلميذ الميمني الخاصّ الدكتور سيِّد غَضَبَ هو الآخر لما حدث، ولكن لا لأنه لم يكن يحبُّ أستاذه، ولم يعجبه تعيينه في القسم، وإنما غضب الدكتور سيِّد واستاء استياءً شديدًا؛ لأنَّ رئيس الجامعة، على الرغم من الصداقة بينهما، لم يستشره في الأمر، ولم يخبره به قبل أن يَتَّخذَ القرار بذلك، فإذا هو يعلن استقالته من عمادة الكليَّة، ويغادرها لكي لا يعود إليها أبدًا! وأغرب من ذلك أنَّ السيِّد رئيس الجامعة قد قَبِلَ استقالته شاكرًا له، وانتهى الأمر!!

وعاد الأستاذ الميمني من كراتشي بعد يومٍ أو يومين يرافقه أهله، ومعه ما يحتاج إليه من الكتب وما يلزمه من الأثاث، فانضمَّ إلى الجامعة أستاذًا ورئيسًا للقسم العربيِّ، وبدأنا نبحث له عن السَّكن المستأجر المناسب قريبًا من الجامعة وعلى نفقتها، وهكذا دارت الأيام دورتها وأعاد التاريخ نفسه، فقد احتلَّ الأستاذ الميمني منصب الأستاذ والرئيس لقسمٍ كان قد استقال من وظيفة المحاضر به قبل أربعين عامًا؛ لأنَّهُ لم يجد فيه جوًّا ملائمًا، ولم يَرَ له مستقبلاً مأمونًا؛ لأن رئيس القسم في وقته كان يكرهه ويعاديه دون مُسَوِّغ؛ إذ لا ذنب للميمني غير أن الله سبحانه

جوانب مجهولة من حياة عبد العزيز الميمني الراجكوتي

وتعالى قد وهبه ذكاءً فائقًا وذاكرة نادرة، وامتاز على زملائه جميعًا بالكفاءة والبراعة والقدرة على الحديث بالعربية والكتابة بها! وقد لاقى الميمني - في لاهور مرتين - ما يلاقيه الأذكياء الأكفاء من الهوان والنكران على أيدي أبناء الزمان!

وقد سرّني هذا الوضع، وأحزنني ما حدث، في الوقت نفسه، قد سررت لأن رجلاً فاضلاً، بلْ علمًا من أعلام العربية وإمامًا من أئمتها في شبه القارّة، قد أصبح رئيسًا للقسم الذي كنت به محاضرًا، وأتيحت لي الفرصة لأن أكون زميلاً للأستاذ عبد العزيز الميمني، وقد تتاح لي فرصة الإفادة منه، ومن يدري لعلّي قد أكون تلميذًا من تلاميذه! وقد أحزنني هذا الوضع المؤلم أيضًا؛ لأنني رأيت أن الخلافات بين رئيس الجامعة وبين الدكتور سيّد قد اشتدت، من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى نَغَّصت العلاقات المتوترة بين الميمني وتلميذه الدكتور سيّد سرورنا، وأفسدت علينا الجوّ، وفوق ذلك كلِّه، كنت أراني في مأزقٍ خطير ومحنة متأزمة، وذلك لأن صلتي بهؤلاء الرجال الثلاثة قد كانت قوية جدًّا، وكنت أُحِبُّهُمْ جميعًا حبَّ المدين الممنون، ومن المعجبين بهم جميعًا! فقد كان السيد رئيس الجامعة الأستاذ (حميد أحمد خان)، رحمه الله، يحبني ويكرمني كثيرًا، وكان معجبًا بعربيتي وقدرتي على الحديث والكتابة بها، وكنت أقوم بدور المترجم بينه وبين من يزوره أو يزور الجامعة من الشخصيات العربية بين حينٍ وآخرٍ. كما كان يثق بي، فيطلب إليّ أن أترجم له الرسائلَ الرسمية أو الخاصَّةَ التي كانت تأتيه من البلاد العربية، وكان يكلفني بإعداد الأجوبة عنها بالعربيّةِ، وكذلك الدكتور سيّد، رحمه الله، قد كان، على الرغم من حداثة سنّي وقلّةِ بضاعتي ونقص علمي، يحبني كثيرًا، ويثق بي ثقةً تامّة، فيكلفني بأعمالٍ جسام من مساعدته في الشُّؤون الإدارية، أو إعدادِ البحوث والمقالات لمجلة الكليَّة، وأمَّا الأستاذ الميمني، رحمه الله، فلا حاجة بي إلى المزيد من الكلام على صلتي به! ولم يعجبني وضع التوتر القائم بينهم، فقررت في نفسي وفي قرارة ضميري أن أستغلَّ حداثة سنّي، وأحاول جاهدًا تحسين العلاقات بين الرِّجال الثَّلاثة؛ لكي تعود المياه إلى مجاريها، وقد فعلت، ووفقت في مسعاي بعض التوفيق بإذن الله!

ففي هذه الظّروف الحرجة والجوّ المتوتّر تَسَلَّمَ الأستاذ الميمني الطَّاعنُ في السِّنِّ رياسةَ القسم العربي، ولاحظت أن بعض أساتذة القسم لم يعجبهم قدومه، وفضّلوا الابتعاد عنه، وتخلّفوا عن مجالسه التي كانتْ تَتَفَجَّرُ نواحيها بالمعلومات القيّمة المفيدة، والمعارف الواسعة الجمّة عن اللغة العربية وآدابها عبر العصور، وعن كتبها المخطوطة والمطبوعة في مكتبات العالم، ولم يكن غرضه سوى الإفادة، ولم يكن ليهمه شيء غير النهوض بلغة الضَّاد والترغيب فيها والدعوة إلى الاهتمام بها، وكنت قد أشرت على الأستاذ الميمني أن يحاول تحسين الأوضاع في القسم، وينشر ألوية التحابِّ في أجوائه، وأن يقرّب منه المبتعدين عنه، وأمَّا أنا شخصيًّا، فبطبيعة الحال لم أتردّد في التَّعاون الشَّامل معه، وقررت الانضمام إلى صَفِّهِ، ولم أتخلف عن مجالسه الأدبية، ولازمته في غدواته وروحاته، والتزمت خدمته ومؤازرته بكلِّ ما كان في وسعي ومقدرتي.

وكنت قد عرفت عن الميمني قبل ذلك(٧) أنه صعب المنال جدًّا، ولا يحب التَّدخل والخلل في حياته العلمية، ولا يرحب في حلقاته بكلّ من هبّ ودبّ، ولا ينظر إلى كلّ طالب، يلتحق بالقسم الدراسي رسميًّا، أنه تلميذ له بل يراقب الطلاب، ويغربلهم، فيصطفي منهم من يَسْتَحِقُّ اهتمامَهُ وعنايته، ولم أكن أراني أهلاً لذلك، إلاّ أنَّ حسن الحظ ساعدني فيه، فاكتسبت ثقته، وآمنت بما قاله سيّدنا رسول الله ﷺ: (إذا أَرَادَ اللَّهُ شَيْئًا هَيَّأَ أَسْبَابَهُ)(٨)، وقلّما تَخَلَّفْتُ عن مجالس الميمني العلميّة التي كان يتحدَّث فيها عن الموضوعات الأدبية، وكان يأتي فيها بالعجائب والنوادر من

المعلومات والمعارف، ويكثر من إنشاد الشعر العربي عن ظهر قلب، ويسرد الأمثال والأقوال، ويحكي الأحوال والأخبار لأدباء العربية وأئمتها ومؤلفاتهم ومظانّها في مكتبات العالم، إضافة إلى ما كنت أفيده منه في أثناء مرافقتي له، وهو يخرج من مكتبه متجهًا نحو موقف الحافلة العامة؛ ليركبها ويعود إلى سكنه. وكان الميمني، خلال هذه اللحظات العابرة الغالية، لا ينفكّ يحكي لنا، ويفيض علينا مما كان يحفظه من كنوز العلم الغزير ونفائس الأدب الجمّ الكثير.

وللأستاذ الميمني نكتٌ وطرائف، أنتجتها أسفاره اليومية بالحافلة العامّة، وكنا نطلق عليها عنوان «الطرائف الميمنية الحافليّة»، إذا صحّ التعبير، فمنها أنّ الأستاذ، رحمه الله، كان مقتصدًا، فلم يكن يحب الإسراف، فيفضل السَّفر بالحافلات العامّة كلما خرج من المنزل أو المكتب، وأمّا سيارات الأجرة، فكان يرى السَّفر بها من التبذير والإسراف، وكان يَعُدُّ ذلك من تدلّلِ المترفين ولعبتهم، وكانت حافلاتُ لاهور العامّة آنذاك ذاتَ الطّابقين، فكان الميمني يفضل دائمًا أن يصعد إلى الطابق الأعلى، ولم يكن يجلس في الطابق الأوّل إلاّ نادرًا!

وخرج يومًا مع حرمه المصون (وكانت سيدة كريمة رحيمة رؤوفًا في غاية الكرم والرحمة والرأفة، ولم تكن تخرج إلا نادرًا إذ كانت في السبعين أو ما يزيد من عمرها، وكانت تشفق عليَّ كثيرًا، وترحِّبُ بي دائمًا كأحد أبنائها كلما زرت الأسرة في بيتها)، فأرادا يومًا أن يركبا الحافلة ذات الطابقين، فألحّ عليها الأستاذ أن ترافقه فيصعدا إلى الطابق الأعلى، ولكنها رفضت، وأصرَّتْ على أن تجلس في الطابق الأسفل؛ فقال لها مغاضبًا وهو يجلس بجانبها: «أنت لا تحبين الهواء الطلق والمشاهد المتنوعة الرائعة على جانبي الطريق أيتها المرأة! فيا للخسارة!».

وخرج من مكتبه يومًا فركب الحافلة، وجلس في طابقها الأعلى، وكان متعبًا جدًّا، وعندما وصلت به الحافلة إلى أقرب موقف من منزله، أراد أن ينزل منها، وكان أحد النشالين يرقبه وينتظر الفرصة، فأدخل النشال يده في جيب الميمني ليسرقه، ولكنه لم يمهله أن يأخذ شيئًا منه، وإنما قبض على ساعده وأخذه أخذ عزيزٍ مقتدر، ولم يُخَلِّ سبيله حتى أوصله إلى مركز الشرطة، على الرغم من أنّ النشال كان شابًّا يافعًا، وكان يبكي ويصرخ ويرجو ويلحّ في البكاء والصراخ والرجاء!

ومن نكته «غير الحافليّة» أنني زرته يومًا في منزله، فوجدته يُدخِّنُ النارجيلة، وعلى وجهه شيءٌ من الكآبة والغضب، فسلمت عليه كالمعتاد، فردّ عليّ ردًّا عاديًّا ثم قال: «انظر إلى أُمِّكَ هذه! قد تضايقت بها كثيرًا، فهي لا تزال تبكي وتنتحب منذ مساء الأمس، وعبثًا حاولت أن أهدئ من روعها وأن أقنعها، ولكنها لا تحفل بما أقول!».

فقلت له: لعلك قد زجرتها أو أسأت إليها يا سيدي! فقال: لم أفعل شيئًا من ذلك! فقلت وأنا ألتفت إلى أمنا الرؤوم: مَالَكِ يا أم! ماذا حدث بك؟! فقالت وهي تبكي وتنتحب: «قد جاءنا الخبر من أمريكا يا بنيّ! يقول: إن ابننا عمر، وهو أصغر أبنائي، قد تزوج من فتاةٍ يابانية، وكنا نتمنى أن نزوجه من فتاةٍ من فتياتنا في باكستان، وأن يكون زواجه يومًا مشهودًا، وأن تغمرنا الأفراح من كلّ جانب! إلاّ أنّ هذه الأمانيَ والآمالَ كلّها قد بطلت وتحولت إلى حسراتٍ لاذعة.. و. و..».

فقطع عليها الأستاذ قائلاً: «انظر إلى هذه المرأة الخرقاء! أهذه مناسبة الحزن ولحظة البكاء أم فرصة الفرح والشكر؟! الشّابُّ قد تزوج من فتاة، أحبَّها وأَحَبَّته، دون أن يكلِّفَنا فَلْسًا واحدًا وكفى!!».

وشهدتُ يومًا مجلسه العلميَّ الذي كان يضمُّ عددًا من الأساتذة الأفاضل، وكان يحكي لهم ما تعوّد أن يحكي من النّوادر، أو ينشد من الأبيات الشعرية لمن حضر عنده، فحكى لهم قصة من القصص الأدبية

الطريفة تتخللها أبياتٌ شعرية، وكنت قد سمعت منه هـذه القصة مع أبياتها النادرة، وبالمصادفة ومن حسن الحظ أنني كنت قد حفظت بعضًا منها، وهي التي غابت عن ذاكرة الأستاذ، فاستغلق عليه الكلام، ففتحت عليه هامسًا في أذنه دون أن ينتبه إليه أو يشعر به أحد غيري، وسألني بعد أن تفرق الجمع، وخلا لنا الجوّ قائلاً: كيف عرفت هذه القصة ومتى حفظت أبياتها؟ فقلت له: يا سيدي! ما عرفت شيئًا، وإنما سمعتها من حضرتك في اليوم الفلاني وفي مكان كذا وكذا، فتذكر فصدقني وأعجبه ما رآه مني، وكان ذلك الانطباع الطيّب الأول الذي أخذه الأستاذ عنّي، ومنذ تلك اللحظة بدأ يظنُّ بي خيرًا، وكانت نهاية كلامه: «ذاكرتك قوية!» وقلت في نفسي: ليست الذاكرة يا سيّدي! وإنما هو فضل الله وحظي السَّعيد الذي ساعدني، واللَّهُ على ما يشاء قدير!!

ثم مضت أشهر عديدة، وأنا والميمني على ذلك النَّهج الروتيني والمنوال المعمول به، نغدو ونروح، نجتمع ونتفرق.. نخرج ونتماشى، ونتبادل الحديث العادي حول القسم وإدارته حتى جاءت لحظة حاسمة من صلاتنا وعلاقاتنا تغير بها الوضع؛ وذلك أنَّ حاكم غرب باكستان، الذي كان يتبوأ مقام رئيس كلِّ جامعة في الإقليم بحكم منصبه ولا يزال، أبلغ نائب رئيس الجامعة (وهو الأستاذ حميد الذي مرّ بنا ذكره) أنَّ شخصية عربية بارزة سوف تخطب جمعًا شعبيًّا عامًّا في لاهور، وسوف تلقي كلمتها باللغة العربية، وأنه على الجامعة أن تكلّف أستاذًا من أساتذة القسم العربي، ليقوم بترجمة فورية للكلمة، وحبذا لو قام بذلك الدور الأستاذ عبد العزيز الميمني، رئيس القسم، وذلك مما أقلق الأستاذ، لأنه، على الرّغم من غزارة علمه وإتقانه للغة الضَّاد، لم يكن يرضى بأن يقوم بمثل هذه الأعمال التافهة! فإذا هو يسألني إذا كنت قادرًا على ذلك، فأجبته بقولي: يا سيّدي! سبق أن قمت بمثل هذه التوافه في شتّى المناسبات، فإذا أحببت حضرتك أن تأمرني بذلك، فلا مانع لديّ، فَسُرَّ الأستاذ جدًّا، وأبلغ السلطات أنَّ المحاضر الفلاني من القسم سوف يقوم بهذه المهمة.

وأمَّا الشَّخصية العربية، فقد كانت الشيخ أحمد إسماعيل كفتارو، مفتي سورية الأكبر، الذي كان قد أدلى بتصريحٍ صحفي، أيّد فيه موقف باكستان في حرب ١٩٦٥م التي قامت بين باكستان والهند، وأفتى بأنها جهادٌ إسلاميّ حقًّا، وأنَّ على المسلمين أن يشاركوا فيه، ويساعدوا باكستان في موقفها الحقِّ العادل، ممَّا جعل حكومة باكستان تمنحه وسام (هلال باكستان، وهو أكبر وسامٍ مدني) تقديرًا لموقفه الأخوي النبيل، وعندما جاء سعادة المفتي ليتسلّم الوسام، قرّر أهل لاهور عقد جلسةٍ شعبية بهذه المناسبة ليخاطبها حضرة المفتي، فألقى هو كلمته، وقمت أنا بالترجمة الفورية التي كانت ناجحة للغاية، وذلك مما سرّ الميمني وأعجبه جدًّا، وكان جالسًا أمامي - كما اتفقنا عليه ليفتح عليّ إذا ما نسيت أو استعصى عليّ شيءٌ من الكلام! وعندما انتهت الجلسة، بادرني الأستاذ باسمًا متَهَلّلاً، فعانقني وضَمَّني إلى صدره، فشعرت كأنني انغمست في بحرٍ من العلم والحنان معًا! ثم قال، ولا تزال كلماتُه تَرِنُّ في أذني وتذوب حلاوة في مسامعي: «قد عرفتك اليوم! قوّاك الله، وأشكرك على هذا الإنقاذ والإنجاز! وقد كنتُ أذنًا مصغيةً إليك وإلى حضرة الخطيب الذي، كلما انتهى من دوره وجاءت نوبتك للترجمة، خشيت عليك، ودعوت لك من أعماق قلبي، ليوفقك الله ويعينك، وكنت أتنفس الصعداء كلما انتهيتَ من الترجمة! إنني أفتخر بك، ويعتز بك القسم، فقد زدتَ من شرفه، ورفعت من مكانته! أبقاك اللَّهُ، وجعلك ذخرًا للشعب والوطن!».

فمنذ هذه اللحظة الحاسمة وبهذه المصادفة الطيّبة، نلت اهتمام الميمني وأحرزت ثقته، وهي التي أثّرت في نفسه كثيرًا إضافة إلى أني كنتُ أمدُّ له يد العون في الأعمال الإدارية أو ما يحتاج إليه في

غدواته وروحاته، وبذلك رُفع ما كان قد تبقى بيني وبينه من الحجاب والكلفة، وحلّت محلّها الألفة، فجعل يحنو عليّ ويشفق، وكان، كلما زرته في مكتبه أو منزله، يهش لي، ويتهلّل وجهه، ويرحب بي بكلماتٍ حارّة رنّانة، وإذا به يومًا يقول لي: «لِمَ لا تختار موضوعًا للدكتوراه، وتسجّل تحت إشرافي!؟» فقلت له، وقد تدفّق قلبي فرحًا وسرورًا، وشعرتُ كأنّني أرى أحلامي وقد تحقّقت: «يا سيدي! هذا هو كلُّ ما أتمنّاه في حياتي، وهي بغيتي منذ أمدٍ بعيد، وسأكون أسعدَ النّاس إذا أُتيح لي ذلك!».

فأعطاني الأستاذ صورة من مخطوطٍ نادر، كان قد عثر عليه خلال تطوافه في مكتبات تركيا الخاصة، وهو كتاب «حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء» لمحمد عبد لَكَاني الخراساني، ولعله آخر الحماسات الشِّعرية العربية اكتشافًا، وكان الميمني يَعُدُّها الحماسة الثانية عشرة بعد الوحشيات أو الحماسة الصغرى لأبي تمّام الطائي، وهي من بين الكتب الثلاثة الأخيرة التي عثر عليها الميمني، وحققها وقد نشرت وهو حيٌّ يرزق.

فشكرت الأستاذ شكرًا جزيلاً على هذا التكرّم، ودخلت مكتبة الجامعة المركزية، فبدأت أقرأ النسخة المصورة لحماسة الظرفاء، فإذا هي تبدأ بقطعة شعرية للشاعر عمرو بن الحارث بن الشريد والد الخنساء، تتكوّن من ستة أو سبعة أبيات، ولم أتمكّن من القراءة السّليمة الصّحيحة لها، إذ كانت مخرومة مطموسة، وتذكرت أن الأستاذ الميمني قد حان خروجه من مكتبه متجهًا نحو موقف الحافلة عائدًا إلى منزله، وكان لا بدّ لي أن أرافقه إلى الموقف، فقمت آليًّا وسارعت إلى الأستاذ، فوجدته قد خرج من المكتب متجهًا إلى المنزل فسلمت عليه، فردّ عليّ، فبادرني بالسؤال عن حماسة الظرفاء، وكيف وجدتها سهلة أم صعبة؟ فأخبرته الخبر وقلت له: «يبدو لي من الصعب أن أقوم بتحقيق الكتاب الذي لا توجد له نسخةٌ أخرى في العالم غير هذه المخرومة المطموسة، التي لم أتمكّن من قراءة قطعتها الشعرية الأولى!».

فقال الأستاذ: «لا تخف ولا تتردّد! هكذا تكون البداية، وكلّما تقدمتَ في المشوار، وتوغلتَ في المضمار، مهدّتَ لك طريقًا وأنستَ إلى العمل! فهل تذكر شيئًا من كلمات القطعة؟» فأجبته بقولي: «نعم فهي للشاعر عمرو بن الشريد، وصدر البيت يبدأ بقوله: «أرى» وينتهي عجزه بقوله: «سُليمى مضجعي ومكاني»، ولم أستطع أن أقرأ ما بين هذه الكلمات»، فقال الأستاذ: «تذكرتُ الأبياتَ وعرفتُ قائلها، فهي لعمرو بن الحارث بن الشريد والد الخنساء، كان قد اقتحم معركة من القتال، فأصيب بالجروح الشديدة ولكنه لم يمت، وبقي بعد المعركة يعيش حياةً أذلّ وأفظع من الموت، وكانت له أمّ تُعرف بأم عمرو وزوجة تسمى سُليمى، فسألها بعضهم عن حال زوجها، وكانت قد سئمت من عيادته، وتبرمت من القيام بخدمته، فردّت عليه بقولها: «لا هو حيّ فيرجى ولا ميّت فيلقى»، فسمع كلامها هذا زوجُها الشاعر عمرو بن الشريد فأخذ يقول:

أَرَى أُمَّ عَـمْـرٍو لاَ تَـمَـلُّ عِـيَـادَتِـي
ومَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعِي وَمَكَانِي!(٩)

ثم قال وهو يمشي نحو الموقف: «والمكان هنا بمعنى الوجود والبقاء، أو الحياة»، ثم أنشد بقية الأبيات! فعدت إلى النسخة المصورة فوجدت أبيات القطعة كما أنشدها الميمني ليس أقلّ ولا أكثر! فعلمت علم اليقين، بل عين اليقين، وتأكدت أنَّ الأستاذ الميمني يحفظ الكثير الكثير من شعر العرب، وأنه آية من آيات الله في الحفظ والذاكرة!

وحقًّا قد راعني ما رأيت وأدهشني ما سمعت، وشجعني ذلك على أن أوجّه سؤالاً شخصيًا إلى الأستاذ، فقلت له: «كم بيتًا تحفظ من الشعر العربي يا سيّدي؟! فقال: «قد ضعفت ذاكرتي الآن، وذهب عني

جوانب مجهولة من حياة عبد العزيز الميمني الراجكوتي

الكثير ممَّا كنت حفظته، ولم يبقَ لديَّ منه إلا سبعونَ ألف بيتٍ تقريبًا!».

وكان الميمني قد حفظ الكثير من أدب العرب شعرًا ونثرًا، حتى إنه كان يحفظ بعضًا من دواوين الشعراء والمجاميع الشعرية بكاملها، كديوان المتنبي وديوان الحماسة لأبي تمّام والمعلقات والمفضليات وغيرها، وكان يدخل الفصل الدراسي دون أن يحمل معه كتابًا منهجيًّا فيقول للطلاب: «افتحوا الكتب، وليقرأ أحدكم الكلمة الأولى من القصيدة أو القطعة الشعرية»، فكان أحد الطلاب يقرأ الكلمة الأولى أو المصراع الأول، ثم يأتي دور الأستاذ فينشد لهم القصيدة كلَّها أو القطعة كلَّها عن ظهر قلب، ثم يأتي بخلفيتها التاريخية، ثم يعلِّق عليها نقدًا وشرحًا، ثم ينصرف!!

ويوم اعتزم الأستاذ أن يغادر لاهور، ويعود إلى مقره في كراتشي - حيث انتقل إلى رحمة الله - أقام الطلاب والأساتذة حفلة التوديع له، فقال فيها أحد زملائنا الكبار الأفاضل (وهو الدكتور ضياء الحق بن الشيخ أصغر علي الروحي، وقد كان الشيخ الروحي هذا المتوفى عام ١٩٥٤م من أصدقاء الميمني المخلصين، وله ديوان شعرٍ عربيٍّ قد قام بتحقيقه وشرحه والتقديم له كاتب هذه الأسطر، ونشر في عام ١٩٩٣م): «كنا نسمع ونقرأ في المراجع عن أئمة الحديث وحفّاظه، كالبخاري والحاكم، وعن ذاكرتهم وحفظهم لمئات الألوف من الحديث النبوي، بمتونه وأسانيده، فنستغرب ذلك، وقد لا يصدقه بعضنا، إلاّ أننا قد رأينا الشيخ عبد العزيز الميمني، ورأينا ما يحفظه من الآداب العربية الواسعة، فصدقناه، وأيضًا نصدق هؤلاء الأئمة الحفّاظ، ووجود الميمني شهادةُ عدلٍ على ذاكرتهم وحفظهم»، علمًا بأن الحياة في عصرهم لم تكن مزدحمة قلقة مضطربة كحياتنا المعاصرة المزدحمة المضطربة، التي تأتي على قُوى الإنسان، وعلى رأسها قوة الذاكرة! ويجدر بنا أن نأخذ بعين الاهتمام وألاّ يغيب عنّا أنَّ هؤلاء الأئمة الأعلام قد كانوا متفرغين منقطعين لخدمة الحديث النبوي الشريف، ولم يكن همهم غير حفظه وروايته، في جوٍّ هادىءٍ نقيٍّ بعيد عن القلق والزحام والجوّ الهائج المضطرب!

وعن ذاكرة الميمني القوية قصةٌ أخرى قد سمعتها وأنا في مصر، ذلك أنَّ فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود، رحمه الله، الذي زار باكستان مرتين، وكنت له مترجمًا في كلٍّ زورة، وفي المرة الأخيرة في ١٩٧٧م، دعاني رسميًّا لزيارة مصر والأزهر الشريف، وأقمت في مصر مدة شهرين ضيفًا خاصًّا لفضيلته، وكتب لي وثيقة تؤهلني للدُّخول إلى أيِّ مكتبة، والزِّيارة لأيِّ مؤسسة، فأخذوا لي موعدًا مع رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة فالتقيتُهُ وزملاءَهُ الأفاضلَ، وجرى الحديث عن شتّى جوانب اللغة العربية وآدابها. وفي النهاية سألني رئيس المجمع، وكان إذ ذاك الدكتور إبراهيم مدكور، رحمه الله، قائلاً: كم يومًا تبقى في مصر؟ فقلت له: شهرين تقريبًا! فقال: «إذًا ينبغي أن تتكرر زيارتك للمجمع»، فوافقت فذهبت إليهم بعد أسبوعين أو ثلاثة، فلم أجد أحدًا من القوم، وقيل لي: إنَّهُمْ ذهبوا إلى مقرِّ رئيس الجمهورية حيث دعاهم الرئيس أنور السَّادات، وتخلّف عنهم أحدهم، وهو الدكتور شوقي أمين، رحمه الله، فدخلت عليه، فرحّب بي، فجلسنا نتجاذب ألوان الحديث، فسألني قائلاً: «إنّ عربيّتك قويةٌ جدًّا، فأين تعلمتها؟»، فقلت له: «من سوء حَظِّي أنني قد حرمت من الدراسة بجامعةٍ عربية أو أن أقرأ على أستاذ عربيٍّ، بل إنني لم أتعلَّم العربية في أي جامعة على أيِّ أستاذ، وإنَّما تعلمتها بمفردي في بيتي (إذ إنني أكملت دراستي كلَّها بالانتساب، ولم أكن طالبًا منتظمًا في يومٍ من الأيام!) وقد أتقنت عربيتي بالاستماع إلى الإذاعات العربية، ثم إنني كنت أنتهز كلَّ فرصة للقاء مع أيِّ عربيٍّ يزور باكستان، فكنت ألتقط المفردات، وأتعلَّم نطقها السَّليم، إمَّا من أفواه

هؤلاء العرب الزوّار أو من المذيعين العرب، ولكنني حضّرت رسالة الدكتوراه تحت إشراف الأستاذ عبد العزيز الميمني، رحمه الله»، وبمجرد سماع هذا الاسم مني، وثب الدكتور شوقي أمين آليًا يقول في صوتٍ مرتفع، يشوبه شيءٌ من دلال المصريين ودعابتهم مع جيم مصرية: «لماذا لم تخبرني أنك تلميذ ذلك الجنّي؟» فقلت له: «يا سيدي! لماذا سَمَّيتَ أستاذي العظيم جنيًّا؟!» فقال: «والله لقد كان جنيًا بالفعل! كان جنِّيَّ العلم والأدب! كان قويَّ الذاكرة واسعَ الاطّلاع! جاء بنسخة محققة من سمط اللآلي، ونزل عند صديقه الأستاذ أحمد تيمور باشا، والد القصاص الروائي المصري محمود تيمور، في درب السّعادة بالقاهرة، وأدهشنا بمعلوماته القيّمة الواسعة عن المكتبات وبما فيها من الآداب العربية، مخطوطها ومطبوعها، وجاء بالمراجع العربية الغريبة التي لم تخطر ببال أحدٍ منّا، وكان يتحدّث العربية بلهجة ثعلب والمبرد! إنه لم يكن يبدو إنسانًا عاديًّا، فسمّيناه جنيًّا! إنه كان مِنْ أرض عبقر! وكان جِنِّيَّ العلم والأدب حقًّا!!».

وأمّا العربية التي كان الميمني يتحدّث أو يكتب بها فهي تُشَبَّهُ في أساليبها بعربية المبرّد وثعلب، وكانت تزخر حقًّا بالمفردات الغريبة الوحشيَّة الثَّقيلة كما يتضح من كتابات الأستاذ التي بين أيدينا، وقد انتبه إلى ذلك غير واحدٍ من الكتّاب العرب الأفاضل، ولفتوا الأنظار إليه غير مرّة، فمن ذلك أنني شاركت في ندوة عن «صناعة المعجم العربي» برباط المغرب في ١٩٨٠م تحت إشراف جامعة الدول العربية، وألقيت كلمة مرتجلة بالعربية في إحدى الجلسات، وعندما انتهت الجلسة، سألني الدكتور عبدالله عبّاس الندوي السؤال نفسه الذي وُجّه إليّ وأنا في مصر، فأجبته مفتخرًا: «أنا تلميذ الأستاذ عبد العزيز الميمني»، فقال الدكتور الندوي: «قد رأيت أستاذك، وتحدثت معه، واستمعت إليه، وهو يتحدّثُ بأسلوب المبرد وأضرابه من الأعلام القدماء، قد نهج مناهجهم، واصطبغ بصبغتهم، وأمّا أسلوبك أنت فلم نجد فيه شيئًا يشبه أسلوب الميمني!! فقلت له: يا سيّدي! أنا أقلّد أستاذي في تحقيقي للمخطوطات العربية وإحياء التراث العربي، وذلك مما تعلمته منه، وقلدته ولا أزالُ أقلده فيه!!

فهذه ذكرياتٌ عاطرة عن الميمني، وهي كثيرةٌ طويلة تحتاج إلى وقتٍ وإلى مكان، ولكننا نكتفي هنا بهذا القدر القليل والنزر اليسير، ونعود إلى ما كُنّا فيه من موضوع الدُّكتوراه وحماسة الظرفاء، فقد قررت في نفسي واعتزمت على أن أمضي في عملي، ولم يعجبني أن أتركه أو أتنازل عنه لكيلا يسيء الأستاذ بي الظنَّ، فحاولت جاهدًا أن أوطِّنَ نفسي على ذلك العمل الصَّعْب، وبذلت فيه جهدًا كبيرًا ووقتًا غير قليل حتى تمكنت من تذليل الصِّعاب واستأنست إلى الحماسة وإلى ظرفائها من الشعراء العرب القدماء والمحدثين، فإذا بالأستاذ يفاجئني يومًا، ويبلغني أنَّ طالبةً من تلميذاته في جامعة كراتشي قد سبقتني إلى اختيار الكتاب وتحقيقه، وأنها قد قطعت شوطًا غير قصير من مشوارها بعد أن سجلت الموضوع للدكتوراه تحت إشراف زميلنا الفاضل الأستاذ الدكتور (سيّد محمد يوسف)، رحمه الله، من أخصِّ تلاميذ الميمني، وأقربهم منه، وأحبِّهم إليه، وهو الذي خَلَفَهُ رئيسًا للقسم العربي بجامعة كراتشي! فلا تسأل عن حزني وأسفي على ذلك، واعتذر الأستاذ قائلاً: إنَّهُ كان قد أعطاها نسخة للكتاب قبل أن يغادر كراتشي، وقد تَمَّ كلُّ ذلك في غيابه ودون علمه، ثم أشار عليَّ أن أتحوَّلَ إلى موضوعٍ آخر، وأختار كتابًا آخر من بين النَّوادر التي كان قد عثر عليها الأستاذ الميمني، وجلب نسخها المصورة من تركيا، فاتفقنا أخيرًا على موضوعٍ جديد، هو كتاب «الهفوات النَّادرة» لابن غرس النعمة، ولم يمضِ شهر أو أقل من ذلك حتى جاءنا نبأ من دمشق مفاده أنَّ رجلاً فاضلاً من رجال مجمع اللغة العربية بدمشق ومن بين أصدقاء الميمني، قد أنهى أو كاد ينهي تحقيق الكتاب! وأنه على وشك

الطباعة! فلم يسعنا إلا أن نتنازل عن الكتاب، ونمضي في تذليل العقبات التي تحولُ بيننا وبين ما نريد، وتقف في سبيلنا إلى أن ننتصر في نهاية المطاف، فلنعم ما قيل:

لأَسْتسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أَبْلُغَ المُنَى
فَمَا انْقَادَتِ الآمَالُ إلاَّ لِصَابِرِ!(١٠)

أو كما يقول الحماسي:

وَقَدْ يعقلُ القُلُّ الفَتَى دونَ هَمِّهِ
وَقَدْ كَانَ، لَولاَ القُلُّ، طَلاَّعَ أَنْجُدِ!(١١)

وأخيرًا، وليس آخرًا، دعاني الأستاذ إلى مكتبه يومًا يتعاطف معي على ما حدث وما حال دوني من العقبات المتنوعة المتكررة، وقال لي مشجِّعًا: «لدي نسخة مصورة لكتاب آخر نادر جدًّا، قد عثرت عليه في مكتبة خاصّة في تركيا، وكنت أَوَدُّ أن أقوم أنا بتحقيقه وإحيائه إلاّ أن ضعفي وشيخوختي وما أعاني من الأسقام والمتاعب قد حال دون ذلك، فأشرتُ على الدكتور يوسف بأن يقوم بتحقيق الكتاب، وقد بذل جهدًا، وأنفق أيامًا في قراءة الكتاب وتحقيقه فوجد العمل صعبًا عليه، واعتذر قائلاً: إنَّهُ من شبه المستحيل أن يقوم أحدٌ بإحياء هذا الكتاب الغالي الأغرّ من نسخة وحيدة في العالم قد كتبت بخطٍ أندلسيّ، وقد أصابها الماء، وطمست حروفها وكلماتها، إضافة إلى صعوباتٍ أخرى! ولكن الكتاب ثمين ونادرٌ جدًّا، وهو من كتب التراث العربي الأندلسي، وإنك لو تمكنت من إحيائه وتحقيقه لأصبحت من الخالدين! ألا وهو كتاب القرط على الكامل للمبرد لأبي الوليد الوقشي وابن السيد البطليوسي! وقد جمع الكتاب إلى زياداتٍ من عنده ابن سعد الخير الإشبيلي صاحب الفهرسة المشهورة!».

فقلت للأستاذ شاكرًا إيّاه: «يا سيدي! لا أبغي الخلود ولا شيء، غير أنني أود أن أحضر رسالة الدكتوراه تحت إشرافك فقط! فذلك كلّ ما أريده وأتمنّاه!!» وهكذا تمّ اختياري للموضوع، وتمّ تسجيله بجامعة بنجاب تحت إشراف الأستاذ الميمني، رحمه الله، وكلّل الله جهودي بمنّه وكرمه، فأصبحت من «الخالدين»! وقد طبع الكتاب في لاهور، سنة ١٩٨١م، وطبعته الثانية على وشك الظهور من الرياض بإذن الله تعالى.

وكثيرًا ما كنت أختلف إلى منزل الميمني إبّان إقامته في لاهور بصفته أستاذًا ورئيسًا للقسم العربي، ولم يكن بيني وبينه حجاب أو مانع يمنعني أو كلفة تعترض سبيل الزيارة له، فكنت أزوره في غدواته وروحاته، وفي بعض الأحيان كنت أطرق بابه ليلاً دون إذنٍ سابق أو موعدٍ محدّد، وكان يرتاح لرؤيتي دائمًا، ويرحّب بي كلما زرته في بيته، ولم أره متردّدًا يومًا عندما كنت أسأله عمّا يستعصي عليّ من بحثي ورسالتي، وكنت أقضي معه ساعاتٍ طويلةً بصفته مشرفًا على رسالتي للدكتوراه، ولم يبخل عليّ بشيءٍ قطُّ! ولم يتردّد في إعارة الكتب أبدًا، إلاّ أنه لم يكن ينسى كتابًا من كتبه المعارة، فقد كان يَعُدُّها من «أولاده البررة» وأصدقائه المخلصين وأحبائه الصادقين! فإذا أعار كتابًا فلا بدّ أن يُعاد إليه في الوقت المحدّد! وكان يذكرني بإعادة الكتب المعارة كلما طال عليها الأمد، وتقادم بها العهد، وكان يقول: «عُدْ بالقديم لكي تستحقَّ الجديدَ!»، وقد أهدى إليَّ عددًا من الكتب التي كانت تأتيه من قبل دور النشر العربية أو الجهات الأخرى في البلاد العربية، كما أهدى إليَّ القليل من مؤلفاته(١٢)، ومنها نسخة من كتابه «أبو العلاء وما إليه»، وكان ممًّا أهدى إلي نسخة «الوحشيات» الأولى أرسلتْ بها له دارُ المعارفِ في مصر بعد أن ظهرت طبعتها الأولى بتحقيقه، فرجوته أن يعيرني إيّاها ليلةً واحدة على أن أعود بها في صباح الغدّ من ذلك اليوم! فردّ عليَّ بقوله وكأنه قد تألم وتأثّر بعض الشيء من كلامي: «خذها لثلاث

ليالٍ تستضيفها عندك، فلا يجوز للضيف أن ينزل عند مُضيفه، فيطيل الإقامة أكثر من ذلك!! وقد طالعت النسخة، ونبهت على أخطائها وأقمت عوجها، وأديتُ زكاتها بما كتبت بهوامشها، وسوف تراها، وهذا من دأبي! كلما قرأت كتابًا أديت زكاته، ووفيت حَقَّهُ! ويجب أن تتذكر دائمًا بأنه لا يحب أيّ مؤلف أو محقّق أن يحرم من النسخة الأولى من عمله تهدى إليه من قبل الناشر، وأنا أيضًا لا أحب ذلك، ولكنك تستطيع أن تأخذها وتطالعها وتعود بها إليَّ، فإذا جاءتني النسخ الأخرى للكتاب فأنت أحقّ بإحداها، أمَّا هذه فهي عارية مؤداة وذمّة في عنقك!!».

وكثيرًا ما دعاني، وأنا عنده في بيته، للغداء أو العشاء إلاّ أنّني لم أتعشّ ولم أتغدّ عنده يومًا وهو في لاهور، وذلك لأنني، بصفتي من سكان المدينة، لم أكن أود ذلك، ولم أرَ مُسَوِّغًا له، أو قُلْ: إنّني لم أُرِدْ أن أثقلَ على الأستاذ أبدًا! وأمَّا الشّاي فكنا نكثر من ذلك عنده، تعرض علينا (عليَّ وعلى أستاذي!) أكواب، فنفرغها، ويعاد عرضها علينا مع البسكويت مراتٍ ومرّات، وكثيرًا ما كان يقول ليّ: «يا حضرة الحافظ! (هكذا كان يناديني أستاذي، إذ إنني أحفظ القرآن الكريم بحمد الله ومنّه، ومن التقاليد الدينية المتعارف عليها عند المسلمين في بلادنا، أنهم يُسَمُّونَ من يحفظ القرآن الكريم حافظًا، فينادونه بحضرة الحافظ تكريمًا واحترامًا!!) هذه الأشياء، من المأكولات التي تراها، بائتة قد مرّ عليها وقتٌ غير قليل، وقد لا تعجبك! فتعالَ نذهب معًا إلى محل الخبّاز في السُّوق المجاورة القريبة لكي نشتري لنا الحاجات الطازجة، فنعود بها، ثم نشرب الشاي، ونأكل وندخن!».

وأمَّا السَّجائرُ فقد كانت بضاعة مشتركة بيني وبين أستاذي، فكنّا نتقاسمها ونتداولها بيننا، ولم أكن أدخل على الأستاذ إلاّ معي علبة أو علبتان من السَّجائر، فإذا انتهت، أخرج الأستاذ علبته، مما كان لديه، أو لجأنا إلى النارجيلة التي كان يحبها الأستاذ، ويفضلها على السجائر دائمًا، وفي بعض الأحيان كنت آتي له بالتبغ اللاهوري من النوع الخاصّ الذي كان الميمني مولعًا به، (ولم أزل أزوده به وهو في كراتشي، وأرسله إليه مع السَّمن البلدي من إقليم بنجاب، الذي يكثر فيه الجواميس والبقر، فإذا نَفِدَ عنده أو كاد، ذكرني بذلك، وقد سافرت من لاهور إلى كراتشي غير مرة مع التبغ اللاهوري والسمن البلدي لكي أتشرف بلقياه!). وكان الأستاذ الميمني يرى أنَّ السيجارة أو النارجيلة ممَّا يعين الباحثين المحققين على أعمالهم المتعبة الثقيلة من البحث والتحقيق!!

ولم يبخل عليَّ الأستاذ بعلمه أبدًا، ولم يَضِنَّ عليَّ بشيءٍ قطّ مما كان لديه من المعلومات في مذكراته الغالية أو النُّسَخِ المصورة من المخطوطات التي كان قد جاء بها من الخارج، وأنفق عليها من جيبه أموالاً طائلة.. كما لم يبخل عليَّ بما كان عنده من نفائس الكتب التي كان يحبها كثيرًا، وقد رأينا أنه هو الذي أشار عليّ وألحّ في الإشارة بأن أُحضِّر رسالة الدكتوراه تحت إشرافه دون أن أطلب منه ذلك أو أرجوه! وكان على الرغم من شيخوخته، يخصِّص لي وقتًا غير قليل، ويبذل كثيرًا من وقته للإشراف على بحثي ومراجعته! ولم يزل يرشدني، وهو في كراتشي، بالمراسلة، وكان يزوِّدني بما يطلع عليه من شيءٍ يخصُّ رسالتي وبحثي للدكتوراه، سواءٌ كان ذلك في الكتب حديثة الطبع، والتي كانت تأتيه من العالم العربي (وما أكثرَها!)، أو المعلومات الثَّمينة المُسَجَّلة في مذكراته أو في ذاكرته (وما أكثرها أيضًا!)، فكان كلما تذكّر شيئًا أو عثر على شيءٍ جديد سارع بالكتابة إليَّ، وكان يلحُّ عليَّ دائمًا أن أكملَ عملي بأسرع ما يمكن، وقد كان من بركاته أنني استطعت أن أنتهي من الرسالة خلال سنة ونصف تقريبًا!!

ومن جوانب حياة الميمني الخافية المهمَّة عِلْمُهُ

بالكتاب العزيز وعنايته به، واطِّلاعُهُ الواسع على معارفه واستيعابه مفرداته اللغوية، وهذا الجانب من حياته العلمية، له خلفية، وهي أنَّ الأستاذ الميمني كان من تلاميذ الشيخ نذير أحمد الدهلوي، الذي كانت له عنايةٌ خاصَّةٌ بالقرآن وعلومه من الإعجاز والبلاغة ومن التَّرْجَمَة والتَّفسير، وأمَّا اهتمام الميمني بالمفردات القرآنيَّةِ فيرجعُ إلى ما دَرَسَ من أضداد القرآن الكريم ومترادفاته خلال تحقيق كتاب «ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم» لأبي العباس المبرد، وإضافة إلى ذلك فللميمني عناية خاصَّةٌ بدراسة علوم الكتاب والسُّنَّةِ، حيث تناول جوانبها اللغوية في كثيرٍ من محاضراته وبحوثه، ومن الجدير بالذكر أنَّ الأستاذ عبد العزيز الميمني هو أوّلُ من اكتشف ظاهرة غريبة تسود كتب الأمالي كلّها دون استثناء وانتبهَ إليها، وهي أنَّ كتب الأمالي لأئمة اللغة والأدب تبدأ بمحاضرة أو باب عن غريب الحديث النبوي، كما أنت ترى أنَّ أبا العباس المبرد، رحمه الله، يبدأ حديثه في أوّل الكتاب بقوله، بعد الخطبة والتمهيد قال رسول الله ﷺ للأنصار في كلامٍ جرى: (إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الفَزَعِ وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ!)(١٣).

وما رأيتُ أستاذًا من أساتذتنا أو عالمًا من علمائنا مطلعًا على مفردات القرآن اللغوية كاطّلاعه، كان أستاذنا الميمني، رحمه الله، واسع الاطلاع عليها كثير الإتقان لها، وقد سألته عن غريب القرآن غير مرّة، فردّ على كلِّ سؤال وكأنه قد استوعب الموضوع وأحاط به، فعلى الرغم من أنه لم يكن يحفظ القرآن الكريم على الطريقة المتداولة، إلا أنه كان كثيرًا ما يدهشني بما لديه من العلم الغزير بالكتاب وبمفرداته اللغوية، التي كان يحفظها بمعانيها خاصَّةً، وقد قال لي غير مرة: «يا حضرة الحافظ! أنت حفظت القرآن الكريم وأمَّا أنا فلم أحفظه، ولكنني أنا أَعْرَفُ منك بمفرداته اللغوية، وأستطيع أن أجزم القول عن كل كلمة قرآنية هل وردت في الكتاب أم لم ترد أو أين وكم مرة وردت وفي أيِّ سورة من السور كما أستطيع أن أبحث لك عن آية من آياته دون الرجوع إلى المصحف أو فهارسه!!

وكنا – أنا وأستاذي – جالسينِ يومًا كالمعتاد في فِنَاءِ منزله نتشمس ونتحدَّث، فإذا الحديثُ يقودنا إلى البرد القارس المسيطر على مدينة لاهور المتشبث بها يومذاك فقلت له: يا سيدي! أما ترى أن وطأة الشتاء لأشدّ ضراوةً على الناس هذا العام، فإننا نراهم يعانون بسببها أشدّ معاناة ولا يخرجون إلا مغطين في دُثُرٍ وجُبَّاتٍ؟ فقال: نعم! البرد شديدٌ هذا العام! ثم تذكر شيئًا فقال: قد تذكرت أستاذي الشيخ نذير أحمد الدهلوي الذي نظم بيتًا من الشعر عن البرد القارس وعن هذه الجبات صَدْرُهُ بالأردية وعجزه بالعربيَّة، وهو قوله:

كت كـــئــــى دن بـــركــــئــــى رات

جـــاء البرد مـــع الجبـــات !

«ومعنى صدر البيت أنَّ النهار قد نقص وقصر، والليل قد زاد وطال!).

ورأيت أن الجوّ يلائم سؤالاً، كثيرًا ما كان يراودني، فقلت له: يا أستاذي الكريم! ما رأيكم في الشِّعر العربيِّ لشبه القارة؟ فقال: فيه شعرٌ جيّد رصين لا بأس به، ومن الأسف الشديد أنني قد أغمضت عنه إغماضًا كما أنني أهملت الآداب العربية والإسلامية التي أنتجها علماؤنا في شبه القارَّة، وقد كان من حقها، ومن واجبي، أن أهتمَّ بها، فَأُعرِّفَ بها العالمَ العربيَّ، وأخشى أن يتَّهمني مؤرخ المستقبل بالإهمال والترفع عمَّا أنتجه أبناء وطني وجلدتي! ثم أخذ الأستاذ ينظر في حيرة إلى السَّماء، وقد بدا على وجهه ظلالٌ من النَّدم والوجوم!

فقلت له في شيء من الثقة واليقين: لا تحزن يا سيدي! فقد ربيت أجيالاً وأعقابًا من تلاميذك وأتباعك، وقد أعددتهم إعدادًا جيّدًا لينوبوا عنك

بالقيام بما لم تستطع أن تقوم به، وهم قادرون على ذلك بإذن الله، ومن واجبهم أن يدافعوا عنك! ولكن التُّهَمَةَ التي يتهمك بها أعداؤك والمعارضون لك إنما هي تُهَمَةُ الشحّ والبخل، وقد سمعتهم يقولون وقرأت لهم ما يكتبون قائلين: إنّك تبخل بالمال، وتَضِنُّ بالعلم والكتاب!

فنظر إليَّ الشيخ نظرة الغاضب المريب ثم قال: إنهم يكذبون، ولا يعرفون شيئًا من الحقيقة! أنا لست بخيلاً، ولكنني لا أسخو بكلّ ما لَدَيَّ من المال والعلم أو الكتاب إلا لمن أراه أهلاً لذلك، ويستحقّهُ استحقاقًا صحيحًا! إلاّ أنني لا أريد أن أضيع منه شيئًا، فأبيحه لكل من هبَّ ودبَّ! إنني أنفق مالي لمن يعرف قدره، وقليلٌ منهم!! ولا أبيح كتبي لأدعياء العلم، ولا أسخو بعلمي إلاّ لأهله، أَمَا سمعت زهيرًا يقول:

وَمَنْ يَصْنَعِ المَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ
يَـعُـدْ حَـمْـدُهُ ذَمًّـا عَـلَـيْـهِ وَيَـنْـدَمِ[١٤]

وذلك ممَّا يذكرنا بما رواه أهل العلم والأدب من قول بزرجمهر بن بختكان الفارسي، وهو يَرُدُّ على من أراد محنته: «العلماء أفضل أم الأغنياء؟ فقال: العلماء، قيل له: فما بَالُ العلماءِ على أبواب الأغنياء أكثر من الأغنياء على أبواب العلماء؟ فقال بزرجمهر: لمعرفة العلماء بفضل الغنى وجهل الأغنياء بفضل العلم»[١٥].

وقبل أن يلقى رَبَّهُ كان الأستاذُ الميمني، رحمه الله، قد تبرع بما اكتسب بكده وعرق جبينه من المال، ووزّعه على من يستحقُّهُ، فقد تبرع به لمجامع اللغة العربية كمجمع اللغة العربية بدمشق، وتبرع للمعاهد التعليمية والجامعات، فأعطى ثلاث مئة ألف روبية لندوة العلماء في لكنو الهند، وتَبرَّعَ بمئة ألف روبية لمكتبة جامعة بنجاب بلاهور (تلك الجامعة التي تَنَكَّرَ له مرتين بعضُ أساتيذها من أدعياء اللغة العربية، ولم يعترفوا بما فَضَّلَهُ اللَّهُ به من مكانةٍ علميَّةٍ وجحدوا بحقه!!) ثم اشترى كتب الحديث والتفسير بما تبقَّى عنده من المال، فوزَّعها على المعاهد الدينية في باكستان وفي خارجها! وأهدى مكتبته المليئة بما اقتنى طوال عمره من نفائس الكتب العربية مخطوطها ومطبوعها لجامعة السّند!

وقد أنفق الميمني حياته كلَّها في خدمة اللغة العربية وآدابها، بين التدريس والبحث أو التحقيق، وأعدَّ الكثير الكثير من البحوث والمقالات باللغة العربية، وقد أحيا تراثها الغالي، فحقق أكثر من ثلاثين كتابًا، وقد نشرت كلها أو جلّها في العالم العربي، واكتسب بها مبلغًا كبيرًا من المال كأجور مقابلة لجهوده، وقد قال لي يومًا: «قد اكتسبت لباكستان بقلمي هذا مبلغًا ضخمًا من العملة الصَّعبة، ما لا يقلُّ عن ثلاثة ملايين من الروبيات، وقد استطعت أن أكتسب ذلك المبلغ الضخم، لأنني تَعَلَّمْتُ العربية، وأتقنتها إتقانًا صحيحًا، وقمت بخدمتها خير قيام! وقد أيقنت بأنَّ عالم اللغة العربية لا يمكن أن يموت جوعًا وفقرًا؛ لأنَّ العربيةَ لغة كتاب الله العزيز ولغة العرب الكرام، والله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من يحسن العمل، وكذلك العرب الكرام الأسخياء! إنهم لا يَنْسَونَ فضل من يقوم بخدمة لغتهم، إنهم يقدرون جهود العاملين المحسنين المخلصين! وهذه دور النشر في بلدكم لا يدفع أصحابها للكتاب والمؤلفين شيئًا، ويتركونهم، لا بلْ يطردونهم ليتضوروا جوعًا ويموتوا فقرًا، وأمَّا أصحاب دور النشر العربية فإنهم لا يبخسون حق المؤلفين أبدًا! ويكافئونهم بما يستحقون!!

وإن أدعياء اللغة العربية هؤلاء في بلادكم يقولون: تعلمنا العربية ونموت جوعًا وفقرًا! ولكنهم يكذبون فيما يقولون! إنهم لم يتعلموا اللغة العربية، وإنما أنفقوا سنواتٍ عديدة في المعاهد والجامعات ليكتسبوا بها قطعة من الورق يسمونها شهادة! وقد اكتسبوها، وعلى الرغم من ذلك إلا أنهم لم يحصلوا على شيءٍ من

جوانب مجهولة من حياة عبد العزيز الميمني الراجكوتي

اللغة العربية حتى إنَّ الحاصل منهم على شهادة الدكتوراه لا يقدر على الحديث أو الكتابة بها حتى لو كانت جملةً واحدة! لأنه قد حاز هذه الشهادة من أوربا من عند المستشرقين، وحضَّر الرسالة في لغة من لغاتهم، ولم يذهب إلى جامعة عربية للدراسات العليا، فعاد وقد حصل على كلِّ شيء غير العربية! وأقول أنا عبد العزيز الميمني: إنَّ الذي تعلَّم العربية فأتقنها لن يموت جوعًا ولن يواجه فقرًا أبدًا، إنَّ الله قد وعد أهل الكتاب بأنهم لو أقاموا التوراة والإنجيل لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، والميمني يقول ويعلن على رؤوس الأشهاد بأنَّهُمْ – أي أدعياء العربية – لو تعلَّموا لغة القرآن، وأتقنوها حَقَّ الإتقانِ لأتاهم الرزق من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن يمينهم ومن شمالهم! وأمَّا أنت يا حضرة الحافظ! فأراك لست منهم، وإنك لو مضيتَ على طريقك هذا من إتقان العربية، كتابةً وحديثًا، لن تموت جوعًا، ولن تكون في حاجةٍ إلى طلب الرزق في الآفاق، وسوف يأتي رزقك على بابك»!!

ولقد أصاب أستاذي الميمني، رحمه الله، فيما قال لي ونصح لي به، فقد نذرت حياتي كلَّها للغة العربية والنهوض بها في بلدي، وقد وَفَّقني اللَّهُ في ذلك بعضَ التوفيق، فقد دخلت مجال الخدمة للغة العربية في جامعة بنجاب (وهي أقدم جامعة في باكستان) وأهلها لا يعرفون كلمة جواز السَّفر باللغة العربية فضلاً عن أن يتحدَّثوا أو يكتبوا بها، بل كانوا يرون أَنَّ الحديث أو الكتابة بالعربية ليس من واجبهم بل ذلك مستحيل، إذ كانوا يدرسون العربية ويدرِّسونها كلغة ميتة كالسنسكريتية، وأمَّا اليوم، والحمد لله، فقد أصبحت الأجوبه عن الأسئلة باللغة العربية إجبارية في جامعة بنجاب نفسها، وتكتب رسائل الماجستير والدكتوراه بالعربية إضافة إلى ظواهر أخرى من نهضة العربية ورفع مستواها في باكستان. وإنَّ الله سبحانه وتعالى قد أعزني وأكرمني بما قمت به من خدمة لغة كتابه ولغة شعب نبيه الأبيّ، وأتمنى على الله عزّ وجلّ أن يوفقني بالمزيد من الخدمة لها لكي أستمرَّ في طريقي هذا ما دمت حيًّا!! ●

●●●

الحواشي

١ – الجامع الصَّغير في أحاديث البشير النذير: ٣١/١.

٢ – مجلة المجمع العلمي الهندي: ٤٩.

٣ – قد ظهرت طبعة الكتاب الأولى في مدينة أعظم كره الهند سنة ١٩١٢م، والثانية في ١٩٢٧م، وهي التي عثرت عليها واستفدت منها.

٤ – والمتوفى ١٣٧٣هـ (١٩٥٦م) من أبرز الندويين الأفاضل وأخصّ تلاميذ الشيخ شبلي وأشهرهم.

٥ – راجع مقدمة كتاب لغات جديدة: ١٢ بالأردية.

٦ – سورة فاطر: ١٤.

٧ – راجع مقال الدكتور يوسف عن: «الميمني كما عرفته» في مجلة المجمع العلمي الهندي، يونيو ١٩٨٥م.

٧ – راجع مقال الدكتور يوسف عن: «الميمني كما عرفته» في مجلة المجمع العلمي الهندي، يونيو ١٩٨٥م.

٨ – إحياء علوم الدين: ٢٢٣.

٩ – حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء (خ) ق٣.

١٠ – كتاب القرط على الكامل : ٥.

١١ – حماسة أبي تمام طبعة الحلبي: ٢٧٣.

١٢ – وهي: (١) الوحشيات لأبي تمام، (٢) المقصور والممدود للفرّاء، (٣) التنبيهات لعلي بن حمزة البصري.

١٣ – الكامل : ٥.

١٤ – ديوان زهير مع شرح الشيباني: ٤٤٤.

١٥ – القرط على الكامل: ٤٣٥.

زكريا الأنصاري

مصنفاته وأماكن وجود مخطوطاتها

الأستاذ/ عبد القادر أحمد عبد القادر
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
قسم المخطوطات
دبي - الإمارات العربية المتحدة

الحمد لله الذي رفع لواء هذا الدين على أيدي العلماء المخلصين، فأناروا الظُّلَم، وبدّدوا دياجيرها بما صاغوه وصنفوه، مما استوعبوه من سابقيهم، فخرجت عصارة فكرهم تزيّن وتزخرف بياض الأوراق، فتجعله يتلألأ، فيبهر العقول والقلوب قبل العيون.

إن استعراض المصنفات التي تركها لنا أسلافنا ميراثًا، يتلقّاه اللاحق من السابق، يُثير في النفس اعتزازًا وفخرًا بما حققوه، وشجونًا وألمًا لما فقدناه منها، وإنّ التمرّس بالعلم يكمن أوّلاً في العثور على تلك المصنفات، ثم بالحصول عليها وقراءتها، ثم في إخراجها بحلّةٍ جديدة تساير التطورات الطارئة، لعلّنا نستعيد بذلك ما فقدناه من مكانة.

وقد رأينا أن نستعرض مؤلفات عالم من علمائنا، ونحدّد منها ما هو بحاجةٍ إلى تحقيق ونشر، علّ باحثًا يمدّ يديه إليه، ونبيّن أماكن وجود مخطوطاتها المنتشرة في مكتبات العالم، وقبل الاستعراض لا بُدّ من التعريف به بشكلٍ موجز؛ إذ إن كثيرًا من الباحثين الذي أخرجوا ونشروا بعض مصنفاته، قد قدموا نشراتهم بترجمة ضافية لحياته وعلمه وشيوخه، وغير ذلك مما تقتضيه النشرة.

المؤلف

هو زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاريّ، الخزرجي نسبًا، السنيكي المصري مولدًا، الشافعيّ مذهبًا، مسقط رأسه سنيكة حيث ولد سنة ٨٢٤هـ، رحل من قريته إلى القاهرة، وقصد الأزهر سنة ٨٤١هـ.

ذاق طعم اليُتم صغيرًا، ممّا جعله ينشأ في قريته تحت وقع سياط الفقر الموجع، وقامت برعايته أمه، التي أسلمته إلى الشيخ ربيع بن الشيخ المصلح عبدالله السلمي الشنباري. كما ذكر الغزّي[1]، فتكفّل به الشيخ، فحفظ القرآن، وقرأ بعض الكتب[2]، ثم غادر قريته متجهًا إلى القاهرة، للالتحاق بالأزهر، وقد عانى خلال تلك المدّة من الحرمان والفقر والجوع، إلى أن هيّأ الله له طحانًا صالحًا يتكفّل به، ويقدّم له كلّ ما يحتاج إليه من طعامٍ وشراب وكسوة وكتب[3].

وكان نتيجة هذه الرعاية أن أخذ الرجل يستنير

بالعلم، إلى أن تسنّم بعلمه منزلةً رفيعة، أهّلته أن يجلس على كرسيّ القضاء، وأن يترك لنا كمًّا وافرًا من الكتب، في العلوم المختلفة المتنوعة، ما بين فقه، وتفسير، ونحو، وبلاغة، ومنطق، وحساب وغير ذلك.

ولعلّ أهم ما يميّز مصنفاته تنوّعها ما بين شرحٍ لكتاب، أو اختصارٍ لآخر أو تهذيبه، وما بين تصنيف في موضوعٍ ما، وكانت تلك سمة عصره، وإنّ استعراض مؤلفاته يوضح لنا هذه الحقيقة(٤).

وهذه مصنفاته مرتبة على حروف المعجم، مع ذكر أرقامها في المكتبات التي تحتوي نسخًا مخطوطة منها:

١ - الآداب:

ذكره له في كشف الظنون: ٤١/١ بعنوان «آداب القاضي زكريا»، وذكره له أيضًا تحت عنوان شرحه «فتح الوهاب» ١٢٣٦/٢، وفي هدية العارفين: ٣٧٤/١، كما ذكره له أيضًا في الهدية تحت عنوان شرحه، حيث قال: ٣٧٤/١: «فتح الوهاب بشرح الآداب له». بينما ذكر فؤاد السيّد في فهرس المخطوطات: ١٧٢/٢: أن فتح الوهاب شرح لرسالة آداب البحث للسمرقندي، محمد بن أشرف الحسيني (- بعد ٦٩٠هـ).

٢ - إحكام الدلالة على تحرير الرسالة:

يشرح فيه المؤلف الرسالة القشيرية، لعبد الكريم ابن هوازن القشيري - ذكره له بهذا العنوان في هدية العارفين: ٣٧٤/١، وذكره له بروكلمان، في الذيل: ١١٨/٢ بعنوان: تهذيب الدلالة. وورد في كشف الظنون: ٨٨٢/١: «شرحها القاضي زكريا في مجلد مع المتن، وأنه فرغ من الشرح في رابع عشري جمادى الأولى سنة ٨٩٣هـ».

منه خمس نسخ في دار الكتب المصرية: ٢٠ - ٣١٨ - ٥٢٠ - ٢١ الجزء الأول - ٢٢ الجزء الثاني، ونسختان في دار الكتب الناصرية بتمكروت: ٢٠٩٠ - ٢٨٥٦، ونسخة في مكتبة علال الفاسي بالرباط: ١٨٤١/ ع٣٦٢، وخمس نسخ في دار الكتب الوطنية بتونس: ١٨٣٠ - ٣٤٧٨ - ٣٩٨٣ - ٥١٤٩ - ٥١٥٠، ونسخة في مكتبة غازي خسرو بسراييفو: ٣٦٠، عنها صورة على ميكروفيلم في مركز جمعة الماجد بدبي، الفيلم ٣٣٥، ونسخة في تشستربيتي بدبلن: ٣٨٤٣، عنها صورة على ميكروفيلم في مركز جمعة الماجد، الفيلم ٨٠٦، ونسخة في المكتبة الملكية ببرلين: ٢٨٢٤.

٣ - أحكام الفاتحة في التجويد:

لم نجد من ذكر له هذا العنوان.

منه نسخة في مكتبة رامبور بالهند: ٣٢٨/ ٨٩٤٦م.

٤ - الأدب في تبليغ الأرب:

اختصره من كتاب الآداب، في الحديث، للبيهقي. ذكره له بروكلمان: ١٢٤/٢، وفي الملحق: ١١٨/٢، وفي الكواكب السائرة: ٢٠١/١.

منه نسختان في الخزانة العامة بالرباط: ١٩٥٥ - ٢٨٩٤ [١٩٥٥د]، بعنوان الأدب في تعريف الأرب، ونسخة في المكتبة الوطنية بباريس: ٤٥٩٣، عنها نسخة مصورة على ميكروفيلم في مركز جمعة الماجد: الفيلم ٨٦٩.

٥ - أدب القاضي، على مذهب الإمام الشافعي:

ذكره له في كشف الظنون: ٤١/١، ٤٧، وفي هدية العارفين: ٣٧٤/١، لعلّه كتاب عماد الرضا ببيان أدب القضاء، الآتي ذكره.

منه نسخة في مكتبة كلية الآداب، جامعة بغداد: ١٦٨٤.

٦ - أسئلة حول آيات من القرآن:

ذكره له في كشف الظنون: ٩٢/١، بعنوان «أسئلة القرآن وأجوبتها»، قال: «لخّصها من كتاب

محمد بن أبي بكر الرازي، وزاد عليها»، وذكره له بروكلمان في الذيل: ١١٨/٢، بعنوان «ذكر آيات القرآن المتشابهات». لعله كتابه المسمى: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن.

منه نسخة في المكتبة التيمورية: ٩٨.

٧ - أسنى المطالب في شرح روض الطالب:

يشرح فيه كتاب روض الطالب، لإسماعيل بن أبي بكر المقرئ (- ٨٣٧هـ)، الذي اختصر فيه كتاب روضة الطالبين، للنووي، يحيى بن شرف (- ٦٧٦هـ)، الذي اختصر فيه كتاب فتح العزيز في شرح الوجيز، للغزالي، محمد بن محمد، أبي حامد (- ٥٠٥هـ).

ذكره له في الضوء اللامع: ٢٩٥/٢، وفي كشف الظنون: ٩١٩/١، ٩٣٠، وبروكلمان: ١٢٤/٢، والذيل: ٤٥٤/٢، وفي الكواكب السائرة: ٢٠٣/١.

طبع هذا الكتاب في مصر، في المطبعة الميمنيّة على حاشية الرملي سنة ١٣٠١هـ.

منه ثلاث نسخ في مكتبة الأحقاف بتريم في اليمن: ٥٥ آل يحيى، عنها نسخة مصورة على ميكروفيلم في مركز جمعة الماجد، (الفيلم ٩٩٤)، ٥٧ آل يحيى، عنها نسخة مصورة على ميكروفيلم في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٩٩٣)، ٥٨ آل يحيى، عنها نسخة مصورة على ميكروفيلم في مركز جمعة الماجد، (الفيلم ٤٩٣)، وثلاث عشرة نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٤١٠٧، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ١١٧١)، ٢٢٣١ عنها نسخة مصورة على ميكروفيلم في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢٢٠٤)، ٢٣٧٨ (ج١) عنها نسخة في المركز (الفيلم ٢٠٠٤)، ٢٣٧٩ (ج٢)، ٢٣٨٠ (ج٣)، عنهما نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢٠٠٥)، ٢٢٣١ (ج١)، ٢٢٣٢ (ج٢)، ٢٢٣٥ (ج٢)، ٢٢٣٦ (ج٣)، ٢٢٣٧ (ج٣)، ٢٢٣٣ (ج٣)، ٢٢٣٤ (ج٤)، ٢٢٣٨ (ج٤)، وسبع عشرة نسخة في المكتبة الأزهرية: ٩١٠/٣٩، ٣٠٥ / ٢٠٩٨ (ج١ + ٢)، ٤٤٠ / ٣١٩٩ (ج٤)، ٤٤٠ / ٣١٩٩ (٥ج)، ٤٨١ / ٣٢٧٥ (ج٥)، ٥٤٥ / ٣٥٣٦ (ج ١)، ٦٧٤ / ٥٢٢٣ (ج ٢)، ٥٦٣٢/٧٢٥ (ج١، ٢، ٤)، ٥٦٣٣/٧٢٦ (ج١، ٢، ٤)، ٥٦٣٤/٧٢٧ (٤ ج)، ٧٢٨ / ٥٦٣٥ (ج ١، ٢، ٤)، ٦٠١١/٨٠٦ (٤ ج)، ٦١٦٢/٨٧٧ (ج ١، ٢، ٤)، ٨٢٣٢/٨٩٠، ٢١٢٩ سـقـا/ ٢٨٥٣٢ (٤ ج)، ٣٦١٢١/٢٢٤٨ (٢ج)، ٢٥٥٩ جـو/٤١٨٦٩ (ج١، ٤)، ونسخة في المكتبة الخديوية: ن ع ١٥٢٥، ونسختان في دار الكتب المصرية: ٧ (٢ج)، ٩٨٥ (ج٢)، وأربع نسخ في مكتبة تشستربيتي بدبلن: ٥٤٠٥، عنها نسخة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٣٧٨٩)، ٥٤٠٦، ٥٤٠٩، ٥٤١٠، عن هذه النسخ نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٣٨٢٦)، ومن الجدير بالذكر أن النسخة التي تحمل الرقم ٥٤٠٩ مقابلة على نسخة ولده. ونسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد: ٣٥٦٠، ونسخة في المكتبة الوطنية بباريس: ٩٩٣، ونسختان في جامعة برنستون: ١٨٠٨ (ج١)، ١٨٠٩ (ج٢).

٨ - الأضواء المبهجة في إبراز دقائق المنفرجة:

اختصر فيه شرح المنفرجة، لأبي العباس أحمد بن أبي زيد البجائي، الذي يشرح فيه القصيدة المنفرجة، لأبي الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزري التلمساني، المعروف بابن النحوي (- ٥١٣هـ). قال الأنصاري في مقدمة شرحه: «فهذا ما اشتدت إليه حاجة المتفهمين للمنفرجة.. من شرح يحل ألفاظها، ويبيّن مرادها، ويكشف لطلابها نقابها... لخّصته من الشرح المشار إليه...».

وورد في بعض الفهارس بعنوان: الأضواء البهجة.

وهذا هو الشرح المطوّل للأنصاري، وله شرحٌ آخر اختصره من المطوّل، بعنوان: فتح مفرج الكرب، سيأتي ذكره.

وهذا الكتاب مطبوعٌ في مصر، في مطبعة التقدّم سنة ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م، كما انتهينا من تحقيقه، ودفعنا به إلى المطبعة، وسيصدر قريبًا.

ذكره له في: كشف الظنون: ٢/١٣٤٦، وبروكلمان: ٢/١٢٤، والضوء اللامع: ٣/٢٣٦، والكواكب السائرة: ١/٢٠٢.

منه أربع نسخ في المكتبة الظاهرية بدمشق: ١٤٤٩، ١٥٢٠، ١٤٥٠، ٥٨٥٨، ونسختان في المكتبة القادرية ببغداد: ١٤٢٩، ١٥٢٠، ونسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد: ٤٨١١، ونسخة في مكتبة الخزانة العامة بالرباط: ١١٧٥/١٦٤٣د، ونسخة في الخزانة الصبيحية بسلا - المغرب: ٣٢١، وثلاث نسخ في مكتبة حسن حسني عبد الوهاب بتونس: ١٨١٥٨، ٦٨٨، ٢٧٥٩، وفي دار الكتب الوطنية بتونس ثلاث نسخ: ١٨١٥٨، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد، (الفيلم ٣٤٧)، ٤٦٨٨، ٧٣٢١، ونسخة في جامعة الإمام محمد: ٧٥٨٤، وخمس نسخ في دار الكتب المصرية: ١٥٢٧، ١٥٢٨، ٢٠٩٠، ١١١، ١٤م، ونسخة في مكتبة غازي خسرو بسراييفو: ٢٦٩٧، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٣٤٧)، وأربع نسخ في جامعة برنستون (يهودا): ٥٠٨٠، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٣٦٩٦)، ٣٢، ٣٣، ٢١/٢٠٠٣.

٩ - إعراب القرآن:

لم نجد من ذكر له هذا العنوان، إلاّ ما وجدناه في مقدمة أستاذنا الدكتور مازن المبارك لتحقيق كتاب الحدود الأنيقة، نقلاً عن مقدمة محقّق كتاب: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس بالقرآن.

منه نسخة في المكتبة التيمورية ٣٠٠، ٢٣٨ حيث كتب عليها لشيخ الإسلام، لذلك ذكر صانع الفهرس: «ويظهر أنه شيخ الإسلام، زكريا الأنصاري، وبخطّه».

١٠ - الإعلام بأحاديث الأحكام:

ذكره له في: الكواكب السائرة: ١/٢٠١، وإيضاح المكنون: ١/٨٠١، وبروكلمان: ١/١٢٣.

١١ - الإعلام والاهتمام لجمع فتاوى شيخ الإسلام:

ذكره له بروكلمان: ٢/١٢٣.

منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٦٦٢٦، ونسخة في المكتبة الوطنية بباريس: ٩٥٠.

١٢ - أقصى الأماني في علم البيان والبديع والمعاني:

اختصر فيه كتاب تلخيص المفتاح للقزويني، محمد بن عبد الرحمن (- ٧٣٩هـ)، الذي لخّص فيه الفن الثالث من كتاب مفتاح العلوم للسكّاكي، يوسف ابن أبي بكر (- ٦٢٦هـ).

ذكره في الكشف: ١/١٣٧، ١/٤٧٨، دون أن يذكر اسم المؤلف، حيث قال: «وللتلخيص مختصراتٌ منها... تلخيص التلخيص المسمّى بأقصى الأماني... لبعض شراح المطول».

منه نسخة في دار الكتب المصرية: ٦٠٤، ونسختان في المكتبة الأزهرية: ١٥٦/٤٣٦٧، ١٧٠٩ زكي/٤٠٩٦٧، ونسختان في جامعة الإمام محمد: ٨٤٩٠، ٩١٣٩، ونسخة في مركز جمعة الماجد: ٣٦٤٥.

١٣ - بلوغ الأرب بشرح شذور الذهب:

يشرح فيه الأنصاريّ كتاب شذور الذهب لابن هشام الأنصاري، عبدالله بن يوسف (- ٧٦١هـ).

ذكره في: كشف الظنون: ٢/١٠٣٠، وهدية العارفين: ١/٣٧٤.

وذكر الدكتور مازن المبارك في مقدمته لتحقيق كتاب الحدود الأنيقة أن الأستاذ محمد وجيه التكريتي من اللاذقية يقوم بتحقيقه لنيل درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية بجامعة دمشق.

منه خمس نسخٍ في المكتبة الظاهرية بدمشق: ١٧٢٥ عام - ١٨٢١ عام - ٨٩٨٣ عام - ٩٢٢٠ عام - ١٠٣٧٧، وست نسخ في المكتبة الأزهرية: ٢٤٨١/٣٦٣ - ٣٢٢٢ عروسي/ ٤٢٥٤٩ - ٣٢٢٣ عروسي/ ٤٢٥٥٠ - ٣٢٢٤ عروسي/ ٤٢٥٥١ - ٣٨٦٤/ ٥٣٤٢١ - ٣٨٦٥/ ٥٣٤٢٢، ونسختان في المكتبة الخديوية: ٣٦٩١ - ٢٣٨٩٩، ونسخة في المكتبة الوطنية الصادقية بتونس: ٩٣٧٤، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٣٧٤)، ونسخة في المكتبة الوطنية بتونس: ٣٩٣٧، ونسختان في جامعة الإمام محمد: ٨٤٩٠ - ٩١٣٩، ونسختان في المكتبة الملكية ببرلين: ٦٧٣٤ - ٦٧٣٥. وثلاث نسخ في دار الكتب المصرية: ٨٩ - ٨٨٩ - ١١٤٧.

١٤ - بهجة الحاوي:

يشرح فيه الأنصاريّ كتاب الحاوي الصغير في الفروع، للقزويني، عبد الغفار بن عبد الكريم (- ٦٦٥هـ)، وللأنصاري كتابان آخران يتعلقان بالحاوي، هما خلاصة الفوائد المحمدية، والغرر البهيّة، ذكره له في كشف الظنون: ١/٦٢٦، وهدية العارفين: ١/٣٧٤.

١٥ - التبيين في أحكام النون الساكنة والتنوين:

منه نسخة في مكتبة رامبور في الهند: ٨٩٩٢/٣٢٦.

١٦ - تحرير تنقيح اللباب:

اختصر فيه كتاب تنقيح اللباب، لأبي زرعة، ولي الدين، أحمد بن عبد الرحيم العراقي (- ٨٢٦هـ)، الذي اختصر فيه كتاب لباب الفقه، لأبي الحسن أحمد ابن محمد المحاملي (- ٤١٥هـ).

هذا ومن الجدير بالذكر أن الأنصاري قام بشرح هذا المختصر وسمّاه تحفة الطلاّب. وهذا الكتاب طُبعَ في مصر ببولاق ١٢٩٢هـ، وفي المطبعة الميمنية ١٣٣١هـ.

ذكره في كشف الظنون ٢/١٥٤٢، وبروكلمان: ١/١٢٣.

منه نسختان في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٣٦٨٤، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢١٣٩)، ١٠٨٠٥، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ١٦٦١)، وثلاث نسخٍ في المكتبة الخديوية: ١٥٦٢ - ٣٩٨ - ١٧١٤٠، وأربع نسخ في دار الكتب المصرية: ٤٤ - ٣٩٨ - ٩٢٩ - ٩٤٠، ونسخة في المكتبة الأزهرية: ٧٨١٧/٩١٠.

١٧ - تحفة الباري بشرح صحيح البخاري:

يشرح فيه الجامع الصحيح للبخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (-٢٦٥هـ).

ذكره في: الكواكب السائرة: ١/١٩٩، والطبقات الكبرى للشعراني: ٢/١٢٢ بعنوان فتح الباري بشرح صحيح البخاري، وبروكلمان، في الذيل: ٢/١١٨.

طبع هذا الكتاب في مصر على هامش كتاب إرشاد الساري في المطبعة الميمنية: ١٣٢٦هـ.

منه ثلاث نسخٍ في خزانة تطوان: ٧٠٩ (ج١، ٢)، ٧١٠، ٥٩٥ (ج٢)، وثلاث نسخٍ في مكتبة أوقاف بغداد: ٢٤٧٣، ٢٤٧٤، ٢٤٧٤، وثلاث عشرة نسخة في دار الكتب الوطنية بتونس: ٤٩٥٧ (ج٣) - ٤٩٥٨ (ج٢) - ٤٩٦٠ (ج٣) - ٥١٥٩ - ٥١٥٨ - ٥١٦٠ (ج٣) - ٥٧٢٢ (ج١) - ٧٢٧٣ (ج١) - ٧٢٧٤ (ج٢) - ٧٢٧٥ (ج٣) - ٧٢٧٦ (ج٤) - ٧٢٧٧ (ج٣) - ٧٢٧٩ (ج٤)، وثلاث نسخ في دار الكتب المصرية: ١٣٧ (ج١ - ٣) - ١٣٨ (ج٢) - ١٣٩ (ج١، ٢)، وأربع نسخٍ في خزانة القرويين بالمغرب: ١٣٥ (ج٢) - ١٣٧ - ٧٦٣ (ج١) - ١٧٠٩ (ج٢)، ونسخة في الخزانة العامة بالرباط: ٤٠/١٢٢٤ج، ونسخة في خزانة ابن سودة في المغرب: ٣٤ (ج٢)، ونسخة في المكتبة الأحمدية بحلب: ٢٠٨/٧٨، ونسخة في المكتبة

المركزية، جامعة البصرة ٣٣٠، ونسخة في المكتبة العباسية - البصرة: ٦٣٤ (ج٤، ٥)، ونسخة في مكتبة جامعة الإمام محمد: ٣٩٢٩ (ج٢)، ونسختان في مكتبة داماد إبراهيم باشا: ٣٢٣ - ٣٢٤، ونسخة في المكتبة الأصفية: ٢٨١، ونسختان في متحف بانافيا: CCxCIV (ج٢) - ٧٨/٣٦، ونسخة في معهد غوتا بألمانيا: ٢٥٣/٢ ونسختان في مكتبة نور عثمانية: ٨٤٧ (ج١) - ٨٤٨ (ج٢).

١٨ - تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين:

ذكره له بروكلمان: ١٢٤/٢، كما نسبه إليه فؤاد السيِّد في فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية: ١٣٥/١، بينما نسب هذا العنوان في الإيضاح: ٢٤٨/١ لأحمد رشيد بن محمد صدقي الرومي (- ١٢٥٠هـ). لكنّ الغزّي في كتابه «الكواكب السائرة» ذكر له كتاب: مختصر بذل الماعون في فضل الطاعون لابن حجر العسقلاني، فلعلّ الأنصاري أطلق على مختصره، عنوان تحفة الراغبين، وهذا ليس بعيدًا؛ لأن قراءة في عناوين كتب التراث تضع أيدينا على عناوين متشابهة لمؤلفين مختلفين.

منه نسخة في دار الكتب المصرية: ٢٥٧٣٢ب، ونسخة في المكتبة التيمورية: ١٣٤ مجاميع/ ١٤١ (ج١) - ٥٧٠ (ج١)، ونسخة في مكتبة البلدية بالاسكندرية: ٥٠٧٤ج، ونسخة في مكتبة جامعة برنستون - مجموعة جاريت: ٣٣٩٩، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٣٦٥٢).

١٩ - تحفة الطّلاب بشرح تحرير تنقيح اللباب:

يشرح فيه الأنصاريّ كتابه «تحرير تنقيح اللباب»، الذي اختصر فيه كتاب تنقيح اللباب، لأبي زرعة العراقي (- ٨٢٦هـ)، الذي اختصر فيه كتاب لباب الفقه، للمحاملي (- ٤١٥هـ).

ذكره له في: الكشف: ١٥٤١، ١٥٤٢، والهدية: ٣٧٤/١.

منه إحدى عشرة نسخة في الظاهرية بدمشق: ٦٢٦٦، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢٣١٨) - ٣٦٥٣، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢١٣٦) - ٢١٨٩ - ٢١٩٠ - ٢١٩١ - ٢١٩٢ - ٢١٩٥ - ٤٨٩١ - ٧٢٣٥ - ٧٢٤٤ - ٨٩٦٤، وثلاث عشرة نسخة في دار الكتب المصرية: ٤١٥ - ٧٤٤ - ٨٦٠ - ٩٢٢ - ١٠٠٢ - ١٠٢٥ (ج٢) - ١٠٦٦ - ١٠٣٧ - ١٣٩١ - ١٣٩٢ - ١٤٠٨ - ١٤٨٠ - ١٤٨١، وخمس عشرة ومائة في المكتبة الأزهرية، ونسخة في الخديوية: ١٧٧٦٢، ونسختان في مكتبة جامعة أم القرى: ١٢٠٠ - ١٣٧٠، وثلاث نسخٍ في مكتبة الأوقاف ببغداد: ٤٠٦٦ - ٤٠٦٦ - ٢٢٧٩٨، وثلاث نسخ في المكتبة القادرية ببغداد: ٤٧٤ - ٤٧٥ - ٤٧٦، وإحدى عشرة نسخة في مكتبة مركز الملك فيصل: ٧١٩ - ٧٢٠ - ٧٢١ - ٧٢٢ - ٧٢٣ - ٧٢٤ - ٧٢٥ - ٧٢٦ - ٧٢٨ - ٢٠٧٠، ونسخة في دار الكتب الوطنية بباريس: ١٠٣٨.

٢٠ - التحفة العليّة في الخطب المنبرية:

ذكره له في: هدية العارفين: ٣٧٤/١، والكواكب السائرة: ٢٠١/١ بعنوان: ديوان خطب، وبروكلمان: ١٢٣/٢، والذيل: ١١٨/٢ بعنوان التحفة السنيّة، وكشف الظنون: ٢٥٥/١، والضوء اللامع: ٢٠١/١.

منه نسخة في دار الكتب الوطنية بتونس: ٢٩٩٠ بعنوان: خطب منبرية.

٢١ - تحفة القُرّاء في الفتح والإمالة:

لعلّه مختصر قرّة العين لابن القاصح.

منه نسخة في الخزانة العامّة بالرباط: ٢٨٠١ [١٩٥٥د].

٢٢ - تحفة نجباء العصر في أحكام النون الساكنة والتنوين والمدّ والقصر:

ذكره له في: هدية العارفين: ٣٧٤/١، والإيضاح:

٢٦٢/١، والكواكب السائرة: ٢٠١/١ بعنوان: مقدمة في أحكام النون الساكنة والتنوين، وبروكلمان: ١٢٤/١، والذيل: ١١٨/٢ بعنوان: تبيين ما في أحكام النون والتنوين.

ذكر الدكتور مازن المبارك في مقدمة تحقيقه لكتاب الحدود الأنيقة أن الأستاذ محمد وجيه التكريتي قد انتهى من تحقيقه.

منه ثلاثُ نسخٍ في دار الكتب المصرية: ٢١٦ - ٢١٧ - ٣٤ مجاميع، وأربع نسخٍ في المكتبة الظاهرية: ١٩ - ٣٣٢ مجاميع - ٥٦١٦ - ٦٥١٦، ونسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد: ٢١/٢٢٨١١، ونسختان في مكتبة جامعة الإمام محمد: ٢٤٢٩ - ٦٣١٥، وخمس نسخٍ في المكتبة الأزهرية: ٤٤٨٧/٧٦ - ١٢٢٨ صعايدة/ ٣٨٨٦٤ (ثلاث نسخ) - ٣٢٩ مجاميع/ ١٠٦٦٣، وثلاث نسخ في مكتبة رامبور بالهند: ٨٩٩٢ بعنوان التبيين في أحكام النون الساكنة والتنوين - ٨٩٩٢م - ١١٧٨د، ونسخة في مكتبة خدابخش بتنه: ٢/١٣١٠، ونسخة في مكتبة كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن: ٢٠٤٤٧٩/٢٢٧.

٢٣ - تلخيص الأزهية في أحكام الأدعية:

يلخّص فيه كتاب أحكام الأدعية، للزركشي، محمد بن بهادر بن عبدالله (- ٧٩٤هـ)، ذكره له في: هدية العارفين: ٣٧٤/١، وبروكلمان في الذيل: ١١٨/٢.

منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٢٣١٩ مجاميع. ونسخة في الخزانة العامة بالرباط رقم ١٩٩٨د عنها صورة في المركز (الفيلم ٣٠٥٧).

٢٤ - تلخيص تقريب النشر:

اختصر فيه كتاب تقريب النشر في القراءات العشر، للجزري، محمد بن محمد (- ٨٣٣هـ) الذي اختصر فيه كتابه النشر في القراءات العشر.

منه نسخة في المكتبة الأزهرية: ٤٤٧٥/٦٩.

٢٥ - تهذيب الدلالة:

لعله كتابه المسمى إحكام الدلالة على تحرير شرح الرسالة، الذي يشرح فيه كتاب الرسالة القشيرية.

ذكره له بروكلمان في الذيل: ١١٨/٢.

٢٦ - ثبت شيوخ الأنصاري:

ذكر فيه شيوخه الذين قرأ عليهم، ورتبه على عناوين الكتب المقروءة، ذاكرًا تحت كلِّ عنوان أسماء الشيوخ الذين قرأ هذا الكتاب عليهم، وختمه بأسماء الشيوخ الذين أجازوه، مرتبة ترتيبًا معجميًّا.

ذكره له في الكواكب السائرة: ٢٠٢/١.

منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٩١٨٤، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ١٥٨١)، ونسخة في مكتبة جامعة الرياض: ٢/٢٩٥٤م ز، بعنوان مرويات زكريا، ونسخة في مكتبة حسن حسني عبد الوهاب بتونس: ١٨٦٢٧، ونسخة في مكتبة تشستربيتي: ٣٢٠٨، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٧٧٥)، ونسخة في مكتبة جامعة برنستون - يهودا: ٥٤، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ١٨٩)، ونسخة في مكتبة الفاتيكان: ١٣٧٩/٤، ونسخة في مكتبة غازي خسرو بسراييفو: ٢٦٨٢/١ بعنوان جزءٌ فيه جملةٌ من روايات للأنصاري.

٢٧ - حاشية على التلويح شرح التوضيح في حلّ غوامض التنقيح:

حاشية على كتاب التلويح، لسعد الدين، مسعود ابن عمر التفتازاني (- ٧٩٣هـ)، الذي شرح فيه كتاب التوضيح، لصدر الشريعة عبدالله بن مسعود المحبوبي (- ٧٤٧هـ)، حيث يشرح فيه كتابه تنقيح الأصول.

هذا الكتاب مطبوعٌ في الهند سنة ١٢٩٢هـ.

منه تسع نسخٍ في المكتبة الأزهرية:

٣٨٩/٨، ٧٠٥/١٥، ٣٥ / ١٢١٦، ١٤١ / ٥٣٤٦، ٨١١/٢٠٦٥٦، ١٥٠٢ صعايدة/ ٣٩٠٤٤، ١٥٠٣ صعايدة/ ٣٩٠٤٥، ١٥٧٦ عروسي/ ٤٢٢٣٥، ١٧٩٤ أمبابي/ ٢٨٢٥٣.

٢٨ - حاشية على البدر الطالع في حلّ جمع الجوامع:

حاشية للقاضي زكريا على كتاب البدر الطالع في حلّ جمع الجوامع، للجلال المحليّ، محمد بن أحمد (- ٨٦٤هـ)، الذي يشرح فيه كتاب جمع الجوامع، لتاج الدين السبكي (- ٧٧١هـ).

ذكره له في: الكشف: ١/٥٩٥، والطبقات الكبرى: ٢/١٢٢، والكواكب السائرة: ١/٢٠١، وهدية العارفين: ١/٣٧٤.

منه نسختان في المكتبة الظاهرية: ٣٦٧٧، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢٠٦١)، ونسخة في الخزانة الصبيحية بسلا: ٢٩٨، ونسخة في الخزانة العامة بالرباط: ١٤٣٧/٦٣٦د بعنوان: حاشية على جمع الجوامع، ونسخة في مكتبة علال الفاسي: ١٤٢٦/ع٢٨٤ بعنوان: حاشية على شرح جمع الجوامع، ونسختان في دار الكتب الوطنية بتونس: ٤٧٥١، ٥٩١٨.

٢٩ - حاشية على الحواشي المفهمة في شرح المقدمة:

حاشية على شرح أحمد بن محمد بن محمد الجزري (- ٨٣٥هـ) للمقدمة الجزرية، التي نظمها والده، وسمّى شرحه: الحواشي المفهمة في شرح المقدمة.

ذكره له في كشف الظنون: ٢/١٧٩٧ حيث قال: «شرحها ابنه أبو بكر أحمد شرحًا سمّاه الحواشي المفهمة لشرح المقدمة، وكتب الشيخ زكريا الأنصاري... حاشية على شرح ولد المصنف المسمّى بالحواشي المفهمة لشرح المقدمة»، والهدية: ١/٣٧٤ لكنّه أورده بعنوان: «الحواشي المفهمة»، وعنه أثبت الدكتور مازن المبارك هذا العنوان له في مقدمته لتحقيق الحدود الأنيقة.

منه نسخة في دار الكتب الوطنية بتونس: ٤٠٧٧.

٣٠ - حاشية على الدقائق شرح المقدمة:

كذا ورد العنوان في نسخة أوقاف بغداد، لعله الدقائق المحكمة، ولعله حاشية عليه.

منه نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد: ٥/١٠٠٧٥.

٣١ - حاشية على شرح البهجة الوردية:

لعله أحد الشرحين على البهجة الوردية، اللذين صنفهما الشيخ زكريا.

منه نسخة في جامعة برنستون مجموعة جاريت بأمريكا: ١٨٠٧.

٣٢ - الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة:

ذكر في فهارس المكتبات بعناوين متعددة، منها: تعريف الألفاظ الاصطلاحية، ومدلولات الألفاظ الفقهية، ومقدمة في الألفاظ المتداولة في أصول الفقه والدين، وتعريفات القاضي زكريا، ورسالة في تحديد مدلولات الألفاظ الفقهية. وطبعت بعنوان: مقدمة في الألفاظ المتداولة في أصول الفقه والدين، في مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣١٩هـ، وطبع أيضًا بتحقيق أستاذنا الدكتور مازن المبارك، وصدر عن مركز جمعة الماجد بدبي سنة ١٩٩١م، بعنوان: الحدود الأنيقة... معتمدًا في ذلك على نسخة دار الكتب المصرية.

جمع فيها القاضي زكريا مجموعة من الألفاظ المتداولة بين الأصوليين، موردًا معانيها اللغوية والاصطلاحية.

ذكره له بروكلمان ١/١٢٤، والذيل: ٢/١١٨.

منه نسختان في دار الكتب المصرية: ٤٩٦، ١٤ قولة، ونسختان في الخزانة العامة بالرباط: ١٩٣٨/٣١٧٢، ١٩٣٨/٣٠٣٧، ونسخة في المكتبة الملكية بألمانيا ٣٤٦٣، ونسختان في جامعة برنستون جاريت مجموعة يهودا: ٥٧٠/٤٠٩٨ - ٥/٣٠٣٤، وثلاث نسخ في المكتبة الظاهرية: ١٤٧١، ١٠٣٦٦،

عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ١٦٤٧)، ١٠٤٧٥، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ١٦٥٠).

٣٣ - خلاصة الفوائد المحمدية في شرح البهجة الوردية:

اختصر فيه شرحه على البهجة الوردية المسمّى «الغرر البهية»، والبهجة الوردية منظومة لابن الورديّ، زين الدين عمر بن مظفر (- ٧٤٩هـ) نظم فيها كتاب الحاوي الصغير في الفروع للقزويني، عبد الغفار بن عبد الكريم (- ٦٦٥هـ).

ذكره له في الكواكب السائرة: ٢٠١/١، دون ذكر العنوان، وهدية العارفين: ٣٧٤/١.

منه ست نسخٍ في المكتبة الأزهرية: ٣١٥٦/٤١٩ - ٣٢٥١/٤٦٥ - ٥٢٢٦/٦٧٧ - ٥٦١٥/٧٢٢ - ٩٢٠٢/١٠٢٦ - ٢٨٦٤ أمبابي/٤٨٣٤٣.

٣٤ - الدرر السنيّة في شرح الألفية:

حاشية على شرح الألفية، لابن الناظم، الذي يشرح فيه ألفية والده في النحو، ألفية ابن مالك، محمد بن عبدالله (-٦٧٢هـ).

ذكره له في: الكشف ١٥٢/١، والهدية: ٣٧٤/١، والكواكب السائرة: ٢٠٢/١ دون ذكر العنوان.

منه نسخة في المتحف العراقي: ١٤٢٣، وسبع نسخٍ في مكتبة الأوقاف ببغداد: ٥٦٢٣ (ج١) - ٥٦٢٤ (ج٢) وردا بعنوان حاشية على الدرة المضية، ١٥١٦ - ١٣٥٧٥ - ١٣٥٠ - ١٤٤١ - ١٤٢٧، وثلاث نسخٍ في المكتبة القادرية: ٩٣٨ - ٩٣٩ - ٩٤٠، ونسخة في المكتبة الخديوية: ٣٧١٤، ونسختان في دار الكتب المصرية: ١١٢ - ٩٨٦، وخمس نسخ في المكتبة الظاهرية: ٦١٩٢ بعنوان حاشية - ١٦٤٣ - ٩٩٩٨ - ١٦٤٤ - ٧٣٥٠، ونسختان في المكتبة الملكية ببرلين: ٦٦٣٥ - ٦٦٥٦.

٣٥ - الدقائق المحكمة في شرح المقدمة:

يشرح فيه المقدمة الجزرية في التجويد، لابن الجزري، محمد بن محمد بن محمد (- ٨٣٣هـ). ذكره له في: الكشف: ١٥٢/١، وهدية العارفين: ٣٧٤/١، وبروكلمان: ١٢٤/١.

طبع الكتاب بالميمنية بمصر سنة ١٣٠٨هـ، وبتحقيق د. نسيب النشّاوي سنة ١٩٨٠م.

منه تسع نسخٍ في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٣١٧ - ٣٢٩ مجاميع - ٣٣٠ - ٣٣٢ مجاميع - ١٧٢ - ٣٤٢ مجاميع - ٥٠٣٥ - ٦٥١٦ - ٨١٥١، وثلاث نسخٍ في التيمورية: ٤٣٩ - ٥٨٠ - ٣٨٠، وعشرون نسخةً في دار الكتب المصرية: الأرقام من ٤٦ إلى ٦٢ - ٣٥٦ - ٣٩١ - ٤١٦ - ٢٥٣٢٤ - ٢٥٨١١ - ٤٣٧ - ٢٧ - ٧١ - ٨٦ - ٨٨ - ١٧٤ - ١٩٣ - ٢٠٨، ونسختان في دار الكتب الوطنية بتونس: ٩٠٥ - ٤٢٠٤، ونسخة في الصبيحية بسلا: ٣/٢٩٠، وست نسخٍ في المكتبة الملكية بألمانيا: ٥١٦ - ٥١٧ - ٥١٨ - ٥١٩ - ٥٢٠ - ٥٢١. وهناك عددٌ كبير من نسَخِها في المكتبات في أنحاء العالم، أعرضنا عن ذكرها، لأنّ هذا الكتاب مطبوعٌ ومحقّق.

٣٦ - ديوان شعر:

ذكره له في هدية العارفين: ٣٧٤/١، وذكر في الكواكب السائرة: «له شعر»، وأورد نماذج منه.

٣٧ - رسالة في ألفاظ الصوفية:

ذكره له في بروكلمان: ١٢٤/١، والذيل: ١١٨/٢.

منه نسخة في الخزانة العامة بالرباط: ١٩٣٨/٣٥٩٧د، ونسخة في مكتبة غازي خسرو بسراييفو: ٣٤١٣.

٣٨ - رسالتان في القراءات:

منه نسخة في الخزانة الحسنية بالرباط: ٦٤٤/٤.

٣٩ - رسالة في حروف المدّ والقلقلة:

منه نسخة في مكتبة رامبور الهند: ٣٢٦.

٤٠ - رسالة في كرامات الأولياء:

منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٦٢٧٣.

٤١ - الزبدة الرائقة في شرح البردة الفائقة:

يشرح فيه قصيدة الكواكب الدريّة في مدح خير البرية، المشهورة بالبردة، للبوصيري، محمد بن سعيد بن حمّاد (- ٦٩٦هـ).

ذكره له في: كشف الظنون: ١٣٣٦/٢، وهدية العارفين: ٣٧٤/١.

منه نسخة في المكتبة الأزهرية: ٣٤٢٦/ حليم ٣٣٩٠٩، ونسختان في دار الكتب المصرية: ٢١٦٦ - ١٨٢ مجاميع، ونسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٨٠٨١، ونسخة في جامعة أم القرى: ٤٦٧٧، ونسخة في الخزانة العامة بالرباط: ٢٩٧٤/ ١٩٥٥/ د، ونسخة في دار الكتب الوطنية بتونس: ٤٥٤٣.

٤٢ - شرح الأربعين النووية:

يشرح فيه الأحاديث الأربعين التي جمعها الإمام النووي، يحيى بن شرف بن مري (- ٦٧٦هـ).

ذكره له بروكلمان: ١٢٤/٢.

منه نسخة في دار الكتب المصرية: ١٨١٥، ونسختان في المكتبة الأزهرية: ٢٥٧٦/ حليم ٣٢٩٩١ - ٣٠٤٤/٤٠٦٤٠، ونسخة في الخزانة العامة بالرباط: ٢٨٩٥/ ١٨٨٨د، ونسخة في مكتبة إسحاق الحسيني بالقدس: ١٣، ونسختان في معهد غوتا بألمانيا: ٦١٧ - ٦١٨ بعنوان ضبط ألفاظ الأربعين.

٤٣ - شرح إيساغوجي:

يشرح فيه مختصر أثير الدين الأبهري، المسمى إيساغوجي، واشتهر هذا الشرح بالمطلع.

ذكره له في: الكشف: ٢٠٨/١، والكواكب السائرة: ٢٠٢/١، وهدية العارفين: ٣٧٤/١، وبروكلمان: ١٢٤/٢، والذيل: ١١٨/٢.

طبع هذا الكتاب في بولاق بمصر سنة ١٢٨٢.

منه ثماني نسخٍ في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٣٥٠٦ عام / ١٤ - ٣٥٢٥ عام - / ٦٤ - ٤٩٨٨ عام - ١٠٨٢٤ عام - ٨٠١٧ عام - ٤٩٨٦ عام - ١٠٠١٦ - ٣٦٤٨ مجاميع، وتسع عشرة نسخة في دار الكتب المصرية: ٦٩ - ١١٣ - ١١٤ - ٢١٧ - ٢٢٣ - ٢٤٤ - ٢٧٩ - ٣٢٢ - ٤٨٦ - ٤٨٧ - ١٩م - ٢٠م - ٣٦ مجاميع - ١١٨ مجاميع - ١٧٧ مجاميع - ٤٥٦ مجاميع - ٤٥٧ مجاميع - ٤٨٧ مجاميع - ٧٩م مجاميع، ونسخة في مكتبة جامعة الاسكندرية: ٢ جعفر ولي، وثلاث نسخٍ في دار الكتب الوطنية بتونس: ١٥٧٦ - ٣١٤١ - ٧٤٣١، وأربع نسخٍ في الخزانة الحسنية بالمغرب: ٥٨٠٠ - ٥٥٧٠ - ٥٥٧٥ - ٧/٧٨ مجاميع، ونسختان في الخزانة الصبيحية بسلا: ٢٢٤ - ٢٤٥، وثلاث نسخٍ في دار الكتب الناصرية بتمكروت: ١٨٣٩ - ١٨٨٠ - ٢٠٨٥، ونسخة في مركز جمعة الماجد: ٨٨، ونسخة في مكتبة كوبريللي بتركيا: ٢٢٣، ونسخة في مكتبة جامعة برنستون - جاريت ٨١٧، ونسختان في المكتبة الملكية ببرلين: ٥٢٤٦ - ٥٢٤٧.

٤٤ - شرح التسهيل:

يشرح فيه كتاب تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك، محمد بن عبدالله (- ٦٧٢هـ).

لم نجد من ذكره له.

منه نسخة في دار الكتب الناصرية، بتمكروت: ٣١٢٥.

٤٥ - شرح الرسالة الشمسية:

يشرح فيه رسالة الشمسية في المنطق للقزويني الكاتبي، تلميذ نصير الدين الطوسي.

ذكره له في كشف الظنون: ١٠٦٣/٢.

٤٦ - **شرح صحيح مسلم:**

يشرح فيه الجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج النيسابوري (– ٢٦١هـ).

ذكره له في: الكشف: ١/٥٥٨، وهدية العارفين: ١/٣٧٤، قال في الكشف: ذكره الشعراني في ترجمته (كتاب الطبقات).

٤٧ - **شرح ضابطة إنتاج الأشكال الأربعة:**

يشرح فيه كتاب: ضابطة إنتاج الأشكال الأربعة، في المنطق، لسعد الدين التفتازاني.

طبع الكتاب في الهند سنة ١٢٩٢هـ.

منه نسخة في دار الكتب المصرية: ٨٦.

٤٨ - **شرح مختصر قرة العين في الفتح والإمالة وبين اللفظين:**

يشرح فيه كتابه الذي اختصر فيه كتاب قرة العين في الفتح والإمالة وبين اللفظين، لابن القاصح، علي ابن عثمان بن محمد (– ٨٠١هـ).

ذكره له في: الضوء اللامع: ٣/٢٣٦، والكواكب السائرة: ١/٢٠١.

٤٩ - **شرح مختصر المزني:**

يشرح فيه كتاب المختصر في الفروع، للمزني، إسماعيل بن يحيى (– ٢٦٤هـ). ذكره له في: كشف الظنون: ٢/١٦٣٦، وهدية العارفين: ١/٣٧٤.

٥٠ - **شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول:**

يشرح فيه كتاب منهاج الوصول إلى علم الأصول، للقاضي البيضاوي عبدالله بن عمر (– ٦٨٥هـ).

ذكره له في: كشف الظنون: ٢/١٨٨٠، وهدية العارفين: ١/٣٧٤، وبروكلمان: ٢/١٢٤.

٥١ - **شرح همزية البوصيري:**

يشرح فيه قصيدة البوصيري، محمد بن سعيد بن حماد (– ٦٩٦هـ)، الهمزية التي مطلعها:

كيف ترقى رقيّك الأنبياء

يا سماء ما طاولتها سماءُ

منه نسخة في خزانة علال الفاسي: ٤١/ع٣٩.

٥٢ - **شرح الورقات لإمام الحرمين.**

يشرح فيه كتاب الورقات في أصول الفقه، لإمام الحرمين، عبد الملك بن عبدالله الجويني (– ٤٧٨).

منه نسخة في المكتبة القادرية ببغداد: ٥٢٦.

٥٣ - **عقيدة القاضي زكريا:**

منه نسخة في الخزانة العامة بالرباط: ٣٠٣٨/١٩٣٨د.

٥٤ - **عماد الرضا ببيان أدب القضاء:**

لعله كتاب أدب القاضي الذي مرّ ذكره.

الكتاب مطبوع بتحقيق إسماعيل محمد أبو شريعة، في القاهرة سنة ١٩٨٧م كما ذكر الدكتور مازن المبارك في مقدمة الحدود الأنيقة، نقلاً عن نشرة أخبار التراث، معهد المخطوطات في الكويت، مجلد ٤/٤٦.

منه نسخة في مكتبة تشستربيتي: ٤٤٦٣، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢٩٧)، ونسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق ٦٨٠٥، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ١٣٥١)، ونسختان في مكتبة الأوقاف ببغداد: ٣٧٧٤ – ٢٦٣٠.

٥٥ - **غاية الوصول إلى شرح لب الأصول:**

يشرح فيه كتابه لب الأصول الذي اختصر فيه الأنصاري كتاب جمع الجوامع، للسبكي، عبد الوهاب ابن علي، تاج الدين (– ٧٧١هـ).

طبع هذا الكتاب بمطبعة البابي الحلبي بمصر سنة ١٣١٠، وبهامشه لب الأصول، وفي مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بالقاهرة سنة ١٣٣٠هـ، وبالميمنية سنة ١٣٣٠هـ.

منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٢٨٦٧، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢٠٦٢)، ونسخة في الخزانة العامة بالرباط: ٢١٢١/٣١٧٣د، ونسخة في المكتبة التيمورية: ١٠٥ج١، وثلاث نسخ في دار الكتب المصرية: ٩م – ٢٥ – ١٦٩، وسبع نسخٍ في المكتبة الأزهرية: ١٣ / ٦٤٤ – ٥٨ / ٢١٩٨ – ١٢٤ / ٤٥٠٢ – ١٣٥/٤٩٢٦ – ١٥٢/٥٧٤٣ – ١٥٩٩ عروسي/ ٤٢٢٥٨ – ١٦٩٨ بخيت/٦٣/٤٤٠.

٥٦ - غاية الوصول إلى علم الفصول:

يشرح فيه الأنصاري كتاب الفصول المهمة، في الفرائض، لابن الهائم، أحمد بن محمد (– ٨٨٧هـ).

ذكره له في كشف الظنون: ٢/١٢٦٥ بعنوان: غاية الوصول إلى شرح الفصول.

منه نسختان في المكتبة الخديوية: ٢١٦١ – ٧٠٥٨، وثلاث نسخٍ في المكتبة الأزهرية: ٣٨/٢٢٥٠ – ١٠١/٥٠١٨ – ١٣٨/٧٥٦٢.

٥٧ - الغرر البهية في شرح البهجة الوردية:

هذا الكتاب هو الشرح الكبير الذي وضعه المصنف على منظومة ابن الوردي، التي نظم بها كتاب الحاوي في الفروع.

ذكره المصنف في كتابه أسنى المطالب: ٢، وذكره له في: الضوء اللامع: ٣/٢٣٦، والنور السافر: ١١٤، وكشف الظنون: ١/٦٢٧، وهدية العارفين: ١/٣٧٤، وبروكلمان ٢/١٢٤.

طبع الكتاب في المطبعة الميمنية سنة ١٣١٥.

منه نسختان في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٣٩٢٠، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢١٤٩)، ٣٩٢١، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢١٤٩)، ونسختان في دار الكتب المصرية: ١٨٧ – ١٨٨، وإحدى وعشرون نسخة في المكتبة الأزهرية: ١٥/٢٥٦ في مجلدين – ٦٦/١٠٣٧ في مجلدين – ٧٣/١٠٤٤ – ٤١٦ / ٣١٤١ ، ٤٥٥ / ٣٢٢٩ – ٧٣٠ / ٥٦٣٧ – ٧٣١ / ٥٦٣٨ – ٧٣٦ / ٥٦٤٣ ٧٩٩ / ٥٩٦٨ – ٨٠٠/٥٩٦٩ – ٩٩٣/٣٨٢٣ – ١١١٥/١١٠٩٣ – ١٤٨١/١٥٣٨٧ – ١٨١٣/٢١٥٤٧ – ١٠٠٣/٨٦٩٦ – ١٨١٢/ ٢١٥٤٦ – ٢١٥٣/ سقا ٢٨٥٥٦ – ٢٢٤٧ / ٣٦١٢٠ – ٢٣١٤ / ٣٧٦٥٢ – ٢٦٥١ عروسي/ ٤٢٣٣١ – ٢٨٧٤ أمبابي/٤٨٣٥٣، ونسخة في المكتبة الوطنية بباريس: ١٠٠٠، وخمس نسخٍ في مكتبة تشستربتي: ٣٤٣٢، جزءان بخط المؤلف، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٣٤٥٦) – ٣٥٠٥ (ج١، ٢) – ٣٤٢١ (ج٣) – ٤٣١٤ – ٤٥٤٠ (القسم الرابع).

٥٨ - فائدة في قوله ﷺ : «حُبّب إليّ من دنياكم ثلاث»:

منه نسخة في مكتبة الدولة ببرلين: ١/٨١٤.

٥٩ - فتح الإله الماجد بإيضاح شرح العقائد:

حاشية على شرح التفتازاني، مسعود بن عمر (– ٧٩١هـ) الذي وضعه على العقائد النسفية، لعمر بن محمد النسفي (– ٥٣٧هـ).

ذكره له في: كشف الظنون ٢/١١٤٧، وهدية العارفين: ١/٣٧٤.

منه نسخة في دار الكتب المصرية: ١٢٧٥، ونسخة في مركز الملك فيصل: ١٠٣٠٤، ونسخة في المكتبة الظاهرية: ٣٣٤٢ مجاميع، ونسخة في مكتبة حسن حسني عبد الوهاب بتونس: ١٨٣٤٠، ونسختان في المكتبة الملكية ببرلين: ١٩٧٤ – ١٩٧٥.

٦٠ - **فتح الباقي بشرح ألفية العراقي:**

يشرح فيه ألفية العراقي، عبد الرحيم بن الحسين (- ٨٠٦هـ)، في مصطلح الحديث، التي نظم فيها كتاب علوم الحديث لابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن (- ٦٤٣هـ).

ذكره له في كشف الظنون: ١/١٥٦، وهدية العارفين: ١/٣٧٤.

منه اثنتان وثلاثون نسخة في المكتبة الأزهرية: ١/١٦٦ - ٣ / ٢٩٣ - ٤ / ٣٢٢ - ١١ / ١٠١١ - ٧٩/٢١٣٣ - ٨٢/٣١٢٢ - ٨٨/٣٩٩٤ - ٩٣/٤٥٢٨ - ٥١٨٢ - ٥٣٨٥ - ٦١٩٠ - ١٢٣٨٦ - ١٦٢٣٩ - ٢٠٦٧٩ - ٢٠٧٤٥ - ٢٢٩٩٩ - ٢٣٠٠٠ - ٢٣٠٠١ - ٢٨٤٥٤ - ٢٨٤٥٥ - ٢٨٤٥٦ - ٣٣٠٦٩ - ٣٦٠٥٨ - ٣٧٦٢٤ - ٣٨٩٩٧ - ٣٨٩٩٨ - ٣٨٩٩٩ - ٤٣٨١٢ - ٤٣٨١٣ - ٥٣٠٨٠ - ٧٦٤ - ٥٠٢٥، وخمس عشرة نسخة في دار الكتب المصرية: ٣١٧ - ١٣م - ٣٠٩ - ١٦٣ - ٩٠ - ١٢م - ١٦١ - ٣٠٨ - ١٦٨ - ١٦٠ - ٣٠٥ - ١٥٩ - ٥٠ - ٥١ - ٢٥٣١٤ب، وهناك نسخٌ أخرى كثيرة في أنحاء متفرقة من العالم، نكتفي بإيراد ما ذكرناه.

٦١ - **فتح الجليل ببيان خفي أنوار التنزيل:**

حاشية وضعها الأنصاري على كتاب أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المشتهر بتفسير البيضاوي، ناصر الدين، عبدالله بن عمر (- ٦٨٥هـ).

ذكره له في: طبقات الشعراني: ٢/١٢٢، والكواكب السائرة: ١/٢٠١، والكشف: ١/١٨٨، وبروكلمان: ٢/١٢٣.

منه سبع نسخٍ في دار الكتب المصرية: ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ٧٥١ - ٣٣٢ - ٧٣م - ٣٢٢٢٣ب، وخمس نسخ في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٦٣٩ - ٢٤٩ - ٤٤٧٣ - ٦٢٦٠ - ٣٩١٦، ونسخة في مكتبة مكرم القاهرة: ٤٧، وثلاث نسخٍ في المكتبة الأزهرية: ٣١٤/٥٥٦٢ - ٢٢٧/٣٣٦٩ - ١٤٨٩/٣٦٠٢٣، ونسخة في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض: ١٩٩٩، ونسخة في جامعة الملك سعود: ١٣٩٩، ونسخة في مكتبة أوقاف الموصل: ٢٥/٣، ونسخة في المكتبة الخالدية بالقدس: ٤٦، ونسخة في المكتبة القادرية ببغداد: ٧٦، ونسخة في مكتبة تطوان: ٤١٦/٤٢٨، ونسخة في المكتبة السليمانية المركزية العراق ١٢٤، ونسخة في المكتبة التيمورية ١٨٨، وثلاث نسخٍ في المكتبة العبدلية بتونس: ٢٨٦/٢٢٢ - ٢٨٧ - ٢٢٣، ونسخة في مكتبة القرويين بفاس: ٣٥، ونسخة في مكتبة متحف الجزائر: ٣٤٠، ونسختان في متحف طوبقبوسراي: ١٩٢٢أ/٢٠٢، ١٩٢٣أ/٢٠٣، ونسخة في مكتبة فيض الله أفندي: ١١٦، ونسخة في يكي مدرسة إستانبول: ٢٥، وثلاث نسخٍ في مكتبة ولي الدين جار الله بتركيا: ١٨٧ - ١٨٧ - ١٨٦، وثلاث نسخٍ في مكتبة نور عثمانية بإستانبول: ٥٤٥ - ٥٤٦ - ٥٤٧، ونسخة في مدرسة سرويلي: ٢٠، ونسختان في مكتبة محمد مراد: ٢٢٢ - ٢٢١، ونسخة في مكتبة لاله لي السليمانية إستانبول: ٣١٢، ونسخة في مكتبة قليج علي إستانبول: ١١٥، ونسختان في مكتبة فاتح إستانبول: ٥٢٠ - ٥٢١، ونسخة في مكتبة عاطف أفندي إستانبول: ٢٨٦، ونسخة في مكتبة عاشر أفندي بإستانبول: ٦٩، ونسخة في مكتبة سليم أغا: ١٢٤، ونسخة في مكتبة راغب باشا: ١٣٧، ونسخة في مكتبة حكيم أوغلي علي باشا: ٩٠، ونسخة في مكتبة جور ليلى علي: ٦٩، ونسخة في مكتبة بشير آغا إستانبول: ٣٣، ونسخة في مكتبة اسميخان سلطان بإستانبول: ٦٠، ونسخة في مكتبة جامعة البنجاب بلاهور: ٧٩/٤/١٤٤٠، ونسخة في مكتبة جوتنجن ألمانيا: ٢٢، ونسخة في مكتبة كنج بخش بروالباندي: ٢٩٠/٦٢٨، ونسختان في مكتبة خدابخش بتنه: ٣٠٦٣ - ٣٦١٣، ونسخة في مكتبة الاسكوريال: ١٣٤٧.

٦٢ - **فتح العماد في شرح منظومة ابن العماد:**

يشرح فيه منظومة ابن العماد الأقفهسي، أحمد بن عماد (- ٨٠٨هـ) في آداب الطعام.

منه نسخة في مكتبة أوقاف بغداد: ٧٣٨٥.

٦٣ - **فتح ربّ البرية بشرح القصيدة الخزرجية:**

يشرح فيه القصيدة الخزرجية، المشتهرة بالرامزة في علمي العروض والقافية، التي نظمها ضياء الدين، عبدالله بن محمد الخزرجي (- ٦٢٦هـ).

ذكره له في الهدية: ١/٣٧٤، وبروكلمان: ٢/١٢٤.

طبع هذا الكتاب في مصر سنة ١٣٠٣هـ على هامش كتاب العيون الفاخرة الغامزة على خبايا الرامزة، للدماميني، محمد بن أبي بكر (- ٨٢٧هـ).

منه أربع نسخٍ في مكتبة مركز جمعة الماجد: ٤٧٢١ - ٥١٥٧ - ٩٨١ - ٥٣١٠، وخمس نسخٍ في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٣٦٩٦ - ٩٤٩٧ - ٩٦٣٠ - ٤٠ مجاميع - ٥٩٩٢، وأربع عشرة نسخة في دار الكتب المصرية: ١١ - ١٢ - ١٣ - ٣٩ - ٤٠ - ٢م - ٦٧ - ٧٠ - ٩٤ - ٧٣ مجاميع م - ١١٨ - ١١٩ - ٢٦٨ هذه النسخة بخط ابنه، وواحد وعشرون نسخة في المكتبة الأزهرية: ١/٩٤٠ - ٢/٩٨٤ - ٨٤٣١/٢١ - ٢٢ / ٩١٩٩ - ٢٣ / ٩٨١٢ - ٢٤ / ٩٨١٣ - ٢٣٠٥١/٧٨ - ١٠٦ سقا/٢٨٨٤١ - ١٨٨ صعايدة/٣٩٩٧٦ - ١٩٩ زكي/٤١٦٠٦ - ٢٠٠ زكي/٤١٦٠٦٧ - ٢٠٧ عروسي/٤٢٦٥٣ - ٢٠٨ عروسي/٤٢٦٥٤ - ٢٤٤ أمبابي/٤٨٧٩٩ - ٥٣٥٠٩/٢٦٨ - ٥٢٥١٠/٢٦٩ - ٢٦ مجاميع/٦٩٥ - ٢٢٧ مجاميع/٥٤٧٦ - ٤١٢ مجاميع/١٦٢٩٠ - ٥٥٥ مجاميع رافعي/٢٧٥٩٢ - ٧٢١ مجاميع حليم/٣٤٧٦٨، ونسخة في مكتبة المتحف العراقي: ١٠٦٣، ونسختان في مكتبة أوقاف بغداد: ٧/١٠٠٢٢ - ٦٢٠٢١، ونسختان في المكتبة الصبيحية بسلا: ١٣٢ - ٩/٢٥٦، ونسخة في الخزانة العامة بالرباط: ٩٢٨/١٧٦٠د، ونسخة في المكتبة الناصرية بتمكروت: ٩٤، وست نسخٍ في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض: ٢٠٧٠ - ٩٣٦٣ - ٢٤٧٠ - ٢٠٦٥ - ٢٤٧٢ - ٢٤٧١، ونسخة في جامعة أم القرى: ١٣٢٩، ونسخة في المكتبة الوطنية بباريس: ٤٤٤٩، ونسختان في مكتبة جامعة برنستون مجموعة جاريت: ٥٠٤ - ٣/٣٠٨٤، ونسختان في المكتبة الملكية بألمانيا: ٧١٢٢ - ٢١٢٣، وثلاث نسخٍ في دار الكتب الوطنية بتونس: ٢٣٥٠ - ٢٦٤٦ - ٢٧٦٠، ونسخة في مكتبة تطوان: ١/١١٨.

٦٤ - **فتح الرحمن بشرح رسالة المولى رسلان:**

يشرح فيه رسالة رسلان بن يعقوب بن عبدالله الدمشقي (- ٦٩٩هـ).

ذكره له في: الكواكب السائرة: ١/٢٠٢، وهدية العارفين: ١/٣٧٤، والكشف: ١/٨٥٦، ٨٦٧.

طبع الكتاب في مصر سنة ١٣١٧هـ، مع كتاب حلّ الرموز ومفاتيح الكنوز.

منه ثماني نسخٍ في دار الكتب المصرية: ٦٧٦ - ٧٨٥ - ٧٨٦ - ٣ مجاميع - ٦٨ مجاميع - ١٧٢ مجاميع - ٢٥٣ مجاميع - ١٦م مجاميع، ونسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٣٦٢٤ مجاميع - ونسخة جامعة حلب (عتقي): ١/١٢٠، ونسخة في الخزانة العامة بالرباط: ١٩٥٥/٣٠٣٩د، ونسخة في الخزانة الصبيحية بسلا: ٥/٢٤٥، ونسخة في دار الكتب الوطنية بتونس: ٤٢٥٩، ونسختان في جامعة الملك سعود: ٢٢٧٦، ١٠٥٠، ونسخة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة: ١٧٤، ونسخة في مكتبة كوبريللي: ٧٢٣، ونسخة في مكتبة شوراتي ملي بإيران: ٣٧١٦، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٣٥٣)، ونسخة في المكتبة الوطنية بباريس: ١١٦٠، ونسخة في مكتبة المتحف البريطاني: ٣٦٨٤، ونسختان في المكتبة الملكية ببرلين: ٢٤٢٧ - ٢٤٢٨.

٦٥ - **فتح الرحمن بشرح لقطة العجلان:**

يشرح فيه كتاب لقطة العجلان وبلة الظمآن، للزركشي، محمد بن عبدالله (- ٧٩٤هـ).

ذكره له في كشف الظنون: ٢/١٥٥٩، وبروكلمان: ١/١٢٤.

طبع الكتاب في مطبعة النيل بمصر عام ١٣٢٨هـ، وسنة ١٩٢٩م.

منه نسختان في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٦٤٧٦، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢٤٩٠)، ٢٨٥٢، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢٠٦١)، وسبع عشرة نسخة في المكتبة الأزهرية: ٥٦٩/١٥٠٩٨ - ٩٤٦/٢٥٠١٩ - ١٤٤٠/٣٥٨٧٩ - ٨٣١/٢٠٩٩٩ - ١٤٦٦/٣٦٨٧٨ - ١٥٣٤ / ٣٩٥١٩ - ١٥٣٥ / ٣٩٥٢٠ - ١٥٣٦ / ٣٩٥٢١ - ١٥٣٧ / ٤٩٥٢٢ - ١٥٣٨ / ٣٩٥٢٣ - ١٥٣٩ / ٣٩٥٢٤ - ١٥٤٠ / ٣٩٥٢٥ - ١٥٤١ / ٣٩٥٢٦ - ١٥٤٢ / ٣٩٥٢٧ - ١٥٤٣ / ٣٩٥٢٨ - ٣٩٥٢٠ - ٣٩٥٢٨، وثلاث نسخٍ في مكتبة أوقاف بغداد: ١٣٧٤٧ - ٥١٨٠ - ١٣٧٦٥ مجاميع، ونسختان في المكتبة الملكية ببرلين: ٥٠٩٩ - ٥١٠٠.

٦٦ - **فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن:**

يشرح فيه الآيات المتشابهات.

ذكره له في هدية العارفين: ١/٣٧٤، وبروكلمان: ١/١٢٣.

لعله المعنون في كشف الظنون: ١/٤١ بأسئلة حول آياتٍ من القرآن، السابق ذكره.

طبع الكتاب في مصر، ببولاق سنة ١٢٩٩هـ على هامش كتاب السراج المنير، وطبع ثانيةً بتحقيق د. عبد السميع محمد أحمد حسنين، كما طبع حديثًا بدمشق بتحقيق محمد علي الصابوني.

منه نسختان في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٥١٠ - ٩٣٥٤، وثلاث نسخٍ في المكتبة الأزهرية: ٢٠٨/٤٤٧٧ - ٢١٧/٥٥٦٣ - ٢٥٧ حليم/٣٢٩١٩، وثلاث نسخٍ في دار الكتب المصرية: ١٧٩ - ١٨٠ - ٢٢٦، وثلاث نسخٍ في مكتبة قولة، دار الكتب المصرية: ١٨ - ٥٨ - ٥٩، ونسختان في المكتبة التيمورية: ١٤١ - ٤٨٧، ونسختان في الخزانة العامة بالرباط: ٢٨٣٨/١٩١٨د - ٢٨٣٩/١٩٥٥د، ونسخة في مكتبة علال الفاسي: ٨١٥/ع٢٩٧، ونسخة في المكتبة القادرية ببغداد: ١٠٤، ونسخة في مكتبة أوقاف بغداد: ١٣٨٠٥، ونسخة في جامعة الإمام محمد: ٣٣/٧٠، ونسخة في جامعة أم القرى: ٥١٨، ونسختان في المكتبة الوطنية بباريس: ٦٦٠ - ٦٥٣.

٦٧ - **فتح العلام بشرح الإعلام بأحاديث الأحكام:**

يشرح فيه كتابه: الإعلام بأحاديث الأحكام.

ذكره له في الإيضاح: ١/١٠١، ٢/١٦٧، وبروكلمان: ١/١٢٣.

منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٩٧١٦، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ١٦١٣)، ونسختان في دار الكتب المصرية: ٢٢٠٣٠ - ٩٨م، ونسختان في مكتبة دار صدام ببغداد: ١٣٧٣٣ - ٢٦٤٥، ونسخة في دار الكتب الوطنية بتونس: ١٩٣١، ونسخة في المكتبة السعيدية: ٢١٦ منسوبة لمجهول، ونسختان في المكتبة المحمودية: ٤٧٣/٦٩ - ٥٦٣/٧٤، ونسخة في الخزانة العامة بتطوان: ٢٥٢/٤٢٦، ونسخة في البريطانية: ٧٢٥٧ منسوبة لمجهول.

٦٨ - **فتح المبدع في شرح المقنع:**

يشرح فيه منظومة المقنع في الجبر والمقابلة، منظومة لامية تتكون من ٥٩ بيتًا، لابن الهائم المقدسي، أحمد بن محمد (- ٨١٥هـ).

ذكره له بروكلمان في الذيل: ٢/١١٨.

منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٦٠٠٨، ونسخة في جامعة الإسكندرية: ١٥٦ جعفر ولي، ونسخة في مكتبة جامعة برنستون (جاريت): ١٠٤٩.

٦٩ - فتح مفرج الكرب شرح القصيدة المنفرجة:

اختصر فيه شرحه للقصيدة المنفرجة، المعنون بالأضواء المبهجة في إبراز دقائق المنفرجة.

ذكره له في الضوء اللامع: ٣/٢٣٦، والكواكب السائرة: ١/٢٠٢، ذكره بعنوان الخلاصة، ومن الجدير بالذكر أن صاحب الكشف ذكر هذا العنوان: ٢/١٣٤٦ ناسبًا إيّاه ليحيى بن زكريا المقري. وقد أتممنا تحقيق هذا الكتاب، ودفع به إلى المطبعة مع كتاب الأضواء المبهجة.

منه ثلاث نسخٍ في مكتبة هارفارد بأمريكا: ٤٣٢٨ - ٤٣٢٩ - ٤٣٣٠، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٨٥٢)، ونسخة في مكتبة علال الفاسي: ٢٠٧١/ع٧٠٨، ونسخة في مركز جمعة الماجد: ٣٦٨٨.

٧٠ - فتح منزل المثاني بشرح أقصى الأماني في البيان والبديع والمعاني:

يشرح فيه كتابه أقصى الأماني الذي اختصر فيه كتاب التلخيص للقزويني.

ذكره له في كشف الظنون: ١/١٣٧، وبروكلمان: ١/١٢٤.

طبع الكتاب بعنوان فتوح منزل المباني، بالمطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٢هـ، وفي المطبعة الأدبية سنة ١٣٣٢هـ.

منه نسختان في المكتبة الظاهرية: ٣٥٥٣ - ١٠١٥٠، ونسخة في الخديوية: ٣٥١٩، ونسخة في الأزهرية: ١٧٥٠ جوهري/٤١٩٩٧، وثلاث نسخٍ في دار الكتب المصرية: ٤٦ - ٣١٥ - ٤٢١.

٧١ - فتح الوهاب بشرح الآداب:

يشرح فيه كتابه: الآداب، آداب البحث.

ذكره المؤلف لنفسه في كتابه الحدود الأنيقة: ٦٧، وذكره له في: كشف الظنون: ١/٢٣٦، وهدية العارفين: ١/٣٧٤، والضوء اللامع: ٣/٢٣٦، والنور السافر: ١١٤، والكواكب السائرة: ١/٢٠٢ دون أن يذكر العنوان.

منه نسخة في الظاهرية بدمشق: ٩٤٣٠، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد، الفيلم (١٥٥٢)، وست نسخٍ في مكتبة أوقاف بغداد: ٣٦٠٦ - ٣٩٥٠ - ٤١٥٥ - ٤١١٤ - ٣٧٥٧ - ٣٧٥٨، ونسختان في مركز الملك فيصل: ١٤٣٢ - ١٤٤٩، ونسخة في الخزانة الحسنية: ٦/٥٨، ونسخة في الخزانة العامة بالرباط: ٣١٣٢/٢١٩٥د، ونسخة في مكتبة حسن حسني عبد الوهاب: ١٨٠٧٢، ونسخة في مكتبة جامعة برنستون: ٨٧١.

٧٢ - فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب:

يشرح فيه كتابه: منهج الطلاب الذي اختصر فيه كتاب منهاج الطالبين، للنووي، يحيى بن شرف بن مري (- ٦٧٦هـ).

ذكره له في الكواكب السائرة: ١/٢٠١، والهدية: ١/٣٧٤، وبروكلمان: ٢/١٢٤.

طبع الكتاب بالميمنية سنة ١٣٣٢هـ، وأعيدت طباعته في بيروت - دار المعرفة.

منه سبع عشرة نسخة في المكتبة الظاهرية: ٣٧٠٥ (ج٢)، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢١٤٠)، ٣٧٠٦ (ج٣)، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢١٤٠)، ٣٧٠٤ (ج١)، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة (الفيلم ٢١٤٠)، ٢٥٤، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ١٧٢٦)، ١١٠٤١، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ١٦٦٩)، ٢٠٥٣ - ١٩٤٨ - ٨٠٠١ - ٢٠٥٩ - ٧٢٣٦ - ٢٠٥٥ - ٢٠٥٨ - ٢٠٥٤ (ج٢) - ٢٠٥٧ (ج٢) - ٢٠٦٠ - ٢٢٥٠ - ٢٣٥٩، وإحدى

وعشرون نسخة في دار الكتب المصرية: ١٩٥ – ١٩٦ – ١٩٧ – ٢٠٧ – ٣٨٦ – ٣٨٧ – ٤١٢ – ٤١٣ – ٤٧٤ – ٧٤٩ – ٧٥٠ – ٧٥١ – ١٠٢٧ – ١٠٢٨ – ١٠٣٦ – ١٤٥٦ – ١٤٥٧ – ١٤٥٨ – ١٥١٠ – ١٥١٧ – ٣١م، ومائة وست نسخٍ في المكتبة الأزهرية، ونسختان في المكتبة الملكية ببرلين: ٤٥٤٠ – ٤٥٤١، ونسختان في المكتبة القادرية ببغداد: ١٤٣٨ – ١٤٣٨، ونسختان في جامعة أم القرى: ١٣٨١ (ج١) – ١٣٨٢ (ج٢)، وإحدى عشرة نسخة في الخديوية: ١٧١٣ (٤ج) – ١٧١٤ (٢ج) – ١٧١٥ (ج١) – ١٧٢٥ (٢ج) – ١٧٠٢٦ – ١٧٠٢٧ – ١٧٠٢٧ – ١٧٥٩ – ١٧٦٠ – ١٨٥٢ – ٦٩٨٣، ونسخة في مكتبة الإسكندرية: ١٠٠ عزيز سوريال، وثلاث عشرة نسخة في مركز الملك فيصل: ٨٢٣ – ٨٢٤ – ٨٢٥ – ٨٢٦ – ٨٢٧ – ٨٢٨ – ٨٢٩ – ٨٣٠ – ٨٣١ – ٣٢٩١ – ٣٥٠٤ – ٣٦٩٤ – ١٣٠١٤.

٧٣ – فتح الوهاب بما يجب تعلّمه على ذوي الألباب:

منه نسخة مخطوطة في المكتبة التيمورية: ٤٤٣.

٧٤ – فتح الوهاب على شرح تحرير تنقيح اللباب:

يشرح فيه كتابه: تحرير تنقيح اللباب، الذي اختصر فيه كتاب تنقيح اللباب للعراقي، أحمد بن عبد الرحيم (– ٨٢٦هـ)، الذي اختصر فيه كتاب لباب الفقه للمحاملي، أحمد بن محمد (– ٤١٥هـ). لعله شرح آخر له؛ لأن الأنصاري شرحه بعنوان تحفة الطلاب بشرح تحرير تنقيح اللباب، أو لعله هو.

منه نسخة في المكتبة الملكية ببرلين: ٤٤٤٩ (ج٢)، ونسخة في مكتبة تشستربيتي بدبلن: ٥١١١.

٧٥ – الفتحة الأنسية لغلق التحفة القدسية:

يشرح فيه منظومة التحفة القدسية في اختصار الرحبية، وهي منظومة في علم الفرائض، لابن الهائم، أحمد بن محمد (– ٨١٥هـ)، اختصر فيها ابن الهائم منظومة الرحبية، أو بغية الباحث، للرحبي، محمد بن علي (– ٥٧٧هـ).

ذكره له في: الكشف: ١/٣٧٢، وهدية العارفين: ١/٣٧٤، وفي الضوء اللامع: ٣/٢٣٦ بعنوان: التحفة الأنسية.

منه نسختان في المكتبة الظاهرية بدمشق: ١٩٤ – ٨٠٨١، ونسختان في دار الكتب المصرية: ٤٧٦ مجاميع – ٥٢٢ مجاميع، ونسخة في دار الكتب الوطنية بتونس: ٢٣٦٧، ونسختان في المكتبة الأزهرية: ٨٨/٤٣٥٦ – ١٠٤/٥٣٩٩.

٧٦ – الفتوحات الإلهية في نفع أرواح الذوات الإنسانية:

ذكره له في: الهدية: ١/٣٧٤، والإيضاح: ٢/١٧٧، وبروكلمان: ٢/١٢٣، والذيل: ٢/١١٨.

ذكر الدكتور مازن المبارك في كتابه الحدود الأنيقة: ٤١: نقلاً عن فتح الرحمن: ٥٠ أن الكتاب طبع حديثًا.

منه أربع نسخٍ في المكتبة الظاهرية بدمشق: ١٠٣٥٠ – ١٠٠٤٥ – ٥٩١٢ – ٩٧٨٥، وأربع نسخٍ في دار الكتب المصرية: ٦٩٠ – ٧٨٢ – ٧٨٣ – ١٥٩م، ونسخة في المكتبة الأزهرية: ٦٠٢ مجاميع السقا/٢٨٩٣٤، ونسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد: ٢٢٨٠٥/٧ مجاميع، ونسختان في الخزانة العامة بالرباط: ٣٥٩٨/١٩٣٨د – ٣٥٩٩/١٩٥٥د، ونسخة في مكتبة علال الفاسي: ٢٠٧٢/ع٢٥٧، وأربع نسخٍ في دار الكتب الوطنية بتونس: ٢٢٧٢ – ٢٣٧٤ – ٤٤٢٥ – ٤٧٥٠، ونسختان في المكتبة الملكية ببرلين: ٣٠٣٥ – ٣٠٣٦، ونسخة في مكتبة جامعة برنستون (يهودا): ٥٠٨٠، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٣٦٨٨).

٧٧ – لب الأصول:

اختصر فيه كتاب جمع الجوامع للسبكي، عبد الوهاب بن علي (– ٧٧١هـ)، ذكره له بروكلمان: ٢/١٢٤.

طبع الكتاب مع شرحه غاية الوصول في المطبعة الحسينية ١٣٢٧هـ، وبالميمنية ١٣٣٠هـ.

منه نسخة في المكتبة الأزهرية: ٢١٩٨/٥٨.

٧٨ - لوامع الأفكار في شرح طوالع الأنوار:

ذكره له في الكشف: ١١١٧/٢.

يشرح فيه كتاب: طوالع الأنوار للبيضاوي، عبدالله بن عمر (- ٦٨٥هـ).

٧٩ - اللؤلؤ النظيم في روم التعلّم والتعليم:

ذكر فيه أصناف العلوم.

ذكره له في هدية العارفين: ٣٧٤/١، وكشف الظنون: ١٥٧٠/٢، وبروكلمان: ١٢٣/١.

طبع في مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣١٩، وبهامشه تعريف العلوم الاصطلاحية.

منه نسختان في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٢٣١٩ مجاميع - ٥٤٦٤، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ١٢٨٤)، ونسخة في المكتبة القادرية ببغداد ٣/١٤٩٨، ونسختان في دار الكتب الوطنية بتونس: ١٦٤٩ - ٢٥٨٥، ونسخة في المكتبة الصبيحية بسلا: ٢/٥١٧ ونسخة في مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء: ٣/١٨٥، ونسخة في مكتبة كوبريللي: ٨/٧٠٤، وثلاث نسخٍ في المكتبة الملكية ببرلين: ٧٩ - ٨٠ - ٨١، ونسخة في مركز جمعة الماجد: ٤٠٢٧، ونسخة في مكتبة تشستربيتي: ٤٧٠٠، ونسخة في دار الكتب الوطنية بباريس: ٩٥٠، وثلاث نسخٍ في مكتبة جامعة برنستون (جاريت): ٧٨٨ - ٤/٢٠٣٤ - ٤٦٠٢، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٣٦٨٨).

٨٠ - مختصر الآداب:

اختصر فيه كتاب الآداب (في الحديث) للبيهقي، أحمد بن الحسين (٤٥٨هـ).

لعله كتاب الأدب في تبليغ الأرب، السابق ذكره.

ذكره له في الكواكب السائرة: ٢٠١/١، وبروكلمان: ١٢٤/٢.

٨١ - مختصر أدب القضاء:

اختصر فيه كتاب أدب الحكام في سلوك طرق الأحكام، للغزي، عيسى بن عثمان (- ٧٩٩هـ).

ذكره له في الكواكب السائرة: ٢٠١/١، والهدية: ٨٠٩/١.

٨٢ - مختصر قرة العين:

اختصر فيه كتاب قرة العين لابن القاصح، علي بن عثمان (- ٨٠١هـ).

ذكره له في الكشف: ١٣٢٥/٢.

منه نسخة في مكتبة علال الفاسي: ٧٠٣/ع١٧٨.

٨٣ - مساحة ظرف القلتين:

لم نجد من يذكره له، لكننا وجدنا شرحًا بعنوان قرة العينين في مساحة ظرف القلتين، للشنشوري، عبدالله بن محمد بن علي (- ٩٩٩هـ)، نسخته في المتحف العراقي ببغداد: ٢٩/١١٢٢٠.

٨٤ - مقدمة في الكلام على البسملة والحمدلة:

يشرح فيه البسملة والحمدلة والشكر.

ذكره له في الكواكب السائرة: ٢٠١/١، وبروكلمان: ١٢٣/٢، والذيل: ١١٨/٢.

نشر الكتاب في مجلة المورد العراقية، العدد الثالث لسنة ١٩٧٨م، بتحقيق صالح مهدي العزاوي.

منه خمس نسخٍ في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٣٩٥٣ - ٥٨٩٦ - ٤٩٩٨ - ٨٥٨٨ - ٨١٥٢، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ١٤٧١)، وأربع نسخٍ في المكتبة التيمورية: ٥٩٨ - ٢٠ - ١٤٤ - ٢٠٨، ونسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد: ٣/١٠٠٧٥، ونسختان في المكتبة القادرية ببغداد: ١٤٩٨ - ١٤٣٢، ونسختان في الخزانة العامة بالرباط: ٢٨٣/٢٨٤٠د - ٢٨٣/٢٨٤١د، ونسخة في دار الكتب الوطنية بتونس: ٧٣٦٠، ونسختان في

مكتبة حسن حسني عبد الوهاب بتونس: ١٥٢٣ - ١٩٠٣، ونسختان في مكتبة جامعة الإمام محمد: ٣٤٨٦ - ٣٤٢٠، ونسخة في دار الكتب الأحمدية بتونس: ١٢٧١٨، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٧٩١)، وخمس نسخٍ في المكتبة التيمورية. ٢٧ - ٢٠ - ١٤٤ - ٢٠٨ - ٥٩٨، ونسخة في المكتبة الملكية ببرلين: ٢٢٧٤، ونسختان في المكتبة الوطنية بباريس: ١٣٩٦ - ٤١٣٤، ونسخة في مكتبة جامعة برنستون (جاريت): ١٣١٠، ونسخة في مكتبة تشستربيتي: ٣٤٨٦، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٧٩١).

٨٥ - مقدمة في التجويد:

منه نسخة في متحف طوبقبوسراي باستانبول: ١٦٨٧/٨/١٦١، ونسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٩ مجاميع، بعنوان مختصر في أحكام التجويد.

٨٦ - المقصد لتلخيص ما في المرشد:

اختصر فيه كتاب المرشد في الوقف والابتداء، للحافظ العماني، محمد بن الحسن بن علي (- ٤٠٠هـ).

ذكره له في: الكشف: ١٦٣٦/٢، والهدية: ٣٧٤/١، وبروكلمان: ١٢٣/٢، والذيل: ١١٧/٢، وطبع هذا الكتاب عدة مرات، سنة ١٢٨٠هـ، ١٢٨١هـ، ١٣٠٥هـ، كما طبع بالمطبعة العامرية سنة ١٢٩٠هـ على هامش كتاب تنوير المقباس في تفسير ابن عباس، للفيروزآبادي.

منه ثلاث عشرة نسخة في المكتبة الأزهرية: ١٨١/١ - ٨٨٠/١٤ - ٩٧٨٠/١١٤ - ١٠٠٩٠/١١٩ - ١٠٠٩١/١٢٠ - ١٣٢ حسونة/١٢٩٨١ - ٢٠٧٥١/٢٢٣ - ٣٧٧ رافعي/٢٦٦١٣ - ١١٨٢ حليم/٣٢٨٧١ - ٤٧٢٩٨/١٣٣٧ - ٥٣٨٨٤/١٤٠٢ - ١٩٥٧/٩٢ - ١٦٢٨٨/٤١١، وست نسخٍ في المكتبة الظاهرية بدمشق: ٣٤٣ - ٣١٣ - ٣١٤ - ٣٤٣ - ٤٩٩٥ - ٥٨١٢، ونسختان في المكتبة التيمورية: ١٢٨١ - ١٢٩٠، ونسختان في مكتبة جامعة الاسكندرية: ٢٤١ - ٢٤٤ جعفرولي، ونسخة في مكتبة أوقاف بغداد: ٤٨٤٤، ونسختان في جامعة الإمام محمد: ٧٧٧ - ٢٨٠٠، ونسخة في المكتبة الوطنية بباريس: ٦٦٧، ونسخة في المكتبة الملكية ببرلين: ٥٦٤.

٨٧ - المناهج الكافية في شرح الشافية:

يشرح فيه كتاب الشافية في التصريف، لابن الحاجب، عثمان بن عمر (- ٦٤٦هـ).

ذكره له في الكواكب السائرة: ٢٠٢/١، وكشف الظنون: ١٠٢١/٢، والهدية: ٣٧٤/١، وبروكلمان: ١٢٤/٢.

طبع الكتاب في الأستانة سنة ١٣١٠هـ.

منه نسخة في المكتبة الظاهرية: ٦٤٩٠، وست نسخٍ في دار الكتب المصرية: ٤٣ - ٤٤ - ١٨٨ - ١٨٩ - ٢٠٦ - ٢٦٦، وثلاث نسخٍ في المكتبة القادرية ببغداد: ١٠٢٨ - ١٠٢٩ - ١٠٣٠، ونسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد: ١٢٢٨، ونسختان في الخديوية: ٤٥٣٤ - ٤٥٣٥، ونسخة في جامعة الإمام محمد: ٢٠٦٤، وثلاث نسخٍ في المكتبة الوطنية بتونس: ٩٢٨ - ٤٤٢٨ - ٧٣٧٨، ونسخة في جامعة برنستون (جاريت): ٣٩٤، ونسخة في المكتبة الوطنية بباريس: ٤٠٦٢.

٨٨ - منهاج الاحتجاج بسماع صحيح مسلم بن حجاج:

منه نسخة في دار الكتب المصرية: ١٩٦م مجاميع، بخط المؤلف. ومن الجدير بالذكر أنّ البغدادي ذكر في الهدية ٣٧٤/١ عنوان الاحتجاج بسماع صحيح مسلم بن حجاج على برهان الدين إبراهيم الكركي، للمحلي، زكريا بن محمد بن زكريا

(-؟)، ولعلّ مفهرس دار الكتب المصرية وقع في وهم لتشابه الاسمين فنسبه للأنصاري، ولعل كلمة منهاج سقطت من النسخة بسبب خرم ما في ورقة العنوان.

٨٩ - منهج الطلاب:

اختصر فيه كتاب: منهاج الطالبين، للنووي، يحيى بن شرف (- ٦٧٦هـ). ذكره له في: الكواكب السائرة: ١/٢٠١، وهدية العارفين: ١/٣٧٤، وبروكلمان: ٢/١٢٤.

طبع الكتاب في المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٣٢هـ، وفي بيروت بدار المعرفة.

منه ست نسخٍ في مركز الملك فيصل: ٨٢٢ - ٨٤٢ - ٨١٩ - ٨٢٠ - ٨٢١ - ٨١٨، ونسختان في الخديوية: ١٧٩٣ - ١٧٩٤، ونسختان في دار الكتب المصرية: ٢٧٥ - ٢٧٦، وعشرون نسخة في المكتبة الأزهرية: ٥٥٣/٣٥٤٦ - ٩٠٨/٧٨١٥ - ١٠٤١/٩٧٩٠ - ١٠٥٣/١٠١٠٦ - ١٠٥٤ - ١٠١٠٧ - ١١١٢/١١٠٠٥ - ١٢٧٠ حسونة/١٢٨٦٣ - ١٢٨٠ حسونة/١٢٩٨٧ - ١٢٨٧/١٣٠٥٤ - ١٦٣٧ / ١٨٩٩٦ - ١٧٦٣ / ٢٠٧٠٨ - ١٧٦٤/٢٠٧٠٩ - ٢٩٦١/٤٩٨٠٨ - ٢٠٨٦/٦٣٩٤ - ٢١٠٠ سقا/٢٨٥٥٣ - ٢١٦٩ سقا/٢٨٩١٦ - ٢٥٠٧ زكي/٤٠٨٦٢ - ٢٥٠٨زكي/٤٠٨٦٣ - ٢٦٧٨ عروسي/٤٢٣٥٨ - ٢٧٤٣ بخيت/٤٤٥٣١، ونسخة في المكتبة القادرية ببغداد: ١٤٤٦ مجموع.

٩٠ - منهج الوصول إلى تخريج الفصول:

شرح كبير للأنصاري على كتاب: الفصول المهمة في الفرائض، لابن الهائم، أحمد بن محمد (- ٨١٥هـ).

ذكره له في الضوء اللامع: ٣/٢٣٦، والكواكب السائرة: ١/٢٠٢ دون أن يذكر العنوان، والنور السافر: ٢/١١٤، وبروكلمان:٢/١٣٢، والذيل: ٢/١١٨ بعنوان: منهج الوصول إلى تحرير الفصول.

منه نسختان في المكتبة الأزهرية: ١٠٨/٥٧٧١ - ٨٨/٤٣٥٦، ونسختان في الخديوية: ٢١٧٩ - ٧٠٧٧، ونسخة في المكتبة الملكية ببرلين: ٤٧٢١ - ٤٧٢٢.

٩١ - منهج الوصول إلى علم الفصول:

شرح آخر صغير للأنصاري على كتاب الفصول المهمة، لابن الهائم أحمد بن محمد (- ٨١٥هـ).

ذكره له في الضوء اللامع: ٣/٢٣٦، والنور السافر: ٢/١١٤.

٩٢ - نهاية الهداية في شرح الكفاية:

يشرح فيه الأرجوزة الكبرى في الفرائض، المسماة بالكفاية، لابن الهائم، أحمد بن محمد (- ٨١٥هـ).

ذكره له في الضوء اللامع: ٣/٢٦٣، والكواكب السائرة: ١/٢٠١، دون ذكر العنوان، وهدية العارفين: ١/٣٧٤، وبروكلمان: ٢/١٢٤، والذيل: ٢/١١٨.

منه نسخة في دار الكتب المصرية: ٤٧، ونسختان في المكتبة الظاهرية: ٩٥٣٥، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢٥١١)، ٣٠٤٧، عنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد (الفيلم ٢٠٨١)، ونسخة في المكتبة الوطنية بباريس: ١٠٣٤.

٩٣ - نهج الطالب لأشرف المطالب:

ذكره له بروكلمان: ٢/١٢٣.

٩٤ - هداية المتنسك وكفاية المتمسك:

ذكره له بروكلمان: ٢/١٢٣، وذكره في الإيضاح: ٢/٧٢٢ دون نسبة.

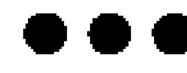
منه نسخة في جامعة برنستون (جاريت يهودا): ٧٥٥/٦٦٩، ونسخة في مكتبة الدولة ببرلين: ٨٨٥/١/١٣٦٩.

ومن الجدير بالذكر أن هناك في المكتبة الملكية ببرلين رسالة غير معروفة العنوان للأنصاري برقم: ٥٠٢٤.

وختامًا نقول: قد يكون له كتب غير ما ذكرنا، وقد يكون بعض العناوين التي ذكرناها ليس له، وما ذلك إلاّ لحالات المخطوطات، حيث نجد بعضها تآكلت صفحة العنوان منه وفقدت، وبعضها قد يكون المفهرس نسبها إليه وهي ليست له، أو نسبها لغيره وهي له؛ إذ العمل الإنسانيّ لا يكون كاملاً، إنما الكمال لله وحده.

ولعلّ هناك كتبًا غير ما ذكرنا، تقبع في زوايا مهملة من زوايا المكتبات في أنحاء الأرض، أو في زوايا مكتبة خاصة، يضن بها صاحبها على الباحثين.

لذلك نرجو أن نكون قد حققنا جزءًا متواضعًا من هدفنا في هذا البحث، من الكشف عن أماكن وجود النسخ المخطوطة من مصنفات القاضي زكريا، فنكون بذلك قد وضعنا بين أيدي الباحثين عن تراث القاضي زكريا ومحبيه ودارسيه قائمة بمؤلفاته، وأماكن حفظ مخطوطاتها، لعلنا نسهم بذلك في مساعدتهم، فتمتد هممهم إلى تحقيق ما لم يُحقّق، ونشر ما لم ينشر، والله وليّنا ومعيننا. ●



الحواشي

١ – الكواكب السائرة: ١/ ١٩٦ – ٢٠٧.

٢ – الضوء اللامع: ٣/٢٣٥.

٣ – ينظر: طبقات الشعراني: ٢/١٢٣، والكواكب السائرة: ١/١٩٦.

٤ – للتوسع في ترجمته ينظر: الضوء اللامع: ٣/٢٣٥، الطبقات الكبرى للشعراني: ٢/١٢٢، النور السافر: ٢/١١٤، الكواكب السائرة: ١/٢٠١، شذرات الذهب: ٨/١٣٤، البدر الطالع: ٢/٢٥٢، نظم العقيان: ١١٣، فهرس الفهارس: ١/ ٢٤٣ – ٢٤٥، وغيرها.



الشيخ والقارورة

تطور العلوم الطبية عند العرب والمسلمين

الدكتور/ إسماعيل نوري الربيعي
أستاذ تاريخ الفكر العربي المساعد
جامعة السابع من إبريل
الزاوية – ليبيا

لم يكن العرب ناقلين للعلوم الطبية عن اليونان، أو ناسخين للكتب التي أخرجتها مدرسة كنيدوس ومدرسة كوس أو للتعاليم الطبية التي وضعها أبقراط الكوسي (ت ٣٧٥م) فحسب[١]، بل كانت اللمسات الخاصة والاضافات العلمية الدقيقة واضحة في هذا المجال الدقيق الذي لا يحتمل الخطأ، ولا سيّما أنّ الممارسة تتمّ على الجسم البشري بصورة مباشرة. ولعل الأهميّة القصوى، التي تنطوي عليها أهميّة دور العرب في هذا المجال، تتجلى في حالة الاستمرارية التي نهضوا بها، بعد الظلام الذي عمّ أوربا إبّان العصور الوسطى، ولم يكن هذا الدور ملء فراغ محض، أو بروزاً في ساحة خالية من التنافس فقط، بل إنّ الروح العلمية كانت على أشدّها، حين تمّ تقديم هذه العلوم في طبق من ذهب الى الأمم والشعوب المختلفة، ويأتي هذا انسجامًا مع المبادئ التي رسّخها الدين الإسلامي في أهمية نشر العلم وتقديمه الى الناس كافّة، بوصفها خدمة عامة، غايتها الفائدة والإفادة وتعميم الاتصال[٢].

بدايةً لا بدّ من التنبّه هنا إلى الدور الذي اضطلع به العرب في حفظ العلوم الطبية، وتعاملهم معها بحسّ المسؤولية والوعي التامّ، فعلى سبيل المثال لم تفلح أقوام أخرى في تنظيم العلم اليوناني أو تنسيقه الذي يعدّ إرثًا للبشرية جمعاء، وهذا ما تمّ فعلاً على أيدي الرومان، الذين أبقوا على المعارف الطبيّة القديمة دون تطوير، بل وقعوا في أخطاء نتيجة سوء الفهم. وتبرز الأهمية القصوى للدور العربي في هذا المجال في أنهم كانوا الأمناء على هذا العلم حتى بلوغه مرحلة العلوم الحديثة وانتقال العالم من تاريخ العصور الوسطى إلى العصور الحديثة.

كانت الميزة الأكثر حضورًا في الطب العربي قد تبلورت في الاتجاه نحو الطب التجريبي، الذي

يستند على الجانب العملي في تشخيص الحالة المرضيّة، والتعامل الحاذق والدقيق مع النظريات الطبيّة، ومن هنا كانت الإضافات التي وضعوها على العلوم، التي قدمتها الأمم السابقة لهم، مثل اليونان والكلدان والسريان. ولعل المراجع العلمية الطبيّة التي خلّفها العلماء العرب والمسلمون تعدّ خير شاهدٍ على المستوى الرفيع الذي بلغوه، إلى الحدّ الذي بقيت فيه هذه المراجع بمنزلة المفاتيح الأساسية لطلاب الطب في أوربا حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، حيث بقيت كتبٌ مثل: القانون في الطب لابن سينا، والحاوي للرازي، والتصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم الزهراوي، تمثّل الأساس الذي قام عليه علم الطب في أوربا خلال العصور الحديثة.

كان للاتصال أثره المهم في توسيع مدارك العرب في مجال المعرفة والعلوم الطبيّة، فأخذ العرب خلال العصر الجاهلي عن الأقوام المجاورة، لا سيّما الفرس والروم، وتمكنوا من إتقان بعض العلاجات في مجال العيون والأسنان والعظام وأمراض المعدة، حتى إنّ الكثيرين من الأطباء العرب كانوا يركّزون على أهمية التدقيق في اختيار الطعام، والتأنّي والتحسّب في مجال العادات الغذائية، حتى كان المثل الأكثر شهرة قد أكّد أن: «المعدة بيت الداء». وكانت الإشارات تترى حول الوقاية، وأنها خيرٌ من العلاج(٣)، وفي هذا حرص الأطباء العرب على تقديم النصح والإرشاد حول العادات الصحيّة وتأكيد الممارسات المتوازنة التي تنهى عن التخمة، وتؤيد الابتعاد عن تناول الدواء إلاّ في الضرورات القصوى، وركّزوا على أهمية المزاج النفسي ودوره الفاعل في ظهور الأسقام داخل البدن البشري. ونتيجةً لأهمية مهنة الطب وقيمتها لدى العرب، لم تكن ممارستها ومعارفها مشاعة، بل إنّ المشتغلين فيها نالوا مكانةً بارزة وأهمية اجتماعية، ملؤها الاحترام والتقدير، حيث تبرز أسماء مثل: الحارث بن كلدة الثقفي (– ٥٠هـ)، وزهير بن جناب (– ٦٠ق هـ)، وابن قديم.

ولم تقتصر ممارسة هذه المهنة على الرجال، بل برع فيها عددٌ من النساء، وكان من أشهرهن زينب الأوديّة(٤). واستمر الطب العربي خلال حقبة صدر الإسلام بالنهج ذاته الذي سار عليه، من حيث تأكيد الوقاية والحرص على سلامة البدن، والانتقاء الدقيق في اختيار الأطعمة، والتركيز على الحمية، فيما برزت في هذه الحقبة وصايا الرسول ﷺ في وجوب العناية بالصحة العامة، التي عرفت بالطب النبوي، حيث الإشارات المركزة على النظافة والاستحمام والختان، فيما كانت الإشارات تتكرّر حول أهمية طعام العسل؛ لشفاء الكثير من الأمراض، هذا مع وجود المعرفة الحاذقة والدقيقة في علاج الحالات المستعصية(٥)، حيث يتم استخدام الكيّ والحجامة.

اتجه الطب في العصر الأموي نحو الاتساع في الاتصال والانفتاح على المعارف الروميّة والفارسيّة، وقد ارتبط ذلك بتطلعات الخليفة معاوية بن أبي سفيان (– ٦٠هـ) إلى توسيع بلاطه، واستقباله العديد من الأسماء العلميّة والأدبيّة البارزة، وإغداقه العطاء لهم. وكان من أبرز الأطباء الذين اعتمد عليهم أبو الحكم الدمشقي، الذي برع في مجال تركيب الأدوية وتشخيص الأمراض بدقة ومهارة، ونتيجة للموقع البارز الذي حظي به في البلاط الأموي، رافق الدمشقي كبار الشخصيات الأموية في رحلاتهم الطويلة، وكان من بينهم يزيد بن معاوية(٦). ويبرز اسم الطبيب بن أثال النصراني في بلاط معاوية؛ لخبرته في مجال تركيب الأدوية ومهارته العالية في العلاج ونبوغه بين أقرانه من

أطباء دمشق. ولم يكن بن أثال طبيباً فقط، بل رجلاً له حضوره البارز، حيث كان دائم الحضور في مجلس معاوية للمنادمة والمسامرة(٧).

لعل الحالة الأهم في تطوّر العلوم الطبية تتمثل في انتقال تدريس الطب من الاسكندرية إلى أنطاكية وحرّان، وقد ارتبط هذا الأمر بالعلاقة الوطيدة بين الخليفة عمر بن عبد العزيز (- ١٠١هـ) والطبيب المصري عبد الملك بن أبجر الكناني، حيث طلب الخليفة من ابن أبجر أن يكون إلى جانبه في دمشق، انطلاقاً من معارفه العالية في الطب وثقته العالية به. وقد عرف عن هذا الطبيب ولعله بالفحص والاختبار قبل القطع في تشخيص الحالة، وفي هذا كان يطلب من المرضى بعضاً من بولهم لغرض فحصه، حتى إنه طلب من الخليفة أكثر من مرّة عيّنات من بوله لغرض فحصها(٨). وحرصاً من الخليفة عمر بن عبد العزيز على التوسّع في المعارف الطبيّة، والاستفادة من خبرات الأمم الأخرى في هذا المجال، أوكل مهمة ترجمة كتاب القس أهرون بن أعين من السريانية إلى العربية إلى الطبيب اليهودي «ماسر جويه»، ونتيجة لنجاح هذا الطبيب في مهمّته شجّعه الخليفة على ترجمة كتبٍ أخرى وتصنيفها، كان من بينها، كتاب (قوى الأطعمة ومنافعها) وكتاب (قوى العقاقير ومنافعها).

كان لانتشار حركة الترجمة، وبروز العناصر غير العربية في الدولة العباسية، أثر في تطوّر علم الطب، حيث اعتمد الخليفة أبو جعفر المنصور على الطبيب النسطوري جورجس بن بختيشوع، الذي كان يعدّ من أعلام مدرسة جند يسابور العلميّة. وكان ورثته قد برزوا في البلاط العباسي، من أمثال عيسى بن شهلا وبختيشوع بن جورجس، الذي أصبح الطبيب الخاص لهارون الرشيد، واستمر في الخدمة حتى صار الطبيب ذا الحظوة والمكانة لدى المأمون، وتعتمد معارفه الطبية على الخبرة والمهارة، إضافة إلى حسن الاطلاع والمتابعة الصارمة، حيث تمكن من تصنيف كتاب في العلوم الطبية موفقاً بين آراء ثلاثةٍ من أبرز الأطباء، هم ديوسقوريدس وجالينوس وبولس الأجيني.

أفرز الاعتماد على مدرسة جنديسابور، مؤشراً مهمّاً، تمثّل في التأثير الهندي في العلوم الطبيّة، إضافةً إلى الاعتماد الرئيس على المراجع اليونانية، التي كان يتم استجلابها من مدرسة الاسكندرية(٩). ويبقى الأثر الأهمّ في كلّ ذلك يرتبط باسم الطبيب حنين بن إسحاق، الذي اضطلع بمسؤولية الترجمة في دار الحكمة التي أسسها المأمون، حيث ترجم هو وفريق العمل الذي كان يعمل برفقته كتب الطبيب اليوناني جالينوس وأبقراط وديوسقوريديس، إضافةً إلى الكتب التي صنفها هو نفسه، ومن أبرزها (مسائل في الطب) و(رسالة في العين)(١٠). وقد عرف عن حنين بن إسحاق احترامه الشديد لمهنته وأمانته العلمية، حتى إنه رفض أن يكون أداة في يد رجال السلطة للإيقاع بهذه الشخصية أو تلك. وقد بلغ من التماسك وصدق العزيمة أنه نجح في الاختبار الذي وضعه الخليفة المتوكل، عندما طلب منه أن يصنع له السم، لكنه أبى ذلك إلى الحدّ الذي أدخل فيه السجن، وتعرضت حياته للخطر، فنالت شخصية حنين التقدير والاحترام والسمعة الكريمة نتيجةً للالتزام العالي الذي درج عليه، والربط الصارم بين المعرفة العلمية وأخلاق المهنة(١١).

لم يكن حنين غريباً عن عالم الطب ووسطه؛ إذ نشأ في كنف عائلة تشتغل في هذا المجال، وكان أبوه يعمل في تركيب الأدوية، وله معرفة واسعة في الأعشاب وأسرارها، حيث ذاعت شهرته، ونتيجةً لنبوغ حنين المبكر أرسله والده للدراسة في بغداد،

من أجل تعلّم الطب على يد «يوحنا بن ماسويه»، إلاّ أنه لم يعمّر طويلاً لدى هذا الطبيب، فاتصل بالطبيب جبرائيل بن بختيشوع وأولاد موسى بن شاكر، ليبدأ اهتمامه وتركيزه على دراسة كتب الطب اليونانية، وتوجهه نحو ترجمتها التي أفادته كثيرًا، وجعلته يتقدم بقية أقرانه من الأطباء إلى الحدّ الذي بلغ فيه أرفع منصبٍ علميّ، تمثّل في ترؤسه(١٢) لدار الحكمة التي أنشأها المأمون.

على الرغم من المكانة الرفيعة والسمعة العالية التي تمتّع بها حنين إلاّ أنّ هذا لم يقتل فيه روح البحث والمتابعة، بل إن المكانة هذه كانت تمثّل لديه الدافع الأكبر في توجّهه نحو التقصّي عن المعلومة الجديدة، حتى لو تجشّم لها عناء السفر وقطع المسافات الطويلة؛ لبلوغها والتحقّق منها، فسافر إلى العديد من المناطق لجمع النادر والنفيس من الكتب والمخطوطات العلميّة. ولعل ما يميّز هذا الطبيب والعالم المتبحر تطلّعه الدائب نحو رسم منهجٍ خاصّ به، تمثّل في التعامل مع النصوص الطبيّة القديمة بحرفيّة عالية، حتى إنه كان يعمد إلى ترجمتها بتصرّف، حتى برز هذا الأمر على طلابه الذين تأثّروا بأسلوبه.

إن الاطلاع الواسع الذي درج عليه حنين جعل لديه القدرة والمكنة من البحث والتأليف الخاصّ، حيث قيّض له أن يتناول العديد من الموضوعات الطبيّة بشكلٍ دقيق، حتى بلغت بحوثه في هذا المجال ما ينوف على تسعة وعشرين بحثًا، احتلت أهمية ومتابعة بالغة من قبل المهتمين بهذا الاختصاص. وزاد على ذلك في وضع المصطلحات، وأكّد أهمية التدقيق في النظريات القديمة، متّخذًا في ذلك منهج التجريب والدراسة المعمّقة للحالات الطبية من خلال الرصد والمتابعة لكل حالة، ووضع الملاحظات حول ذلك، حتى غدا كتابه (المسائل في الطب) من المراجع المهمة لنيل إجازة ممارسة مهنة الطب من قبل المشرفين. ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل إنّ كتابه هذا تمّت ترجمته إلى اللاتينية(١٣)، وغدا من المراجع التي لا يمكن الاستغناء عنها في الوسط الطبيّ الأوربي، خلال العصور الوسطى.

وكان للأسلوب المميّز الذي غدا الطابع الأبرز في تطلّعات حنين، أن وضع عشرة بحوث في مجال أمراض العيون، حيث لم يكتف بالوصف، بل عمد إلى وضع اللوحات التشريحية الدقيقة للعين، مما يؤكد اتجاهه التجريبي الذي غدا المرجع الأساس في دراسة العيون(١٤)، وأمراضها.

ومن الأسماء التي لمعت في مجال الطب يبرز العالم الموسوعي يعقوب بن إسحاق الكندي، الذي برز نشاطه خلال خلافة المعتصم، وكان تركيزه على أهمية احترام النفس البشرية والإعلاء من شأن مهنة الطب، والتعامل معها بحرص وتفانٍ وصبر، فليس من السهل الخطأ فيها؛ إذ يكلّف فيها الشيء الكثير، مما يعني فقدان حياة إنسان، أو التسبب في إحداث عاهةٍ فيه، وإنّ علم الطب شأنه كبقية العلوم، لا يمكن تحصيله إلاّ بالصبر والمتابعة وبلوغ المعرفة المتقنة. وكان الكندي قد وضع العديد من التصانيف الطبيّة، شملت مجالات أسلوب أبقراط الطبي، وأهمية الغذاء وتأثيره المباشر في الصحة، وفي عمل الدماغ، والأمراض الجلدية، والحميات(١٥).

كان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المولود في مدينة الري الواقعة جنوب مدينة طهران في بلاد فارس العَلَم الأهمّ في مجال العلوم الطبية. وتعود علاقته بميدان الطب إلى المصادفة المحضة خلال زيارته إلى مدينة بغداد، التي كانت تمثل منارة العلم في تلك الحقبة، فعندما دخل إلى إحدى المستشفيات

الكبيرة التقى أحد الصيادلة البارعين في تركيب الدواء، وأثارته النتائج التي يمكن الحصول عليها من خلال استعمال الأدوية، وتأثيراتها المهمة والمباشرة في تحصيل الشفاء. هذا الأمر جعله دائم التردّد على البيمارستان العضدي إلى الحدّ الذي شغف بهذا العلم وفروض هذه المهنة، حتى بدأ بتعلمها وراح يرتقي فيها، حتى تحصّل على لقب جالينوس العرب[١٦].

ونتيجةً لمواهبه وقدراته الخاصة في رصد الظواهر والأعراض تمكّن من أن يطوّر من إمكاناته، مضافًا إلى ذلك تلطّفه بمرضاه ورعايتهم بحنوّ وعطف دون تمييز لمكانةٍ أو جاه أو غنى. ومن أجل بلوغ غاية الدقة كان يعمد إلى وضع ملاحظاته الخاصة بكل مريض، محدّدًا الأعراض والتطورات التي تطرأ عليه، والدواء الذي تناوله خلال مراحل علاجه. والواقع أن هذه الملاحظات السريرية الثمينة، كانت المادة الرئيسة لكتابه الشهير (الحاوي)، حيث جمعها طلابه[١٧] بعد وفاته في نسقٍ واحد، كجزءٍ من ردّ الجميل إلى أستاذهم.

لقد طبقت شهرة الرازي الآفاق، وغدت له مكانته الأثيرة لدى ذوي السلطان أو تلامذته، بل إن المرضى ذاتهم تعلّقوا به نتيجة المعاملة الخاصة والعناية التي كان يغدقها عليهم. أما بالنسبة لأهميته العلمية فإنه، إضافةً إلى المسؤوليات التي كان يتجشّم عناءها، كإشرافه على المستشفيات الكبرى في بغداد، أو في بعض المدن الإسلامية الأخرى، والرجوع إليه في أدق الحالات وأكثرها تعقيدًا، تمكّن من تطوير اطلاعه والاستمرار في متابعة كل ما يصدر من مخطوطاتٍ تتعلق بالعلم الطبيّ أو المجالات العلمية الأخرى. ولعلّ الدليل الأبرز في أمانة الرازي العلميّة وسعة اطلاعه يكمن في سعة الإشارات وتنوعها التي كانت تترى في كتبه الطبيّة، والتي زادت على المائتين ونيّف، حيث المصادر اليونانية والهندية والفارسية[١٨]، مما جعلها مثلاً لحسن الاطلاع على معارف الأمم في هذا المجال واختصارًا لخبراتها.

ولم يقف الأمر عند العلاج السريري أو التأليف، بل كان لبراعته في علم الكيمياء أثره البارز في ربط علم الطب بالعلوم الأخرى، وتطلعه نحو تبنّي المنهج النقديّ الصارم في دراسة الحالة؛ إذ لم يأخذ الأمور على علاّتها، بل كان يتوقّف مليًّا عند الحالة، ويقوم بدراستها من جميع الجوانب[١٩]؛ ليصل إلى النتائج الشافية. أما معرفته الواسعة في مجال التشريح فقد مكّنته من الوصول إلى وضع علاجاتٍ ناجعة للعديد من الحالات المستعصية.

يمكن رصد العديد من حلقات التطور العلمي في حياة الرازي، حيث كتب في بداية اشتغاله بالطبّ كتاب (المجرّبات) واضعًا فيه المعارف التي تحصّل عليها خلال إقامته الأولى في بغداد وعودته إلى مدينته «الري». أما المرحلة الثانية فتتمثل في وضعه لكتابين حظيا بالأهمية، ولفت إليه أنظار حاكم الري المنصور بن أسد، حيث كان كتابه (الطب المنصوري) حاويًا للعديد من الموضوعات المتعلقة بالتشريح، والحميات، ومعالجات السموم، والوسائل الرئيسة في الحفاظ على الصحة ومواجهة أخطار الأمراض. وكتابه الثاني (الطب الروماني) الذي اهتمّ فيه بتقصّي حالات النفس البشرية والتحولات التي تطرأ عليها.

كانت ملاحظات الرازي الأساسية تلحّ على أهمية الدراسة المستمرة والدأب والمثابرة في تحصيل الخبرة والمعلومات، وكانت إشاراته المعتادة تركّز على أن الإقامة في المستشفيات وملازمة

رئيس الأطباء من أجل التحقّق من الحالات تعدّ الطريق السليم لبناء الطبيب الخبير والممارس. وكان موقفه واضحًا وصارمًا إزاء الدخلاء على مهنة الطب، ولا سيّما المشعوذون الذين لا يتورعون عن أداء الحيل من أجل الحصول على الأموال، ولو على حساب صحة الناس وحياتهم.

ويفرد الرازي للمشورة مكانة بارزة حتى إنه كان يلحّ على وجود «هيئة استشارية» لتحديد العلّة وتجنّب الأخطاء الفردية. وكانت نصائحه تشدّد على ضرورة التزام المريض لطبيبٍ واحد، دون الانتقال من طبيبٍ إلى آخر، فالطبيب الواحد هو الذي يمكن أن يتابع الحالة من بدايتها، ويستطيع أن يُحدّد، من خلال استشارة زملائه، العلاج الأفضل، أما التأكيد الأهم فإنه يتعلّق بالحالة النفسية للمريض، وأنها تمثّل خط الدفاع الأول في مواجهة المرض، مهما بلغت درجة تمكّنه من جسم المريض.

إن المنهج الصارم الذي دأب عليه الرازي في علم الطب جعله يتصدى بالدراسة العميقة والناقدة لأبرز مصادر الطب المعروفة، حيث وضع كتاب (المرشد)، لمناقشة العيوب التي وقع فيها الطبيب اليوناني الشهير أبقراط، إضافةً إلى وضعه كتاب (شكوك حول جالينوس) الذي تعرّض فيه لآراء جالينوس في العديد من الأفكار الطبيّة(٢٠)، مشيرًا إلى مواطن الخلل والضعف فيها.

ومن الأطباء اللامعين الذين بزّوا أقرانهم، وتمكنوا من تحصيل المهارة والكفاءة والمعرفة، يبرز «ابن سينا»، الذي حاول أن يرسي منهجًا خاصًّا له في مجال دراسة الطب، مستفيدًا من دراساته الموسوعيّة في مجال الأدب والعلوم والفلسفة(٢١)، حيث التركيز على السؤال والبرهان في دراسة الظاهرة.

وكان ابن سينا قد حرص على تعميق دراساته النظرية بالتطبيق العملي، من خلال مباشرته لدراسة الحالات ومعاينتها، وتدوين ملاحظاته عليها، ولم يكن ليتقاعس عن ممارسة عمله، أو تكليف مساعديه في بعض الشؤون، بل إن تركيزه كان ينصبّ على المقارنة، ودراسة الأسباب المحيطة بالظاهرة، والتركيز على الأسباب كلّ على حدة(٢٢). ولعلّ العمل الأكثر شهرةً وتميّزًا ما يتمثّل في كتاب (القانون في الطب)، الذي اختصر فيه أبرز الآراء الطبيّة التي وضعها أبقراط وجالينوس، والخبرات الطبيّة التي عرفها اليونان والسريان والهنود والفرس، مضيفًا إليها الخبرات الخاصة والتجارب الشخصية له.

ومن الإرشادات الرئيسة التي يقوم عليها الكتاب ما يتركّز حول تنظيم الغذاء، ولا يجوز تناول الدواء إلاّ في الظروف العصيبة والحاجة الملحة(٢٣). وإنّ للبيئة أثرها المهم في حالة الإنسان. والإمكانية السليمة والصحيحة في تخدير المريض الخاضع للعمليات الجراحية، والتخدير الشديد من بعض الأمراض، وضرورة عزلهم في محاجر خاصّة، بعيدة عن التجمعات السكانية، ومع الأهمية القصوى في اختبار الدواء قبل استخدامه من قبل الإنسان، ولا سيّما الجديد منه حيث أشار ابن سينا إلى إمكان تجربته على الحيوان ومراقبته بدقة وحرص(٢٤).

ومن الملاحظات الجديرة بالعناية تركيزه الشديد على ضرورة بتر الأجزاء المصابة بالسرطان بوقت مبكر خشيةً من انتشاره في جسم المصاب، إضافةً إلى الربط بين المرض والحالة النفسيّة للمريض، بل إنه أشار إلى إمكان معالجة بعض الأمراض بالموسيقا لما لها من تأثيرٍ في استقرار الأحاسيس والعواطف(٢٥).

حظيت مهنة الطب بالاهتمام والرعاية والمكانة الأثيرة لدى المجتمع بجميع فئاته، حتى إنّ الأمراء وأصحاب السلطان كانوا يحرصون على تزيين بلاطهم بالوجوه العلميّة البارزة، ولا سيّما الأطباء منهم(٢٦). أما ابن سينا فقد نال من المكانة الرفيعة لدى الأمير شمس الدين في همذان، حيث جعله وزيرًا له، لكن هذه المكانة صارت وبالاً عليه لا سيّما من قبل المنافسين والطامحين إلى بلوغ المراكز العليا، إلاّ أن شهرته التي طبقت الآفاق جعلته يحظى بمكانٍ رفيع آخر في أصفهان لدى الأمير علاء الدين أبي جعفر(٢٧).

أما نقيب أطباء بغداد هبة الله بن صاعد، ابن التلميذ البغدادي (ت ٥٦٠)، فقد عرف عنه قدرته العالية ونباهته المميّزة التي أهّلته أن يكون مشرفًا عامًّا على البيمارستان العضدي في بغداد، وكان المسؤول الأول عن إجازة مهنة الطب في بغداد(٢٨)؛ لسعة علمه ومعرفته بقوانين الطب وأسراره، وكان يؤكد أن الطبيب يتحمّل مسؤوليّة بالغة الأهمية، كونها تتعلّق بحياة الإنسان، وهي المهنة التي لا تحتمل التخمين أو المصادفات، بل يجب القطع بالحالة بموضوعية وحزم، وقد تمكّن هذا الطبيب من وضع المصنفات المهمّة، التي غدت مراجع أساسيّة لطلبة الطب في بغداد والعالم الإسلامي(٢٩).

وفضل الأطباء المسلمين على تطور الطب في العالم واضح للعيان، حيث تشير إليه في ذلك الاكتشافات البارزة التي وصلوا إليها. فابن النفيس (ت ٦٨٨هـ) سبق أطباء أوربا بحوالي ثلاثة قرون في اكتشاف الدورة الدموية، وتمكّن من الوقوف على التمييز بين الشرايين والأوردة، إضافةً إلى الانتقادات العلمية التي وضعها على آراء جالينوس وابن سينا في مجال سريان الدم داخل الجسم البشري(٣٠).

إنّ الاتساع الذي بلغته الحضارة العربية وتعدّد مراكزها في المشرق والمغرب كان قد ساهم في بروز العديد من المبدعين والبارزين في المجالات العلميّة المختلفة، ولم يكن الإبداع حكرًا على جهةٍ دون الأخرى، بل إنّ الازدهار كان يشمل الدولة العربية الإسلامية كلها، وهذا ما تؤكده حالة التألّق التي ظهرت في المغرب العربي والأندلس سواء بسواء مع الحواضر الشرقية كدمشق وبغداد والري وأصفهان.

من الأطباء الذين أنجبتهم الأندلس يبقى اسم الزهراوي، المولود في مدينة الزهراء، الواقعة على مقربة من مدينة قرطبة، وكان قد اشتُهر بالجراحة بشكلٍ خاصّ، فيما وضع خلاصة تجربته الطبيّة والجراحيّة التي زادت على خمسين عامًا في كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، مشيرًا فيه إلى أهمية العلاقة القائمة بين الطبيب والمريض، وأن التشخيص يعدّ الأساس الذي تقوم عليه العملية الطبيّة، فلا سبيل للعلاج إلاّ عن طريق تحديد العلة، ليتمكن الطبيب من ثمّ من تحديد الدواء. فيما أشار إلى أهمية الجانب الأخلاقي والإنساني في هذه المهنة(٣١)، وأنّ على الطبيب أن ينظر إلى الحالة بوازع أخلاق المهنة والانتماء إليها، وليس من أجل الحصول على المكاسب الماديّة.

كان الزهراوي قد استند في معلوماته الطبيّة على جالينوس، لكن هذا لم يكن يعني أنّ لمساته الشخصية مفقودة في الكتاب، بل إنّ التفصيلات التي يضعها حول تشريح جسم الإنسان وأعمال الجراحة لتعدّ قيمة أصيلة لهذا الطبيب، إضافةً إلى المعرفة الواسعة في مجال العقاقير الطبيّة والمستحضرات الخاصة بها، أما في مجال الجراحة فإنه يذكر في كتابه ما يزيد على مئتي أداة جراحية، يوردها بالصور التوضيحية، مع دراسة وافية

ومفصّلة عن فصد الدم والتوليد وتجبير العظام المكسورة، وطريقة استخدام الكاويات في الجراحة، واستئصال اللوزتين، واستخراج الحصى من المثانة. وكان له السبق في مجال ربط الأوعية الدموية. والواقع أن المعرفة بهذه السعة والقدرة جعلته يحتل مكانة رفيعة لدى طلاب الطب في العالم[٣٢]، حيث ترجمت كتبه، وبقيت قيد التداول حتى عصر النهضة الأوربية.

تتمثل الحالة الأبرز في التعاون والتكامل تلك الحالة التي درج عليها الأطباء العرب والمسلمون، فالطبيب ابن زهر (ت ٥٥٧هـ) كان قد اتفق مع الفيلسوف والطبيب ابن رشد ليكون كتابه (التيسير في المداواة والتدبير)[٣٣] متمّمًا لكتاب ابن رشد (الكليات)، وفي هذا تكون الدلالة الصادقة على سيادة النزعة العلمية وروح البحث الصادقة. والواقع أن ابن زهر لم يكن غريبًا عن الوسط العلميّ؛ فهو ابن عائلة علميّة جلّها من الأطباء البارزين، إضافةً إلى معرفته الواسعة بالعقاقير والأدوية ومركباتها، وكانت شهرته العلميّة قد بلغت أوربا، وتمّ ترجمة كتبه إلى اللاتينية[٣٤].

إنّ الخبرة والدراسة العميقة والبحث والتقصّي جعلت من الأطباء العرب والمسلمين، يتوصلون إلى العديد من الاكتشافات العلميّة؛ إذ أشاروا إلى أنّ الأمراض، وإن كانت شأنًا يجري داخل الجسم، فإن بعضها معدٍ، قابل للانتقال من هذا المريض إلى ذاك السليم. وكان الطبيب الغرناطي ابن الخطيب (ت ١٣٧٤م) وزميله ابن خاتمة الأندلسي ١٣٦٩م قد ثبّتا هذه الحقيقة، بعد انتشار وباء الطاعون في العالم، الذي بدأ في الهند عام ١٣٣٢م ليصل إلى الأندلس عام ١٣٣٨م. وفي الوقت الذي كان المهتمون منشغلين في تحليل الأسباب المؤدية إلى هذا الوباء، ويربطونه بالعديد من الظواهر، التي لا تخرج عن التفسير الخرافي، أشار هذان الطبيبان إلى أنّ الاتّصال بالمرضى يعدّ السبب الرئيس في انتقال هذا المرض وانتشاره في العالم، مع العلم أن ابن خاتمة كان الأكثر توفيقًا في وضع الوصف الدقيق لأعراض المرض ووسائل العلاج منه على أساس أنه عاش المحنة التي حاصرت مدينته[٣٥].

يمكن التوقّف عند عاملين ساهما بهذا القدر أو ذاك في رسم أبعاد منهج البحث العلمي لدى الأطباء العرب المسلمين، حيث يبرز التفكير المنطقي والتجربة المباشرة، بوصفهما عنصرين أساسيين في تحديد الظاهرة، فتمّ توجيه أسهم النقد إلى جالينوس على أساس أن معظم نظرياته بنيت على منهج التفكير المنطقي، فيما تمّ انتقاد معظم نظريات أبقراط، على أساس أنه كان يبني نظرياته على الملاحظات العابرة، وليس على الاختبارات المتكررة. ولعل اعتماد «ابن النفيس» على التفكير المنطقي كان أحد أسباب غياب اسمه عن لائحة أبرز الأطباء العرب المسلمين، على الرغم من أهمية النتائج التي توصّل إليها[٣٦].

برع الأطباء العرب المسلمون في مجال الجراحة، وكان المصدر الرئيس الذي نهلوا منه قد تمثّل في الخبرات المتحصلة من الهند واليونان، وكان من الجراحين الرازي وعلي بن عباس المجوسي، الذي برع في الجراحة الخاصة باستئصال الحصاة من الكليّة، والزهراوي الأندلسي، الذي وضع مؤلفًا خاصًّا عن الأدوات المستخدمة في الجراحة، التي زادت على المائتين، إضافةً إلى براعته في مجال الكيّ ومعالجة العظام، وتفتيت الحصاة داخل المثانة، وعلاج السرطان. ولعلّ المساحة التي تمتعت بها الجراحة دفعت الطب العربي للعناية بفن التخدير حيث استخدم الحشيش والأفيون والإسفنجة المخدرة، إضافةً إلى عنايتهم بخيوط الجراحة، التي

كان يتم الحصول عليها من أمعاء الحيوانات ولا سيّما القطط منها[٣٧].

هيّأ الاتصال الواسع بمعارف الأمم الأخرى معرفة مهمة في مجال بعض الأمراض، كان من بينها مرض السرطان، الذي أسهب في وصفه الأطباء اليونان. وكان الطبيب علي بن ربن الطبري الذي عاش في القرن الثاني الهجري قد نقل الوصف الذي تعرّض له أبقراط في كتابه (فردوس الحكمة)، حيث الإشارة إلى خطورة هذا المرض وتعدّد أنواعه؛ إذ يكون ما بين داخلي يصعب علاجه، ويودي بصاحبه إلى الهلاك، وخارجيّ لا يمكن علاجه إلاّ بالبتر. فيما تعرّض له بالوصف، ووضع العلاجات له أبرز الأطباء العرب والمسلمين، كان من بينهم حنين بن إسحاق (-٢٦٠هـ)، وثابت بن قرّة (ت ٢٨٨هـ)، والرازي (ت ٣١٤هـ)، وعلي بن عباس المجوسي (ت ٣٨٤هـ)، وابن سينا (-٤٣٨هـ)، ومهذب الدين البغدادي (-٦١٠هـ)، وابن الجزّار القيرواني (ت ٣٦٩هـ)، والزهراوي (٤٢٧هـ)، والقربلياني (-٧٦١هـ).

كانت العناية بدراسة الأورام والتفصيل فيها قد جعلت من الأطباء العرب المسلمين يتوسعون في تصنيفاتها والتركيز على وصف أعراضها وطرق علاجها، حيث قسّموا الأورام إلى صنفين؛ الحميدة والخبيثة. وفي مجال الأورام الحميدة كانت الإشارة إلى الزوائد اللحمية في المناطق الداخلية بين القدمين، والأكياس الدهنية، وأمراض الغدد اللمفاوية[٣٨]، والغدة الدرقية، والثآليل في القدمين، والأورام الصلبة والزوائد اللحمية.

أما بالنسبة للأورام الخبيثة فإنّ الإشارات كانت تتعرّض لها على أساس شكلها الذي وصف بالاستدارة، وعروقها الخضراء المتصلة بداخل أعضاء الجسم، وسرعة تفشيها ونموها شيئًا فشيئًا، وظهور التحولات في الشكل واللون. ويشير الزهراوي إلى أنّ هذه الأمراض وبخاصّة السرطان منها لا براء منه إلاّ بالجراحة أو الكيّ. أما ابن سينا فيصف هذا المرض بالالتصاق الشديد بأعضاء الجسم، دون أيّ أمل بالفكاك منه. وقد استطاع الطبيب العربي المسلم تشخيص عدة أنواع منه، كان من بينها؛ سرطان العين، والأنف، والحنجرة، واللسان، والمعدة، والكبد، والطحال، والأعصاب، والجهاز البولي، والخصية، والثدي، والرحم[٣٩].

كان الطبيب العربي المسلم قد أفرد المساحات الواسعة من مؤلفاته وبحوثه لموضوع علاج الأمراض، وكان التركيز على الجانب المعنوي والدعم النفسي يأخذ مداه الأهم على أساس أن طاقة الإيمان تحفّز لدى المريض القوى الكامنة في الجسم. والواقع أن هذا الأمر كان له الأثر البارز في شفاء العديد من الحالات، بعد أن كان يُنظرُ إليها، بوصفها حالاتٌ يائسة.

أما الجانب الآخر من العلاج النفسي فقد تمثّل في المشاركة الوجدانية التي تتمثّل في عيادة المريض والاطمئنان عليه والسؤال عنه، وإشعاره بأنه ليس وحيدًا في محنته هذه. ويأخذ التشجيع ورفع الروح المعنوية للمريض حيّزًا مهمًّا لدى الطبيب العربي المسلم، والكثير منهم كان يؤكد دوره الفاعل في علاج المريض، بل في التعجيل بشفائه، حيث كان التركيز على أن ثمة علاقة راسخة ووطيدة بين الجسد والحالة النفسية، فكم من جسدٍ سليم سقط تحت وهم المرض نتيجة للإيحاء، وكم من الحالات المعاكسة برزت في ميدان الحالات المستعصية[٤٠].

ولم يقف الطبيب عند الحدود التقليدية في معالجة الأمراض، بل إنه أكّد دمج المريض بالحياة وإخراجه من حالة الملل، وكانت النصائح تترى حول أهميّة تغيير الجو والخروج إلى البريّة، وتبديل المناظر، والتخلّص من التكرار، وتطمين النفس من خلال الاستماع إلى الموسيقا، ولقاء من يأنس إليه قلب المريض.

أما على صعيد العلاج المباشر فقد اجتهدوا في العديد من الوسائل، كان الأبرز من بينها؛ التدليك، والتبريد، والاستحمام بالمياه المعدنية، وتغطية جسم المريض بالرمال الساخنة، إضافةً إلى العناية الدقيقة بالغذاء وأهميته القصوى في تعجيل الشفاء[٤١].

على الرغم من الاعتماد على العلاج الدوائي الذي وضعه الأطباء اليونانيون، إلاّ أنّ الأطباء العرب المسلمين، بحكم تجاربهم الخاصّة، أضافوا الكثير من الأدوية، حسب الحالات التي واجهتهم. وقد تفنّنوا في ذلك حتى تنوّعت وصفاتهم ما بين الدواء الداخليّ الذي يُقدّم إلى المريض عن طريق الفم والعلاجات الموضعية أو استخدام الجراحة المباشرة. وكان أبرز الأدوية يتراوح ما بين الأفيون، والأفسنتين، والبابونج، والناردين، واللازورد، والحبة السوداء، وعنب الثعلب، والأبهل، والأسارون، والكمون، والكندش، والنرجس، والسوسن. إضافةً إلى اللبن، والريش، وسرطان البحر، ولحوم الأفاعي. وكان الحرص على معالجة السرطان من خلال إيقاف توسّعه داخل الجسم ومعالجة التقرّحات[٤٢]، حتى كانت العلاجات النباتية والمعدنية، ومنها خبث الحديد، والرصاص، والزاج، والزفت، والطين، والملح، والمياه الكبريتية، والنحاس، والأدوية الحيوانية مثل الإسفنج، والبيض، والسلحفاة، والسمك، وقرن الأيل، ومخ العظام، والحلزون، والزبد.

لم تكن الأهمية القصوى، التي نالتها مهنة الطب، والمكانة الأثيرة والمهمة والمحترمة التي حظي بها الطبيب العربي المسلم، وليدة المصادفة، إنّما ارتبطت بالعديد من التنظيمات والإرشادات القائمة على أساس الشريعة الإسلامية، واستيعاب خصوصيّة المجتمع الإسلامي والأعراف السائدة فيه. وكانت كتب الحسبة قد أفردت العديد من الفصول لإيضاح التزامات الطبيب والواجبات المنوطة به والآداب التي يجب أن يتحلّى بها، مع التأكيد الصارم على أنّ كلّ شيء قابل للخطأ والصواب والتجريب، إلاّ في هذه المهمة، التي ترتبط بأقدس مخلوقات الله على الأرض وأهمها، ومن هنا كان الحرص على متابعة الممارسين، ووضع الاختبارات والامتحانات التي تجعل من المؤهلين لها أن يتصدى لها بكل مهارة.

لقد أُخضعت مهنة الطب لنظام الحسبة، الذي كان يمثّل الجهاز التفتيشي المستند على الشريعة الإسلامية، انطلاقًا من مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان المحتسب الذي يتولى شؤون المتابعة والمراقبة على الأسواق والنشاط التجاري والمهني في المدن الإسلاميّة يوجّه عناية خاصّة لمراقبة شؤون الأطباء، ولا سيّما من قبل معاونيه. ولم يقف الأمر عند حدود المراقبة والمتابعة، بل إنّ مهنة الطب شغلت حيّزًا واسعًا ومهمًّا في الأدبيات التي تناولت موضوع الحسبة والتزامات المهنة وأخلاقياتها، فكان الحرص على تناول علاقة الطبيب بمريضه والأسس التي تحدّد علاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه، وكان التركيز على أهمية عقد الامتحان لكلّ طالب عمل في هذا المجال، ومنح الناجحين تراخيص عمل خاصّة بهم.

وكانت المهن الطبيّة تتوزع في مجالات الطب

العامّ والكحالة التي تختص بطب العيون والجرّاحين والمجبّرين[٤٣]، الذين يهتمون بمعالجة الكسور والرضوض والخلع. وكانت الإشارات تؤكد أن مهنة الطب من الأعمال الشريفة التي أباحتها الشريعة الإسلامية، لما فيها من منافع وخدمات تُقدّم للناس من أجل الحفاظ على الصحة العامة، وبقدر العناية بالمجتمع يعدّ الحفاظ على صحته من الواجبات الشريفة والأساسية. وكان نظام الحسبة قد وضع شروطًا صارمة على المزاولين مهنة الطب، كان من بينها ضرورة وجود نقيب للأطباء يتلخّص دوره في عقد امتحان الأطباء ومتابعة تحصيلهم والإشراف على تدريبهم من أجل رفع الكفاءة، ولا يتوانى النقيب عن سحب الرخصة من الطبيب المتقاعس وإخضاعه لامتحانٍ جديد[٤٤].

من التقاليد البارزة في هذه المهنة أداء الطبيب العربي المسلم لقسم أبقراط، وهذا له دلالته الثقافية والعلمية. فالانفتاح على ثقافات الشعوب والأمم الأخرى كان السمة الأهمّ في تكوين روحيّة البحث العلميّ. والأهم في كل هذا أنه كان يتلخّص في التركيز على المبادىء الأخلاقية ولا سيّما حفظ أسرار المريض، وغضّ الطرف عن المحارم، والابتعاد عن تقديم الأدوية السامّة أو القيام بأعمال منافية لأخلاقيّات المهنة[٤٥].

كانت كتب الحسبة قد حدّدت الواجبات الملقاة على عاتق الطبيب في معالجة مرضاه، وقد وضعتها في خطوات متسلسلة، تقوم على سؤال المريض عن موضع الألم، وأسباب العلّة، والقيام بالفحص السريري، والعمل على تشخيص العلة وتحديدها، ومن ثمّ تحديد الدواء الذي يتم كتابته بحضور ولي أمر المريض. وعلى الطبيب أن يتابع الحالة من خلال فحصه مرة أخرى في أقرب فرصةٍ مواتية، وتدوين ملاحظاته عن تطورات الحالة الصحية التي بلغها المريض، وتسليمها إلى أهل المريض من أجل الاحتفاظ بها. وعلى الطبيب أن يبقى ملازمًا لتطورات حالة المريض حتى بلوغ مرحلة الشفاء التّام. وفي حالة موت المريض يقدّم أهل المريض إلى نقيب الأطباء التقارير التي كتبها الطبيب عن تطوّر الحالة الصحية للمريض. وهنا يكون للنقيب إصدار الحكم بعد دراسة التقارير، فإذا وجد أيّ خللٍ أو خطأ في التشخيص، فإنه يوصي بأن يقدّم الطبيب لأهل المريض المتوفى ديته، بصفته مسؤولاً عن إساءة التدبير والعبث بأرواح الناس[٤٦].

أما مهنة الكحالة فإنها كانت تقوم على المعرفة بتشريح العين والأمراض التي تصيبها، مع المعرفة التامّة بتركيب العقاقير الخاصّة بعلاج أمراض العيون، مع أهمية وجود الأدوات الخاصة بالفصد والتكحيل. وكان المحتسب يشير على أعوانه بأهمية متابعة أدعياء مهنة الكحالة، الجوّالين منهم خاصّة، وذلك لقلة خبرتهم ونقص معلوماتهم، واعتمادهم على الغش في تحضير الوصفات، مما يضر بصحة العامة.

وفي مجال مهنة الجراحة كانت الشروط التي تفرض على مزاولها تؤكد أهمية المعرفة التامّة بكتاب جالينوس في الجراحة، وكتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) للزهراوي، مع المعرفة الدقيقة بتشريح جسم الإنسان، والتوافر على الأدوات الخاصّة بعمليات الجراحة.

أما الشروط الخاصة بمهنة جبر العظام[٤٧]، فإنها كانت تؤكد أهمية معرفة مزاولها بعظام جسم الإنسان وأشكالها، مع خضوعهم لامتحانٍ مباشر من قبل المحتسب؛ لغرض الحصول على الإجازة.

تُظهر العناية التي أبداها العرب المسلمون بالطب

وبكل ما يتصل به الأهمية البالغة لهذا الميدان، فلم يُترك شيء للمصادفة، إنما كان التكامل وحسن الأداء يمثّلان السمة الملازمة. فعلى الرغم من الاهتمام بكفاءة الطبيب، وتعدّد التخصصات، والتوجّه نحو المعالجة الدقيقة، إلاّ أنّ الإضافة الأهمّ في كلٍّ هذا كانت تتبدّى في انتشار المستشفيات «البيمارستان»، وكانت بدايتها قد استندت إلى أُسلوب العزل، ولا سيّما المصابون بالجذام، خشيةً من العدوى، إضافةً إلى بعض المستشفيات الخاصة... لكن التطورات التي شهدتها الدولة العباسية أفرزت تحوّلاً مهمًّا في هذا المجال، تمثّلت في بناء المستشفيات الواسعة التي تمتاز بالموقع الجيّد والمناسب الذي يتوافق وحالة المرضى، حتى إنّ اختيار المكان كان يخضع للعديد من الاختبارات واستشارة أصحاب المعرفة الطبيّة، وكان عضد الدولة قد اعتمد على الطبيب الرازي في اختيار موقع المستشفى التي قرّر بناءها. والظاهرة الأهمّ في المستشفيات العربية الإسلامية أنها كانت تُدار وفق أسلوب التخصّصات(٤٨)، حيث تمّ إنشاء مستشفيات خاصة بالأمراض العقلية والجلدية، في حين تمّ إنشاء مستشفيات خاصة تهتم بعلاج الأمراض العامة، وإذا ما كانت المستشفيات قد برزت في الحواضر الإسلامية الكبرى مثل بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وفاس، وتنوعت خدماتها، لم يمنع هذا العرب من استحداث أسلوب جديد في إدارة المستشفيات، تمثّل في «المستشفى السيّار»، الذي يقوم على نقل الخدمات وفقًا للحالات الطارئة، ولا سيّما مواجهة الأوبئة وبعض الأمراض السارية، ويتوافر على التجهيزات الرئيسة التي تلزم للمعالجة.

تميّزت المستشفيات بالانضباط والنظام العالي، حيث تتوزع الاختصاصات بشكلٍ دقيق وحاذق، مع الحرص الشديد على النظافة ونوعية الطعام المقدّم للمرضى، مع توزيع المستشفى إلى قسمين رئيسين؛ رجال ونساء، وتوزيع الردهات وفقًا لنوع الأمراض، حيث تتوزع إلى أمراض العيون والجراحة والكسور والحميّات إضافةً إلى قسم الطوارىء، الذي يقوم باستقبال الحالات السريعة والمفاجئة(٤٩). إضافةً إلى كلّ هذا كانت العناية بالنقاهة؛ إذ لا يتمّ إخراج المريض دون التأكّد من سلامته التامّة والكاملة.

كان خلفاء بني العباس قد أبرزوا اهتمامًا واسعًا في بناء المستشفيات، فقد أمر هارون الرشيد بتأسيس مستشفى واسعة لمعالجة الأمراض، ملحقٌ بها حديقة خاصّة لزراعة الأعشاب الطبية، ومدرسة لتعليم الأطباء الجدد(٥٠).

ونتيجة للإقبال المتزايد من قبل العامّة ظهرت مجموعة من المستشفيات الخاصة، إلاّ أن الدولة الإسلامية توجّهت نحو تقديم الدعم لجميع المؤسسات الطبية دون استثناء، وكان الطبيب سنان بن ثابت الذي استفاد من الحظوة التي قدمها له الخليفة المقتدر (ت٣٢٠هـ) من توسيع الخدمات الطبيّة، حتى شملت القرى والأرياف والسجون، إضافةً إلى الضواحي الملحقة بالمدن. وقد أجمع الأطباء العرب المسلمون على أهمية المستشفى في توفير الخبرة العملية للأطباء وتعميم الوعي الصحي. ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل إن بعض مستشفيات بغداد صار لها من السمعة الواسعة والأهمية، حيث إن الكثير من المرضى أو الأطباء الطامحين إلى مزيدٍ من الخبرة كانوا يأتون إلى بغداد من أجل زيارتها، ومن بينها مستشفى «العبدي»، التي احتوت على قاعاتٍ خاصّة للتمريض والمحاضرات والدرس، ومكتبة تحوي على أهم

المصادر الطبيّة، إضافةً إلى أربعة وعشرين طبيباً هم الأكثر كفاءة وشهرة في العالم الإسلامي.

ولم يقف الأمر عند عاصمة الخلافة، بل إن مدناً مثل القاهرة ودمشق ظهر فيها العديد من المستشفيات التي لا تقل شأناً عن مستشفيات العاصمة، ولا سيّما خلال القرن الخامس الهجري. وكان المستشفى النوري في دمشق قد برز فيها العديد من الأسماء الطبية. كان الأهم فيها ابن أبي أصيبعة، وابن القف (ت٦٨٥هـ)، ولم تقلّ المستشفى الناصري في القاهرة شأناً عن المستشفى النوري، حيث نالت الكثير من الشهرة والأهمية(٥١).

وكان المستشفى العربي الإسلامي يمثل غاية الطموح بالنسبة للمشتغل في ميدان الطب، على أساس أنها الفرصة التي لا يمكن الحصول عليها إلاّ من خلال الخبرة الطويلة والموهبة المميّزة. وكانت متطلبات مهنة الطب بالغة الصعوبة والتعقيد، حيث تقوم على آليّة حفظ النصوص، بوصفها تمثّل الأساس الذي يقوم عليه أداء عمل الطبيب بشكلٍ مباشر في تحديد العلة وتشخيصها. وكان الأطباء البارزون يوجّهون تلاميذهم إلى أهمية قراءة كتب جالينوس إضافةً إلى كتب الطب اليوناني التي كان يتراوح عددها حوالي اثني عشر كتاباً(٥٢). ولعل المنهج الأبرز في اتجاهات دراسة الطب كان يتلخص في اتجاهين؛ الأول اعتماده على القياس والمنطق، ورائداه ابن سينا وابن رشد، أما الثاني فإنه كان يستند إلى التجريب والمعالجات السريرية المباشرة، ورائده الطبيب الرازي، الذي كان يؤكد أهمية خضوع طالب الطب لاختبارٍ مباشر من أجل الحصول على الإجازة.

على الرغم من حالة التكامل التي تقوم بين الطب والصيدلة، والارتباط الوثيق بينهما، إلاّ أنّ العرب المسلمين أفردوا مجالاً واسعًا وحيّزًا بارزًا لكلا التخصّصين، مما ساهم في تبلور اتجاهات كل مجالٍ وتميّزه عن الآخر. فالصيدلة أو ما كانت تعرف بـ «الأقراباذين» تركيب الدواء، أُفرد لها مجالها، فكان العرب من أوائل الأمم التي عنيت بهذا العلم، واهتمت بممارسيه والأماكن الخاصة التي يتم فيها تركيب الدواء، والعناية التامة بمن يبيع الدواء إلى العامة من الناس، حيث لا يجوز لهم العمل إلاّ بإجازة خاصّة، تمرّ بعد امتحانٍ دقيق وشامل في معرفة أسماء العقاقير وأصولها ووسائل تركيبها والآثار الجانبية التي يمكن أن تنجم عنها.

وكان العلماء المسلمون قد اطّلعوا بشكلٍ واسع على المعرفة الهندية واليونانية في مجال علم العقاقير، إلاّ أن الاتصال الأوثق كان بالكتابات اليونانية، وهذا ما توضّحه السمعة الواسعة التي نالها كتاب ديوسقوريدس المعروف بالحشائش أو الأدوية المفردة. وإذا ما كان العلماء المسلمون قد اعتمدوا في الترجمة على إبقاء الاسم اللاتيني وعدم تحريفه، فإنما يعني الاحترام الشديد لخصوصيّة الجهود التي بذلتها الأمم الأخرى في المجالات المعرفيّة، بل إن هذا ما يؤكد الاتجاه العلميّ الواسع، الذي جعل منهم من أوائل الأمم التي أقرّت إنشاء نظام مدارس خاصّة لعلوم العقاقير والصيدلة. وهذا ارتبط باكتشاف العديد من الأدوية التي صارت قيد التداول لدى جميع الأمم. والنظام الدقيق الذي استندت إليه كان يقوم على التصنيفات للعقار من خلال الإشارة إلى الأصل الحيوانيّ أو النباتيّ أو المعدني، مع الإشارات إلى طرق الاستخدام المباشر وأساليبه. وتتجلّى أهميّة العلم العربي الإسلاميّ في تقديم العديد من العقاقير الجديدة مثل: الكافور، والصندل، والسنامكي،

والراوند، والمسك، والمر، وجوز القيء، والتمر هندي، والحنظل، وجوز الطيب، والقرفة، وخانق الذئب، إضافةً إلى العديد من العقاقير السائلة التي كانت تقدّم على شكل شراب عن طريق الفم، والكحول والمستحلبات وعصارات الزهور، فيما اعتمد الأطباء المشاهير منهم إلى تخفيف مذاق الدواء عن طريق تغليفه بمواد أخرى(٥٣).

وإذا ما كان التأثير الهنديّ واليونانيّ، قد مثّل الأصل ونقطة الانطلاق في بروز علم العقاقير والصيدلة لدى علماء المسلمين، فإن هذا لم يمنع من ظهور اللمسات الخاصة والتحسينات التي تمّ وضعها على العقاقير التقليدية، حيث طوّروا استخدام الأفيون والزئبق، وحسّنوا أساليب استعمال الحشيش والأفيون كمواد مخدّرة في ميدان جراحة الأعضاء. وكان للتصنيفات والشروح أثرها الفاعل في الارتقاء بأداء الصيدليّ المسلم، حيث تمّ كتابة الأدوية وفقًا لمنافعها وتأثيراتها وخواصها، ولعلّ الأثر الأهم في ذلك يمكن الإشارة فيه إلى موسى بن ميمون (ت٦٠١هـ) صاحب كتاب (شرح أسماء العقار)(٥٤).

توجهت المؤسسة الحكومية الإسلامية إلى تقديم رعايتها المباشرة لهذا العلم، ولا سيّما من قبل خلفاء بني العباس، الذين أولوا المشتغلين في هذا المجال كل الدعم، وغدت الصيدليات تحت الإشراف المباشر للحكومة، بل تمّ تيسير كل ما تحتاج إليه من موادّ أوليّة، حيث صار إلى استيرادها من مواطنها الأصليّة من أفريقيا وآسيا. وكان الصيدليّ المسلم قد تفنّن في وسائل تقديم الدواء وأشكاله، حيث غدا على شكل أقراص، وحبوب، وسوائل، ومربيات، ومراهم، وعجينة، وتحاميل، ومستنشقات. وأفرد العلماء المسلمون العديد من المؤلفات في هذا المجال، كان من بينهم سابور بن سهل (ت ٢٥٦هـ) الذي صنّف كتابًا خاصًّا في الأدوية وفوائدها، إضافةً إلى المقالات التي وضعها الرازي، وأجزاء من كتاب (القانون) لابن سينا، وكتاب (الصيدلة) الذي وضعه البيروني (–٤٧٤هـ) وكتاب (الأقراباذين) لابن التلميذ. وكان للمنهج التجريبي حضوره الفاعل والأكيد في هذا الميدان، حيث راح أصحاب المعرفة والخبرة يُملون على تلاميذهم الملاحظات المباشرة حول أهمية العقاقير وموطنها ومنشئها والآثار الجانبية التي يمكن أن تحدثها، حتى عرفت هذه الكراريس المكتوبة، والتي كان يتمّ تداولها في مدارس تعليم الطب والصيدلة بـ «المجرّبات». ولعلّ من المفيد هنا الإشارة إلى أن العالم المسلم كان على إيمانٍ ويقينٍ راسخ بأنّه ما من علّة يمكن أن تؤثر في الإنسان، دون أن يكون لها البلسم الشافي الموجود في الطبيعة، لذلك اجتهدوا في البحث عن مصادر العلاجات، انطلاقًا من مفهوم وعقيدة رحمة الله واسعة، والإيمان المطلق به.

وبحكم الأهمية والمباشرة في الاتصال لم يكن ميدان الصيدلة يخرج عن دائرة تأثير الصراع السياسي القائم، حيث كان للمؤامرات ومحاولات الاغتيال السياسيّ عن طريق السمّ، أثرها في إقبال ذوي الجاه والسلطان على تقريب أصحاب الخبرة والكفاءة في معالجة السموم، بل إنّ العديد منهم ساهم بالدعم الماديّ والتشجيع على وضع المصنفات الخاصّة لأوصاف العقاقير التي توقف عمل السمّ داخل الجسم، المعروفة بالترياق. والواقع أنه كان في الأصل ابتكارًا يونانيًّا، حيث قام يوحنا بن بطريق بترجمة البحث الخاصّ عن الترياق الذي كتبه جالينوس(٥٥)، لكن العلماء المسلمين عملوا على تطويره والتفنّن في أساليب تقديمه، نتيجةً للإقبال الواسع من قبل أصحاب الجاه والسلطان، الذين كانوا يخشون من حالات دسّ السمّ إليهم خفيةً. ●

الحواشي

١ – تاريخ العلم: ٢١٩.

٢ – العلوم عند العرب: ١٨.

٣ – عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١٦٣.

٤ – الطب العربي: ٣٤.

٥ – مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية: ١٧٧.

٦ – عيون الأنباء: ١٧٥.

٧ – المصدر نفسه: ١٧١.

٨ – طبقات الأطباء والحكماء: ٥٩.

٩ – الفكر العربي ومركزه في التاريخ: ٩٨.

١٠ – الإسلام والعرب: ٢٦١.

١١ – دراسات في تاريخ العلوم عند العرب: ٤٤.

١٢ – تاريخ العلوم عند العرب: ٢٧٦.

١٣ – علوم الحياة، من كتاب عبقرية الحضارة العربية: ٢٨١.

١٤ – الفكر العربي: ٩٩.

١٥ – الفهرست: ٣٦٢.

١٦ – الطب العربي: ١٣٠.

١٧ – حضارة العرب: ٤٨٨.

١٨ – علوم المسلمين أساس التقدّم العلمي الحديث: ٣٢.

١٩ – مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية: ١٨٥.

٢٠ – علوم الحياة: ٢٨٨.

٢١ – فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية: ٢٤٠.

٢٢ – شمس العرب تسطع على الغرب: ٢٩٠.

٢٣ – صانعو التاريخ العربي: ٢٨٤.

٢٤ – دراسات في الشؤون الطبيّة العربية: ٦٢.

٢٥ – عبقرية الحضارة العربية: ٢٩٢.

٢٦ – مقدمة في تاريخ العلوم: ١٩١.

٢٧ – الإسلام والعرب: ٢٦٣.

٢٨ – تاريخ الحكماء: ٣٤٠.

٢٩ – مقدمة في تاريخ العلوم: ١٩٨.

٣٠ – الإسلام والعرب: ٢٦٤.

٣١ – تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدّمه: ١٧٦.

٣٢ – أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي، من كتاب عبقرية الحضارة العربية: ٢٩٧.

٣٣ – الطب العربي: ١٥٧.

٣٤ – عيون الأنباء: ٥١٩.

٣٥ – الإسلام والعرب: ٢٦٧.

٣٦ – مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي: ١٥٣.

٣٧ – العلوم عند العرب: ٢٤.

٣٨ – التصريف لمن عجز عن التأليف: ١٩١.

٣٩ – القانون في الطب: ٢٨٢.

٤٠ – الحاوي في الطب: ٢/١٩.

٤١ – القانون في الطب: ٣/١٣٧.

٤٢ – التصريف لمن عجز عن التأليف: ٣٧٧.

٤٣ – معالم القربة في أحكام الحسبة: ٦٢.

٤٤ – أحكام السوق: ٣١.

٤٥ – نهاية الرتبة في طلب الحسبة: ٨١.

٤٦ – معالم القربة في أحكام الحسبة: ٧١.

٤٧ – المصدر نفسه.

٤٨ – الطب العربي: ١٤١.

٤٩ – العلوم عند العرب: ٢٦.

٥٠ – الإسلام والعرب: ٢٦٩.

٥١ – علوم الحياة: ٢٥٦.

٥٢ – فجر العلم الحديث: ١/٢٤٣.

٥٣ – العلوم عند العرب: ٢٨.

٥٤ – تراث الإسلام: ٢/١٦٢.

٥٥ – علوم الحياة: ٢٦٧.

المصادر والمراجع

ابن الأخوة.

- معالم القربة في أحكام الحسبة، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت.

ابن أبي أصيبعة.

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

الأندلسي : يحيى بن عمر.

- أحكام السوق، الشركة التونسية، تونس، ١٩٧٥م.

أوليري : دي لاسي.

- الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة إسماعيل البيطار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢م.

ابن جلجل :

- طبقات الأطباء والحكماء، تح. فؤاد سيِّد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م.

حتّي : فيليب.

- صانعو التاريخ العربي، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩م.

حمارنة : سامي.

- أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي، من كتاب عبقرية الحضارة العربية، ترجمة عبد الكريم محفوظ، الدار الجماهيرية، مصراتة – ليبيا، ١٩٩٠م.
- علوم الحياة، من كتاب عبقرية الحضارة العربية، ترجمة عبد الكريم محفوظ، الدار الجماهيرية، مصراتة – ليبيا، ١٩٩٠م.

خير الله : أمين أسعد.

- الطب العربي، ترجمة مصطفى أبو عز الدين، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٤٦م.

دياب : مفتاح محمد.

- مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس، ١٩٩٢م.

الرازي.

- الحاوي في الطب، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، د. ت.

روزنتال : فرانتز.

- مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة أنيس فريحة، الدار العربية للكتاب، بيروت، ١٩٨٣م.

الزهراوي :

- التصريف لمن عجز عن التأليف، معهد ويكم، لندن، ١٩٧٣م.

كارلتون : جورج.

- تاريخ العلم، ترجمة كمال اليازجي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩١م.

ابن سينا.

- القانون في الطب، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت.

شاخت وبوزورث.

- تراث الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨م.

الشيزري.

- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤م.

طوقان : قدري حافظ.

- العلوم عند العرب، دار اقرأ، د.ت.

عرب : مرسي.

- دراسات في الشؤون الطبية العربية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٧م.

فراج : عز الدين.

- فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م.

فروخ : عمر.

- تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠م.

القفطي : جمال الدين.

- تاريخ الحكماء، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

لاندو : روم.

- الإسلام والعرب، ترجمة منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.

لوبوت : غوستاف.

- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤م.

مارتن : م. أ.

- أبو علي الحسين بن سينا، من كتاب عبقرية الحضارة العربية، ترجمة عبد الكريم محفوظ، الدار الجماهيرية، مصراتة - ليبيا، ١٩٩٠م.

مظهر : جلال.

- علوم المسلمين أساس التقدّم العلمي الحديث، الهيئة المصرية العامة للتأليف، القاهرة، ١٩٧٠م.

منتصر : عبد الحليم.

- تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدّمه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.

نجيب : حكمت.

- دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، منشورات جامعة الموصل، الموصل، ١٩٧٦م.

النديم :

- الفهرست، دار المعرفة للطباعة، بيروت، د.ت.

هاف : توبي.

- فجر العلم الحديث، ترجمة أحمد محمود صبحي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٧م.

هونكة : زيغريد.

- شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون ورفيقه، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦٩م.



من عجائب أسرار الملاحة العربية في المحيط الهندي

الأستاذ حسن صالح شهاب
عدن – اليمن

معرفة البر القريب من السفينة من رائحة قاع البحر المجاور له:
قال ابن ماجد في أرجوزة "الحاوية":

الطينُ والحيّاتُ والأطيارُ — والحوتُ والحشيشُ خذ أخباري
لا تعتبر إلا بما جرَّبتُهُ — أو يكنِ الواصف قد حقّقتُهُ

كان لون طين قاع البحر ورائحته من العلامات التي تعرَّف منها البحارة البرّ القريب من السفينة. لكن ابن ماجد ينصح الربان بأن لا يعدّ من هذه العلامات إلا ما جرّب هو صحته، أو كان ممن وصفها له من الثقات. وممن اشتهر منهم بمعرفة البرور من رائحة طين بحارها المعلم الشيخ محمد بن عزْوَة، وتروى عنه في ذلك حكايات عجيبة جدًّا. لقد كان واحدًا ممن أحبوا البحر، وقضوا جلّ حياتهم فوق متنه، وحتى بعد أن فقد نعمة البصر عزّ عليه فراق البحر، فبقي حتى أرذل العمر يقود المراكب بنور بصيرته، وخبرته الطويلة في الملاحة. فكان يجلس، غالبًا، بجوار مدير الدفّة، ويعطي تعليماته للبحارة في طريقة تصريف المركب في الأحوال الجوية والبحرية المختلفة، كما كان يفعل تمامًا قبل أن يفقد بصره.

أخبرني بعض من عمل معه من البحارة أنهم أرادوا، ذات مرة، أن يختبروا قدرته على معرفة المكان من رائحة قاع البحر المجاور له، فأخذوا شيئًا من طين مرسى "الحامي"، المجاور لمرسى "الشحر" من الشرق. وكان المركب يزمع السفر إلى "البصرة"؛ لجلب شحنة من التمر. وبعد سفر أحد عشر يومًا، وصل المركب إلى مضيق "مسندم"، قريبًا من جزر "سلامة وبناتها"، وهناك أمرهم ابن عروة أن يرموا "البُلْد"، وهو مسبار الأعماق؛ ليعرف مما يحمله من رائحة طين قاع البحر، المكان الذي وصل إليه المركب. وقبل أن يرموا "البُلْد" إلى البحر، طلوه بعجينة من الطين الذي جلبوه من "الحامي"، ثم قذفوا به إلى البحر، ولما رفعوه من قاع البحر ناولوه ابن عروة، فعركه براحة كفّه، وراح يتشمم كفّه، وعلامة الاستغراب بادية على وجهه؛ وكان من أرادوا اختباره من البحارة واقفين أمامه، ينتظرون نتيجة الاختبار. فسألهم ابن عروة عن عدد الأيام التي قطعها المركب بعد إقلاعه من "الحامي"، فلما أجابوه بأنها أحد عشر يومًا، صاح قائلاً: بعد سفر أحد عشر يومًا والمركب لا يزال في مياه "الحامي"؟ فضحكوا، وأخبروه بما صنعوه، وأن رائحة المرجاس؛ أي "البُلْد" كانت حقًّا من رائحة طين بحر "الحامي"، ثم

قذفوا بالمرجاس إلى البحر، مرة ثانية، بعد أن أزالوا ما علق به من طين "الحامي"، ولما رفعوه وفركه، ابتسم قائلاً وهو يشم راحة يده: الآن حقًا نحن في "مسندم"، فهذه رائحته.

بعد هذه الحكاية التي تكاد تكون من حكايات المعجزات، نسأل علماء البيئة البحرية: كيف كانت البحارة تعرف المكان من رائحة طين البحر عنده؟ ونسأل علماء الجنس البشري: هل كانت حاسّة الشم عند الإنسان حادة، حيث إنه كان يستطيع أن يتعرف الأماكن من روائحها، وأن المدينة أضعفت هذه الحاسة عنده؟ .

عاش ابن عروة قبل منتصف القرن العشرين، وهو من "الشحر"، وقد أهديت إليه كتابي "فن الملاحة عند العرب"، تكريمًا لذكراه.

الحيّات:

يقصد ابن ماجد بالحيّات ثعابين البحر، وهي ثعابين سود قصار، رؤوسها كبيرة، وكانت من العلامات المعروفة عند بحارة المحيط الهندي منذ العصور القديمة؛ فقد كانت المراكب القادمة من البحر الأحمر والخليج تستدل برؤيتها على اقترابها من ساحل الهند الغربي. وكان للاستدلال بها حدود، ذكرها ابن ماجد في "الحاوية":

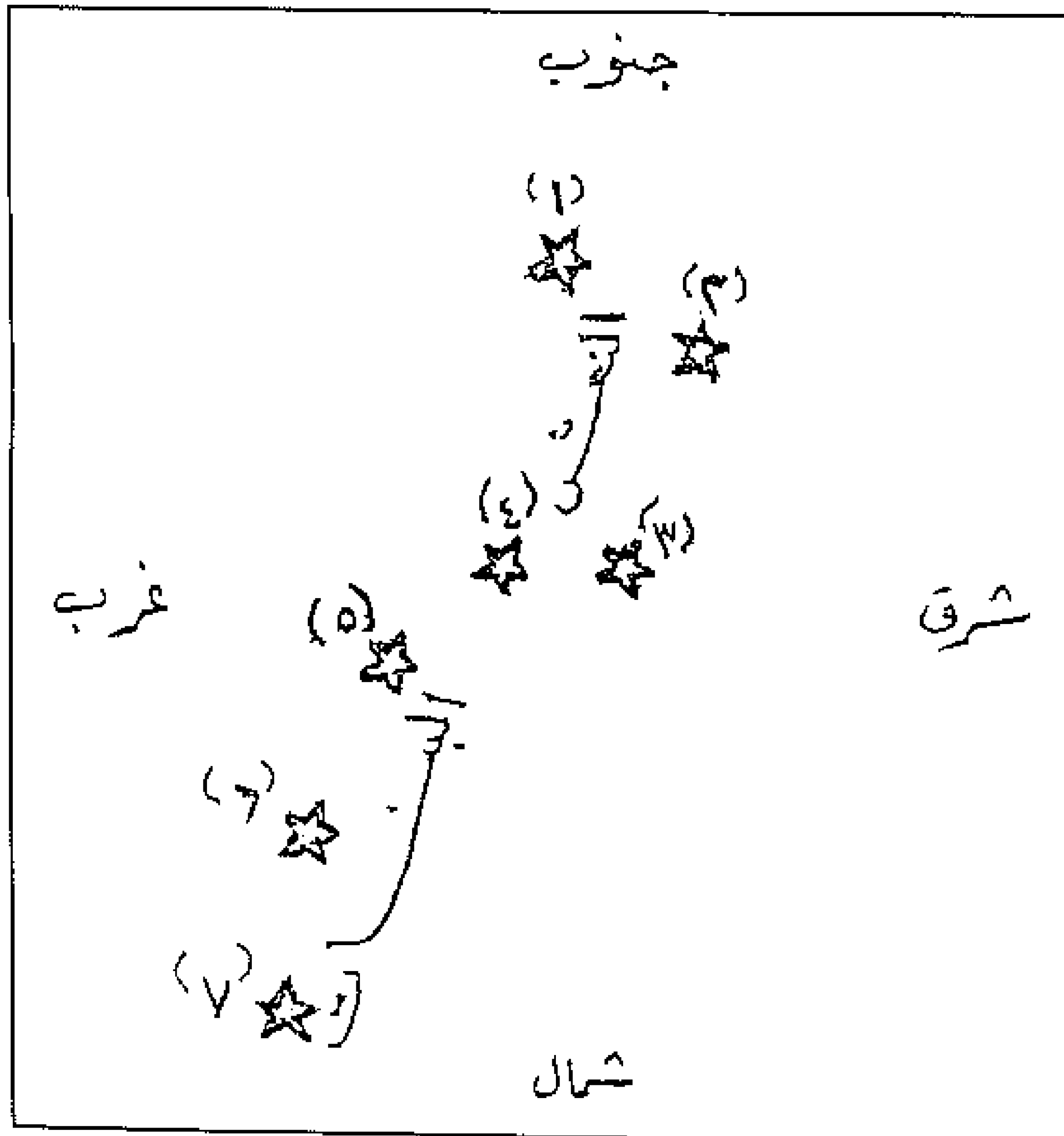
والقدماءُ الفضلاءُ الثقات

توافقوا في صحّةِ الحيّات

من جاه أحد عشرة لخمسِ

خصوص برّ الهند فدتك نفسي

يقول إن علماء البحر المتقدمين اتفقوا على أن الاستدلال بثعابين البحر لا يصح إلا من عرض إحدى عشرة إصبعًا إلى خمس أصابع جاهية، ولا سيما في برّ الهند الغربي. ويمتد هذا العرض من رأس (زُجَد) بالساحل الغربي من شبه جزيرة "كنباية" أو "كمبايا" بالجزء الشمالي من ساحل الهند الغربي إلى ميناء "منجرور" بالجزء الجنوبي من هذا الساحل، ويعرف بـ"المليبار"، أو "المنيبار" [تنظر الخريطة]. وهو العرض النجمي المستعمل عند المتقدمين من البحارة، ويحسب بارتفاع نجم القطب الشمالي المعروف عند البحارة بـ"الجاه". فارتفاعه عند رأس "زجد" وما يقابله شرقًا وغربًا، وقت وقوف منزلة "الصّرْفة" في وسط السماء، قُدّر بإحدى عشرة إصبعًا، وعند ميناء "منجرور" وما وازاه شرقًا وغربًا خمس أصابع، وتقدر الإصبع بدرجة وخمسة أسباع درجة. وفي البحار الجنوبية التي لا يرى فيها نجم القطب الشمالي يقيسون نجمي "الفرقدين"؛ أي يقيسون ارتفاعهما عن خط الأفق، ويحسب مقدار ارتفاعهما من الأصابع، عند أي مكان، عرضًا له. وفي أقصى الجنوب كجزيرة "جاوة" و"جنوب إفريقية"، حيث لا يظهر "الفرقدان"، وهما من كوكبة "الدب الأصغر" المعروفة عند العرب بـ "بنات نعش الصغرى"، يقاس بدلهما الخامس والسادس من كوكبة "بنات نعش الكبرى"، أو "الدب الأكبر"، ويعرفان بـ "الجون" و"العناق". ويشترط عند قياس نجوم العرض هذه أن تكون منزلة "الصرفة" مسامتة لرأس القائس.



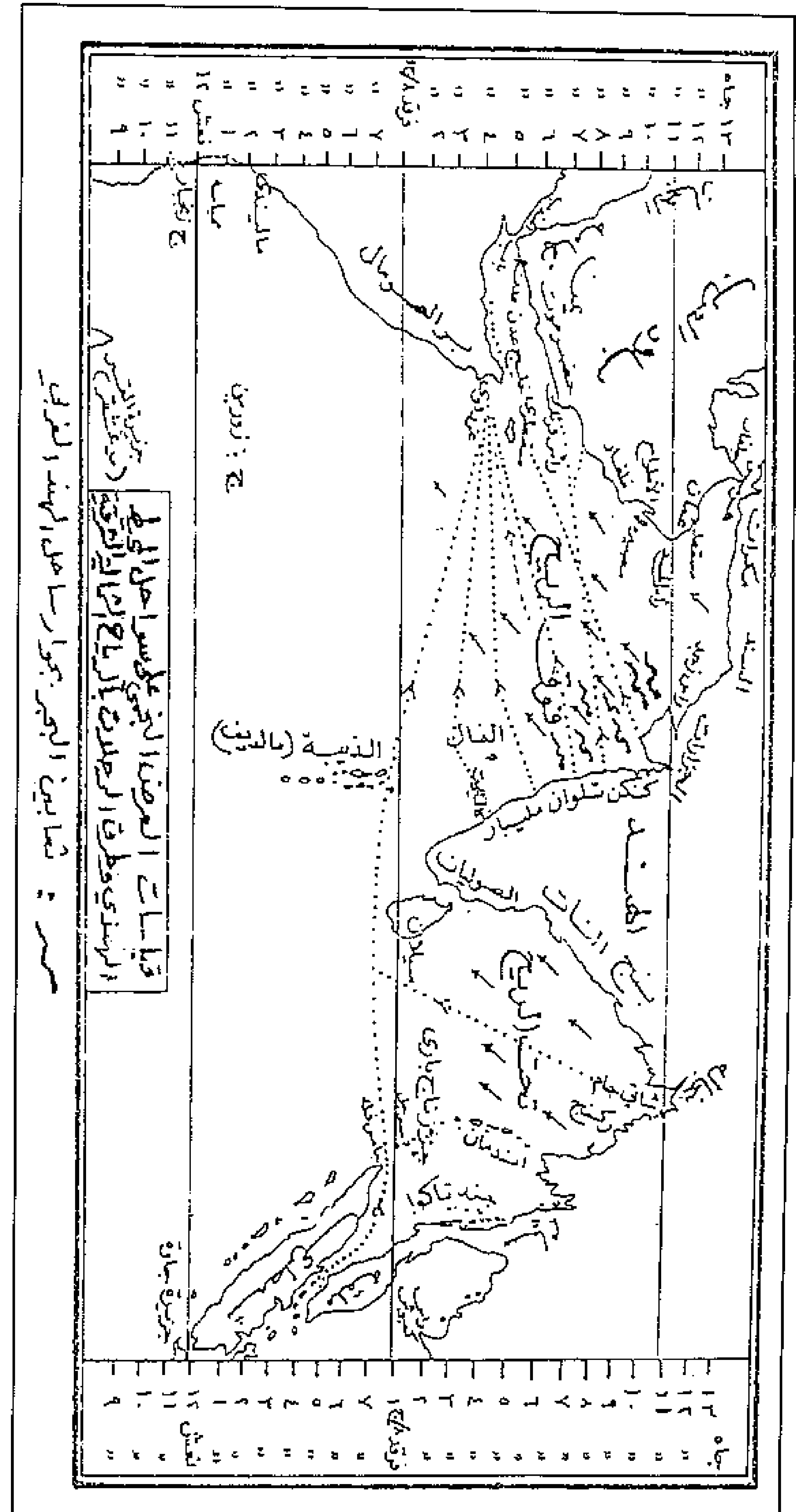
(١) مقدم النعش (٢) الثاني (٣) ،(٤) الأعرجان (٥) الجون (٦) العناق (٧) القائد

(٥) و(٦) نجما قياس العرض

الجهات في الشكل بالنسبة لصفحة السماء

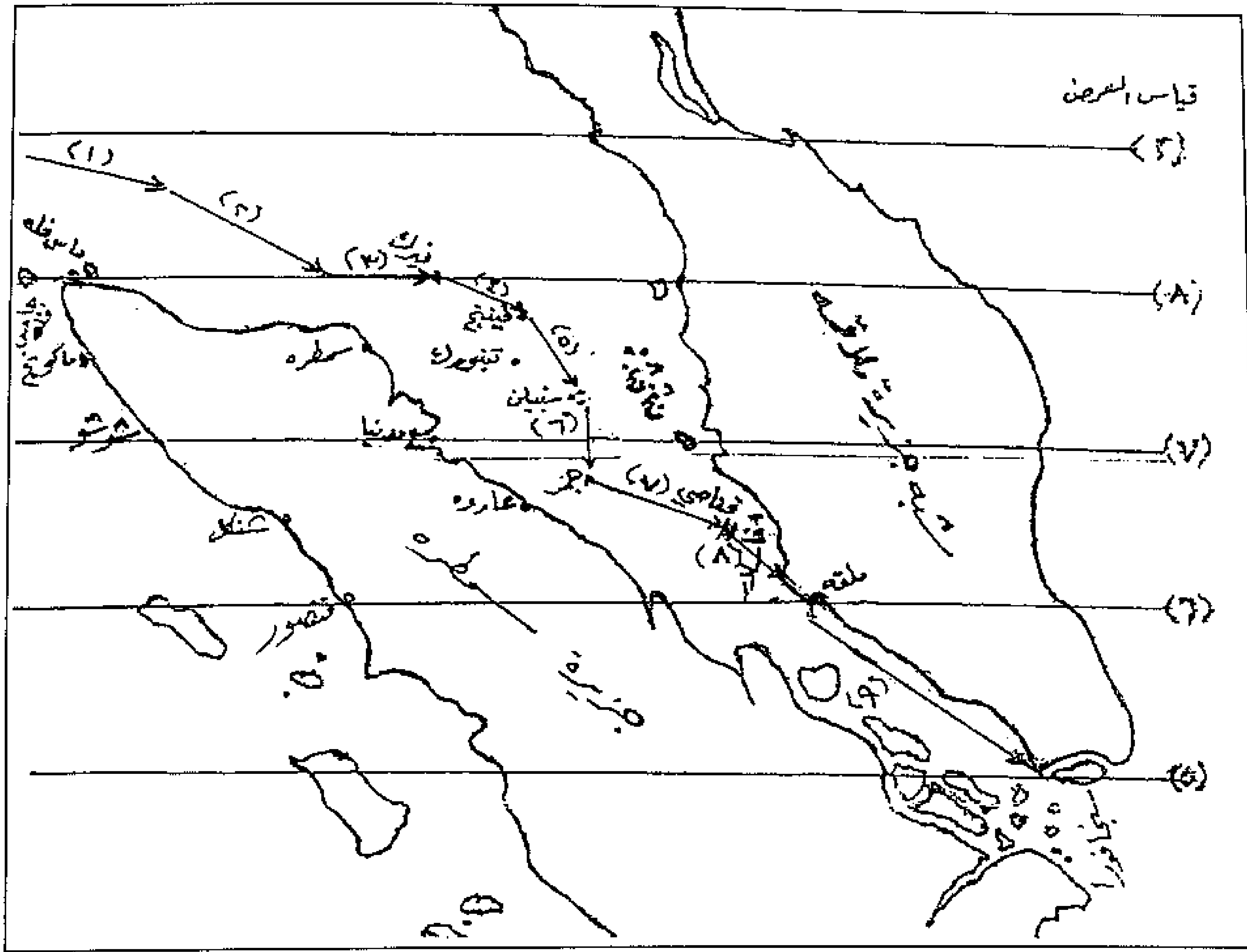
فما ظهر من ثعابين البحر شمالي عرض رأس شبه جزيرة "كنباية" الغربي، المعروف باسم "زجد"، لا يصح الاستدلال به على قرب بر الهند، وكذلك ما ظهر منها جنوبي عرض خمس أصابع جاهيّة، وهو كما ذكرنا عرض "منجرور" [انظر الخريطة]. وتعرف هذه الثعابين عند البحارة، أيضًا، بـ "الموارز" مفردها "مارزة". ولا يجوز الاستدلال بالمارزة الميتة على قرب برِّ الهند الغربي، فيما بين عرض إحدى عشرة إصبعًا وعرض خمس أصابع جاهيّة. قال ابن ماجد في "الحاوية":

وإن ترى في البحر يومًا مارزة
ميتة فليس هِيْ بالجائزة



ويضع سليمان بن أحمد المهري، قرين ابن ماجد في علم الملاحة، حدودًا بالأزوام لصحة الاستدلال بالمارزة، فيجعل ما يظهر منها على مسيرة ثمانية أزوام: أي أربع وعشرين ساعة، من ساحل "جوزرات" بالطرف الشمالي من ساحل الهند الغربي، وعلى مياه عمقها مائة وعشرون باعًا يجعلها مارزة بحرية لا يصح الاستدلال بها على قرب بر الهند. أما المارزة الصادقة التي يصح الاستدلال بها، فهي التي تظهر على مسيرة أربعة أزوامٍ، أي اثنتي عشرة ساعة، من برّ "جوزرات"، وعلى مياه عمقها ستون باعًا. أما ساحل "الكنكن" و"تلوان" جنوبي "جوزرات"، وشمالي "مليبار". فيقول: إن المارزة البحرية تظهر على مسيرة ستة عشر زامًا من الساحل، أي مسيرة يومين، بينما تظهر المارزة البريّة على مسيرة ثمانية أزوام، أي ٢٤ ساعة. ويقول: إن المارزة البحرية لا تراها إلا مرة واحدة في اليوم، والبريّة تراها مرتين وثلاث وأكثر في اليوم الواحد(١).

والبحارة تنسب ما كان قريبًا من البر إلى البر، وما كان بعيدًا عنه تنسبه إلى البحر، فيقال للشيء إنه بري إذا كان قريبًا من البر، وبحري إذا كان في البحر بعيدًا عن البر. فالمارزة البحرية لا يصح الاستدلال بها على قرب ساحل الهند الغربي، فيما بين عرض إحدى عشرة إصبعًا وعرض خمس أصابع. كذلك لا صحة للمارزة التي تظهر شمالي عرض إحدى عشرة إصبعًا، أو جنوبي عرض خمس أصابع، فهي تظهر في بعض السنين دون بعض، وتظهر أحيانًا قريبة من البر، وأحيانًا بعيدة عنه. ويقول المهري: إن ظهورها لم يعد له ضابط، كما في قديم الزمان. "فنراها في بعض الأحيان وبينها وبين البر مقدار ثلاثين زامًا، وخمسة وعشرين زامًا، وأقل وأكثر، ونراها أحيانًا على العادة القديمة. المقصود أنها في هذا الزمان لم تكن على قاعدة واحدة، كما كنا نراها في الزمان القديم"(٢).



طريق المهري من جزيرة "سَرْجَل" إلى ملَقَه"

(١) في "مطلع التير" أربعة أزوام؛ أي اثنتي عشرة ساعة.

(٢) في "مطلع الإكليل" إلى عرض ثماني أصابع بقياس "الفرقدين".

(٣) في "المطلع الأصلي" إلى جزيرة "فيرك".

(٤) في "مطلع التير" أو "المطلع الأصلي" من "فيرك" إلى "فيننج".

(٥) في "مطلع سهيل" من "فيننج" إلى جزر "سنبيلن" الملقية.

(٦) من "سنبيلن" إلى جزيرة "جمر" في "القطب الجنوبي".

(٧) من "جمر" إلى رتقة "قفاصي" في "مطلع التير".

(٨) بعد خروجك من رتقة "قفاصي" ساير ساحل "ملقه" في "مطلع العقرب" إلى ميناء "ملقة".

(٩) من "ملقه" إلى "سنغافورة" في "مطلع العقرب".

قياس العرض: إصبعان بقياس نجم "الجاه" ومن ثماني إلى خمس أصابع بقياس "الفرقدين".

الأعماق:

كانت البحارة العرب وغيرهم من بحارة المحيط الهندي تعرف أعماق المياه التي تسلكها من أطراف المحيط الشرقية إلى أطرافه الغربية. فمعرفة هذه الأعماق من أهم شروط الملاحة، فهي من العلامات التي يهتدي بها الملاح إلى طريقه. ففي مضيق "ملقة"، مثلاً، نجد سليمان المهري يحدّد الطريق إلى ميناء "ملقة" بالأعماق، وبخاصة بجوار شعب صخري تسميه البحارة شعب "قفاصي"، حوله مياه رقيقة؛ أي قريبة الغور. حيث قال في "المنهاج": "واعلم أن في "مطلع العقرب" عن جزيرة "جُمَر" فَشْتًا يتكسّر عليه الموج، وأنت على حالك في "التيّر"، فينقص معك البُلْد إلى أن يبلغ ثمانية عشر باعًا، وما قاربها، وأنت على حالك في "التيِّر"، فإذا قد "جُمر" على وجه الماء بان لك جبل "فلوباسلار" في الصدر سوا، وأنت على حالك في "التير"، و البُلْد ستة عشر، وسبعة عشر باعًا، فإذا نقص عن خمسة عشر مِلْ على اليمين، وإن زاد على ثمانية عشر مِلْ على اليسار". "فإذا قربت من "فلوباسلار"، يَرِقّ البُلْد إلى ثمانية أبواع، وسبعة، وستة، وقد يكون تسعة أبواع، وزائد وناقص. المقصود هذا الموضع، هو رتقة "قفاصي"، وأرقّ ما فيه هذا الموضع، إذا كنت في هذا الطريق"[٣].

"مطلع العقرب":

خط في بيت الإبرة "البوصلة" أو "الدِّيرة"، يشير إلى الجهة الجنوبية الشرقية، على خمس وأربعين درجة بين مركز القطب الجنوبي والمشرق الأصلي.

" فَشْت":

قطعة أو جزيرة صغيرة يكون سطحها في مستوى سطح الماء، يتكسّر عليه الموج .

قوله: "وأنت على حالك في "التيِّر": أي وأنت ملازم لمجراك في "مطلع التير"، بجوار شعب "قفاصي". و"مطلع التير" على ٢٢ درجة ونصف جنوبي مركز المشرق الأصلي.

"البُلْد":

لغة المرجاس: وهو غالبًا حجر مثقوب يشد به حبل طويل، يقاس به عمق الماء. وغلب استعماله عند البحارة على عمق الماء، في مثل قول المهري: "فينقص معك البُلْد إلى أن يبلغ ثمانية عشر باعًا ."

"وجه الماء":

مستوى سطح البحر عند الأفق.

" بَان لك جبل "فلوباسلار" في الصدر سوا": أي يظهر لك الجبل أمام صدر المركب؛ أي مقدمته تمامًا. و"فلو": جزيرة بلغة سكان شرقي المحيط الهندي القديمة.

" مِلْ على اليمين": انحرف إلى اليمين.

" يَرِقّ البُلْد": نقص عمق الماء فيصير رقيقًا.

" رتقة": شعب صخري.

فالمهري، كما نرى، قد استرشد بعمق الماء في طريقه في مضيق "ملقا"، بين جزيرة "جُمَر" وميناء "ملقة".

الطيور، والحيتان، والنباتات:

كانت البحارة تستدل على قربها من ساحل جزيرة العرب الجنوبي، والساحل الصومالي، من رأس "غردفوي" جنوبًا. فالمراكب القادمة من الهند كانت علامة قربها من الساحل العربي، من جزيرة "مصيرة" شرقًا إلى "الشحر" غربًا من الطيور البحرية : "الكِرِيك" و"الضفيك"، ومن الحيتان: "اللزاق" الكبير منه خاصة، و"الطباقة". ومن النباتات البحرية: "القِلحْف" و"القُرْمط".

أما برّ الصومال فعلامته من الطيور: "المِنْجِي" و"الكِرِيك" و"الكسلان" و"الداغات" إذا كانت كثيرة. ومن الحيتان "اللزاق" الكبير، و"الطباقة" و"القرش"، و"العُجام". ومن النباتات: "القرمط" و"القلحف"(٤).

السرطان والعاصفة:

اكتشف العلماء حديثًا علاقة ظهور السرطان على سطح الماء بقرب هبوب العاصفة. لكن البحارة سبقوا علماء عصرنا في اكتشاف هذه الظاهرة بزمن طويل. قال ابن ماجد: "وأما الطوفان الخطر، فله ثلاثة منادل، كطوفان أربعين النيروز: تقطّع الغيم كجلود البقر والبرق، والسرطان بالماء، وشدة حرارة الماء"(٥).

فالطوفان عند البحارة هو العاصفة الشديدة الممطرة. والمنادل، مفردها مندل، هي العلامات التي يستدل بها على قرب هبوب العاصفة وغيرها. وأول هذه المنادل تقطع الغيوم الركامية كتقطع جلود البقر باللونين الأبيض والأسود، ولمع البرق خلالها. والمندل الثاني: هو ظهور السرطان على سطح البحر. والثالث: شدة حرارة الماء. فهل اكتشف العلماء علاقة حرارة الماء بالعاصفة؟

قوله: "كطوفان أربعين النيروز": يعني أربعين من السنة النيروزية. وهي كما قال ابن ماجد سنة النيروز العربي الهندي، وتبدأ في الثالث عشر من

شهر تشرين الثاني "نوفمبر". وأربعين من النيروز توافق بداية الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر[٦]. ويقول سليمان المهري: "إن طوفان الأربعين يضرب مضيق "مسندم". ومن علامات قرب الطوفان "كثرة الغبار في الجو والبحر".

ويذكر المهري من الطوفانات، غير طوفان أربعين النيروز، طوفان "الأحَيْمِر" ويضرب الساحل العربي الجنوبي من "مدركة" بساحل عُمان إلى "الشحر"، وقد يمتد في بعض السنين إلى "عدن". يضرب في ٣٤٠ من النيروز (١٨ أكتوبر). وقد يتأخر في بعض السنين أو يتقدم. يأتي من الناحية الجنوبية الشرقية.

وطوفان البنات وهو المعروف بريح الشتاء، يأتي من ناحية مغيب نجوم "بنات نعش الكبرى" ٢٢ درجة ونصف غربي القطب الشمالي، ويضرب ساحل جزيرة العرب الجنوبي من "مصيرة" شرقًا إلى "عدن" غربًا. وقد يعم الساحل كله في بعض السنين. ويضرب من أربعين إلى سبعين من النيروز (٢٢ ديسمبر إلى ٢١ يناير).

وطوفان التسعين: يضرب أرض الهند، وعرض المحيط الهندي، وهو أقوى الطوفانات؛ لأنه يعم جميع أرجاء المحيط الهندي وما حوله من اليابسة. يضرب في التسعين من النيروز (١٠ فبراير) وقد يتقدم في بعض السنين فيضرب في السبعين والثمانين من النيروز (٢١ يناير أو ٣١ منه).

وطوفان الدّاماني: يضرب بر الهند في الخريف، ويشتد بجوار ساحل الهند الغربي، ويسمى مطره بمطر "الفيل" يضرب في ٣٠٠ من النيروز (٨ سبتمبر)[٧].

معالم البر:

يفخر ابن ماجد بأنه أول من اكتشف جبل "جلّنار" كعلامة للوصول إلى ساحل "جوزرات" من الهند [انظر الخريطة]، وجزيرة "هشت لار" كعلامة لبر "مكران" من ساحل إيران الجنوبي. حيث قال في "الحاوية":

فكل ما جرّبت يا رُبّانا
اعمل به في كل ما تعتانا
لا تأخذ الصفات من كتابي
إلا صفات الصدق والصّواب
كجوزرات في جبل جلّنار
أو برّ مركان بهشت لار

وقال في "الفوائد": بسبب أنه ليس في "جوزرات" جبل مثل "جلنار" ولا في "مكران" جزيرة مثل "هشت لار"[٨].

والعلامات التي يستدل بها على الوصول إلى أي ساحل تسمّى مناتخ أو منادخ، من نتخ المكان أو ندخه؛ أي كشفه ومسكه. فعلامة نتختك لبرّ "جوزرات" هي رؤيتك لجبل "جلنار". ونتختك لبرّ "مكران" هي جزيرة "هشت لار".

ثم يجعل ابن ماجد من اختلاف شكل "جلنار"، علامات للأماكن التي وصل إليها المركب من برّ "جوزرات". حيث قال: "وأما مناتخ "جوزرات" فقد جمعناها في إشارة واحدة، هي في جبل "جلنار": إذا كان قبة رأسه قطعة واحدة، وهي عنك في "مطلع العَيُّوق"، فأنت بـ "شوروواز" بلد التنبول للمطلع. وإن انقسم رأسه قطعتين، وكانت الشرقية أكبر، فأنت بـ "شوروواز" للمغارب. وهذا من اختراعاتنا"[٩].

يقول: إنه جعل جميع مناتخ "جوزرات" في إشارة؛ أي علامة، واحدة، هي في جبل "جلنار". فإذا رأيت رأسه قمة واحدة، وهي عنك بناحية "مطلع العيوق"، فاعلم أنك أمام "شوروواز"، بلد التنبول، من ناحية المشرق. وإن رأيت رأسه قد صار قمتين، وكانت

الشـرقـيـة أكبر، فـأنت أمـام "شـوروواز" مـن نـاحـيـة المغرب. وهذه العلامة من استنباطاتنا. و"التنبول": ورق معروف يمضغ في الهند وشرقي آسيا. و"مطلع العيوق" على بعد ٤٥ درجة شرقًا.

ويجعل إشارة الوصول إلى ميناء "كاكارديوه" بساحل "المليبار" في أعلى قمة بسلسلة الجبال خلفه، هي قمة "بالافتن"، عندما تصير بناحية "مطلع العيوق" عن المركب. قال: "وأما الجبال العوالي فهن متّصلات، وأشهرهن في هذه الأماكن قبة "بالافتن". فإذا كنت ناتخًا "من البحر، وهي عنك في "مطلع العيوق"، فاعلم أن "كاكاديوه" تحتها، وجنوبيها جبال عوال"(١٠). ●

●●●

الحواشي

(١) المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر (مخطوط).
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) المرجع السابق نفسه: فصل في السفر من ديو إلى ملاقة.
(٤) المرجع السابق نفسه، الباب السادس، فصل في معرفة قرب بر العرب وبر الصومال.
(٥) الفوائد في أصول علم البحر والقواعد (مخطوط).
(٦) منظومة "حاوية الاختصار في أصول علم البحار" (مخطوط).
(٧) المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر، الباب الخامس.
(٨) الفوائد، الفائدة الثامنة (مخطوط).
(٩) المرجع السابق نفسه.
(١٠) المرجع السابق نفسه .

المصادر والمراجع

ابن ماجد: أحمد.
- الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، مخطوط، المكتبة الوطنية، باريس.
- منظومة حاوية الاختصار في أصول علم البحار، مخطوط، المكتبة الوطنية، باريس.

المهري: سليمان بن أحمد.
- المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر، مخطوط، المكتبة الوطنية، باريس.



كتاب المجالس
للخطيب الإسكافي
المتوفى سنة ٤٢٠ هـ

الأستاذ الدكتور/ حاتم صالح الضامن
العـراق

مقدمـة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلقه النبيَ العربيَ الأمين.

وبعد، فهذا كتابٌ نفيس، لم يشر إليه أحدٌ من الدّارسين، وهو كتاب (المجالس)، والكتاب أمالي أبي عبدالله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، التي بدأها يوم الثلاثاء، الأول من المحرّم، سنة سبع وثمانين وثلاث مئة، كما جاء في مقدمة المجلس الأول.

والمؤلف أحد أصحاب الصاحب بن عبّاد، المتوفّى سنة ٣٨٥هـ، وهو من أهل أصبهان، كان خطيبًا بالرَّيّ، أديبًا لغويًّا، له مؤلفاتٌ حسنة، توفي سنة ٤٢٠هـ[1]. قال ابن عبّاد: «فاز بالعلم من أهل أصبهان ثلاثة: حائكٌ، وحلاّج، وإسكافٌ. فالحائك: أبو علي المرزوقي، والحلاّج: أبو منصور ابن ماشدة، والإسكاف: أبو عبدالله الخطيب».

هذا ما جادت به المصادر عن الخطيب، وكلّها ردّدت ما قاله ياقوت.

مؤلفاتـه

١ - المطبوعة :

- خلق الإنسان.
- دُرّة التنزيل وغرّة التأويل.
- لطف التدبير.
- مبادىء اللغة.

٢ - المخطوطة :

- غلط كتاب العين.
- المجالس : وهو هذا الكتاب.

٣ - الكتب التي لم نقف عليها:

- شواهد كتاب سيبويه.
- الغُرَّة (تتضمن شيئًا من غلط أهل الأدب).
- نقد الشعر.

٤ - الكتب التي نُسبت إليه غلطًا:

- شرح الحماسة الطائيّة: نسبه إليه حاجي خليفة في كشف الظنون، والبغدادي في هدية العارفين. وهو وهمٌ منهما، فالشارح هو الخطيب التبريزي.

كتـاب المجالس

يقع الكتاب في خمسةٍ وثلاثين مجلسًا، وزّعها المؤلف على ثمانية أجزاء، واتّبع في هذه المجالس منهجًا واضحًا، فهو يبدأ كلّ مجلسٍ بـ:

مسألة في القرآن، مسألة في خبر الرسول عليه السلام، مسألة نحويّة، بيت معنى، مَثَل.

وبعد المجلس الثلاثين أضاف نقطة سادسة هي: من ضَوالِّ الحِكَم.

أمّا الآيات التي خاض في شرحها في أوّل كلّ

مجلس، وهي التي اعترض عليها الملحدون، فهي:

الفاتحة : ٦.

البقرة : ١، ٢١٢، ٢١٤، ٢٢٥، ٢٦٠، ٢٨٤.

آل عمران : ٧، ١١٠، ١٢٨، ١٥٩، ٢٠٠.

النساء : ٣٢، ٧٨ – ٧٩، ٨٣، ١٦٦.

المائدة : ٣، ٦، ٦٩.

الأنعام : ٣٣، ٧٦، ٩٨، ١٢٩، ١٦٢ – ١٦٣.

الأعراف : ٦، ١١، ٣٧، ٤٦، ٨٨، ١٤٦، ٢٠١.

الأنفال : ٢٤.

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنّه بحث الحروف المقطّعة في أوائل السور في المجلسين الثّاني والثّالث.

وأمّا الأحاديث التي سأل أهل الزّيْغ فقد كانت سبعةً وثلاثين حديثًا، ردَّ عليهم اعتراضاتهم.

والمسائل النحوية خمسٌ وثلاثون مسألة، منها تسع عشرة مسألة خلافيّة.

وبلغت أبيات المعاني التي شرحها سبعةً وثلاثين بيتًا من الشّعر، وأربعة عشر شطرًا من الرّجز.

وبلغت الأمثال نحو خمسين مَثَلاً، منها اثنان وعشرون أَخَلَّتْ بها كتب الأمثال المطبوعة.

أمّا ضَوالّ الحِكَم التي ألحقها بالمجالس الخمسة الأخيرة، كما سلف، فقد بلغت نحو عشر حِكَم.

ولم يشر المؤلف إلى المصادر التي اعتمد عليها، ولكنه نقل أقوال كثير من العلماء كابن مسعود، وابن عبّاس، وقتادة، والضحّاك، ومحمد بن الحسن الشيبانيّ، والطبري.. وغيرهم..

وذكر كثيرًا من أقوال النّحاة في المسائل النحوية، منهم:

عيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، والخليل، وسيبويه، ويونس بن حبيب، والكسائي، والفرّاء، وأبو عبيدة، والأخفش، والأصمعيّ، وأبو عمر الجرمي، وابن الأعرابيّ، وابن السكّيت، والمازني، وابن قتيبة، والمبرد، وابن كيسان، والزّجاج، وابن الأنباريّ، والسيرافي.

ومخطوطة الكتاب نسخة فريدة تحتفظ بها مكتبة كوبريلي بتركيا، وتقع في ١٢٤ ورقة، في كلّ صفحة ١٧ – ٢٠ سطرًا، كُتبت بخط واضحٍ جميل مضبوط بالشّكل.

وقد أتحفنا بهذه المخطوطة تلميذنا النجيب الدكتور ضاري إبراهيم العاصي، فجزاه الله كلّ خير.

وأُقدّم اليوم المجلس الأول من هذا الكتاب؛ ليقف عليه الباحثون.

والحمدُ لله الذي هدانا لهذا، وما كنّا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

/ ١ ب / بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الأوّل

من أمالي الشيخ أبي عبدالله محمد بن عبدالله الخطيب، أطال الله بقاءَه، يوم الثلاثاء الأوّل من المحرّم سنة سبعٍ وثمانين وثلاث مئة.

أحمدُ اللهَ الذي علَّمَكَ بالقلم، وأورثكَ بهِ علومَ مَنْ قبلَكَ مِن الأُمم.

ولا تـكْـتُـبْ بـخَـطِّـكَ غَـيْـرَ شـيءٍ
يَـسُـرُّكَ في الـعَـواقِـبِ أنْ تـراهُ

مسألة من المعشرات في آي القرآن

وهي التي لكلٍّ واحدٍ منها عشرةُ أَجوبةٍ من الآيات التي يعترضُ بها المُلْحِدون.

قالوا في قولهِ تعالى في فاتحة الكتاب: ﴿**اهْدِنَا الصِّراطَ المستقيمَ**﴾[٢]: إذا أمَرَ اللهُ تعالى المسلمينَ أنْ يدعوا بذلك، وقد هَدَاهم، فما وَجْهُهُ؟ وهل يصح لِمَنْ كان بمكّةَ أنْ يطلبَ مِنَ اللهِ الهدايةَ إلى مكّة؟

والجوابُ عن ذلك من عشرة أَوْجُهٍ:

أَوّلُها : أنْ يكونَ «الصراط المستقيم»: الطريقَ إلى الجنَّةِ في الآخرة، والهداية إليها هي التي ذكرها اللهُ تعالى في قوله: ﴿**والذينَ قُتِلوا في سبيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أعمالَهم. سَيَهْدِيهِمْ ويُصْلِحُ بالَهُمْ**﴾[٣].

كتاب المجالس للخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ

فهذه الهدايةُ بعدَ الموتِ في الآخرةِ الدّالةُ على الطّريق.

والجواب الثاني : أنْ يكونَ «الصّراط المستقيم»: الطريقَ إلى الجنّةِ في الدنيا، وهو السّببُ المؤدّي إليها من الأعمالِ المرضيّةِ والأفعالِ الحسَنَةِ، والهدايةُ إلى ذلك أحد الوجوه التي نذكرها إذا كانَ المُرادُ بالصّراطِ /٢ أ/ الإسلام.

والجواب الثالث : أنْ يكونَ معنى «اهْدِنا»: وفّقنا، ومنه قولُ الحُطَيئة(٤):

تَحَنَّنْ عليَّ هداكَ المليكُ

فإنّ لكُلِّ مَقامٍ مَقالا

معناه: وَفَّقَكَ اللّه للعلمِ بحالي والنّظرِ في أمري. وليسَ يريدُ: أنّكَ على الضّلالة، وأنا أدعو اللّهَ لكَ بالهدايةِ، فيذمّهُ وهو مُستَعْطِفٌ.

والجواب الرابع : أنْ يكونَ «الصّراط المستقيم»: كتابَ اللّه، عزّ وتعالى، ومعنى «اهدنا»: بَصِّرْنا فيه، وأعِنّا على أداءِ ما يلزمُنا منه علمًا وعملاً.

والجواب الخامس : أنْ يكونَ «الصّراط المستقيم»: جادَّةَ الإسلام، ويكونَ النّاسُ مأمورين بأنْ يطلبوا من اللّهِ أنْ يمنَحَهُم الهدايةَ آنفًا كما مَنَحَهُم سالفًا، لا يعلمون ما يكونُ من عاقبةِ أَمْرِهم، ولا ما ينقَلِبُون إليه في بَقِيّةِ عُمُرِهم.

والجواب السادس : أنْ يكون معنى «اهْدِنا»: دُمْ لنا على هذا الفعْل. يقولُ القائلُ لِمَنْ هو في فعْل: افْعَلْ، أي: دُمْ على فِعْلِكَ الذي أنتَ عليه. كما تقولُ لِمَنْ هو قاعدٌ: اقْعدْ حتى أعودَ إليكَ، أيْ: دُمْ على ما أَنْتَ عليه من القُعُودِ. وكما تقولُ للآكلِ: كُلْ، على معنى: دُمْ على أكلكَ.

وكأنَّهم سألوا اللّهَ، تبارك وتعالى، أنْ يُديمَ الهدايةَ لهم.

وهذا الوجهُ، وإنْ كانَ مِنَ الأوّلِ في معنى طلبِ التثبيت على الهدايةِ، فإنّ طريقي الكلام فيهما مختلفان، وقد يختلفُ الطّريقانِ والمقصودُ واحدٌ.

والجواب السابع : أنْ يكون «الصّراط المستقيم»: المنهاجَ الذي شَرَعَهُ اللّهُ لأُمّةِ كلِّ نبيٍّ، كقوله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنا منكم شِرْعَةً ومنهاجًا**﴾(٥). فيكون المعنى على هذا الوجه: دُلّنا من الشرائع على الحقيقة التي أَرَدْتَها وأَمرتَ بها /٢ب/؛ لنُؤَدِّي الطاعاتِ بحسبِها، إذا اختَلَفَتْ بالنّاسِ الطُّرُقُ في فُروعِ الدِّين.

والجواب الثامن : أنْ يكونَ معنى «اهْدِنا الصّراطَ المستقيم»: قدِّمْنا إليه، كقوله تعالى: ﴿**فاهْدُوهُمْ إلى صراطِ الجَحيم**﴾(٦)؛ أيْ: قَدِّموهم إليه؛ لأنّ الهاديَ قد يتقدّمُ المَهْدِيَّ فيقودُهُ، وقد يتأخّرُ عنه فيسوقُهُ.

والجواب التاسع : أنْ يكونَ معنى «اهْدِنا الصّراطَ»: اهْدِنا لزومَ الصّراط، فيكون على حَذْفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامَهُ، على نحو: ﴿**وَسْئَلِ القريةَ**﴾(٧)، وكقول الشاعر(٨):

حَسِبْتَ بُغامَ راحلتي عَناقًا

وما هي وَيْبَ غَيْرِكَ بالعَناقِ

أيْ: حَسِبْتَ بُغامَها بُغامَ عَناقٍ. وكما قالَ النّابغةُ(٩):

يومًا بأجْوَدَ منهُ سَيْبَ نافِلَةٍ

ولا يحولُ عَطاءُ اليومِ دونَ غَدِ

أيْ: لا يحولُ عطاؤهُ دونَ عَطاءِ غَدٍ.

والجواب العاشر : أنْ يكونَ معنى «اهْدِنا»: زِدْنا هُدًى، وتكونُ الهدايةُ هي التي وَعَدَها اللّهُ المؤمنين في قوله تعالى: ﴿**ومَنْ يُؤْمِنْ باللّه يَهْدِ قلبَهُ**﴾(١٠)، وفي قوله: ﴿**والذينَ اهتَدَوْا زادَهُم هُدًى**﴾(١١).

فإنْ قالَ قائلٌ: وما هذه الزِّيادةُ التي يَزيدُها المؤمن؟

كان الجوابُ عن ذلكَ منْ أربعةِ أَوْجُه:

أحدها: أنْ يُقال: ما يردُ عليه من فروعِ الدّينِ التي يتنقّلُ عن ظُلْمَةِ الجهل بها إلى ضياءِ معرفتها، ولا ينفكُّ المُتعلّمُ والعالمُ من هذه الزيادة مدى عُمره؛ إذ كانَ على قصدِه وطلبِه.

والثاني : هو تزايدُ عمله بما يُمكِّنُ الإيمانَ في صدره من الفكر فيما ينطقُ من آياتِ اللهِ في خَلْقِه.

والثالث : أنْ تكونَ هذه الزّيادةُ مطلوبةً لِمَنْ لم يبلغْ في الدِّينِ /٣ أ/ حدَّ اليقينِ، فيُرادُ بالسؤالِ تبليغ الكمال.

والرابع : أن تكون هذه الزّيادَةُ للعارفِ المهتدي، وهي لطائفُ مِن اللّه تعالى تمسكُ عليه المعرفةَ عند ورودِ الشُّبَهِ عليه، فيَضْرَحُهَا عن قلبِهِ؛ لكي لا يستبدلَ جهلاً بعِلْمِه.

مسألة في خَبَرِ الرّسول ﷺ

سألَ بعضُ أهلِ الزَّيْغِ عن قولِ النبيِّ، عليه السّلام:

(مَثَلُ أُمَّتي مَثَلُ المَطرِ لا يُدْرَى أأوّلُهُ خَيرٌ أمْ آخرُهُ)[١٢].

قالوا : وما وَجْهُ ذلك مع قضيَّةِ العقلِ؟

وقول الرّسول، عليه السلام: (إنّ الإسلامَ بدأ غريباً وسيعودُ غريباً)[١٣]، و(خَيْرُ أُمَّتي القَرْنُ الّذي بُعِثْتُ فيه)[١٤].

قالوا: العقلُ يقضي بأنّ صدرَ هذه الأُمّة خيرٌ من وسطِها وعَجزِها، وقولُه: (خيرُ أُمَّتي القَرْنُ الذي بُعِثْتُ فيهم)، يعارضُ قَوْلَهُ: (لا يُدْرَى أأوّلُهُ خيرٌ أو آخرُهُ)؛ لأنّ ذلك ممّا يُدْرَى ويُعْلَمُ.

والجواب عن ذلك أنْ نُبَيِّنَ معنى الأُمّةِ أوّلاً، ثُمّ نبني عليه معنى الخَبَرَيْنِ:

أُمّةُ كلِّ نبيٍّ في أصل اللغة: القومُ الذين بُعِثَ إليهم، مؤمنُهُم وكافرُهُم، لقوله تعالى: ﴿**ويومَ نبعَثُ في كلِّ أُمّةٍ شهيدًا عليهم مِنْ أنفسهم**﴾[١٥].

والشّهيد[١٦] يكونُ على المؤمنِ وعلى الكافرِ جميعًا بما فَعَلاه. وحقيقةُ اللغةِ توجبُ ذلك؛ لأنّ الأنبياءَ، عليهم السّلام، أئمّةٌ لأُممهم، فهم يؤمُّونَهم، ومعنى يؤمّونَهم: يقصدونَ استتباعَهُم، وإنْ تفتّلوا منهم. فإذا أمُّوهم وقصدوا جماعتهم بذلك، فكلُّ جماعةٍ أُمّةٌ لإمامِها. وتكونُ أُمّةٌ فُعْلَةً بمعنى المفعول، كضُحْكَةٍ ولُعْبَةٍ وهُزْأَةٍ. هذا هو الأصلُ في اللغة.

ثُمَّ إنَّ الأمّةَ تحقَّقَتْ على المسلمين دونَ الكافرين، وغلبتْ عليهم حتى صارتْ كأنّها حقيقةٌ فيهم؛ لأنّ الإمامَ أمَّهُم فأتَمُّوا، فصحَّ المعنيانِ فيهم. والكُفّارُ لمّا /٣ب/ أمّهُم الإمامُ فلم ينتفعوا به، ولم يأتمُّوا صاروا كأنّهم لم يؤمّهم الإمامُ، فلمّا غلبتِ اللّفظةُ على المؤتمّين المقتدين صارتْ كصفةِ مدحٍ، وهي التي أرادها الرّسولُ ﷺ بقوله: (مَثَلُ أُمَّتي مَثَلُ المطرِ لا يُدْرَى أأوّلُهُ خيرٌ أمْ آخرُهُ) أي: مَنْ كانَ من أُمّتي مُتَقَلِّدًا لإمامتي مُتأخرًا عن عصري ومبعثي، إذا ائتمَّ بي في عبادتي، لم ينأَ عن أوَّلهم تأخُّر زمانهِ عن زمانهم؛ لأنّهم وإنْ بَعَّدَهم الزّمانُ فإنّ العبادةَ تقرِّبُهُم منهم، فيتقاربُ ما بينه وبينهم إذا فعلوا فعلهم، وإنْ لم يكونوا مثلهم بما اختصّ به أولئك، رضوان اللّهِ عليهم، مِن كبارِ المشاقّ وعظامِ الخُطوبِ، وآثروه مِن بَذْلِ المُهَجِ في الحروبِ؛ لِنصْرَةِ الإسلامِ في إبّانِهِ وابتدائه، وثباتِ القليل منهم للكثيرِ من أعدائه، وفي ذلك حَثٌّ على التقوى، وأنّ بها نيلَ المنزلَةِ العُظمى، وأنّ ما بينَ المتقدّمِ والمتأخّرِ يتقاربُ؛ إذْ جمعتهم الطاعاتُ ونظمتهم العباداتُ.

ويكونُ معنى قوله: (لا يُدرى أأوّلُهُ خَيْرٌ أمْ آخرُهُ) بتقارُبِ ما بينهما. كما تقولُ في الكريم: لا يُدرى أوَعدُهُ أحسَنُ أمْ رِفْدُهُ، أعطاؤهُ أحسَنُ أم مَنْعُهُ، إذا أردتَ أنّهُ يحسنُ فيهما جميعًا. وقد عُلِمَ أنّ الرِّفْدَ أحسنُ مِن الوَعْدِ، وأنّ العطاءَ أحْسَنُ من المنعِ.

وهذا كما يُقالُ: لا يُدْرَى أوَجْهُهُ أحسَنُ أمْ قفاهُ، إذا تقاربَ ما بينهما. فهذه اللّفظةُ عبارةٌ عن التّقارُبِ.

والخبرُ الآخرُ على ظاهرِه، وهو أنْ يكونَ أوّلُ هذه الأُمّةِ خيرًا من وسطِها أو آخرِها.

وأمّا قولُهُ، عليه السّلام: (إنّ الإسلام بدأ غريبًا وسيعودُ غريبًا)، فمعناه: بدأ بعيدًا عمّا عليه الجمهورُ، وسيعودُ كذلكَ، إلاّ أنّهُ لا يفقدُ القُوّةَ، وإنْ قلَّ عددُ أهلِهِ، كما لم يفقدها في ابتدائه.

مسألة نحويّة

الأسماءُ المقصورة المُنَوَّنَةُ مثل: عصًا، ورحًى،

وفَتًى، إذا وُقِفَ عليها في حال النّصب، نحو قولك: /٤ أ/ رأيتُ فَتَى، فلا خلافَ بينَ النّحويين في أنّ الألفَ في حالِ النّصبِ بدلٌ مِن التّنوين، كالألف في قولهم: رأيتُ زيدًا.

فأمّا في حال الرّفع والجرّ فإنّ النّحويين كلُّهم مجمعون على أنّ الألف في قولهم: هذا فَتَى، وهذه رَحَى، ليست بدلاً من التّنوين، وإنّما هي الألفُ المنقلبةُ عن الواو والياء، إلاّ أبا عثمان المازني[١٧] فإنّهُ خالفَ الجمهورَ، وزعَمَ أنّ الألفَ في حال الرفع والجرّ في الوقف بدلٌ مِن التنوين، كما كانت في حالِ النّصبِ كذلك.

فأمّا حجّةُ النّحويين في أنّ الألفَ في حالِ الرّفع والجرّ إنّما هي بَدَلٌ من الواو والياء دونَ البدل مِن التنوين، فهي أنّ المُعتلاّت مبنيةٌ على الصّحيحة وفروع عليها، فكما لم يثبتِ التنوينُ في الوقف على الرّفع والجرّ إذا قلتَ: هذا زَيْدْ، ومررتُ بزيدْ، ولم يثبتْ بدلٌ منه، كذلك أيضًا لا يثبتُ في المعتلّ، وإنّما يُبْدَلُ التنوين في حال النّصب إذا قلتَ: رأيتُ زيدًا، وإذا التقت الألفُ، التي هي بدلٌ من التنوين، والألف المنقلبة، وحَذَفْتَ التي هي بدلٌ من الأصل، واستبقيتَ الدّاخلةَ للاختصاص بالفائدة فتُسْقط الألف لالتقاء السّاكنين، وتُبقي التي هي بدلٌ من التنوين. والرّفعُ والجرُّ لمّا لم يثبتْ فيهما الأصلُ لم يثبتْ فيهما الفرعُ.

وأمّا حجّةُ أبي عثمان فهي أنّ الذي منعَ مِن إثبات التنوين في حالِ الرّفع وبَدَلِه، وحالِ الجرّ وبَدَلِه في الواحد الصّحيح غير موجودٍ في هذا المكان، وذلك أنّ في المرفوع ضمّةً يتبعها التنوينُ، فلو أبدل التنوين مَدَّةً لصارت واوًا بعدَ الضمّة، فكُنتَ تقولُ: هذا زَيْدُو. وكذلكَ بعدَ الكسرة كانتْ تنقلبُ ياءً، فتقولُ: مررتُ بزيدِي. وهذا لم يَجُزْ لهذه العِلّة. قال: وليسَ كذلكَ المقصورُ؛ لأنّ ما قبلَ تنوينِهِ /٤ب/ في حال الرّفع والجرِّ مفتوحٌ، كما قبلَ التنوين من آخر المنصوب. فإذا قلتَ في الوصل: هذه رحًى، وهذا فتًى فاعلم. فالتنوينُ واقعٌ بعدَ فتحة، وقد زالت الألفُ لأجل سكونِ التّنوين. فإذا وقفتَ أسقطتَ ما كنتَ تُسقطُهُ قبلُ، وأقمتَ مقامَ التنوينِ الألفَ؛ لأنّه لاقى فتحةً قبله كما لاقى التنوينُ في حالِ النّصبِ في الأسماء الصحيحةِ الأواخرِ الفتحةَ قبلَهُ للنصب، فتُشَبَّهُ فتحةُ البناء بفتحةِ الإعراب، وتحملُ عليها التنوين كما تَحملُهُ على فتحةِ الإعراب، ولا يلتفتُ إلى امتناعِ بدلِ التنوين في الوقفِ على المرفوع والمجرور؛ إذ كانَ ذلكَ لمعنًى ليسَ بموجودٍ في هذا المكان.

والذي ينصرُ به النحويّون مذاهبَهُم أنّ المُعْتَلاّت مبنيّةٌ على الصّحيحة مُقَدَّرةٌ تقديرَها إلاّ ما توجبُ العلّةُ مِن حُكْمِها، فقولُنا: هذه رَحًى، أَصْلُهُ: رَحَيٌ، فاعلمْ. فإذا أردتُ الوقفَ عليها، وهي مرفوعةٌ، احتجتُ أنْ أُجريَها مجرى الصّحيح، وأَحذفَ التنوينَ، وأَقفَ على اللاّمِ ساكنةً، وهذه اللاّمُ حقُّها أنْ تنقلبَ أَلِفًا، فلا أقلبُها ألفًا إلاّ وقد سقطَ حكمُ التنوين وحكمُ بدلِه، فكيفَ يصحُّ أنْ تَدَّعي أنّ الألفَ بدلٌ من التنوين، ولم يثبتِ الأصلُ الذي الألفُ فرعٌ عليه. وإنّما ثبتَ التّنوينُ في قولهم: هذه رَحًى، في حالِ الوصل، فأمّا في حالِ الوقف فإنّ التنوينَ يسقطُ حكمُهُ ويسقطُ بدلُهُ، ولا يبقى إلاّ أنْ تكونَ الألفُ الموقوفُ عليها هي لامَ الاسم، إذا كانت الألفاظُ المُعَلّةُ تُعَلُّ عن أصل الواجب. وإذا كانَ ذلكَ كذلكَ ثبتَ أنّ الألفاتِ في أواخرِ المرفوعاتِ والمجروراتِ بَدَلٌ مِن اللاّماتِ لا بَدَلٌ مِنَ التنوين[١٨]، والسلام.

بَيْتُ مَعْنَى

/٥ أ/ كَأنَّ خَوْقَ قُرْطِها المَعْقُوبِ
عَلى دَبَاةٍ أو عَلى يَعْسُوبِ[١٩]

الخَوْقُ: حَلْقَةُ القُرْط. والمعقوبُ: المشدُودُ بالعِقاب، وهو الخَيْطُ الذي يدخلُ في خُرْتِ حَلْقَةِ القُرْطِ، ويُقالُ له: العِقابُ، بالكسر، والعُقابُ، بالضمِّ.

والبيتُ يحتملُ مَعْنَيَيْنِ: الذَّمَّ، والمَدْحَ.

فأمّا الذَّمُّ فهو أنْ يصفَ المرأةَ بالوَقصِ وقِصَرِ العُنُقِ، فيُشَبِّهُ تركيبَ رأسها على جَسَدِها بتركيبِ

رأس الجرادة على بدنها، ولا عُنُقَ هُناكَ تَرى. وكذلكَ اليَعْسُوبُ. فأرادَ أنّ القُرْطَ مُعَلَّقٌ عليها، واقفُ على منكبيها غير مُضْطَرِبٍ كاضطرابِ الذّي وَصَفَهُ ذو الرُّمَّة[٢٠] في قوله:

والقُرْطُ في حُرَّةِ الذِّفْرَى مُعَلَّقُهُ
تباعَدَ الحَبْلُ مِنْهُ فهو يَضْطَرِبُ

والمعنى الثاني: أنّ قُرْطَها لا يزالُ مُضْطَربًا مُتحركًا لبُعْدِ مَهْواهُ وطُول عُنُقِها، فكأنَّهُ مُعَلَّقٌ على دَبَاة تَنْزُو من مكانٍ إلى مكان، ولا تَسْتَقِرُّ، ولهذا شُبِّهَتِ الفَرَسُ الوثّابةُ بالجرادةِ الوثّابةِ، فقالَ امرؤ القَيْس[٢١]:

وأرْكَبُ في الرَّوْعِ خَيْفانَةً

والمعنى الأولُ أَوْلَى.

مَثَلٌ

(لا تَجِدُ الشَّعْفاءُ ما يَخْشَى الأَزَبُّ)[٢٢].

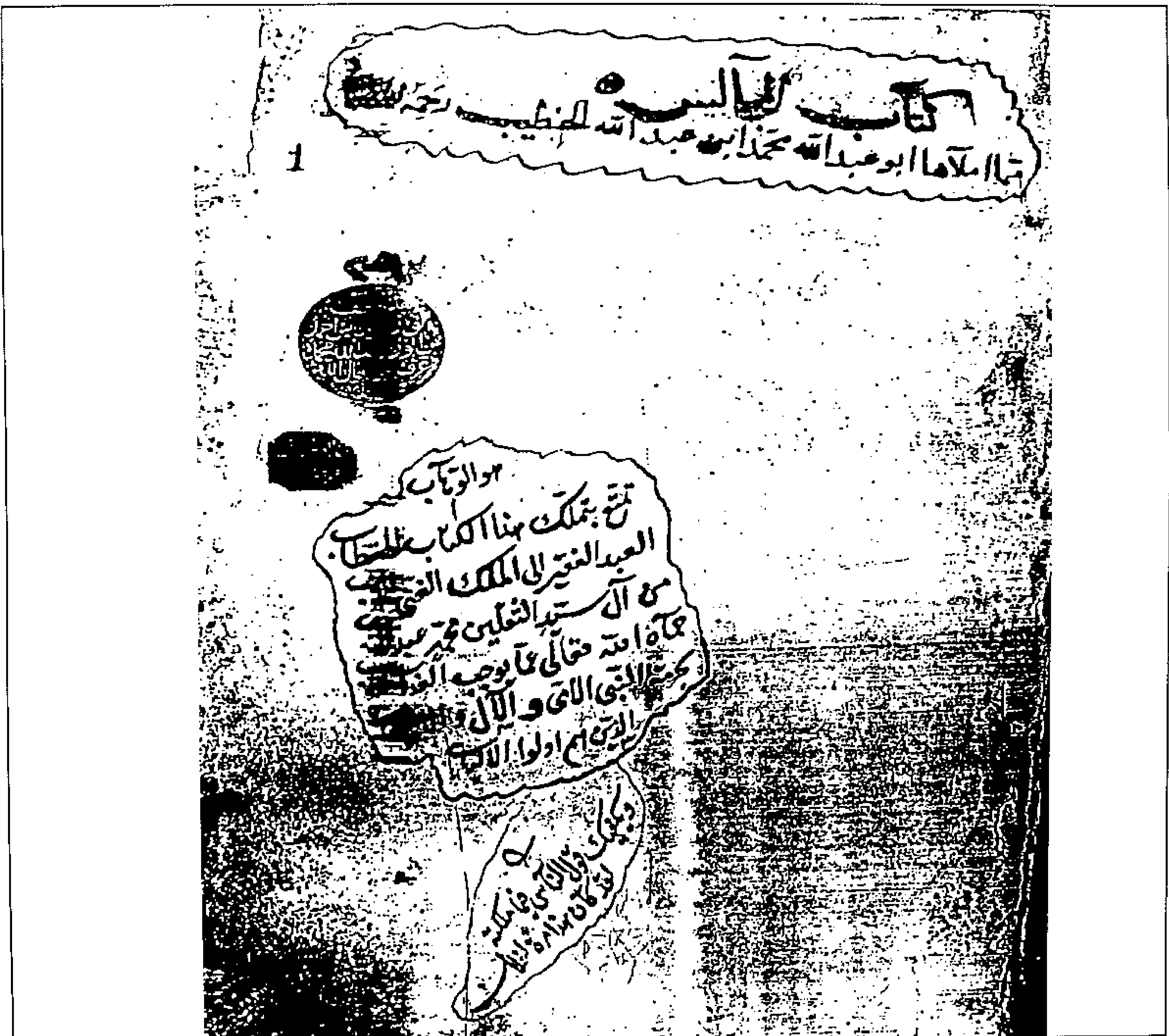
الأَزَبُّ: الكثيرُ الشَّعَرِ على الحاجِبِ والعَيْنَيْن.

والعربُ تقولُ في مَثَلٍ آخَرَ لها: (كُلُّ أَزَبَّ نفورٌ)[٢٣].

وذلكَ أنّ البَعيرَ إذا كَثُرَ الشَّعَرُ حوالي عَيْنَيْهِ خُيِّلَ الشَّعَرُ إليه أشخاصًا، فلا يزالُ ينفرُ.

ويكونُ هذا مَثَلاً لِمَنْ له فَعَلاتٌ مُريبةٌ يخافُ لها، فيكونُ المعنى: كلُّ مُريبٍ خائفٌ.

وأمّا الشَّعْفاءُ في المَثَل الأَوَّلِ الذي بَدَأْنا به فهي النّاقَةُ التي يتناثرُ شَعَرُ عَيْنَيْها فلا تخافُ ما يخافُهُ الأَزَبُّ. فيكونُ هذا مَثَلاً لِمَنْ لا يُتَعَلَّقُ عليه /٥ ب/ في ريبة. فقيل: لا تحذرُ هذهِ ما يخافُهُ ذاكَ؛ لأَنّ مخوفاتها زائلةٌ، والسّلام. ●



الحواشي

١ – ينظر في ترجمته:

معجم الأدباء: ٢٠٤٩/٦ (طبعة إحسان عباس) و: ٢١٣/١٨ (طبعة مصر).

الوافي بالوفيات: ٣٣٧/٣.

بغية الوعاة: ١٤٩/١.

كشف الظنون: ٦٩١/١، ١٤٢٨/٢، ١٥٥٥، ١٥٧٩.

تاريخ الأدب العربي (بروكلمان): ١٥٩/٥.

الأعلام: ١٠٢/٧.

معجم المؤلفين: ٢١١/١٠.

٢ – الفاتحة : ٦.

٣ – محمد : ٤ – ٥.

٤ – ديوانه: ٢٢٢.

٥ – المائدة : ٤٨.

٦ – الصافات : ٢٣.

٧ – يوسف : ٨٢.

٨ – ذو الخرق الطهوي، والبيت في نوادر أبي زيد: ٣٦٦.

٩ – ديوانه: ٢٤.

١٠ – التغابن : ١١.

١١ – محمد : ١٧.

١٢ – المسند: ١٣٠/٣ و١٤٣، وسنن الترمذي: ١٤٠/٥.

١٣ – سنن ابن ماجة: ١٣٢٠.

١٤ – ينظر: صحيح مسلم: ١٩٦٢ – ١٩٦٣.

١٥ – النحل : ٨٩.

١٦ – ينظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ١٣٧.

١٧ – بكر بن محمد بن بقية، ت ٢٤٩هـ. (أخبار النحويين البصريين ٨٥، وإنباه الرواة: ٢٤٦/١). وقوله في التبيين: ١٨٧، وهمع الهوامع: ٢٠٢/٦.

١٨ – ينظر في الوقف على المقصور المنون: المرتجل: ٤٥، والتبيين: ١٨٦، واللباب: ٢٠٦/٢، وشرح المفصل: ٧٦/٩، وهمع الهوامع: ٢٠١/٦.

١٩ – البيت لسيّار الأبانيّ، في التنبيه والإيضاح: ١١٨/١ (عقب). والدّباة: واحدة الدَّبا، نوعٌ من الجراد. واليعسوب: ذَكَرُ النّحل.

٢٠ – ديوانه: ٣٥.

٢١ – ديوانه: ١٦٣، وعجزه:

كَسَا وَجْهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشِرْ.

٢٢ – أغفلته كتب الأمثال المطبوعة.

٢٣ – الأمثال: ٣١٧، وجمهرة الأمثال: ١٥٤/٢، ومجمع الأمثال: ٧/٣.

المصادر والمراجع

– المصحف الشريف : رواية حفص عن عاصم.

امرؤ القيس :

– ديوان امرىء القيس، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٩م.

الباهلي : أبو نصر.

– شرح ديوان ذي الرمة، تح. د. عبد القدوس أبو صالح، دمشق، ١٩٧٢م.

بروكلمان : كارل (– ١٩٥٦م).

– تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار ورفاقه، مصر.

ابن برّي : عبد الله (– ٥٨٢هـ).

– التنبيه والإيضاح، تح. مصطفى حجازي وعبد العليم الطحاوي، القاهرة، ١٩٨٠ – ١٩٨١م.

الترمذي : محمد بن عيسى (– ٢٧٩هـ).

– سنن الترمذي، تح. أحمد محمد شاكر، القاهرة، ١٩٣٧م.

الحطيئة :

– ديوان الحطيئة، تح. نعمان أمين طه، القاهرة، ١٩٥٨م.

الحموي : ياقوت (– ٦٢٦هـ).

– معجم الأدباء، دار المأمون، مصر، ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م.

– معجم الأدباء، تح. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

ابن حنبل : أحمد (– ٢٤١هـ).

– المسند، طبعة القاهرة، ١٣١٣هـ.

ابن الخشّاب : عبدالله بن أحمد (– ٥٦٧هـ).

– المرتجل، تح. علي حيدر، دمشق، ١٩٧٢م.

خليفة : حاجي (– ١٠٦٧هـ).

– كشف الظنون عن أسامي الكتب، إستانبول، ١٩٤١م.

الزركلي : خير الدين (– ١٩٧٦م).

– الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩م.

أبو زيد الأنصاري : سعيد بن أوس (– ٢١٥هـ).

– النوادر في اللغة، تح. د. محمد عبد القادر أحمد، بيروت، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

ابن السكيت :

– ديوان النابغة، تح. د. شكري فيصل، بيروت، ١٩٦٨م.

السيرافي : الحسن بن عبدالله (– ٣٦٨هـ).

– أخبار النحويين البصريين، تح. د. محمد إبراهيم البنا، القاهرة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر (– ٩١١هـ).

– بغية الوعاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، البابي الحلبي، مصر، ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥م.

- همع الهوامع، تح. د. عبد العال سالم مكرم، الكويت، ١٩٧٥ = ١٩٨٠م.
الصفدي : خليل بن أيبك (- ٧٦٤هـ).
- الوافي بالوفيات، تح. ريتر وآخرين، منشورات المعهد الألماني للأبحاث، بيروت، ١٩٣١م.
عبد الباقي : محمد فؤاد.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار مطابع الشعب، القاهرة.
أبو عبيد : القاسم بن سلام (- ٢٢٤هـ).
- الأمثال، تح. د. عبد المجيد قطامش، بيروت، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.
العسكري : الحسن بن عبدالله، أبو هلال (- بعد ٣٩٥هـ).
- جمهرة الأمثال، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، مصر، ١٩٦٤م.
العكبري : عبد الله بن الحسين، أبو البقاء (- ٦١٦هـ).
- التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين، تح. عبد الرحمن العثيمين، بيروت، ١٩٨٦م.
- اللباب في علل البناء والإعراب، تح. د. غازي طليمات، ود. عبد الإله نبهان، دمشق، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م.
القارىء : هارون بن موسى (- نحو ١٧٠هـ).
- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تح. د. حاتم صالح الضامن، بغداد، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م.
القفطي : علي بن يوسف (- ٦٤٦هـ).
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، ١٩٥٥ - ١٩٧٣م.
كحالة : عمر رضا (- ١٩٨٧م).
- معجم المؤلفين، مط. الترقي، دمشق، ١٩٦١م.
ابن ماجه : محمد بن يزيد (- ٢٧٥هـ).
- سنن ابن ماجه، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٢م.
الميداني : أحمد بن محمد (- ٥١٨هـ).
- مجمع الأمثال، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
النيسابوري : مسلم بن الحجاج (- ٢٦١هـ).
- الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، البابي الحلبي، مصر، ١٣٧٤هـ = ١٩٥٥م.
ابن يعيش : يعيش بن علي (- ٦٤٢هـ).
- شرح المفصل، المطبعة المنيرية، مصر.



مخطوط

إعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام

للسان الدين بن الخطيب الأندلسي (٧١٣ هـ - ٧٧٦ هـ)

كشف لحيثيات التصنيف وفحص لمفردات العنوان

الدكتور/ رابح عبد الله المغراوي

جامعة محمد الأول - كلية الآداب والعلوم

وجدة - المغرب

مقدمـة

يُعدّ كتاب (إعْمالُ الأعْلام فيمن بويع قبلَ الاحتلامِ منْ ملوكِ الإسلام وما يَتعَلّقُ بذلكَ منَ الكلام) ثمرة ظروفٍ سياسيَّة شهدها المغرب عقب هلاك السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز ليلة ٢٢ من ربيع الآخر عام ٧٧٤هـ. كما أن ابن الخطيب رحمه الله اغتيل في محبسه قبل إتمامه ، مما جعله يصل إلينا غير وافٍ.

قسّم ابن الخطيب كتابه هذا إلى ثلاثة أجزاء أو أقسام:

القسم الأول : يتعلق بتاريخ المشرق، لا يزال مخطوطًا، توجد منه عدة نسخ، أغلبها محفوظ في خزانات المخطوطات المغربية، وهو الذي سيتم التركيز عليه بشكلٍ كبير في هذا البحث، لتوافره على مقدمة مهمة.

القسم الثاني : يتعلق بتاريخ الأندلس، وقد نشره المستشرق الفرنسي الشهير الأستاذ ليفي بروفنسال E. Lévi-Provençal محققًا، واضعًا له عنوانًا مغريًا، مثيرًا للانتباه هو (تاريخ إسبانيا الإسلامية)، وعدَّهُ أهم الأقسام، حيث قال: «وهو أهم أقسام الكتاب، وذلك يتجلّى من أول نظرة تُلقى على الكتاب»(١).

القسم الثالث : حققه كلٌّ من الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي، والأستاذ محمد إبراهيم الكتّاني، وجعلا له عنوانَ: (تاريخ

المغرب العربي)، وهذا القسم أصغر الأقسام حجمًا؛ لأنه غير تامّ، حيث توقّف ابن الخطيب عند بداية الحديث عن الدولة الموحدية، فلم يتمكن من الوفاء بما وعد به في مقدّمة كتابه التي قال فيها: «ثم نختم الكتاب بتقرير الدولة المرينية...»(٢).

هكذا تجاوز التحقيق - كما هو ملاحظ - الجزء الأول؛ ليحطّ الرحال عند كلٍّ من الجزأين الثاني والثالث فقط دون مسوّغ، مع العلم أنّ الجزء الأول لا يقل أهميّة عن كلا الجزأين؛ لوجود مقدمة مهمة، وعلى مادة مهمة كشفت عن جانبٍ مغمور من جوانب اهتمام ابن الخطيب، وأوضحت عن طريقة أحد المؤرخين المغاربة في التعامل مع تاريخ المشرق والتواصل مع الأخبار الوافدة من تلك الجهة النائية من بلاد الإسلام أيضًا.

وأظنّ أنّ أسباب العزوف عن تحقيق هذا الجزء من قبل المهتمّين متعدّدة أذكر بعضًا منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ - إعطاء الأوليّة للجديد والمفيد بالنظر إلى المادّة التاريخيّة الأصيلة، والجزء يوحي بخلوّ الفائدة منه بهذا المنظور، وهو أمرٌ نسبيّ.

٢ - التقليل من أهميّة الجزء مقابلةً بالأجزاء الأخرى، انطلاقًا من أنّ فاقد الشيء لا يعطيه، فماذا عسى أن يقدّم ابن الخطيب من جديدٍ ومفيد بالنسبة لتاريخ منطقة بعدت بينه وبينها الشقّة؟ فبضاعته في ذلك مُزجاة، وقديمًا قال المشارقة في أحد أبناء وطنه، وهو الأديب المؤرخ ابن عبد ربه، حينما وصل إليهم كتابه: (العقد الفريد): «هذه بِضَاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيناَ»، ولا يخلو الحكم من تعصّبٍ وتهافت، ينمّ عن موقفٍ سياسيّ بعث عليه الصراع السياسيّ بين العبّاسيين في المشرق والأمويين في الأندلس.

٣ - كان همُّ الذين تصدّوا لتحقيق الجزأين الثاني والثالث تحقيقَ ما له صلةٌ بالتخصُّص الذي اهتمّوا به، والمادة التاريخيّة التي تجاوبت نفوسهم معها بحكم الميول والانتماء، فحقّق ليفي بروفنسال القسم الثاني، المتعلّق بالأندلس؛ لأنّ مادّته جديدة ومفيدة، تكشف النقاب عن تاريخ منطقة أوربيّة، كُتب لها أن تعيش تحت سلطان المسلمين ردحًا من الزمان، واستطاعت أن تخلّف ثقافة جديرة بالاهتمام، تنضاف إلى التراث التاريخيّ العربيّ، فتشكّل رصيدًا متميّزًا لهذا التاريخ، يعمّق البعد الحضاري لهذه الأمم الغربيّة المعاصرة.

وحقّق القسم الثالث على قلّة مادته وندرة أوراقه كلٌّ من الأستاذين أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتّاني؛ لأنّ الأول مشرقيّ تخصّص في تاريخ هذه المنطقة، فهو دائمُ الحرص على الوقوف على كلٍّ ما يتعلّق بهذه الجهة بحكم الاهتمام والانجذاب، ولأنّ الثاني مغربيّ يهمه ما قدّمه ابن الخطيب من مادة تاريخيّة تتعلّق بتاريخ بلاد المغرب، قد تعين على سدّ ثغرة، أو استكمال صورة، أو إسداء حقيقة، أو تصحيح معلومة في مجال التاريخ والتأريخ.

٤ - التأثّر برأي الأستاذ ليفي بروفنسال الذي حصر أهميّة الكتاب في الجزء الثاني المتعلّق

مخطوط إعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام

بتاريخ الأندلس، الذي ربما كان عاملاً من عوامل صدود الباحثين عنه، وانصرافهم عن تحقيق هذا الجزء انصرافًا مبكرًا.

ونحن لا نعترض على هؤلاء فيما صرفوا جهودهم إليه، ولكننا كنّا نود أن يحقّق الكتاب كلّه؛ لتكتمل صورته وتستوي هيئته، حتى وإن لم يحصل الإجماع على كبير فائدته، ويتقرّر الاتفاق على عظيم مزيته.

لعلّ في هذه الأسباب والمسوّغات ما يشفع لنا في عقد العزم على تحقيق هذا الجزء من الكتاب الطريف الذي عرف الناس وسطه وآخره، وحرموا معرفة أوله، وهو رأس الأمر كله، وقد حقّق بعض الناس ما هو في الفضل دونه.

أوّلاً : دواعي التصنيف :

كانت الأمور الآتية هي التي دفعت ابن الخطيب إلى تأليف هذا الكتاب:

أ – هلاك السلطان وتركه ابنًا صغيرًا لم يُثْغِرْ، رأى الوزيرُ أبو بكر بن غازي عقد البيعة له وحجبه، والنيابة عنه، حتى يستقلّ بأمره.

ب – نشوب نقاش وجدال حول قضية بيعة الصغير الذي لم يبلغ الحلم من الناحية الشرعيّة، ما بين مؤيّدٍ ومعارض.

هذه هي الدواعي الظاهرة والمباشرة، أما الدواعي الخفيّة غير المباشرة فتتمثل في تقديري في الأمور الآتية:

١ – استنكار بعض الطامعين في الولاية من أمراء بني مرين، الذين شرقوا بولاية صبي دون الاحتلام، في الوقت الذي ربما كانوا يتحيّنون فيه فرصة الترشيح لهذا المنصب من قبل المشيخة المرينية، أو من له الأمر والنهي من الوزراء والنوّاب.

٢ – تزامن هذا المستجد مع حال التوتُّر وسوء العلاقة بين القصر النصري في الأندلس، والقصر المريني، بسبب وجود ابن الخطيب بينهم، ذلك الذي أقلقهم، وأثار غضبهم، فقد كانوا يرغبون صرفه إليهم، دفعًا لسوء العواقب.

٣ – دعوة الوزير ابنِ غازي ابنَ الخطيب إلى تصنيف الكتاب؛ لبيان القضية من الناحية التاريخيّة والشرعيّة، تسويغًا لفعله، وتقوية لمركزه.

٤ – يمكن تفسير استجابة ابن الخطيب للمبادرة بأنها كانت دفاعًا من أجل بقاء الوضع على ما هو عليه، ودوام الاستقرار والنظام تحت يد هذا الوزير؛ للعلاقة التي كانت بينهما، وبدوام هذا الوزير دوام أمن ابن الخطيب وسلامته، المُطالَبِ المُهَدَّد.

٥ – كان التصنيف من أجل الردّ على الحكام الأندلسيين أيضًا، الذين طعنوا في بيعة الصبيّ من الناحية الشرعيّة؛ انتقامًا من النظام الذي آوى ويؤوي عدوَّهم لسان الدين بن الخطيب.

وأعتقد أنّ الذي أثار المشكلة من أساسها، وأذكى لهيب نيرانها نكايةً لا انتصارًا للسياسة الشرعيّة، القصر النصريّ، بسبب وجود ابن الخطيب بين ظهرانيهم كما دلّت الإشارة.

ولا أدلّ على ذلك من إشارات ابن الخطيب المتكرّرة، حينما عرض لبيعة السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج بن نصر، أحد ملوك بني نصر [٧٢٥هـ – ٧٣٣هـ]، فأشار إلى صغره،

Afāq al - Taqāfa Wa al - Turāt
A Quarterly Journal of Cultural Heritage
Juma al - Majid Center for Culture and Heritage

آفاق الثقافة والتراث
مجلة فصلية ثقافية تراثية مكتبية
تصدر عن مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

Subscription Order Form — قسيمة اشتراك

سنة One Year ☐ | أكثر من سنة More Than One Year ☐ | عدد السنوات # of Years ☐

للأعداد : ...... Issues # | عدد النسخ : ...... # of Copies :

ابتداء من تاريخ : ...... Subscription Date :

شيك Check ☐ | حوالة مصرفية Bank Draft ☐ | حوالة بريدية Postal Draft ☐

التاريخ : ...... Date : | التوقيع : ...... Signature :

الاشتراك السنوي

داخل الإمارات
للمؤسسات : ١٠٠ درهماً.
للأفراد : ٦٠ درهماً.
للطلاب : ٤٠ درهماً.

في الخارج :
للمؤسسات : ٣٥ دولاراً أمريكياً
للأفراد : ٢٠ دولاراً أمريكياً

تودع الإشتراكات في رقم الحساب البنكي للمركز : ٠٤٩٠٩٠٦٥٢٣ بنك المشرق دبي
Payments should be made to Juma al - Majid Center for Culture and Heritage
Acc. # 0490906523 al - Mashriq Bank - Dubai

Afāq al - Taqāfa
Wa al - Turāt

آفاق الثقافة والتراث

إشعار بالتسلم
Acknowledgement of Receipt

الاسم الكامل : ...... Name :

المؤسسة : ...... Institution :

العنوان : ...... Address :

صندوق البريد : ...... P.O. Box :

العدد : ☐ Issues No. : | عدد النسخ : ☐ No. of Copies :

اهداء Gift ☐ | تبادل Exchange ☐ | اشتراك Subscription ☐

التاريخ : ...... Date : | التوقيع : ...... Signature :

ترسل إلى :

مجلة آفاق الثقافة والتراث

ص.ب : ٥٥١٥٦ ـ فاكس : ٦٩٦٩٥٠ (٠٤) ـ دبي ـ الإمارات العربية المتحدة

Afāq al - Ṯaqāfa Wa al - Turāṯ

P.O. Box : 55156 - Fax : (04) 696950 DUBAI - U.A.E.

Stamp
الطابع
البريدي

Name : .... الاسم :

Address : .... العنوان :

Country : .... البلد :

Phone : .... هاتف P.O. Box : .... ص.ب :

Fax : .... فاكس :



وعدم الاختلاف في بيعته، بقوله: «بُويعَ له يومَ تُوفي أبوه، وهو صبيّ صغيرٌ سِنُّهُ دون تِسْعِ سنين، فلم يختلف عليه أحد، وبادر إلى بيعته الفقهاءُ والعلماءُ والصُّلحاءُ والفضلاءُ، وأهلُ الجهاد، وكَوافُّ البلاد، وجمعهم يومئذ موفور، وشأنُهُم في الخير مشهورٌ، وهو أوّلُ من بُويعَ في هذا البيتِ النَّصْري بحالِ الصِّغَرِ وحداثة السن[٣].

وبعد أن عرض لائحةً طويلة بأسماء الأعلام الذين شهدوا بيعته، عقّب متسائلاً مستنكرًا بما يؤكد ما ذهبنا إليه آنفًا قائلاً: «فمتى نَبَسَ أَهْلُ الأَنْدَلُس، بإنْكارِ بَيْعَةِ صَبِيٍّ صغير، أو نيابة حاجب أو وَزير، فقدْ عَمُوا وَصَمُّوا، وَحُصِرُوا بِرَبْعِ الإنْصاف، فَأَعْرَضُوا وما أَلَمُّوا وَبِمَا سَنُّوهُ لغيرهم ذَمُّوا، ولم يَكْفِ مُبَايَعَةُ الصَّبِيِّ غير البالِغِ، ولا القَرَشِيِّ المَرْفُوعِ في الذِّراعِ، المُسْتَعَدِّ به للنِّزال في سَبِيلِ اللهِ وَالقِراعِ، وَتَقْديمه لَمْ يَسْتَوْفِ لِلْحُلُمِ زَمَانًا، وَلَمْ يَعْرِفْ بَعْدُ خِتَانًا»[٤].

ولعلّ تصدّي ابن الخطيب لكتابة هذا الكتاب حجاجًا واستدلالاً، وهو القادر على الحوار، المتمرّس بأساليب المناظرة والجدال، وسدّه البابَ على الطامعين والمغرضين، كان أيضًا سببًا من أسباب زيادة النقمة عليه من جهاتٍ متعدّدة، أمراء بني مرين الكثيرين من جهة، والحكّام النصريين من جهةٍ ثانية.

ثانيًا: حيثيات التصنيف كما روتها مقدمة الكتاب:

١ – الحيثيات من جهة ابن الخطيب:

يتصدّر الكتابَ مقدمةٌ طريفة، عرض ابن الخطيب من خلالها حيثيات تدوين كتابه، في هذه القضية الجوهرية، «قضية بيعة الصبي»، التي كانت قضية حسّاسة في زمن التصنيف، أثارت جدلاً، وأوجست خيفة، وربما شغلت بالاً، وأنشأت بَلْبالاً.

قال ابن الخطيب متحدثًا عن حيثيات وملابسات تصنيف مصنَّفه في المقدّمة التي استهله بها: «فإنِّي أُمْلي بمشيئة الله الذي يُنهض القُوى كُلّما أَخْلَدت، ويُذْكي الأَذْهان بعدما تَبَلَّدَتْ... طُرَفًا تُجادِلُ عن الوقت الذي شَرِهَ إليه الجِدالُ حين عُدِمَ الاعتدال، وتُذكِّر بفوائد الدَّهْر التي نَسِيَها اليومَ بَنُوهُ... وغَمَصُوا حَقَّ زمنهم وغَبنوهُ... ونجْلُب تذكرةً تُوقظُ العُيُونَ... وَتَنْصِبُ الميزانَ الذي لا يبْخَسُ حَبَّةً إلاّ وَفَّاها، والمنازعة كَفَاها، بشرط الإنْصافِ وَحَمِيدِ الأَوْصاف...»[٥].

والنصُّ عند التأمّل في عباراته المجتزأة يحيل على المعاني الآتية:

١ – نهوض ابن الخطيب لهذا التصنيف تحت طائلة التكليف، ويفهم من هذا أنه لولا الأمر الطارىء وإلحاح الوزير النائب لما نشط لذلك.

٢ – أراد بهذا الكتاب أن يستجلب طرفًا، ويستحشر ملحًا، عرضت عبر التاريخ، يجادل بها آراء نجمت، تنكر شرعيّة بيعة الصبيّ الصغير، ومصداقية ولاية عهد الطفل الغليم.

٣ – تأكيد أنّ الذي بعث المناوئين على الإنكار إنما هو الجهل بالتاريخ، الذي جعلهم بناءً على ذلك يظلمون التاريخ، ويظلمون زمانهم والساسة الذين عملوا بهذا المقتضى.

٤ – تأكيد أنّ هذا العمل الذي يقوم به ابن

مخطوط إعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام

الخطيب من خلال التدوين في هذا الموضوع هو في مقام التذكرة، التي تنبّه العقول، وتوقظ العيون، عن طريق لفتهم إلى وقائع التاريخ في هذا الباب.

٥ – أراد بهذا العمل أن ينصب ميزانًا للحقّ في هذه القضية، لا يبخسها حقها سدًّا للذريعة ودفعًا للمنازعة المذهبة للريح المُفرّقة للجماعة.

٦ – أراد بعد نصب الميزان، أن يتوخّى الإنصاف والاعتدال في الأحكام، والإنصاف يقتضي لجم الأهواء، وإمساك أزمّة القلوب.

٧ – كما أكّد ابن الخطيب أنّ الناس عادةً ما تنظر بعين النقد والاتهام إلى أحوال الدول محكمة لنزعات الأهواء.

كما يفهم من فحوى النصوص المتظافرة موجة استياء من لم يرقهم تنصيب هذا الصبيّ، وحجبه بالتصرّف نيابةً عنه من قبل الوزير المستبدّ أبي بكر ابن غازي.

والظاهر أنّ ذلك لم يكن استياءً عامًّا، وإنّما يعبّر عن طائفةٍ لها وزنها الرياسيّ داخل الدولة.

يقول ابن الخطيب، الذي كان موقفه منسجمًا مع موقف الوزير الحاجب، ومنسجمًا في الوقت ذاته مع وضعه الحرج، متّهمًا النفوس التي تستسلم لدواعي الهوى غالبًا: «فإنّ النفوس لأدلّةِ الحقّ بإعراضها مُطاوعةٌ لعِلَل القلوب وأمراضها، ولا سيّما في شأن الدول التي لا يزالون يسخطون فيها الحظوظ وهي سَنيّة، ويتشوّفون لِتحوّل الأحوال وهي هنيّة»(٦).

كما أكّد ابن الخطيب مرةً أخرى تثاقله عن الاستجابة لأمر الكتابة في هذا الموضوع، لولا دواعٍ تظافرت، معظمها يتعلّق بالمجاملة والمداراة كعادته، حرصًا على مصيره كما هو معلوم، يقول: «وَمَا كُنْتُ بالأَخَفِّ لإمْلائها... لِحَالِ الكِبْرَة التي عجَزت معها الجوارح، وبعدت عن نُجْعَتِهَا المسارحُ، وَذَهَبَ بالأمل الذي زَهِدَ في التَّنْفِيق والتَّزَلُّف، وَرَغِبَ عَن التَّكَلُّف، لولا أمْرٌ مُطاعٌ وَجَبَ امْتِثالُهُ، وَرَسْمٌ اعْتُمِدَ مِثالُهُ، ونداءٌ لزم جوابُه، وقصدٌ رُجِيَ من الله ثوابُهُ.. وَمَجْلِسٌ هَزَّني جمالُهُ، وَرَاقَني اكْتِمالُهُ، ومُحْسِنٌ رأيتُ إهْمالَ مَحَاسِنه الفائقة... غَمْصًا لِلحُقُوقِ المُتَعَيِّنَة، وَطَمْسًا لِرُسُومِ الفَضائِلِ البَيِّنَة»(٧).

وهذا النصُّ، كما هو بيّن، يُجمل جميع المسوّغات الذاتية التي دفعت بابن الخطيب إلى الاستجابة لهذا المطلب، نذكرها على شكل نقاط لمزيد من البيان:

١ – أنها إجابةٌ عن أمرٍ صادر وجب إطاعته، ونداء رفع تعيّنت إجابته.

٢ – أنها استجابةٌ يحدث مثلها في الدول، وقد صنّف قبل سنوات كتابه (رَوْضَة التَّعريفِ بالحُبِّ الشريف) بناءً على طلب سلطانه الغني بالله.

٣ – أنها استجابةٌ قُصدَ بها وجه الله وثوابه شكرًا على نعمه، ولعلّ استقرار الوضع حتى هذه الساعة عقب وفاة السلطان عبد العزيز كان من أعظم النعم على ابن الخطيب.

٤ – أنها استجابة حرّك إليها خلق الشكر عن الإحسان، الذي ما فتئت الدولة المرينية تغدق به عليه ملوكًا ووزراء وأعيانًا

وغيرهم، وبخاصةٍ السلطان المرحوم عبد العزيز وكافل ولده الوزير أبي بكر ابن غازي؛ إذ السكوت عن ذلك غمصٌ للحقوق، ولؤم من النفوس.

٥ – أنها استجابة لأريحيّة الزهو والانتشاء، التي بعث عليها جمال المجلس الوزاري، وجلال المقام النيابي، الذي ظهر به الوزير أبو بكر ابن غازي، فكان في مستوى هذه المهمة، وهو شعورُ وزيرٍ خبير بهذه الشؤون التي مارس مثلها.

وقال ابن الخطيب مزيحًا النقاب عن الكيفيّة التي سيعتمدها في إخراج هذا الكتاب، كاشفًا عمّا كان منشغلاً بإنجازه قبل ورود هذا الطلب: «فأمْلَيْتُهُ عفْوًا مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ تُحَكِّمُ الاخْتِيارَ، وتَسْتَدعي للحِفْظِ والامْتِيار، قَطَعْتُ بِهِ العَزِيمَةَ عَنِ الاشْتِغالِ بالكتابِ الكَبِيرِ المُسمَّى (رِياسَةُ الفُلْكِ في سِياسَةِ المُلْكِ) إلَى أَنْ نكرَّ إِنْ شاءَ اللّهُ عَلَيْهِ»(٨).

وهذا النصّ يؤكد المعاني الآتية:

١ – أنّ الكتابَ من حيث طريقة كتابته اعتمدَ الإملاء على الناسخ.

٢ – أنّه أملاه ارتجالاً معتمدًا على ما استحضره حفظه، دون تحكيم الاختيار، والمراجعة والمقابلة، استنادًا على المظانّ.

٣ – أكّدَ ذلك قوله في خاتمةِ هذا الجزء: «تَمَّ الجُزْءُ الأوّلُ مِنَ الكتاب... حسبما بلغَ إليه عِلْمُنا، في الوقت بينَ خَفيف وَلَفيف، وَقَويٍّ منَ الكَلام وَضَعيف، والعُذْرُ عَن التَّقْصير غَيْرُ خَفِيٍّ.. لِتَعَذُّرِ الكُتُبِ بَعْدَ أَنْ عاثَ في خَزائِنِهَا الزَّمانُ... مِنْ غيرِ تَنْقيحٍ يَسْتَدْرِكُ المُغْفَلَ، أَوْ تَصْحيحٍ يُقَيِّدُ المُهْمَلَ»(٩).

٤ – أنّ إملاءَه لهذا الكتاب قطع اهتمامه بإعداد كتابٍ في السياسة وتدبير الملك، يعتمد على الرويّة، والمظانّ، ويتوخّى الاستفاضة والغنية؛ إذ قال في شأنه: «وإذا يَسَّرَ اللّهُ كانَ غَنِيًّا عَنْ سِواهُ، ومُجْتَزِيًا عن غَيْرِه مِمَّا حَواهُ»(١٠).

٥ – أنّ إملاءَهُ لم يستغرق مدّةً طويلة فعلاً؛ إذ ذكر في خاتمة الجزء: «وَفي عِشْرِينَ يَوْمًا كَانَ الفَراغُ مِنْ هَذا الجُزْءِ، من تَبْييض وَتَدْوين وَنَسْخ، وَسِراجَةٍ وَتَلْوين، تُدْفَعُ الكُرَّاسَةُ لِمُنْتَسِخِها والحِبْرُ رَجْراجٌ... حرصًا على تَكْميل غرض مُسْتَدْعي جَمْعِه، وَتَعْجيلاً لإتْحاف سَمْعِه، والحَمْدُ للّه؛ إذْ لَمْ يُشَبِّه الإنْسانَ إلاّ في كَوْنِه خُلِقَ مِنْ عَجَلٍ»(١١).

٢ – الحيثيات من جهة المجلس النيابي المريني:

ويذكر ابن الخطيب مسترسلاً في الحديث، متدرّجًا في القصّ، كاشفًا عن حكاية ملابسات تدوين كتابه، بعد أن أشار إلى الإجراءات السياسيّة والأمنيّة والاقتصاديّة التي اتّخذها هذا الوزير النائب عقب هلاك السلطان عبد العزيز، تلك التي شهدت بحنكته في رأي ابن الخطيب، فيقول: «فَلَمَّا تقَرَّرَتِ الأُمورُ، وَاغْتَبَطَ الخاصَّةُ وَالجُمْهُورُ... وَاسْتَقَرَّ الأَمْرُ... وَوَفَدَتْ أَعْلامُ الأَقْطارِ... عارِضَةً ما عقَدَتْهُ منَ البَيْعاتِ، وَأَخَذَتْهُ عَلى الجماهير مِنَ الطّاعاتِ... شَرَعَ في تَكْميلِ مَا يَخُصُّ المَوْلَى السَّعيدَ [السلطان الصبيّ]... فاخْتارَ مُعَلِّمَ الكِتابِ، وَاتَّخَذَ لَهُ الآلاتِ... وَحَرَصَ لَهُ على اقْتِناءِ الأَدَبِ في زَمَنِ الشَّبابِ... ثمَّ أَوْلَمَ لختانه...»(١٢).

والنصّ يشير إلى أنّ الأمور في البداية كانت تسير على أحسن ما يرام.

إلاّ أنّه سُرعان ما انجرّ الساسة والقائمون على الأمر بعد السلطان الهالك إلى الحديث في موضوع النيابة وولاية الصبيّ الصغير، الأمر الذي يؤكّد أنّ حدّة الحديث فيها بدأت تزداد على أوسع نطاق من قبل المعنيين، يقول ابن الخطيب: «وَجَرَى فِي بَعْضِ مَا يَجُرُّهُ الحديثُ بِمَجالِسِه التي لا يَدْخُلُها اللَّهْوُ، وَالهُجْرُ، وَلا يُعْرَفُ فيها إلاّ الجِدُّ وَالأَجْرُ، وَلا يُفَاوَضُ لَدَيْهَا إلاّ في نَصيحَةٍ وَخِدْمَةٍ صَرِيحة، الحديث في سُلطانِه المَوْلَى السَّعيد... فيما يُؤَمِّلُهُ من اضْطلاعِه وَاسْتِقْلاله... ووقَعَ الثَّناءُ على وَفائِه.. ورُبَّما جُلِبَ ذَرْءٌ مِمَّا يَنْفُثُ بِهِ من يحسُدُ الشَّمْسَ سَناها... وَلا يَعْلَمُ أَنَّ هذه الأُمُورَ التي تَخَلَّلَتْ المَعْمُورَ سبقَ فيها الجِدالَ الجلادُ، وَنَابَتْ عن الحُجَجِ القَاطِعَةِ وَالبَراهِينَ السَّاطِعَةِ السُّيُوفُ الحِدادُ.

فَقالَ: ... إِنَّمَا نَحْنُ فِيمَا اضْطَرَّنا الوَفاءُ إليه.. لكثيرٍ من أَعلامِ مِلَّةِ الإِسْلامِ تَبَعٌ... وَلَمْ نَأْتِ في زَمَانِنا بِدْعًا مِنَ العَمل... فإذا كانوا أَصابُوا في اجتِهادِهِمْ... فما أَسْعَدَنا في اتِّباعِهِمْ... وَإِنْ كانُوا قَدْ غَلِطُوا مع تَعَدُّدِ فُقَهائِهِمْ وَعُلَمائِهِمْ... فَنحنُ راضُونَ لِمُشارَكَتِهِمْ في الغَلَط.. وَمَعَ هذا فإِنْ كانَ الوَفاءُ والذِّمامُ... إلى أَنْ يَسْتَقِلَّ الوَارِثُ بِأَمانَتِه يُعَدُّ عَلَيْنا ذَنْبًا... فقدْ رَضينَا أَنْ يكونَ ذَنْبَنا الوَفاءُ...»(١٣).

وهذا النصّ يقرّر بالمعاني الآتية:

١ – أنّ مسألة النيابة عن السلطان الصبيّ الذي لم يبلغ الاحتلام، بدأ النقاش فيها في التصعيد على مستوى المسؤولين.

٢ – أنّ الذي بعث على هذا وجود متطلّعين إلى الحكم من الأسرة المرينية الكبيرة، التي لم يُرضها هذا الأمر مع وجود الأكفّاء الذين تتوافر فيهم شروط الإمامة.

٣ – تقرير ابن الخطيب أن المسألة حسمت منذ القدم، وأنّ الذي حسمها ليس المناظرة والجدال، وإنّما المواجهة المسلحة والقتال.

٤ – تقرير الوزير أنه في مهمّته النيابيّة هذه إلى أن يستقلّ السلطانَ الصبيُّ بأمره لم يكن بدعًا، وإنما كان مقتديًا بما فعله الأعلام من الأمة على امتداد التاريخ، سواء غلطوا في ذلك أو كانوا صائبين.

٥ – تقرير الوزير أنه إنما فعل ذلك وفاءً بالعهد للسلطان الهالك، والوفاء إلى أن يستقلّ الصبيُّ بالأمر إن عدّ ذنبًا فهو يرضى به ذنبًا، وهذا يؤكد عزمه وإصراره على الموقف.

ولا شكّ في أنّ الوزير كان يريد من وراء المجلس الذي أثيرت فيه هذه القضية، على الرغم من استتباب الأمن، أن يصل صوته إلى المشاغبين عليه، داخل المغرب وخارجه، لعلهم يرتدعون أو يقتنعون، كما أراد أن يبلغهم عزمه وتصميمه في ذلك بناء على ما تقدّم من رأيه.

وكان المجلس يضمّ أهل الحلّ والعقد، من المشيخة المرينية ورجال الدولة من الفقهاء والوزراء والكتّاب ومن انخرط في سلكهم.

وكلهم سجّل مساندته ودعمه لموقفه بعد أن ألقى فيهم كلمته، يقول ابن الخطيب: «فَارْتَجَّ المجلسُ، وَبِهِ أَهْلُ الحَلِّ وَالعَقْد، وَالعَضُدُ الأَشَدّ، والرأيِ الأَسَدّ، وقالوا: صَدَقْتَ وَبِالحَقِّ نَطَقْتَ... وقالوا نِيابَتُكَ فِينا، وَبِكُلِّ غَرَض

وَافيةٌ، وفيكَ لنا المَقْنَعُ، وَمِنْ دُونِكَ نقولُ ونَصْنَعُ إلى أَنْ يَكْمُلَ هذا الهِلالُ، وَيَصِحُّ مِنهُ الاستقلال»(١٤).

٣ - مفاوضة ابن الخطيب في المسألة:

لمّا كان ابن الخطيب من ضمن ما ضمّه المجلس الوزاري، وهو الشخصيّة السياسيّة والعلميّة التي لا يُستغنى عنها في المشورة والمفاوضة، واجهه الوزير بهذا السؤال مستفسرًا: «هَلْ تَدْرِي أَنَّهُ ذَهَبَ هذا المَذْهَبَ مِن قَبْلِنا دَوْلَةٌ من دُوَلِ الإسْلامِ، مُشْتَمِلَةً على الأَعْلامِ، وَحَمَلَةِ السُّيُوفِ وَالأَقْلامِ»(١٥).

والسؤال كما هو معلومٌ تاريخيّ، وليس فقهيًّا، أو سياسيًّا شرعيًّا، يعتمد التاريخ أرضية للبحث عن الشبيه والنظير.

وهذا السؤال في تقديري فكرة الكتاب الأساسيّة، والإجابة عنه هي التي أثمرت هذا الكتاب.

وهذا السؤال هو الذي سأعتمده في فحص عنوان الكتاب حينما أصل إلى ذلك.

ويؤكد ابن الخطيب أنّ سؤال الوزير ليس سؤال من يجهل الموضوع، وإنّما هو سؤال من يعرف؛ إذ مثل هذه المعرفة بالنسبة للوزراء والكتّاب ومن ماثلهم أساسيّة وأكيدة؛ لحاجتهم إليها في سياسة التدبير، ورعاية التبرير.

قال ابن الخطيب معقّبًا على السؤال في جملة اعتراضية طويلة: «وَهُوَ أَعَزَّهُ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا عَنْهُ يَسْأَلُ، وَفَضْلُهُ أَكْمَلُ، وَمِثْلُ هَذا لا يُجْهَلُ»(١٦).

ثمّ قال مجيبًا عن سؤاله: «فَقُلْتُ كَثِيرٌ وَشَهِيرٌ، وَلَكُمْ في النَّاسِ نَظِيرٌ ثُمَّ نَظِير، واللّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِير، وهُوَ الغَنِيُّ وَمَنْ سِواهُ فَقِير:

إذَا قُلْتَ فِي شَيْءٍ غَرِيبٍ وُقُوعُهُ
فَسَلْ عَنْهُ تُلْفِ الدَّهْرَ قَدْ جَاءَهُ قِدْمَا
فَحَاضِرُ مَنْ عَاصَرْتَ إسْوَةُ مَنْ مَضَى
وَأَبْنَاؤُهُمْ لَمْ يَنْقُضُوا لَهُمُ حُكْمَا
وَسَابِقُهُمْ خَيْرٌ عَلى كُلِّ حَالَةٍ
وَأَوْفَرُهُمْ دِينًا وَأَغْزَرُهُمْ عِلْمًا»(١٧)

والظاهر أنّ ابن الخطيب كان متفاعلاً مع الموضوع إلى أبعد الحدود؛ لما له من صلة بوضعه؛ لذلك استطرد مفصّلاً ما أجمله في النصّ السابق قائلاً: «ثُمَّ اخْتَبَرْتُ فَأَلْفَيْتُهُ يَبْلُغُ ثَمانِيةً وَأَرْبَعينَ شَخْصًا، كُلُّها ثَابِتُ الرَّسْمِ، مَعْرُوفُ العَيْنِ، فِي دُوَلِ الإسْلامِ وَالاسْمِ، بِحَيْثُ لَوْ نُسِقُوا مِنْ دُونِ فَصْلٍ مَا بَيْنَ زَمانِنا هَذا المَخْصُوصِ بِالإضافَةِ، وَبَيْنَ آخِرِ زَمَنِ الخِلافَةِ، لَعَمَروا الزَّمانَ عَدَدًا»(١٨).

وأستبعد، انطلاقًا من النصّ المذكور، أن يكون النقاش والمفاوضة قد تداعيا بهذه الصورة المحكيّة في مجلسٍ واحد، فضلاً عن المجلس المذكور، وأذهب إلى أنّ الفكرة كانت مبيّتة، والقضيّة كانت مختمرة في أذهان المعنيّين بما فيهم ابن الخطيب.

وإلاّ فكيف يهتدي بهذه السرعة إلى اختبار التاريخ، وإحصاء أسماء الأمراء والصبيان والحالات التاريخيّة المتكررة.

ولا يقف الأمرُ عند هذا الحدّ، بل يجري عمليّة حسابيّة تعتمد على النسبة والإضافة،

مخطوط إعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام

يؤكد هذا قوله: «فَإِنَّا إِذَا قَسَّمْنا الزَّمانَ المَحْسُوبَ عَلى عَدد الأَسْماء، وَجَعَلْنا المُدَدَ على السَّواء، كانَ حِصَّةُ كُلٍّ واحِدٍ مِنْهُمْ نَحْوًا مِنْ خَمْس عَشَرةَ سَنَةً، وَهِيَ في أَيَّام أَرْبَابِ الدُّوَلِ عَدَدٌ مُتَوَسِّطٌ، وَمِيزانٌ مُقْسِط»(١٩).

ولكي نقف على هذه العملية نعرضها بطريقةٍ حسابية كالآتي:

١ – احتساب الزمن من آخر الخلافة الراشدة إلى زمن التاريخ المعنيّ، وحسابه: من سنة ٤١هـ، بداية ملك معاوية بن أبي سفيان إلى سنة وفاة السلطان المريني عبد العزيز وهي ٧٧٤هـ، فتكون المدّة الزمنية المحسوبة بينهما ٧٣٣ سنة.

٢ – احتساب عدد الأمراء الذين تنطبق عليهم الحالة، معرض المناظرة والبحث. وعدتهم بناء على استقراء ابن الخطيب ٤٨ أميرًا.

٣ – احتساب متوسط المدة الزمنية المحكومة من قبل هؤلاء كل واحدٍ على حدة، وهي كما قدرها ابن الخطيب ١٥ سنة.

وتكون النتيجة بناءً على هذه المعطيات حاصل قسمة ٧٣٣ على ٤٨ الذي يساوي فعلاً ١٥ سنة و٣ أشهر و١٦ يومًا، ويفضل ١٢ يومًا فقط.

وهذا يؤكد أنّ العملية كانت قد حسبت في الذهن من قبل؛ لأنها تتطلب مدة لا بأس بها، كما جرّبنا.

ولما أحسّ ابن الخطيب أن عدّة الأسماء المذكورة، التي ربما أفادت الحصر، كان مبالغًا فيها بالنسبة لمن يستقرىء التاريخ، ويتحرّى التحقيق، خفض العدد إلى حدٍّ معقول ومقبول نسبيًّا، فقال مدافعًا مناضلاً، ومحتجًّا مستظهرًا: «وَإِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ مَنْ يَحْتَجُّ بِعَدَدٍ، أَوْ يَسْتَظْهِرُ في الخِصَامِ عَلى لدَدٍ، أَوْ يَجْرِي فِي الاسْتِكْثَارِ إِلَى مُدَدٍ، لأَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِينَ مِثالاً، قَدِ اسْتَرْسَلَتِ اسْتِرْسالاً، وَتَعَدَّدَتْ فِي أَقْطارِ الإِسْلام يَمِينًا وشِمالاً، مَا مِنْهُمْ إِلاَّ مَنْ أَذْعَنَتْ لَهُ بِحَسَبِ حِصَّتِهِ الأَيَّامُ، وَمَضَتْ عَنْهُ وَعَمَّنْ يَسْتَكْفِيهِ الأَحْكَامُ، وَاسْتَوْفَى وَظَائِفَهُ الإِسْلامُ، وَمَنْ كَانَ عَلى عَهْدِهِ الأَئِمَّةُ الأَعْلامُ، أُولي الأَدْيَانِ والأَحْلام»(٢٠).

ثمَّ يسترسل ابن الخطيب في الدفاع عن موقع الوزير الوكيل، مستظهرًا بكلّ ما أوتيَ من بلاغة وأدب، معتمدًا أسلوب الموعظة، مرجعًا الأمور إلى مشيئة الله، بغية التأثير، يقول: «... وَسُبْحانَ مَنْ لَهُ البقاءُ وَالدَّوامُ، وَبِيَدِهِ الحَلُّ وَالعَقْدُ، وَالنَّقْضُ وَالإِبْرامُ... فَطُوبى لِمَنْ سَلَّمَ في حُكْمِه، وَرَضِيَ بِقَسَمِه، وَعَلِمَ أَنَّ الأَشْياءَ مَفْرُوغٌ مِنْهَا في عِلْمِهِ... وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَخْلُ أَيَّامُها مِنْ شَغَبٍ على غير مرغب، وأنّ زمانه جنَّةٌ بالنسبة إلى غيره.. فيقصر في فضول القول والعمل من سيره، ويقصر الشغل بخاصّة نفسه، والإعداد لرمسه...»(٢١).

ثم طفق ابن الخطيب يعرض أسماء الخلفاء والأمراء الذين اندرجوا في نمط القضية، وانخرطوا في سلك المسألة المعنيّة، مطوّفًا عبر تاريخ الإسلام كله شرقًا وغربًا، بدءًا بالدولة الأموية، والانتهاء بالدولة المرينيّة، مرورًا بجميع الدول والدويلات التي شهدها التاريخ الإسلامي.

إلا أنني لما أعدت إحصاءهم وجدتهم ٤٥

فقط، وهذا يعني أنهم ينقصون عن العدد المذكور بثلاثة، إلا أنّ تشابه الأسماء وتعاقب ذكرهم، والاضطراب الحاصل في أسماء أمراء الدويلات الصغيرة، ودول الطوائف، يرجح إمكان سقوطها بفعل النسخ والانتساخ.

وعلى الرغم من هذا الاستحضار الذي شهد على عارضة الاستظهار، إلاّ أنّ الوزير لم يقنع من ابن الخطيب بذلك، بل طلب منه أن يدوّن في ذلك كتاباً، ويحرّر فيه تقييداً، ينتفع به عند الرجوع إليه، قال ابن الخطيب: «فقالَ: نريد أن يُقيِّد لنا من أحوالهم ما يسّرَه الذكرُ، واستحضَرَهُ الفكرُ، نجعلُه تأنيسًا في الأسمارِ، وراحةً في كدّ الأفكارِ، وتأسياً بمن سلفَ من أهلِ الأمصارِ والأعصارِ»(٢٢).

ولما كان ابن الخطيب يدرك أن المسألة، من حيث النقاش والبحث، تنقسم إلى قسمين، وتنشطر إلى شطرين؛ شقّ نظري، وشق تطبيقيّ تاريخيّ، والشقّان قد لا يلتقيان من الناحية الواقعيّة؛ لغلبة الأمر الواقع، نبّه على أنه سوف يقتصر على الشطر المتعلّق بالواقع والتاريخ.

أما الشطر المتعلق بالجانب النظري الفقهي، فهذا ليس من غرض الكتاب لصعوبته.

وعلى الرغم من ذلك إلاّ أنّه وعده إن أراد أن يحدّثه في هذا الجانب الأخير حدّثه، لكن اشترط عليه أن يكون مناجاةً، وحديثًا خاصًا؛ لما له من خطورة على العامة والخاصة، ولما قد يتضمنه من حقّ، يرفض ما آلت إليه الأوضاع، واستقرت عليه الطباع، في جميع الأصقاع، مع تعاقب الأزمان والأعصار.

يقول ابن الخطيب: «فقلتُ: إذا كان المقصودُ مقصورًا على تاريخٍ يُنقلُ، وأدبٍ يُعقلُ، وأخبارٍ عن واقعٍ في الزمان تقرّر، وكائنٍ قد تواتر خبرُهُ وتحرّر، فسمعٌ وطاعةٌ، وجهدٌ مبذولٌ واستطاعَة، وإن كان القصدُ الاحتجاجَ والاستدلالَ، واستعمالَ طرقِ الجدالِ، فلذلك محلٌّ وموضوعٌ يليقُ بسرِّه ونجواه، وميدانٌ يتعصّبُ فيه ذو الهوى لهواه، أو ينتصرُ ذو البرِّ والتقوى لتقواه»(٢٣).

ثم يعقّب مستدركًا مؤكّدًا أنّ الوزير إنما يريد التدوين في الشطر الأول للقضية؛ لما له من صلةٍ بالواقع والتاريخ، دون الشطر الثاني الذي ظهر له علاقة بالنظر والمقال في عالم الكتب والمثال، يقول: «... وعزمُكُم والحمدُ لله قد ظهرَ عن ذلك غِنَاهُ، وزَهِدَ في لفظهِ ومعناهُ»(٢٤).

تلكم كانت قصة الظروف والحيثيّات التي أنهضت ابن الخطيب إلى كتابة هذا التصنيف في هذه العجالة المثيرة الانتباه.

أما حال ابن الخطيب النفسية في أثناء كتابته، فلا شكّ أنها كانت قلقة؛ إذِ الأمورُ ما انفكّت تتطوّر في سرعةٍ باتجاه وجهةٍ كان يدرك أنها ليست لصالح استمرار هذا الوضع الجديد، ولا لصالح حاله الذي هو فيه.

أكّدَ هذا مباينة روح ابن الخطيب وأحاسيسه ما بين مقدمة الكتاب، وخاتمة الجزء الأول، التي من جملة ما ذكر فيها قوله: «تمَّ الجزءُ الأوّلُ من الكتاب، حسبَ ما بلغَ إليه علمُنا في الوقت... والعُذْرُ عنِ التَّقْصيرِ غيرُ خَفِيٍّ؛ لتعذُّرِ الكُتُب.. وتشتيتِ الفكرِ الذي اقتَسَمَهُ الخَوفُ والأَمانُ، وَكَلالِ الجَوارحِ بعدَ أَنِ اسْتَرَدَّ قُوَّةَ الشَّبيبةِ الرَّحمنُ...»(٢٥).

ثانيًا: «إعمال الأعلام» فحص لمفردات العنوان:

١ - تحقيق عنوان الكتاب:

جرت العادة في التصنيف أن يشار إلى العنوان غالبًا في مقدمة الكتاب، ضمن مسوّغات التأليف وموضوعه وبرنامجه.

ولقد اطردت هذه السُّنَّة في جميع مؤلفات ابن الخطيب تقريبًا، ما عدا تلك التي لم تصل إلينا كما وضعها، أو اعتراها ما اعترى الكثير من المصنفات المنتمية إلى التراث الإسلامي على اختلاف فنونه، بفعل البلى والزمان والإهمال والحدثان.

من المصنفات التي انخرمت فيها هذه السنّة، وتخلفت فيها هذه القاعدة، هذا الكتاب.

وأول عبارة وردت فيها إشارة تسمّي الكتاب بعنوانه كاملاً على التحقيق، عبارة ختم الجزء الأول منه، قال ابن الخطيب: «تَمَّ الجزء الأول من الكتاب المسمى: «بإعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلّق بذلك من الكلام»(٢٦).

وعلى الرغم من خلوّ المقدمة من هذا العنوان، إلاّ أنّ هناك عبارات وردت تتحدث عن مضمون الكتاب جملة، تنسجم مع هذا العنوان الذي ذكر في خاتمة الجزء الأول.

من ذلك قول ابن الخطيب: «ثم ظهرَ لي أنّ الاقتصارَ على القدرِ المتعيّن(٢٧) والوقوف عند محلّ الاحتجاجِ البيّن، شُحّ من مَيسور... وأشفقتُ أنْ آتي بفرعِ خبرٍ يُتَشوّفُ إلى أصله، أو نقطعَ حديثًا يرتاحُ السامعُ إلى وصله، فنسقتُ الأصولَ تبعًا للفروعِ، وجعلتُ الإفرادَ وسيلةً للإتيانِ بالمجموعِ... إلا أنّني متى عثرتُ بالغرضِ المطلوبِ، سامحتُ القلم في الإكثار؛ ليعلم أنّ سواه مذكورٌ بحسب الانجرار»(٢٨).

وبهذه الطريقة يكون الكتاب قد اندرج ضمن نوعٍ من المصنفات، التي دلّت عناوينها على بعضها وليس كلها، وهذا النوع مشهورٌ في فن التصنيف والتأليف في التراث الإسلامي المدوّن في جميع العلوم والفنون والمعارف.

وقد كان ابن الخطيب مدركًا لهذا المرمى، لذلك أشار إلى ذلك في المقدمة، لرفع عقيرة اللوم والانتقاد عن نفسه، يقول: «... ويكونُ اسمُ الكتابِ من باب تسميةِ الشيءِ ببعضهِ، فقد سبق إلى ذلك كثيرٌ ممّن دَوَّن وسمّى، ورمَى بغَرضِه هذا المرمى»(٢٩).

هذا وقد ألمّ المقري في كتابه (نفح الطيب) بتسمية هذا الكتاب، بيدَ أنه اختلف عن العنوان المذكور آنفًا في لفظين حيث سمّاه في موضع: (إعمال الأعلام فيمن بويعَ قبلَ الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجرُّ ذلك من شجون الكلام)(٣٠).

كما أجرى ذكره في موضعٍ آخر هكذا: (إعمال الأعلام بمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام)(٣١).

وذكره أيضًا في موضعٍ آخر من نفحه لكن مختزلاً في (إعمالُ الأعلام)(٣٢).

كما أسقط بعض الألفاظ، وقدّم وأخّر بعضها حينما أشار إليه في كتابه (أزهار الرياض) حيث سماه: (إعمال الأعلام فيمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام)(٣٣).

ولفظ «شجون» الذي أورده المقري في العنوان، ورد ذكره في متن الكتاب؛ إذ قال ابن الخطيب في أثناء حديثه عن سلطنة الملك الأشرف [٧٤٢هـ - ٧٤٦هـ] وهو من شرط الكتاب: «وهو من المشترَطِ في هذا الكتابِ، ومَنْ جلبنا من أجلهِ شجونَ هذا الكلام»(٣٤).

وقال محققا الجزء الثالث من الكتاب، الدكتور أحمد مختار العبادي، والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني في مقدمة التحقيق: «وَرَدَ اسمُ هذا الكتاب في بعضِ النسخِ بالصِّيغةِ الآتية: «إعلام الأعلام»، وهي في نظرنا أصحّ من ناحية السياق والمعنى، ولكنّا آثرنا كتابتها «إعمال الأعلام» تمشّيًا مع الاستعمال السائد في معظم الكتب»(٣٥).

وهذا الترجيح في تقديري متهافتٌ وغيرُ دقيق، إضافةً إلى ما فيه من تعميم لا يسلم به الضبط والتحقيق؛ إذ لم أقف إلا على نسخة واحدة، وهي النسخة التي تحمل رقم ٨٥٥ كُتب على صفحتها الأولى: «كتاب الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام لابن الخطيب السلماني».

وخطّ الكتابة حديثٌ جدًّا، اعتمد على نص عبارة أحد كتّاب الديوان، يعقّب على شهادة تحبيس أخطأت في نسبة الكتاب، حيث جاء في نصّ العبارة: «الحمد لله وحده، ليس هذا الكتاب لابن عذاري، كما ذكر الشاهدان أعلاه، إنما هو الإعلام بمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام»، لابن الخطيب السلماني رحمه الله.

وأما ابن عذاري إنما اسم كتابه «البيان المعرب عن أخبار ملوك المغرب».

قاله من يعرف الكتابين أَتَمَّ معرفة وأكملها، عبد ربّه تعالى، كاتب الديوان العليّ بالله، سعيد بن أحمد المدعو «الشْلِيح» لطف الله به، آمين»(٣٦).

والذي أكد أن الذي كتب العنوان بخطّ بارز على هذه النسخة من المعاصرين إضافةً إلى قرينة نوع الخط، لم يتبيّن الخط فقرأ لفظة «بمن» «فيمن».

وهذا أكدّ أن كاتب الديوان المذكور، على الرغم من ادّعائه المعرفة بالكتاب، أخطأ هو الآخر في ضبط عنوان الكتاب، فتكون المعرفة التي ادّعاها مقصورة على معرفة صاحب الكتاب، قاصرة عن معرفة عنوان الكتاب.

وربما رجّح هذا المذهب الذهول والاتباع؛ إذ لم يخلُ التراث الإسلامي من مصنّفاتٍ تبتدىء عناوينها بلفظ «الإعلام».

والذي أطمئن إليه موقنًا، بعد هذا الذي ذكرته، أنّ أصحّ صيغة من بين جميع الصيغ المذكورة الصيغة التي ذكرت في جميع متون النسخ، في خاتمة هذا الجزء الذي نحققه، وهي: «إعمالُ الأعلامِ فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وما يتعلّق بذلك من الكلام».

والعنوان بهذه الصيغة يتألف من أربع مكوناتٍ دلالية ينبغي تعيينها، ثم بيانها، إمعانًا في تحقيق صحة العنوان، بغية الوصول أخيرًا إلى معرفة ما إذا كان هذا العنوان مطابقًا لمضمون الكتاب أم لا.

أما المكوّنات الدلالية التي حصرتها في أربعة فهي:

١ - إعْمالُ.

٢ - الأَعْلامِ.

٣ – مَنْ بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

٤ – ما يتعلّق بذلك من الكلام.

أعرض لها بالتحليل والمناقشة من خلال ما يأتي:

١ – «إعْمَال» :

ورد هذا اللفظ في جميع المخطوطات هكذا «اعمال»، مهملاً دون همز، أو ضبط، وورد على العكس من ذلك مهموزًا مفتوح الأول في معظم المظان والمراجع المطبوعة طباعة حديثة، إن لم نقل كلها.

ولا ندري على أيّ أساسٍ استند أصحابها، اللهم إلاّ على عدم التدقيق والتحقيق، ذهولاً عن المصطلحات أو جهلاً بها، وزكّى ذلك ذيوع لفظ «أعمال» الذي هو جمع «عمل»، وغمور لفظ آخر على صورته من حيث الرسم، يلتبس به إذا أهمل فيه الهمز، ونعني به مصطلح «إعْمال».

وهو اللفظ الذي نرجح أنّ ابن الخطيب قصده؛ لأنه عوّدنا في كتاباته ألا يلقي المصطلحات والألفاظ على عواهنها جزافًا، وهو الفقيه الأديب، الذي ألّف في الفقه (مُثْلَى الطَّرِيقَةِ في ذَمِّ الوثيقة)، وفي علم أصول الفقه ألفية بعنوان (الحُلَل المرقومة في اللمع المنظومة)، تصدى الفقيه ابن خلدون لشرحها.

وليس ببعيد موضوع الفقه والأصول عن هذا التدوين الذي اندرج في التاريخ في ظاهره، فالكتاب وليد قضية سياسيّة، طرح بموجبها سؤالٌ له علاقة بفقه السياسة الشرعيّة، حاول ابن الخطيب أن يجيب عنه من خلال هذا التوليف، فما معنى اصطلاح «إعمال» الذي نرجحه إذًا؟

الإعمال من الفعل «أعمل»، جاء في لسان العرب: «وَأَعْمَلَ فلانٌ ذِهْنَهُ في كَذا وَكَذا؛ إِذَا دَبَّرَهُ بفهمه، وَأَعْمَلَ رَأْيَهُ وَآلَتَهُ وَلِسَانَهُ»[٣٧].

ولا تخفى علاقة هذه الدلالة بموضوع الكتاب.

أما من الناحية الاصطلاحية، فللفظ «إعمال» دلالة لا ينأى مفهومها أيضًا عن منطوق دلالة عنوان الكتاب؛ إذ له علاقة وطيدة بمبحث من أهم المباحث الأصولية وأصعبها وأخطرها، ونعني به مبحث «التعارض والترجيح» في الأدلّة الشرعيّة.

ولمزيدٍ من الإيضاح، وإن كان هذا ليس من غرض الكتاب، نلمّ ببعض من ذلك اعتمادًا على الإمام الشاطبي في «موافقاته»، يقول في التعارض: «كلّ من تحقّق بأصول الشريعة فأدلّتها عنده لا تكاد تتعارض، كما أنّ كلّ من حقّق مناطَ المسائل فلا يكاد يقف في متشابه؛ لأنّ الشريعة لا تعارض فيها ألبتّة... لذلك لا تجد ألبتّة دليلين أجمع المسلمون على تعارضهما، بحيث وجب عليهم الوقوف، لكن لمّا كان أفرادُ المجتهدين غير معصومين من الخطأ أمكن التعارض بين الأدلة عندهم»[٣٨].

وتعارض الأدلة عند المجتهدين نوعان:

١ – تعارض يرفعه الجمع بينهما كالعام والخاص، والمطلق والمقيّد، وما إلى ذلك[٣٩].

٢ – تعارضٌ لا يمكن رفعه بالجمع بينهما؛ لأنّ محل الخلاف دائرٌ بين طرفي نفيٍ وإثبات ظهر قصد الشارع في كلٍّ واحدٍ منهما[٤٠].

ولإعمال هذا النوع دفعًا لتعارض النفي

والإثبات حتى لا تتعطّل وظيفة كثير من النصوص، اهتدوا إلى عملية «الترجيح»، إمّا بوجهٍ من وجوه الجمع، وإما بإبطال أحد المتعارضين(٤١).

وذلك من خلال أحد الأمرين:

١ - «إما الحُكْمُ على أحد الدَّليلين بالإهمال».

٢ - وإمّا «الحكم عليهما بالإعمال»(٤٢).

ولا تخفى علاقة هذا الاصطلاح بموضوع الكتاب ومسألته التي تعكس تعارض النقاش والأدلة بين نافٍ ورافض لبيعة الصبيّ، وبين مثبت قابل لبيعته، وكيف أنّ الفقه والتاريخ حكم بإعمال الدليلين المتعارضين دفعًا للتعطيل.

ذلك لبّ القضية، وذلك فحوى اللفظ ودلالة الاصطلاح الذي ذهل عن حقيقته كثيرٌ من الدارسين والباحثين.

ثمّ إنّ هناك دليلاً آخر نستصحبه لتأكيد أنّ الضبط الصحيح للفظ هو: «إِعْمَال» وليس «أَعْمَال»، وهو أن شبه جملة العنوان مع المركب الإضافي «إِعْمَالُ الأَعْلامِ» تقتضي البدء بقوله: «فِيمَنْ».

أما «إعلام الأعلام» فتقتضي قوله: «بِمَنْ».

وأما «أَعْمالُ الأَعْلامِ»، فإنها وإن اقتضت قوله: «فيمَنْ»، فإن السياق العام لمضمون الكتاب بجميع مكوّنات قضيته لا يسلم بصحة ذلك.

٢ - «الأعلامِ»:

هذا اللفظ وقع فيه اللبس أيضًا، عند من أسقط اللفظ الأول من العنوان، فلا يستقيم العنوان بعد ذلك إلاّ بكسر الهمزة؛ ليفيد الإخبار والإعلام.

أمّا الذين احتفظوا باللفظ الأول، سواء كسروه أو فتحوه، فلا يستقيم المعنى إلا بفتح همز «الأَعْلامِ»، وكذلك الأمر بالنسبة للذين صحّفوا أو حرّفوا لفظ: «إعمال»، وضبطوه «إعلام».

أما لفظ «الأَعْلام»، فلا يخفى أنه مفرد «عَلَم»، ويعني لغةً: المَنَارُ، والجَبَلُ، والرّاية.

و«الأَعْلامُ» اصطلاحًا: «سَاداتُ القَوْمِ وَأَشْرافُهُمْ»(٤٣).

أمّا «الأعلام» في التراث العربي الإسلامي، فهم الرجال والنساء الذين اشتُهروا في الأمة الإسلامية، سواءٌ كانت الشهرة راجعة إلى السياسة والسيادة والرياسة، أم إلى العلم والمعرفة والثقافة، أم إلى الديانة والعبادة والزهادة.

لكنّ مصطلح «الأعلام» بالنسبة لابن الخطيب، كما يدلّ عليه استقراء الكتاب، فهم أعلام الأمة من العلماء والعُبّاد على اختلاف أنواعهم وطبقاتهم المرتدة إلى أنواع العلوم والفنون والطرائق والمذاهب المختلفة، التي تمخّض عنها تراكم الخبرات في التعاطي مع الإسلام علمًا وعملاً على تعاقب الأزمنة وتباين الأمكنة.

ولقد تأكّد هذا المدلول في مواضع متعدّدة من الكتاب على امتداده بأجزائه الثلاثة، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

موقع السؤال الجوهري الذي طرحه الوزير النائب على ابن الخطيب، وكان بذرة أثمرت هذا الكتاب، وهو قوله: «هل تدري أنه ذهب هذا المذهبَ من قبلنا دولةٌ من دول الإسلام

مشتملةً على الأعلام، وحملةِ السيوف والأقلام»(٤٤).

حينما أحصى عدد الأمراء الذين بويعوا بحال الصغر، وكانوا كثيرين عقب على ذلك قائلاً: «... قد استرسلت استرسالاً، وتعددت في أقطار الإسلام يميناً وشمالاً، ما منهم إلاّ من أذْعَنت له بحسب حصّته الأيامُ، ومضت عنه وعمّن يستكفيه الأحكامُ، وخفقت فوقه الأعلام، واستوفى وظائفه الإسلام، ومن كان على عهده الأئمة الأعلام [أولي] الأديان والأحلام...»(٤٥).

إنه كلما انتهى من ذكر أخبار الأمير الذي بويع قبل الاحتلام، أشار إلى من عاصره من الأعلام، وربما ذكر أحياناً الأعلام الذين شهدوا عقد البيعة مثلما فعل عقب جلبه لنصّ العهد الذي عقد الوليد بن يزيد الأموي بموجبه البيعة لابنيه: الحكم ثم عثمان، حيث قال ابن الخطيب: «وكان على ما ذكرهُ المؤرخون ممّن باشر التعريفَ به في دولة اليزيد هذه العهود من الأعلام...»(٤٦).

وبعد سرده لأسماء طائفة من الأعلام عقّب قائلاً: «ولولا أن يطول الكتاب لجلبنا أسماء آلاف من الفُضلاء والعلماء، كانوا على عهد ذلك رحمةُ الله عليهم أجمعين»(٤٧).

وعلّق أيضًا على أخذ هارون الرشيد لأبنائه البيعة قائلاً: «وكان التعويلُ فيمن تقلّد أمرهم وعقد عهدهم، على من ينوبُ عنهم في أمور المسلمين، وكان على ذلك العهدُ بالأقطار التي أُخذت فيها على النّاس بيعَةُ الخاصّة والعامّة، وجلّى على صواب هذا النّظر، أو خطّأه جملةٌ من العلماء والفقهاء والمحدّثين، بحورٌ زاخرة، وأعلامٌ فاخرة، ورؤساء دنيا وآخرة...»(٤٨).

وقال أيضًا بعدما عرض لتاريخ المماليك في مصر، من عهد شجرة الدرّ إلى زمانه: «وكان على عهد هؤلاء المماليك ما بين شجرة الدُّر إلى أيام من بعدها من الأمراء الغرّ، الذين أُقيم بها وبهم في تلك البلاد رسم الإسلام، وعلى عهد تقديم الملك النّاصر وأخيه قبل الاحتلام، وعلى عهد تعاقب ولده من بعده، تعبث فيهم أكفُّ الاحتكام، وتُسرعُ إليهم بالمُداولة الأيّام، بحورٌ زاخرة من العلماء الأعلام، والمحدّثينَ المرجوع إليهم في الأحكام، والمفتين في الحلال والحرام، فما اشتهر عن أحدٍ منهم هنالك أنه أنكر عقدًا، ولا بذل في تغيير شيءٍ من الواقع جُهدًا، ولا ضرب عمرو منهم زيدًا، بل اقتصروا على شؤونهم، وتبيين فنونهم، والاشتغال بما يعنيهم، وهم طبقاتٌ مع الزمان، وأعقابٌ تخلف من سلف بإحسانٍ من أهلِ مصر والإسكندرية، والشام، والحجاز، وهي أقطار دولتهم وأقطابِ مملكتهم»(٤٩).

٣ - فيمن بُويع قبلَ الاحتلام :

هذه العبارة أيضًا من اللبنات الأساسية في العنوان، بل هي حجر الزاوية في بناء الكتاب؛ لأنه من أجل إثباتها تاريخيًا وضع الكتاب، وإن لم تستأثر من حيث حجم المادة المجلوبة في شأنها بالحظ نفسه الذي استأثرت به وقائع التاريخ في عمومها؛ لتفرق المعنيين بالدراسة، وتوزع أسمائهم على رقعة الحقل التاريخي الممتد، وكذلك لقلّة عددهم بالنسبة إلى عددِ الخلفاء والملوك والسلاطين، والأمراء الذين تولّوا أمر المسلمين عبر التاريخ كله.

لتأكيد صلة هذه العبارة بمضمون الكتاب طولاً وعرضًا، تنبيهًا وذكرًا، تكرّرت في أكثر من موضع، في سياقاتٍ متباينة بعض الشيء، أشير إلى بعضٍ منها:

وردت الإشارة إلى ذلك في المقدمة عند بسط برنامج الكتاب ومحتوياته، حيث قال، عقب سرده لأسماء جميع ملوك الدولة بالمشرق «... ونعيّن في هذه الدولة المروانية ممن اجتُلب الحديثُ فيهم، وهم المبايَعون قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ثلاثة»(٥٠).

وقال أيضًا عقب سرده لأسماء الخلفاء من بني العباس: «وفي هذه الدولة العباسية ممّن بويع قبل الاحتلام...»(٥١)، ثم ذكر أسماءهم.

وكذا فعل مع العبيديين الشيعة، والمماليك بعد الأيوبيين(٥٢).

وكذلك الأمر بالنسبة لتاريخ الأندلس، وتاريخ المغرب اللذين تضمنهما الجزءان الثاني والثالث.

ووردت في المقدمة أيضًا الإشارة إلى مضمون هذه العبارة أيضًا بصيغةٍ متباينة مثل قوله: «وهو ممن شرطنا من المبايَعين بحال الصّغر»(٥٣).

ومثل قوله: «ومن هؤلاء... ممن بويع في حدود الاحتلام وقبله...»(٥٤).

كما ورد مضمون هذه العبارة في ثنايا الكتاب من بدايته إلى نهايته بصيغ متباينة أيضًا، مثل قوله: «ذكرُ أخذِ الوليدِ البيعة لابنيه الحكم وعثمان، وتصيير أمرِ المسلمين إليهما، وهما صبيّان صغيران لم يبلُغا الحلم»(٥٥).

وقال عقب سرده لعقد بيعة الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد الأموي: «وتمّت هذه البيعة لهذين الولدين الصغيرين، وكانا لم يقاربا الاحتلام...»(٥٦).

وقال في موضعٍ آخر: «وإنّما جلبنا هذا؛ ليعلم الواقف عليه اعتدادَ القومِ يومئذٍ ببيعة الولد الصغير، بحيث إنّ بني مروان بنوا الطلب بحقّه في الخلافة لشعرٍ قاله الصبيّ»(٥٧).

وقال في موضعٍ آخر أيضًا: «وكما أن اليزيد بن عبدالله من بني مروان، أوّل من أخذ البيعة لولده، وهو صبيٌّ غير محتلم، من بعدِ يزيد بن معاوية، ثم أخذ البيعة لابنيه وهما صغيران، فكذلك الرشيدُ كان أوّلَ بني العبّاس الذين سلكوا ذلك المسلك، ثم تبعه من بعده»(٥٨).

وقال في موضعٍ آخر كذلك: «وكان المُعتزّ والمُؤيّدُ صبيين لم يحتلما... وهما من شروط هذا الكتاب»(٥٩).

وقال في الحاكم بأمر الله العبيدي: «وكانت سنّ الحاكم يوم وليَ إحدى عشرة سنة، وهو ممّن جلبنا التاريخَ بسببه ممّن بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام»(٦٠).

وقال في السلطان المملوكي شعبان، وكان معاصرًا له: «وهو من شرط هذا التقييد فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام»(٦١).

إلى غير ذلك من الإشارات الدالّة على مطابقة المضمون لهذه العبارة، التي تشكّل عنصرًا مهمًا في العنوان، اقتصرت على بعض الإشارات التي ذكرت في هذا الجزء، الذي أحققه، أما الإشارات الأخرى، وهي كثيرةٌ أيضًا، فقد ذكرت في الجزأين الآخرين، والجزء الثاني خاصّة، أغفلتها اختصارًا.

٤ - **ما يتعلّق بذلك من الكلام :**

هذه أيضًا من العبارات المختصرة الدالّة على جانبٍ مهم من جوانب الكتاب، فإذا كانت عناصر العنوان الأخرى سدى الكتاب، ولحمته، فهذا العنصر نسيج الكتاب كله، وإذا كانت العناصر الأخرى أعمدة بناء الكتاب، فهذا العنصر هو اللبن الذي وصل بينهما ولأم.

فكما هو معلوم بداءة وانطلاقًا من حيثيات تأليف الكتاب، أراد طالب التأليف تصنيفًا يختصّ بتاريخ الملوك الذين بويعوا وهم دون سنّ الاحتلام.

ولما كان هؤلاء الملوك متفرّقين عبر التاريخ غير متناسقين مطردين، وكان عرضهم على هذه الحال فيه كثيرٌ من الإخلال، اضطُر ابن الخطيب إلى عرض تاريخ الإسلام كله، مستقرئًا وقائعه وأحواله في إيجازٍ غير مخلّ، حتى إذا ما وقف على مناط التأليف، ومظنة التصنيف، أفاض نوعًا ما وأطال.

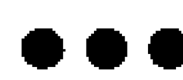
تجلّى هذا من بداية مقدمة الكتاب، حيث قال: «ثمّ ظهر لي أن الاقتصار على القدر المُتعيّن، والوقوف عند محلّ الاحتجاج البيّن، شُحٌّ من مَيْسور، وإقناعٌ من القليل بموفور، وأشفقتُ أنْ آتيَ بفرع خبرٍ يُتشوّف إلى أصله، أو نقطع حديثًا يرتاحُ السامع إلى وصله، فنسقتُ الأصول تبعًا للفروع... إلاّ أنّني متى عثرتُ بالغرض المطلوب، سامحتُ القلمَ في الإكثار، ليُعْلم أنَّ سواه مذكورٌ بحسبِ الانْجرار»(٦٢).

وقال أيضًا معتذرًا عن مسلكه هذا: «وإنّي جَنَحْتُ فيما اجتلبت، وجئتُ بأكثرَ ممّا طُلبت، ولم أخشَ في ارتكاب هذا الأمر وامتطائه قولهم زيادةُ الأخرقِ أكثرُ من عطائه، فعسى أن نكونَ ممَّنْ اسْتُهْدي زهرة غيضة، فأهدى من أجلها روضة، وممن استُمنح من البستان نفحةً، فسلَّم فيها دوحةً، وممّن طُولِب بسريّةٍ، فاستعرض جيشًا لُهامًا، وممّن استُعير مُشْطًا، فسَوَّغ حمّامًا»(٦٣).

وقال بين يدي شروعه في عرض تاريخ الدولة العباسية: «ونحنُ نُلْمِعُ بذكر الملوك العباسيّين على سبيل الاختصار، ثمّ نُسرّح عنانَ القول عند الوصول إلى غرضنا»(٦٤).

وعلّق أيضًا على جلبه نُتفًا من تاريخ بني حمدان دون إطالة، بما أكّد معنى التعلّق والانجرار الحاصل في الكتاب، يقول: «وإنّما لم نُمْعِن القولَ في دولةِ آلِ حَمْدان؛ لأنّ أيّامهم من المعنى الذي جلبنا إليه هذا القصص، ولم نُرِدْ إخلاء الكتاب من إلمامِ محاسنهم، فعرّجنا على نبذةٍ من ذكرهم، بحسب الانجرار في أذيال الدولة العباسية»(٦٥).

كما أفاضَ أيضًا شيئًا ما في الجزء الثاني من الكتاب، واعتذر عن ذلك قائلاً: «وقد وَفَّيْنا ببعضِ ما أردناه من هذا القسم، وسامحْنا القلمَ فيه لكونِ الوطن الواقع فيه التاريخُ وَطَنَنا الذي لا نُعذَرُ به في جهل المشهور من أحداثه»(٦٦). ●



الحواشي

١ – مقدمة التحقيق: ٢/ص ج.
٢ – إعمال الأعلام: ١٢٤/١.
٣ – إعمال الأعلام: ٢/ ٢٩٥ – ٢٩٦.
٤ – إعمال الأعلام: ٣٠١/٢.
٥ – إعمال الأعلام: ٤/١.
٦ – إعمال الأعلام: ٤/١.
٧ – إعمال الأعلام: ٩/١.
٨ – إعمال الأعلام: ١٠/١.
٩ – إعمال الأعلام: ٥٥/١.
١٠ – إعمال الأعلام: ١٠/١.
١١ – إعمال الأعلام: ١٠/١.
١٢ – إعمال الأعلام: ٢٠/١.
١٣ – إعمال الأعلام: ١/ ٢٦ – ٢٧.
١٤ – إعمال الأعلام: ١/ ٢٨ – ٣٠.
١٥ – إعمال الأعلام: ٣٠/١.
١٦ – إعمال الأعلام: ٣٠/١.
١٧ – إعمال الأعلام: ٣٠/١.
١٨ – إعمال الأعلام: ٣١/١.
١٩ – إعمال الأعلام: ٣١/١.
٢٠ – إعمال الأعلام: ١/ ٣١ – ٣٢.
٢١ – إعمال الأعلام: ٣٢/١.
٢٢ – إعمال الأعلام: ٤٢/١.
٢٣ – إعمال الأعلام: ٤٣/١.
٢٤ – إعمال الأعلام: ٤٣/١.
٢٥ – إعمال الأعلام: ٧٦٢/١.
٢٦ – إعمال الأعلام: ٧٦٢/١.
٢٧ – القدر المتعيّن: يعني الاقتصار على تاريخ الأمراء الذين بويعوا قبل الاحتلام.
٢٨ – إعمال الأعلام: ٤٣/١.
٢٩ – إعمال الأعلام: ٤٤/١.
٣٠ – نفح الطيب: ٧/ ١٠٠ – ١٠١.
٣١ – نفح الطيب: ١٨٠/٥.
٣٢ – نفح الطيب: ٢١٩/٦.
٣٣ – نفح الطيب: ١٩٠/١.
٣٤ – إعمال الأعلام: ١/ص.
٣٥ – إعمال الأعلام: ٣/ ص أ.
٣٦ – ص ١، من المخطوط رقم ٨٥٥.
٣٧ – ٣١٠٨/٤، مادة «عمل».
٣٨ – الموافقات: ٤/ ٢٩٤ – ٢٩٥.
٣٩ – الموافقات: ٤/ ٢٩٤ – ٢٩٥.
٤٠ – الموافقات: ٢٩٥/٤.
٤١ – الموافقات: ٤/ ٢٩٨ – ٢٩٩.
٤٢ – الموافقات: ٤/ ٣٠٠ – ٣٠١ وما بعدها.
٤٣ – لسان العرب: ٣٠٨٥/٤، مادة «علم».
٤٤ – إعمال الأعلام: ٣٠/١.
٤٥ – إعمال الأعلام: ٣٠/١.
٤٦ – إعمال الأعلام: ٢٤٢.
٤٧ – إعمال الأعلام: ٢٤٦/١.
٤٨ – في الدولة العباسية: ينظر: ص ٢٤٢ أيضًا.
٤٩ – إعمال الأعلام: ٧١٩/١.
٥٠ – إعمال الأعلام: ٤٧/١.
٥١ – إعمال الأعلام: ٤٧/١.
٥٢ – إعمال الأعلام: ١/ ٤٨ – ٤٩.
٥٣ – إعمال الأعلام: ٧٠/١.
٥٤ – إعمال الأعلام: ٧٢/١.
٥٥ – إعمال الأعلام: ٢٢٩/١.
٥٦ – إعمال الأعلام: ٢٤٠/١.
٥٧ – إعمال الأعلام: ٢٥١/١.
٥٨ – إعمال الأعلام: ٢٧٥/١.
٥٩ – إعمال الأعلام: ٣٣٩/١.
٦٠ – إعمال الأعلام: ٥٢٦/١.
٦١ – إعمال الأعلام: ٤٢/١.
٦٢ – إعمال الأعلام: ٤٤/١.
٦٣ – إعمال الأعلام: ٤٤/١.
٦٤ – إعمال الأعلام: ٢٥٥/١.
٦٥ – إعمال الأعلام: ٤٧٨/١.
٦٦ – إعمال الأعلام: ٣٣٨/٢.

Afaq Al Taqafah Wa Al Turat

A Quarterly Journal of Cultural Heritage

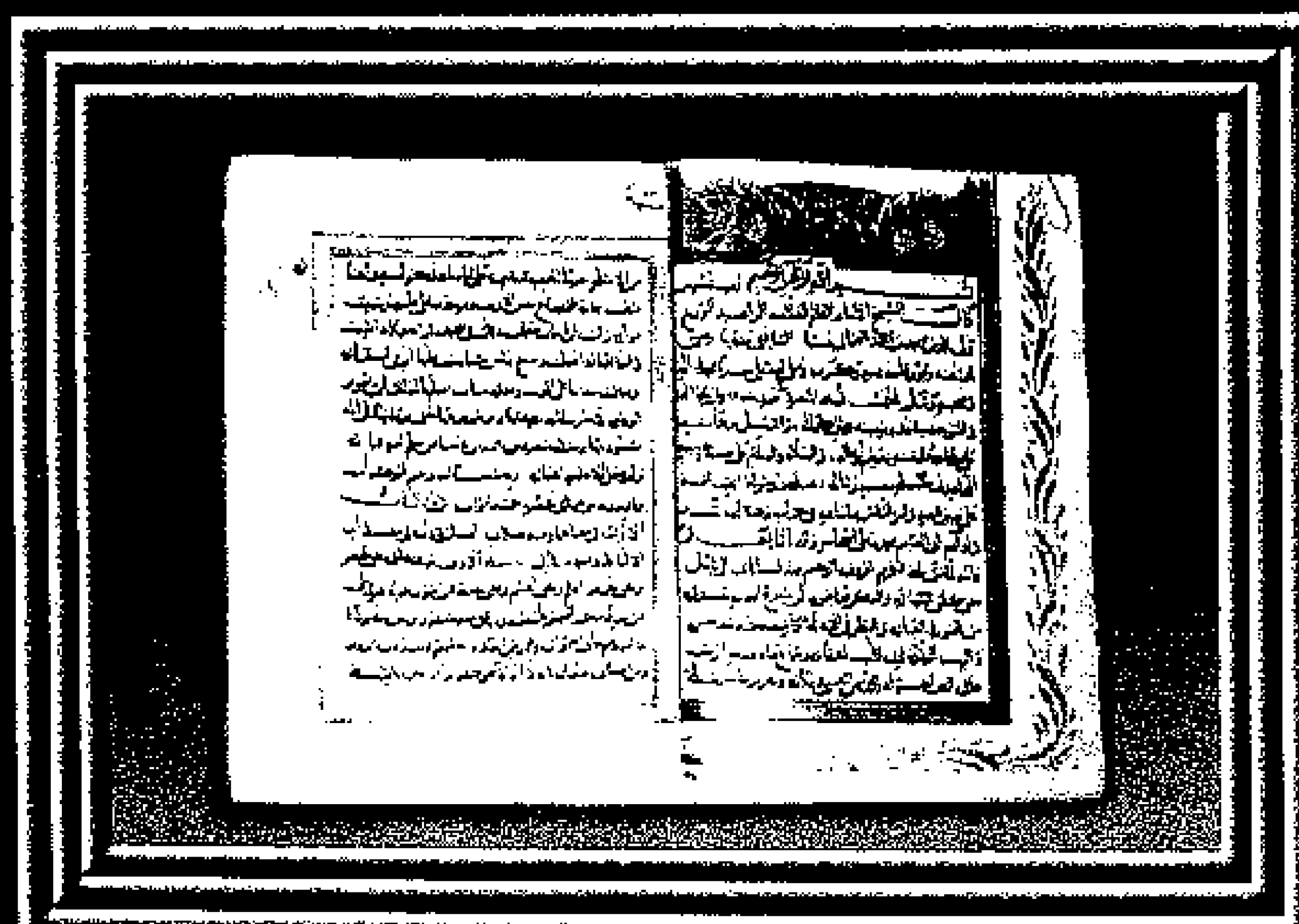


Published by The Department of Researches and Studies - Juma Al Majed Centre for Culture and Heritage

Dubai - P.O. Box: 55156
Tel.: (04) 2624999
Fax.: (04) 2696950
United Arab Emirates

Volume 8 : No.29 & 30 - Rabi'I 1421 A.H. - July 2000

COVER



A Collection of Manuscripts begins with: Sharh Kalimatai Ashahada, by the Author Muhammad Al Othmani, died in 774 A. H., Hand-Written by Ali Al Nimrawi in 773 A. H.,while the author still alive.

EDITORIAL BOARD

EDITOR-IN-CHIEF
Dr. NAJIB ABDUL WAHAB

EDITING DIRECTOR
Dr. MOHAMMAD ABDULRAHIM SULTAN AL OLAMA

EDITING SECRETARY
Dr. IZZEDEEN BIN ZAGHIBAH

EDITORIAL BOARD
Dr. TAHA YASSEN AL KHATEEB
Dr. MOHAMMAD AHMED AL QURASHI
ABDULQADIR AHMED ABDULQADIR

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE

Countries	U.A.E.	Other
Institutions	100 Dhs.	130 Dhs.
Individuals	60 Dhs.	75 Dhs.
Students	40 Dhs	75 Dh.s

Articles in this magazine represent the views of their authors and do not necessarily reflect those of the centre or the magazine, or their officers.



نموذج من الورق الرخامي (الإبيرو)

Sample of Marbling Paper

Āfāq Al Ṯaqāfah Wa Al Turāṯ

A Quarterly Journal of Cultural Heritage

Volume8 : No. 29 & 30 - Rabi'I 1421 A.H. - July 2000



مجموع أوله: شرح كلمتي الشهادة للشيخ محمد العثماني المتوفى ٧٧٤هـ - نسخة كتبها علي النمراوي سنة ٧٧٣هـ بحياة المؤلف

A Collection of Manuscripts begins with: Sharh Kalimatai Ashahada, by the Author Muhammad Al Othmani, died in 774 A. H., Hand-Written by Ali Al Nimrawi in 773 A. H.,while the author still alive.

Published by:
The Department of Researches and Studies
Juma Al Majed Centre for Culture and Heritage